تاريخ الترسّل النثري عند العرب

في صدر الإسلام

تأليف

الدكتور محمود المقداد



الكتاب ٨٤١
الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م

سورية - **دمشق** - برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد - ص.ب (٩٦٢)
برقياً: فكر - س.ت ٢٧٥٤ هاتف ٢٣٩٧١٧، ٢١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

الصف التصويري : دار الفكر بدمشق
الإفشاء (أوفست) : المطبعة العلمية بدمشق

١٩٥٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ الترسل النثري عند العرب
في صدر الإسلام



المقدمة

نتابع في هذا البحث دراسة (أدب الترسُّل) من حيث وقفنا في كتابنا السابق الذي نُشِر بعنوان : (تاريخ الترسّل النثري عند العرب) ، إذ كنا قد تطرقنا فيه إلى جملة من المقدمات التمهيدية عن النثر الفني العربي عامة ، وجملة من المفاهيم الأساسية المتصلة بالنوع الترسلي منه خاصة ، ثم عرجنا على دراسة واقع الترسل النثري في الجاهلية وحقيقة الرسائل التي كانت مسيطرة إبانها .

ونتناول هنا دراسة الترسل في المرحلة المتممة للعصر الجاهلي والمرتبطة به ارتباطاً قوياً نظراً لكونها امتداداً طبيعياً له ، ألا وهي فترة صدر الإسلام التي يفترض أنها تبدأ نظرياً بنزول الوحي على النبي ﷺ ، سنة ١٣ قبل الهجرة ، وبدء الدعوة الإسلامية التي كانت صفحة جديدة تماماً في حياة العرب والعالم القديم في آن معاً ، كما أن هذه الفترة تنتهي حتماً بمقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين في رمضان من سنة ٤٠ هـ ، أو إن شئنا تنتهي بعام الجماعة وقيام معاوية سنة ٤١ بشؤون الخلافة وابتداء العصر الأموي .

وكنا نستهدف من هذه الدراسة كشف ما طرأ على حياة هذا النوع النثري من تغيرات أدت به إلى الانتقال من واقعه السابق في الجاهلية نقلة نوعية حقيقية إلى واقعه الجديد ، خدمة لقضايا الدعوة الجديدة وتطوراتها ، واستجابة للحاجات الإدارية والتنظيمية والفكرية والحربية في ظل الدولة العربية الإسلامية الجديدة التي كانت قد نشأت في المدينة المنورة بعد هجرة النبي ﷺ وصحبه إليها .

وقد حاولنا تغطية النثر الترسلي في فترة صدر الإسلام هذه ـ وهي الفترة التي شهدت ازدهاراً مفاجئاً وقوياً بفضل ظهور الإسلام فيها ـ بأربعة أبواب : كان أولها بعنوان (الكتابة والكُتّاب في صدر الإسلام) ، وقد عقدناه هنا تمهيداً لدراسة واقع الرسائل وازدهارها في تلك الفترة استجابة لما هو معروف من ارتباط وثيق بين معرفة الخط والقراءة وتفشّي الكتابة في الناس مع كثرة أدواتها ووسائلها ، وبين إقبال الناس على كتابة الرسائل وتبادلها عامّةً وخاصّةً وعلى مختلف المستويات وفي مختلف الظروف والمناسبات . كما أننا رصدنا في هذا الباب ازدهار الحركة العلمية التي بدأت منذ اللحظة الأولى لتدوين الوحي ثم تطورت قدماً بجمعه في زمن أبي بكر رضي الله عنه وتوحيد نسخته في المصحف الإمام زمن عثمان رضي الله عنه . ودعانا ذلك إلى رصد كُتّاب النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وعمّالهم ، والبحث في ازدهار كتابة الرسائل وتبادلها بين الناس في تلك الفترة .

ثم وقفنا الباب الثاني على دراسة (موضوعات الترسّل في صدر الإسلام) ، فوجدناها تدور عموماً على أربعة موضوعات أساسية هي : الدعوة إلى الإسلام ، والردة ، والفتح ، والفتنة . وقد ظهرت تباعاً في حياة النبي ﷺ وعهود خلفائه الراشدين ، وهي تظهر بلا شك تطور الحياة الاجتماعية العامة وترصد علاقاتها رصداً دقيقاً . وقد عمدنا إلى دراسة التفريعات الموضوعية البارزة من كل موضوع أساسي من تلك الموضوعات ، لأن ذلك يعين في رسم صورة دقيقة للوقائع التاريخية وما يتصل بها من سياسة وحرب واقتصاد وإدارة وفكر .

ودرسنا في الباب الثالث تحت عنوان (الخصائص الفنية للترسل في صدر الإسلام) جملة من القضايا المتصلة بأربعة من الموضوعات هي : المنهج ، والأسلوب ، والمعاني ، واللغة .

وختمنا البحث بباب رابع تناولنا فيه (أبرز قضايا الترسّل في صدر الإسلام) من خلال موضوعين أساسيين : الأول تكوين الكاتب المترسل في تلك الفترة ، بوصفه منتج النص الترسلي ومبدعه . والثاني الآثار الترسلية بوصفها لبّ البحث وموطن ظهور الإبداع الفني ولوحته المعبرة عن نزعة هذا النوع النثري إلى الفنيّة . وهكذا تطرقنا إلى طبيعة تكوين ذلك الكاتب من النواحي الثقافية ، والمهنية ، وطريقة كتابته النصوص عن طريق الإملاء عليه من قبل ذوي الشأن وأولي الأمر أو عن طريق الإنشاء الذاتي المعبر عن الأفكار بأسلوب شخصي خاص . كما تطرقنا إلى دراسة الآثار الترسلية التي كانت قد أنتجت في تلك الفترة أو التي وصلت إلينا عبر القرون على أنها وثائق تاريخية وأدبية معاً ذات قيمة كبيرة ، فعمدنا إلى دراسة قضية كثرتها ، وسبل روايتها عبر الزمان إلى أن وصلت إلينا ، وطرق حفظها واستمرارها وأسباب زوالها واندثارها . وتناولنا بالدرس قضية النحل والتوثيق في هذه الآثار ، فوضعنا أيدينا على جملة من دواعي الوضع وأنواعه والمظاهر الدالة عليه والكاشفة له ، وقمنا بدراسة تطبيقية على مجمل النصوص التي بين أيدينا ، فوجدنا أنها تنقسم ثلاثة أقسام : نصوص صحيحة لا يطعن في صحتها ، ونصوص منحولة ظاهرة الوضع ، ونصوص لا يمكن الجزم بصحتها ولا بنحلها ووضعها حتى تظهر لنا أدلة قوية ترجح هذا الحكم أو ذاك . وقد تطرقنا في حديثنا عن جملة قضايا الترسل البارزة في صدر الإسلام إلى الكلام على فن (التوقيعات) الذي نشأ منذ زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه على حواشي الرسائل أولاً ، ثم امتد ليشمل حواشي الرقع والقصص المرفوعة إلى أولي الأمر وليزدهر فيها بمرور الزمان وتطور شؤون الإدارة وتبحر العمران ، مما أدى بهذا الفن إلى أن يتخذ خصائص نوعية مستقلة تماماً عن النوع الترسلي من أبرزها : التركيز والإيجاز .

وقد تمكنا ـ خلال رحلة هذا البحث ـ من إثبات عدد من المفاهيم التي

توصلنا إليها عن النثر الترسلي في صدر الإسلام ، ورسمنا صورة هيكلية شاملة لهذا النوع الأدبي توضح مكانته الخاصة المتميزة في أسرة الأنواع النثرية الفنية الأخرى في أدبنا العربي العريق ، معتمداً في ذلك كله على النصّية بدراسة الآثار الترسلية نفسها والمقارنة بينها ونقدها والاستنباط منها ، وعلى دراسة الأخبار ونقدها ، وعلى التأني في إصدار الأحكام ، وسبر الواقع التاريخي الحقيقي المتعلق بالنصوص المدروسة . مدعماً كل ذلك بسوق الحجة والبرهان . كما توصلنا ـ نتيجة ذلك كله ـ إلى ردّ عدد من الآراء المسلَّم بها بين الباحثين أو تعديل بعض الآراء والأحكام وتطويرها في هذا المجال ، مع وضع أسس ثابتة لدراسة تاريخ هذا النوع النثري في أدبنا .

كما اعتمدنا في منهجنا على النظرة الشمولية من خلال الاستقصاء والاستقراء للمّ شتات النصوص أو الأخبار أو الآراء المطروحة في ميدان الدراسة عند القدماء والمحدثين مااستطعنا إلى ذلك سبيلاً . وكانت الموضوعية في البحث ديدننا للتوصل إلى حقائق لاتحول بيننا وبينها عصبية ولا ميل .

وإني ـ في نهاية المطاف ـ لأجدّد هنا الشكر والعرفان لأستاذي الفاضل الدكتور عمر موسى باشا ، رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب من جامعة دمشق ، على ماحبا به هذا البحث من رعاية علمية وتشجيع متواصل حين كان جزءاً من أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب . راجياً أن أكون بهذا العمل المتواضع قد سددت فراغاً ما في المكتبة العربية الحديثة ، خدمة للتراث القديم واللسان العربي المتجدد على مرّ الدهور ، والله ولي التوفيق .

د . محمود المقداد

دمشق في :
الـ ٢٥ من شوال سنة ١٣٠٨ هـ
والـ ١٠ من حزيران سنة ١٩٨٨ م

الباب الأول

الكتابة والكُتّاب في صدر الإسلام



الفصل الأول

انتشار الكتابة

١ ـ الخط والكتابة من البعثة النبوية إلى الهجرة :

ظلت أحوال الخط العربي تجري على ما كانت عليه في الجاهلية المتأخرة ، وكان انتشار الكتابة بين العرب ضيقاً محدوداً لا يعدو مجموعات قليلة من الأفراد المنتشرين هنا وهناك في جزيرة العرب ، من غير أن يكون لمعرفتهم الكتابة مُحَرِّك مركزي واحد يحثهم على النشاط المنظم الهادف لخدمة غرض موحد ، بل كانت دوافعهم إلى تعلم الخط والكتابة دوافع فردية محضة ربما تتعلق بمصالح اقتصادية كالتجارة ، أو دينية كقراءة بعض كتب الأديان السماوية أو الأرضية المعروفة آنذاك .

ومن المعروف عندنا أن الإلمام بالخط عند الجاهليين على درجات ، إذ كان منهم من يقرأ ويكتب ، ومنهم من يقرأ ولا يكتب ، ومنهم من لا يقيم في القراءة والكتابة سوى بضع كلمات أو بضعة حروف ، ومنهم من لا يقيم في القراءة وحدها إلا مثل ذلك ، وهكذا لم يكونوا على درجة واحدة في الإلمام بالخط أو المعرفة بالقراءة ، والقاعدة العامة تقول : إن كل كاتب يكون بطبيعة الحال قارئاً ، ولا يكون كل قارئ كاتباً .

ولم يستطع الإسلام قبل الهجرة أن يكون صاحب المبادرة في تنظيم المعرفة بالخط والكتابة ، لأن نظام التعليم جزء من الإدارة الشاملة المنظمة للمجتمع ، ولم يكن الإسلام آنذاك مسيطراً على ذلك المجتمع ، فظلت حال الجاهليين تنطبق

أيضاً على المسلمين بلا فارق كبير . ونوجه الأضواء ، هنا ، إلى منبع النشاط الجديد في المجتمع ، لما سيكون له من أثر عميق بعد الهجرة في الرأي العام وفي توجيه المجتمع العربي بإدارته إدارة مركزية قوية وَفْقَ معايير وأسس ترجع إلى مصدر واحد ، وأعني بهذا المنبع الدعوة الإسلامية في مكة ، ولا سيا فيا يتعلق بالخط والكتابة في هذه المدينة منذ البعثة النبوية إلى الهجرة .

يروي البلاذري أن الإسلام دخل « وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب »(1) ، ولم يكن حظ المرأة أقل من حظ الرجل في معرفة الخط والكتابة في تلك الفترة ، إذ وردت عند البلاذري أيضاً إشارة إلى أن الشِّفاء بنت عبد الله العدوية ، من رهط عمر بن الخطاب ، كانت « كاتبة في الجاهلية »(2) . على أننا نستطيع الحكم على هذا الإحصاء بأنه غير دقيق ، وأنه يقبل الجدل ، إذ لم يحدد البلاذري فترته بوضوح ، وإن كان الظاهر المفهوم منها أول ظهور الإسلام ، وهذا يتيح لنا أن نضيف إلى هذه القائمة في تلك الفترة بالذات عدداً آخر من الأسماء قد أغفل ، كحنظلة بن أبي سفيان الذي بعث إلى أبيه ، وهو في تجارة باليمن ، رسالة يعلمه فيها بجهر النبي ﷺ بدعوته(3) .

---

(1) وهم : « عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وطلحة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وأبو حذيفة عتبة بن ربيعة ، وحاطب بن عمرو أخو سهيل بن عمرو العامري من قريش ، وأبو سَلَمَة بن عبد الأسد المخزومي ، وأبان بن سعيد بن العاصي بن أمية ، وخالد بن سعيد أخوه ، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح العامري ، وحُوَيْطِب بن عبد العُزّى العامري ، وأبو سفيان بن حرب بن أمية ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وجُهَيْم بن الصَّلْت بن مَخْرَمة بن المطلب بن عبد مناف ، ومن حلفاء قريش العلاء بن الحضرمي » ، انظر كتابه : فتوح البلدان ، ص ٤٥٧

(2) م.س ، ص ٤٥٨

(3) انظر : الأغاني (دار) ، ٣٥٠/٦ . يضاف إليه : النضر بن الحارث الذي كان يتهم النبي ﷺ بقوله : « ما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها » ، انظر : السيرة النبوية لابن هشام ، ٣٥٨/١ وورقة بن نوفل الذي لحق أول الوحي وكان قارئاً لكتب النصرانية . ومما يدل على نقص قائمة البلاذري أن أبا بكر الصديق لم يذكر فيها أيضاً .

ونستنبط من إحصاء البلاذري أيضاً أن هؤلاء الكاتبين كانوا ينتمون إلى الطبقة المتنعمة الثرية ذات السيادة والرأي والقيادة في قريش ، وهم من أصحاب التجارة الذين يجوبون الآفاق في رحلتي الشتاء والصيف ، وهذا الإحصاء لم يحصر أبناء هذه الطبقة حصراً كاملاً ، مما أبقى فيه ثغرة يمكن ترميمها وسدها بعدد آخر ربما كان مماثلاً . ثم إن هذا الإحصاء شمل أبناء قريش أو من دخل في حلفهم من الأفراد ، ولم يذكر العارفين الكتابة من غير قريش من عبيدها أو من سائر العرب أو من الجماعات الأعجمية التي كانت تعمل في مكة بالتجارة والصناعة ، وهؤلاء محتاجون إلى الكتابة بخط أهل مكة ولغتهم .

فإذا أضفنا هذه الأسماء المغفلة من هذه الجماعات فإن عدد العارفين الكتابة في مكة عند ظهور الإسلام سوف يرتفع إلى قرابة خمسين رجلاً وامرأة . ويمكننا أن نتصور كيف يتزايد مثل هذا العدد باطراد منذ تلك الفترة إلى يوم الهجرة النبوية ، أي خلال ما يقارب ثلاثة عشر عاماً : إذ كان المرء يُعلِّم أخاه أو صاحبه أو بعض أبنائه .. وهذه سنة طبيعية في الناس ، حتى يستفيدوا من الكتابة والقراءة في حياتهم العملية ، وهذا كفيل بمضاعفة العدد المذكور آنفاً ضعفين أو ثلاثة أضعاف ، وهذا بدوره يفسر لنا انتقال معرفة الكتابة إلى عدد من فقراء قريش الذين لم يجدوا بعد وقعة بدر ما يَفْدُون به أنفسهم من الأسر إلا أن يلبوا طلب النبي ﷺ إليهم أن يفدوا أنفسهم بتعليم كل منهم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة وذلك في السنة الثانية من الهجرة .

ومن أبرز المدوَّنات التي ظهرت في مكة آنذاك (صحيفة قريش)[1] التي كتبوها في مقاطعة بني هاشم والمطلب وحصارهم في الشِّعب ، وكان ذلك في السنة السادسة من البعثة . و (الصحيفة) التي دُوِّنت فيها سورة طه أو بعضها وكانت

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام ، ٣٥٠/١ وقد ذكر أن كاتبها هو منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم . وانظر كذلك : الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٢٠٩/١ وتاريخ اليعقوبي ، ٣١/٢ ـ ٣٢

سبب إسلام عمر بن الخطاب[1] . و (مجلة لقمان) التي عرضها سويد بن الصامت على النبي ﷺ حين دعاه إلى الإسلام[2] .

وكانت وسائل الكتابة وأدواتها وموادها لا تختلف في شيء آنذاك عن وسائل الجاهليين وأدواتهم وموادهم فيها ، ونحن نرجح أن تكون المدونات الثلاث المذكورة آنفاً مكتوبة على الرق الذي كان متوفراً بكثرة عند العرب في تلك الفترة بحكم البيئة .

٢ ـ أثر الإسلام في ازدهار الكتابة :

كانت الكلمات الأولى التي تَنَزَّل بها الوحي على النبي ﷺ في مطلع بعثته هي : القراءة والتعليم والقلم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ☆ خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَقٍ ☆ اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ☆ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ☆ عَلَّمَ الإنْسانَ مالَمْ يَعْلَمْ ﴾[3] . وكان من المسلَّم به حقيقة أن الدعوة الجديدة كانت دعوة علم وعقل بقدر ما كانت دعوة مثل عليا وقيم إنسانية خالدة وأخلاق نبيلة وإيمان طيب سمح : وهذه جميعاً هي ركائز الحضارة القويمة التي لا غنى عنها لنقل البشرية من الظلمات إلى النور ، وبها يكتمل الإكرام الذي خَصَّ الله تعالى به الإنسان إذ جعله في الأرض خليفة[4] ، وإذ خلقه خَلْقاً جميلاً فريداً كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[5] ، ولا يتم هذا الْخَلْق الحسن ، وهو مجرد صورة وشكل ، إلا بجوهر أو مضمون مُتَمِّم هو العلم تعلماً وتعليماً ، وقِيَمْ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، ٣٤٤/١ وكان خَبّاب بن الأرَتّ يقرئها أخت عمر وزوجها سرّاً في بيتهما .

(٢) م.س ، ٤٢٧/١ وانظر : تاريخ اليعقوبي ، ٣٧/٢

(٣) القرآن ، ١/٩٦ ـ ٥

(٤) القرآن ، ٣٠/٢ و ١٦٥/٦ و ٦٩/٧ و ٧٤ و ١٤/١٠ و ٧٣ و ٦٢/٢٧ و ٣٩/٣٥ و ٢٦/٣٨

(٥) القرآن ، ٤/٩٥

الحق والخير والعدل ، ليكون الإنسان جديراً فعلاً بخلافة الله تعالى على أرضه كما شاء ، وهذا هو المفهوم الحضاري الحقيقي للإسلام ، والسبيل للوصول إليه إنما يكون بالقراءة والتعليم والقلم .

وتظهر مكانة القلم الرفيعة في الإسلام في هذا القسم الإلهي به إذ يقول تعالى : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ ﴾[١] ، وبه سميت سورة من سور القرآن[٢] ، ذلك لأنه الأداة الرئيسية لبناء الحضارة ، وبه يُبيْن الإنسان عما في نفسه من العواطف والمعارف والأفكار ، وبه تُدَوَّن العلوم وتنتقل من جيل إلى آخر ، وهو خير وسيلة للبيان على مرّ الزمان ، لأنه كما قال بعض القدماء : « أحد اللسانين »[٣] ، غير أن « القلم أبقى أثراً واللسان أكثر هذراً »[٤] . والبيان هو أصلاً ما ميز به الله تعالى الإنسان من سائر مخلوقاته ، وأكرمه به فقال : ﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ ☆ عَلَّمَهُ الْبَيانَ ﴾[٥] . ولا يكون للإنسان بيان بهذا القلم إلا إذا كتب به ، والكتابة ـ كما مرّ بنا من قبل ـ نوع من أنواع البيان ، إن لم يكن أهمها على الإطلاق ، لبقاء بيانها وخلوده وتجديده . وقد ذُكِرت مادة (كتب) في القرآن بتصرفات واشتقاقات مختلفة مئتين وتسعاً وثمانين مرة[٦] .

---

(١) القرآن ، ١/٦٨ وذُكِر القلم في القرآن مفرداً في هذا الموضع وفي ٤/٩٦ ، وورد مجموعاً على (أقلام) في ٣/٤٤ و ٢٧/٣١

(٢) وهي ذات الرقم ٦٨

(٣) البيان للجاحظ ، ٧٩/١ وتحفة أولي الألباب لابن الصائغ ، ص ٢٦ وقد خَصَّ المؤلِّف فضل القلم بتمهيد طويل في أول كُتَيِّبه هذا .

(٤) البيان للجاحظ ، ٧٩/١

(٥) القرآن ، ٣/٥٥ـ٤

(٦) موزعة كالتالي : كتاب (٢٢٥ مرة) وجمعه : كتب (٦ مرات) ، وفعل : كتب ، بشتى تصاريفه (٥١ مرة) ، وكاتب (٦ مرات) ، ومكتوب (مرة واحدة) . في حين أن (الخط) لم يذكر غير مرة واحدة لأنه بطبيعة الحال لازم ضمناً للكتابة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ ، انظر : القرآن ، ٢٩/من الآية ٤٨

وقد حَضَّ الله تعالى على تدوين المعاملات وتوثيقها بالشهود حفظاً للحقوق في آية من أطول آيات القرآن ، منها قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذيْنَ آمَنُوا إذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إلى أجَلٍ مُسَمّىً فاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ ﴾[1] ، ومنها قوله : ﴿ وَلا تَسْأمُوا أنْ تَكْتُبُوهُ صَغيْراً أوْ كَبيْراً إلى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وأدْنى ألا تَرْتابُوا إلا أنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُديْرُونَها بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ ألا تَكْتُبُوها وَأَشْهِدُوا إذا تَبايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهيدٌ ﴾[2] ، ويلاحظ في هذه الآية الكريمة إلحاح شديد على الكتابة وتوكيد قويّ على تدوين المعاملات البعيد أجلها ، نظراً لكون ذلك أحفظ لها من الذاكرة التي تكون عرضة للنسيان والضعف وفوت بعض التفاصيل ، ويحس المرء من سياق الآية بأن ترك مثل هذا التدوين فيه شيء من الإثم .

وكان العلم مما دعا الله تعالى إلى اكتسابه والإلمام به بطريق مباشر كما في قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِيْ عِلْماً ﴾[3] ، أو غير مباشر كما في قوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوي الَّذيْنَ يَعْلَمُونَ وَالَّذيْنَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[4] ، وقوله : ﴿ وَإذَا قِيْلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذيْنَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذيْنَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ ﴾[5] ، وتعدّ مادة (علم) اشتقاقاً وتصريفاً من أغزر المواد وروداً في آيات القرآن .

ولم يكن النَّبي ﷺ ـ على أميَّته التي شاء الله تعالى أن تكون شاهد إعجاز على صدق نبوته ـ إلا معلماً للعرب ، ولذا فقد حرص على تحفيظ المسلمين الأوائل

---

(١) القرآن ، ٢/من الآية ٢٨٢

(٢) م . ن .

(٣) القرآن ، ١١٤/٢٠

(٤) القرآن ، ٩/٣٩

(٥) القرآن ، ٥٨/من الآية ١١ وانشزوا : انهضوا وقوموا إلى الصلاة أو قضاء حق أو شهادة .

قبل الهجرة ماأنزل عليه من الوحي ، وطلب من كاتبيهم أن يدونوه ضمن حدود الوسائل المتاحة لهم في ظروف الدعوة الصعبة آنذاك ، وقد مرّت بنا إشارة إلى صحيفة خَبَّاب بن الأرَتّ التي دُوِّنت فيها سورة طه أو بعضها ، وقد نُظِّم تدوين الوحي بعد الهجرة مباشرة على نطاق واسع كما سنرى لاحقاً .

وقد وردت في مجاميع الحديث النبوي أعداد كبيرة من الأحاديث التي تدعو إلى طلب العلم أو تحض عليه[١] ، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر قوله ﷺ : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيْهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ »[٢] ، وقوله : « إذا ماتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثلاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيةٍ ، أوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أوْ وَلَدٍ صالِحٍ يَدْعُو لَهُ »[٣] ، وقوله : « مَنْ خَرَجَ فِيْ طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِع »[٤] ، وقوله : « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نارٍ »[٥] .

ونرى في هذه الأحاديث وغيرها دعوة متكاملة إلى طلب العلم والحض على نشره وإعلانه بين الناس ، لم يعرف العصر الجاهلي من قبل لها مثيلاً . ولا يكون علم ولا تعلم ولا تعليم إلا بالكتابة والخط والقلم ، أو باختصار بما يسمى : تقييد العلم أو تدوينه . وقد مرّ بنا أن الجاهليين قَصَروا همّهم في الكتابة على تقييد بعض وثائقهم ومستنداتهم العادية ، ولم يعرفوا ما يدعى بالتدوين العلمي الذي يُعنى بالعلوم والآداب والفنون عناية عميقة وشاملة تؤلَّف فيها الصحف مجموعة في كتيّبات أو كتب من جزء واحد أو عدة أجزاء .

---

(١) انظر الأبواب التي تحمل اسم (كتاب العلم) أو (باب العلم) في مختلف هذه المجاميع .

(٢) رياض الصالحين للنووي ، ص ٤٨٦

(٣) م . س ، ص ٤٨٧

(٤) م . ن .

(٥) م . س ، ص ٤٨٨

وقد كان من دعوة النَّبي ﷺ الصريحة المباشرة إلى التقييد الذي يتضمن ، بشيء من الاتساع ، معنى التدوين ، قوله ﷺ : « قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ »[1] ، وقوله : « الْعِلْمُ صَيْدٌ وَالْكِتَابَةُ قَيْدٌ »[2] . وهذا كله يعني أن العلم في الصدور معرض دائماً للنسيان والضياع ، ولا بد من إيداعه في السطور لحفظ بقائه ، ويؤيد ذلك بعض الأقوال المأثورة ، مثل : « الْكُرَّاسُ أَوْعى مِنَ الرَّاسِ » أو « السُّطُورُ أَوْعَى مِنَ الصُّدُورِ » .

وقد توسَّع النَّبي ﷺ ، في دعوته إلى تعلم الكتابة ، من الكتابة العربية إلى غيرها من كتابات اللغات الأخرى حين تتطلب الحاجة مثل هذا التوسع ، إذ يروى عنه ﷺ أنه أمر زيد بن ثابت أن يتعلم الكتابة العبرانية أو السريانية منذ أن قَدِمَ المدينة مهاجراً ، وفي ذلك يروي زيد عن نفسه فيقول : « قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ : إِنَّهُ يَأْتِيْنِي كُتُبٌ مِنْ نَاسٍ لاأُحِبُّ أَنْ يَقْرَأَهَا أَحَدٌ ، فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعَلَّمَ كِتابَ الْعِبْرَانِيَّةِ أَوْقَالَ : السُّرْيَانِيَّةِ ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ . فَتَعَلَّمْتُهَا فِيْ سَبْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً »[3] ، ويروى أنه قال : « لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِيْنَةَ قَالَ لِيْ : تَعَلَّمْ كِتَابَ الْيَهُودِ فَإِنِّي وَاللهِ مَاآمَنُ الْيَهُودَ على كِتَابِيْ ، فَتَعَلَّمْتُهُ فِيْ أَقَلَّ مِنْ نِصْفِ شَهْرٍ »[4] ، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقرأ الكتب السريانية ويكتب بتلك اللغة أيضاً .

ونستنبط من ذلك أن الإسلام قد فتح الباب عريضاً واسعاً أمام خلق جو ملائم لتنفس العلم وازدهاره على أوسع نطاق بين الناس ، مما لا نجد له نظيراً في

---

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي ، ص ٧٠ وروي في : مروج الذهب للمسعودي ، ٣٠١/٢ « بالكتابة » ، والكتاب والكتابة بمعنى واحد . وانظر : صبح الأعشى ، ٣٦/١

(٢) كشف الظنون لحاجي خليفة ـ مقدمة المصنف ، ٣٤/١

(٣) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ، ١١٥/٢/٢

(٤) م . ن .

حضارات الأمم التي سبقته ، ولما كانت الكتابة أس هذا العلم فقد كان من تحصيل الحاصل أن تزدهر ازدهاراً عظيماً في ظل الدعوة الجديدة .

٣ ـ دواعي ازدهار الكتابة والتدوين :

يلاحظ المرء أن هنالك دواعي عديدة لازدهار الكتابة في المجتمع الجديد ، إذ كانت هذه الدواعي تسيطر على دفة هذا المجتمع وتفرض عليه مجموعة من الظروف تختلف عن الظروف التي كانت تحكمه قبل الهجرة ، ومن أبرز هذه الدواعي :

أ ـ حفظ مصادر التشريع :

كان القرآن الكريم أول هذه المصادر وأعلاها ، وكان لابد من العناية به عناية فائقة نظراً لكونه مستودع الوحي الإلهي الذي يحتوي على أسس المجتمع الجديد التي تنظم علاقة المرء بخالقه من جهة ، وعلاقته بالناس في معاملاته حقوقاً وواجبات من جهة ثانية ، فكانت هذه الأسس هي الضوابط القانونية التي لاغنى للمجتمع الجديد عن معرفتها معرفة دقيقة لكي يحكم الناس من خلالها . وأهم نقطة في حفظ هذا القرآن كانت استيعابه عن ظهر قلب ، إلا أن هذه الوسيلة لم تكن لتفي بالغرض من حفظه ، فكان لابد من وسيلة آمن وأسلم منها ، فتوجه الخلفاء إلى جمعه من الصدور وتدوينه في الصحف وتوحيد نسخته وفق ترتيب نهائي وأخير ، وتوزيعه بعد ذلك على هذه الصورة الموحدة على الأمصار جميعاً لتكون العقيدة واحدة لا مجال للخلاف في نصوصها الأصلية . وقد تطلبت هذه الحركة توسعاً وازدهاراً في معرفة الكتابة وانتشارها ، فأصبح لزاماً على كل مسلم أن يلمّ بها قراءة أو قراءة وكتابة معاً لاستظهار القرآن والتعبد به أو التفقه فيه والاحتجاج به ، لأنه ضمان لتحصيل الحقوق ومعرفة الحدود والأحكام وضبط قواعد السلوك والمعاملة بين الناس . وقد كان النبي ﷺ يبعث إلى بعض رؤساء القبائل أو من يرسل إليهم عماله للتفقه أو جمع صدقاتهم بكتب فيها تفاصيل

ماأجمل القرآن في « الفرائض والسنن والصدقات والديات »[1] ، وما أشبه ذلك من أمور توضيحية أخرى .

ب ـ تنظيم الدولة وإدارة المجتمع :

حين أرسى الإسلام قواعد الدولة في المجتمع العربي الجديد ، برزت الحاجة إلى الكتابة في مجالات كثيرة تعزيزاً لإدارة هذه الدولة الوليدة ، فكان لا بدّ من بداية لظهور بعض الدواوين ، أو لنقل : بعض أنواع الكتابات الإدارية ، كتدوين الصدقات المستوفاة ، وإدخالها بيت المال ، ثم توزيعها على المستحقين لها ، وكتدوين سجلات بأسماء الجند الذين يشاركون في معارك الفتح ، وسجلات لتدوين ذراريهم لتصرف لهم أموال العطاء والذراري ، وسجلات لتثبيت أسماء من يستحقون العطاء من أموال الفيء أو أخماس الغنائم الحربية .

وكانت هنالك حاجة إلى كتابة الرسائل باستمرار مابين الخليفة وأمراء جنده أولاً ، ثم بينه وبين عماله الإداريين في الأمصار المختلفة وفي شتى الشؤون التي تهم الدولة والرعية ، وكانت حروب الفتح تدعو دائماً إلى إرسال كتب الإنذار إلى أهل الحرب ، وإلى كتابة عهود الصلح أو الأمان أو براءات الجزية ، وما إلى ذلك من الأمور .

وقد أدى فتح البلدان إلى ضبط مساحاتها وسبر أنواع تربها ومياهها وزروعها ليوضع عليها المقدار الملائم من الخراج ، وأحياناً إلى إحصاء رؤوس من فرضت عليهم الجزية ، وكان ذلك في زمن عمر بن الخطاب حين بعث عثمان بن حُنَيْف الأنصاريّ لمسح أراضي السواد بالعراق[2] ، وكل هذا النشاط يحتاج إلى سجلات مكتوبة في كل بند من بنود هذا الخراج بلا ريب .

---

(١) الاستيعاب ، ص ١١٧٣

(٢) م . س ، ص ١٠٣٣

وربما كانت بعض أحكام القضاء بين الناس تُسَجَّل في بعض الأحيان ضماناً للحقوق ودفعاً للشبهات أو الأخذ والرد بين الخصوم .

ويمكن القول ، على وجه الإجمال ، إن الدولة الجديدة كانت في حاجة ماسة إلى كثير من أنواع الكتابات التي لاغنى عنها في تسيير دفة الخلافة وشؤون المجتمع وتنظيم علاقة الناس فيما بينهم .

جـ ـ حفظ الحقوق :

مرّ بنا من قبل أن الإسلام حضّ على توثيق المعاملات بين الناس بالكتابة والشهود وضربنا لذلك مثلاً من المداينات . وإذا نظرنا إلى أنواع المعاملات بين الناس قديماً استطعنا أن نتصور اتساع نطاق الحاجة إلى الكتابة من أجل تسجيلها حفظاً لحقوق المتعاملين مهما صغر شأنها نزولاً على أمر الله تعالى في آية المداينة .

د ـ التعليم وحفظ المعارف :

لاشك في أن فترة صدر الإسلام شهدت نوعاً من تعليم الخط والكتابة سنرى أبعاده فيما يمر بنا من هذا الفصل ، وكانت حركة التعليم هذه هي منبع الكتابة وأساس ازدهارها ، وكان ازدهار الكتابة رهناً ، في قوته وضعفه ، بحركة تعليم الخط ومدى تنظيمه وطرائق هذا التعليم التي كانت تلك الفترة التاريخية تسعف بها . ولم يكن تعلم الخط أو تعليمه غاية في حدّ ذاته ، وإنما كان ـ كما هو واقع الحال دائماً ـ وسيلة لخدمة حياة المرء في معاملاته مع الآخرين ، ولخدمة فكره وتراثه بالحفظ والصون قبل أن يخضع للفحص والدرس ، لأن العناية بدراسة هذه الآثار واستنباط المعايير والقواعد والنتائج منها إنما تأتي مرحلة تالية لذلك الحفظ .

ولا ندّعي هنا أن العرب في صدر الإسلام قد عرفوا التدوين بمعناه الواسع في مجال المعارف والآداب والعلوم ، إذ إنهم في خارج نطاق جمع القرآن لم يقوموا

إلا بجهود فردية ضئيلة لتدوين متفرقات قليلة من الحديث النبوي من غير أن يعمدوا إلى جمعه جمع استقصاء ، وإن كانت فكرة هذا الجمع قد خطرت على بال عمر بن الخطاب يوماً فقد دفعها ، كما سنرى لاحقاً ، لئلا يُشْغَل المسلمون بغير القرآن . وهناك مجموعة من الأخبار المتفرقة عن وجود مدونات في صدر الإسلام غير القرآن والحديث ، مما يثبت لنا بلا جدال أن هنالك حركة لحفظ بعض المعارف كتابة ، يدلنا على ذلك رغبة بعض الناس في استنساخها وإقبالهم على الاطلاع عليها وحرصهم على اقتناء شيء منها ، ونظن أن هذه الحركة كانت حركة طبيعية عند الناس وقد استقر بهم المقام ، وهدأت أحوالهم ، واحتاجوا إلى توسيع آفاق فكرهم وتفكيرهم بالعَبٍّ مما يجدون حولهم من مناهل الثقافة العربية المعاصرة لهم أو تلك الثقافة القديمة التي تعود إلى الجاهلية . ولم تكن هذه الحركة تصطدم دائماً باعتراضات الصحابة كابن مسعود وغيره ، ولم تكن تجد خطراً عليها من قبل التابعين في جميع الأحوال . وهكذا كانت هذه الحركة واقعاً ملموساً ذاآثار في الحياة الفكرية آنذاك ، ولعل تلك القلة من الأخبار أو الإشارات المتفرقة إلى وجودها برهان كافٍ على عملها وأثرها في مجال حفظ المعارف التي كانت منتشرة بين الناس في تلك الفترة .

هـ ـ اتساع رقعة الدولة وتحقيق التواصل :

كانت الفتوح الإسلامية خلال ثلاثين سنة من وفاة النَّبي ﷺ حتى نهاية فترة الخلفاء الراشدين قد شملت بلاد فارس وأذربيجان والعراق والشام ومصر وطرابلس . وكانت تلك رقعة واسعة جداً آنذاك ، وقد تفرقت فيها قبائل العرب التي اشتركت في هذه الفتوح ، ولم تلبث أن مُصِّرَتْ فيها الأمصار التي أقامت فيها طائفة من هذه القبائل ، في حين أن طائفة أخرى منها توزعت في المدن القائمة في تلك البلدان أو استقرت حيث طاب لها المقام ، مما أدى إلى تمزيق شمل الناس على امتداد هذه الرقعة وفي جزيرة العرب ، فأدى ذلك بدوره إلى ظهور الحاجة

القويـة إلى المراسلات فيما بينهم على نطـاق واسع تحقيقـاً للتواصـل ، ودعت هـذه الظروف الجديدة إلى ترامي أطراف الدولة واتساع الإدارة اتسـاعـاً دفع إلى اتخـاذ الرسائل وسيلة أولى لتأمين الاتصال بين مركز الخلافة والأطراف ، ولتوجيـه دفـة الإدارة فيها . ويظهر لنا نتيجة ذلك نمطـان من أنمـاط الرسـائل : الأول هو نمـط الرسائل المتبادلة بين أفراد الرعية أو الحكام في موضوعات خـاصـة وهي الرسـائل الشخصية . والثـاني هو نمـط الرسـائل المتبـادلـة بين أفراد الإدارة التـابعـة لنظـام الخلافة في موضوعات عامـة تتعلق بشؤون الـدولـة وإدارة المجتمع ، وهي الرسـائل الديوانية .

و ـ كثرة الأحداث والفتن :

كان توالي أعمال الفتح وكثرة أحداثـه من دواعي ازدهـار الكتـابـة ، ولا سيما كتابة الرسـائل ، لتغطيـة كل حـدث منهـا ، في حين أن ظهور الفتن بين المسلمين أنفسهم منذ مقتل عثمان سنـة ٣٥ هـ وطوال خلافـة علي حتى قيـام معـاويـة سنـة ٤١ هـ ، كان محرضاً قوياً على ازدهار الرسائل ازدهاراً عظيماً ، إذ إن تبادلهـا شمل شتى اتجاهات الصراع سواء أكان هذا التبـادل يتم بين الجمـاعـات المتخـاصمـة أم بين أفراد الجماعة الواحدة ، مما أدى بـالتـالي إلى ترويج الكتـابـة والإلمـام بهـا ترويجـاً واسعاً .

٤ ـ مظاهر ازدهار الكتابة وانتشارها :

أ ـ تعليم القراءة والكتابة :

ينبغي ألا يفهم من كلمـة (تعليم) هنـا أكثر من وجـود مبـادرات واعيــة ، ولكنهـا متفرقـة وجزئيـة لا تشمل جميع أفراد المجتمع وفق نظـام عـام مرتب ، إذ لم يكن هذا المجتمع قد أخذ على عاتقـه بعـد مهمـة القيـام بوظيفـة التعليم العـام بـأي صورة من صوره ، فبقيت هذه المهمـة منوطـة بـالمبـادرات التي ذكرنـاهـا آنفـاً ،

وبقيت الدوافع الشخصية في الوقت نفسه هي الموجهة في هذا المجال تبعاً للحاجات الخاصة التي تدفع المرء إلى تعلم القراءة والكتابة أو إهمالها .

والمعروف أن عدداً لابأس به من قريش وغيرها ، ممن يعرفون القراءة والكتابة ، قد هاجر إلى المدينة ، وكنا قد عرفنا من البلاذري أسماء بعضهم ، فاجتمع هؤلاء في المدينة إلى ذلك العدد الذي يذكره البلاذري أيضاً من الأوس والخزرج ممن كانوا يكتبون حين قدم النَّبي ﷺ إلى مدينتهم مهاجراً ، وكانوا أحد عشر رجلاً[1] . ونقول في هذا الإحصاء ماسبق لنا أن قلناه في عدد الكاتبين من قريش ، أي أنه إحصاء ناقص غير دقيق ولا شامل ، ويمكن أن نتوسع بهذا العدد إلى قرابة خمسين رجلاً ، وبذا يكون مجموع المسلمين الذين يعرفون القراءة والكتابة من الأنصار والمهاجرين في المدينة بعيد الهجرة قرابة مئة أغلبهم من الرجال وأقلهم من النساء[2] ، على أن هؤلاء المئة لم يكونوا جميعاً على حظ واحد من إجادة القراءة وإتقان الكتابة ، ولذا لم تذكر لنا كتب المصادر إلا تلك القلة ممن بلغوا فيها درجة عالية من التمكن والإتقان ، ومهما يكن من أمر فقد كانوا هم النواة التي ستنبثق منها شجرة المعرفة بعد استقرار الإسلام في المدينة .

وقد ذكر البلاذري ثلاثاً من أزواج النَّبي ﷺ فقال إن عائشة وأم سلمة كانتا تقرأان ولا تكتبان ، وأن حفصة كانت تقرأ وتكتب[3] ، وذكر أيضاً أن

---

(١) وهم : « سعد بن عُبادة ، والمنذر بن عمرو ، وأُبَيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ـ وكان يكتب العربية والعبرانية ـ، ورافع بن مالك ، وأُسَيْد بن حُضَيْر ، ومعن بن عَديّ البَلَويّ ـ حليف الأنصار ـ، وبشير بن سعد ، وسعد بن الربيع ، وأوس بن خولي ، وعبد الله بن أُبَيّ المنافق » ، انظر كتابه : فتوح البلدان ، ص ٤٥٩ ، وانظر بعض هذه الأسماء في : صبح الأعشى ، ١٠/٣

(٢) وهذا ما يفسر لنا ورود كثير من الإشارات ، في كتب المصادر ، إلى عدد لابأس به من الصحابة الذين يدلّ سياق هذه الإشارات على إلمامهم بالقراءة والكتابة .

(٣) انظر كتابه : فتوح البلدان ، ص ٤٥٨

الشفاء بنت عبد الله العدوية هي التي علمت حفصة الكتابة[1] ، وذكر من النساء الكاتبات أيضاً أم كلثوم بنت عقبة وكريمة بنت المقداد[2] . ونتوقع أن يكون عدد النساء القارئات أو الكاتبات أكبر بكثير مما ذكر بالاسم هنا .

يضاف إلى ذلك أن عدداً ممن يعرف القراءة والكتابة من مشركي قريش ومكة قد أضيف إلى هؤلاء عام الفتح سنة ٨ هـ[3] ، وأن عدداً مماثلاً تقريباً قد أضيف إليهم بإسلام أهل الطائف من ثقيف وغيرها سنة ٩ هـ ، زد على ذلك عدداً آخر لانستطيع التكهن به من سائر العرب الذين انضووا تحت لواء الإسلام عام الوفود الذي اجتمعت فيه العرب داخل جزيرتهم على الإسلام .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار عدد الصحابة الذين رأوا النبي ﷺ وسمعوا منه كما توقعه ابن حجر (م ٨٥٢ هـ) وهم « زيادة على مئة ألف إنسان من رجل وامرأة »[4] ، فلا بدّ لنا من أن نتوقع أن يكون عدد من يعرف القراءة والكتابة بينهم عند وفاة النبي ﷺ لا يقل بأي حال عن مئة رجل وامرأة ، وتكون نسبتهم إلى الأميين واحداً في الألف ، وهي نسبة معقولة جداً آنذاك .

ولا ريب في أن هذا العدد الأولي كان يزداد بمرور الوقت ، إذ إن السُّنَّة الطبيعية للتعليم ، في ظل تحريض الإسلام الدائم على طلب العلم وبظهور حاجات كثيرة تتطلب الكتابة ، ستحث الناس باستمرار على توسيع دائرة معارفهم وتعلم القراءة والكتابة لمسايرة التطورات الجديدة في حياة المجتمع .

---

(١) م . ن .

(٢) م . ن .

(٣) ومن هؤلاء على سبيل المثال : جُهَيْم بن الصَّلْت بن مَخْرَمة بن المطلب بن عبد مناف الذي يقول عنه ابن حجر في كتابه : الإصابة ، ٢٥٧/١ « أسلم بعد الفتح وكان يُعلِّم الخطّ في الجاهلية ، فجاء الإسلام وهو يكتب ، وقد كتب لرسول الله ﷺ » ، ولا نستبعد أن يكون قد واصل تعليم الخط بعد إسلامه أيضاً .

(٤) انظر كتابه : الإصابة ، ٤/١

وكان أقدم ما روي لنا عن محاولات تنظيم التعليم بأشكاله الأولية البسيطة أن النبي ﷺ قد خصَّص في مسجده بعد بنائه صُفَّة[1] لتعليم القراءة والكتابة ، وأنه عيَّن رجالاً محددين للقيام بهذا العبء[2] ، مما يؤدي بالنتيجة إلى تخريج أعداد متوالية من الناس يعرفون الكتابة مهما تكن وسيلة التعليم بسيطة ، ومهما يكن سير هذا التعليم بطيئاً .

وتأتي إلى جانب هذه المحاولة محاولة أخرى مشهورة في المصادر القديمة[3] والحديثة[4] كانت ذات صدى واسع لطرافتها ودلالاتها الحضارية العميقة ، وهي أن النبي ﷺ سأل من كان كاتباً من أسرى قريش ببدر أن يفدي نفسه بتعليم عشرة من أولاد المسلمين أنصاراً ومهاجرين القراءة والكتابة ، وكانت هذه الواقعة في السنة الثانية من الهجرة ، ولسنا نجزم هنا إن كان النبي ﷺ قد طلب ذلك من كل الكاتبين في الأسرى أغنياء وفقراء أم من الكاتبين الذين كانوا فقراء

---

(١) الصُّفَّة : تشبه البهو الواسع الطويل السَّمْك ، أي المرتفع سقفه ، وهي موضع بعينه في مسجد النبي ﷺ كان مظلَّلاً ، وأهل الصفة هم فقراء المهاجرين الذين لم يكن لهم منازل يسكنون فيها ، فكانوا يأوون إليها ، ولعل النبي ﷺ أراد أن يشغل وقتهم بما ينفعهم ويرتفع بهم ، فأمر بتعليمهم الخط والكتابة والقراءة .

(٢) ذكر المصعب الزبيري في كتابه : نسب قريش ، ص ١٧٤ أن النبي ﷺ أمر عبد الله بن سعيد بن العاصي « أن يعلم الكتاب بالمدينة وكان كاتباً » . وروى ابن عبد البر في ترجمته لعبد الله هذا في كتابه : الاستيعاب ، ص ٩٢٠ أن النبي ﷺ « أمره أن يعلم الكتابة بالمدينة ، وكان كاتباً محسناً » .

(٣) انظر مثلاً : كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ، ١٤/١/٢

(٤) انظر مثلاً : تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية لحفني ناصف ، ص ٣٤ والوسيط في الأدب العربي وتاريخه لأحمد الإسكندري ومصطفى عناني ، ص ١٢١ والمفصل في تاريخ الأدب العربي لأحمد الإسكندري وآخرين ، ١٦١/١ وتاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن ، ص ٦٦ ومصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد ، ص ٥٣ وصنعة الكتابة في عهد الرسول والصحابة لمحمد حميد الله ، مقالة في مجلة : فكر وفن (ع ٣ ، ١٩٦٤) ، ص ٢٣ وأصل الخط العربي لسهيلة الجبوري ، ص ٧٧

وعـاجزين عن دفع الفـداء المطلـوب منهم حصراً ، ويمكن للمرء أن يتـوقـع بقـاء هـؤلاء الأسرى مـدة من الـزمن لاتقـل عن سـتـة أشهر لتخريـج دفعـة من أولاد المسلمين ، وخلال هذه المدة قد يكون بعضهم لان جانبه للإسلام فـدخل فيـه ، ثم استمر يعلم ناشئة المسلمين الكتابة[1] ، وجميع كتب المصادر التي ذكرت هذه الواقعة تسكت للأسف الشـديـد عن أمور هـامـة فيهـا ذات دلالات خطيرة ، منهـا أسماء هؤلاء الأسرى المعلمين وعددهم ومدة إقامتهم في المدينة وهم يؤدون هـذه الفـديـة ، ونتوقع توقعـاً أن يكون هـذا العـدد قريبـاً من عشرة على الأقل[2] ، وبـذا يكون عدد الأولاد الذين تلقنوا الكتابة على أيديهم لا يقل عن مئـة صبي ، ممـا يـدل على أهمية هذا الحدث في تلك الآونة المبكرة جداً من عهد المسلمين بالحرية في المدينة ، ويشير بطبيعة الحال إلى آثاره البعيـدة في الجو التعليمي العـام بين المسلمين . وقـد ترتَّبت على ذلك أمور فقهية منها : جواز تعلم المسلم على يـد غير المسلمين ، وجواز أخذ المعلم أجراً مادياً عن تعليمه ، إلخ .

ولم يقتصر نشـاط التعليم على أهـل المـدينـة من المسلمين ، بـل إن النبي ﷺ حاول أن ينشر بذوره في جميع أنحاء جزيرة العرب وأحيائهـا ، فكان من عـادتـه أن يبعث إلى كل قوم يدخلون في دين الله رجلاً من أصحابه ليفقههم فيه ويعلمهم العبادات والمعاملات وما أشبه ذلك ، وكان إلى جانب ذلك يبعث عمـالاً يجمعون صدقاتهم ، أو أمراء عليهم يديرون شؤونهم باسمه ﷺ ، وقد بلغ هذا الأمر ذروتـه في حيـاتـه ﷺ في السنـة التـاسعـة للهجرة التي اجتمع فيهـا العرب على الإسـلام وعرفت بعـام الوفود ، إذ « بعث أمراءه وعمـالـه على الصـدقـات إلى كل مـا أَوْطَـأَ الإسلامُ من البلـدان »[3] ، ويمكن القـول إن أكثر هـؤلاء العمال والأمراء والفقهـاء

---

(١) ومن لم يدخل منهم في الإسلام آنذاك فقد دخل فيه عام الفتح .

(٢) كان عـدد أسرى بـدر من المشركين قرابـة سبعين رجـلاً ، انظر : السيرة النبـويـة لابن هشـام ، ٦١٤/١ وتاريخ اليعقوبي ، ٤٦/٢

(٣) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ، ٦٠٠/٢ وتاريخ الطبري ، ١٤٧/٣

كانوا على دراية بـالكتـابـة ليستطيعوا المضي في مهـامهم الموكلـة إليهم ، ونتوقع أن يكون بعضهم على الأقل قد عمد إلى تعليم بعض الناس القراءة والكتابة أثناء قيامه بمهمتـه الأصليـة ، ونخص منهم المفقهين في الـدين[١] ، ومن أبرز من يمثـل ذلـك معـاذ بن جبـل الـذي رُوي أن النبي ﷺ بعثـه « معلمـاً لأهـل البلـدين : اليمن وحضرموت »[٢] ، وقد ذكر الطبري عدداً من الأمراء الـذين بعثهم النبي ﷺ على أنحاء اليمن بعد موت باذام عاملها سنة ١٠ هـ ، وأضاف قوله : « وكان معاذ معلماً يتنقل في عمالـة كل عـامل بـاليمن وحضرموت »[٣] ، ويقول عنـه في موضع آخر : « ومعاذ بن جبل يعلم القوم ، يتنقل في عمل كل عامل »[٤] . وذكر ابن عبـد البر أن النبي ﷺ بعثه قاضياً على الْجَنَـد بـاليمن « يعلّم النـاس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم ، وجعل إليه قبض الصدقات من العمال الـذين بـاليمن »[٥] . وروي أن النبي ﷺ استعمـل عمرو بن حـزم الأنصـاري على أهـل نجران « ليفقههم في الدين ويعلمهم القرآن ، ويأخذ صدقاتهم »[٦] . ولا شك عندنا في أن هـذا النموذج كان ظـاهرة عـامـة بين مبعوثي النبي ﷺ إلى المسلمين الجـدد في كل بقـاع جزيرة العرب ، وقد تعرض عدد منهم أحياناً للغدر بهم والاعتداء على حياتهم بالقتل[٧] .

---

(١) كان أقدم مبعوث للنبي ﷺ من صحابته مصعب بن عُمَيْر ، بعثه إلى المدينـة قبل الهجرة وبعد العقبة الثانية « يقرئهم القرآن ويفقههم في الـدين ، وكان لـذلـك يـدعى : القـارئ والمقرئ » ، انظر : الاستيعاب ، ص ١٤٧٣

(٢) تاريخ الطبري ، ٢٢٨/٣

(٣) م.ن .

(٤) م.س ، ٣١٨/٣

(٥) انظر كتابه : الاستيعاب ، ص ١٤٠٣

(٦) م.س ، ص ١١٧٣

(٧) ومن هؤلاء مثلاً أصحاب بئر معونة الـذين طلبهم أبو براء عـامر بن مـالـك ، من بني عـامر بن صعصعة ، سنة ٤ هـ ، ثم غدر بهم بنو عـامر فقتلوهم عن آخرهم إلا واحـداً وكانوا مـا بين أربعين إلى سبعين رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ، انظر : تاريخ الطبري ، ٥٤٥/٢ ـ ٥٥٠

واستمرت هذه الظاهرة في عهد الخلفاء الراشدين ، إذ كان الصحابة هداة الناس في المدينة ومكة والبصرة والكوفة والشام ومصر ، وكان الناس يتحلقون حولهم ليسمعوا منهم أخبار الحوادث التي شهدوها مع النبي ﷺ أثناء كفاحه المرير ، ثم ليَعُبُّوا من علمهم الذي استمدوه منه ﷺ ، فكانوا خير معلمين لهؤلاء الناس ، ومن هؤلاء مثلاً عبد الله بن مسعود الذي استوطن الكوفة بعد أن ولّى عمر عمار بن ياسر عاملاً عليها ، وكتب إلى أهلها يقول : « إني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً ، وجعلت عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً »[(١)] ، وقد صحبه أهلها فكان « يفقههم ويعلمهم »[(٢)] . ومن ذلك أيضاً أن يزيد بن أبي سفيان كتب إلى عمر بن الخطاب يقول : « إن أهل الشام قد كثروا وملؤوا المدن واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، فأعِنّي ياأمير المؤمنين برجال يعلّمونهم »[(٣)] ، فأرسل عمر إليه ثلاثة من الصحابة هم : عبادة بن الصامت إلى أهل حمص ، وأبو الدرداء إلى أهل دمشق ، ومعاذ بن جبل إلى أهل فلسطين[(٤)] .

ب ـ تدوين الوحي وجمع القرآن :

يعد هذا النشاط من المظاهر البارزة لازدهار الكتابة في صدر الإسلام ، فقد مرت بنا إشارة إلى وجود صحيفة ، يغلب أن تكون من الرَّقّ ، كتبت عليها سورة طه أو شيء منها في حدود سنة ٩ من البعثة ، وكان خَبّاب بن الأَرَتّ يقرئها فاطمة بنت الخطاب ، أخت عمر ، وزوجها في بيتها ، وكان اطلاع عمر عليها سبب إسلامه ، ووجود هذه الصحيفة دليل قاطع على وجود تدوين للوحي قبل الهجرة ، إلا أننا لانستطيع أن نتبين طبيعة هذا التدوين ومدى انتشاره ،

---

(١) تاريخ الطبري ، ١٣٩/٤ وانظر : الاستيعاب ، ص ٩٩٢

(٢) تاريخ اليعقوبي ، ١٥١/٢

(٣) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ، ١١٤/٢/٢

(٤) م.ن .

ومع ذلك فإننا نتوقع أن يكون جزئياً ومتفرقاً ومحدوداً ، وأن يكون الحفظ عن ظهر قلب هو الغالب على المسلمين الأوائل قبل الهجرة ، وهذا ما كانت خصائص السور المكية تساعد عليه ، كقصر السور وإيجاز الآيات وكثرة السجع ، مع ارتباط كل سورة منها أو آية فيها بواقعة أو حدث من حوادث الدعوة ، ومع شدة وقع الترهيب أو التّرغيب فيها ، إلخ .

أما بعد الهجرة فقد اتخذ النبي ﷺ عدداً من ذوي الدراية بالخط والتمكن من الكتابة أنصاراً ومهاجرين[1] ، لتدوين الوحي فور نزوله على كل ما تيسر لهم من مواد الكتابة آنذاك ، كالصُّحف والرِّقاع واللِّخاف والعُسُب والْجَرِيد والسِّلام والأضلاع والأكتاف وغيرها ، وكانت هذه المرحلة تتمة لمرحلة ما قبل الهجرة واستمراراً لها ، ودامت من البعثة إلى وفاة النبي ﷺ ، وكان الحفظ في هذه المرحلة موازياً لهذا التدوين الأولي البسيط .

وبرزت الحاجة إلى جمع القرآن في الصحف في عهد أبي بكر أيام حروب الردة التي قتل فيها كثير من حَفَظة القرآن عن ظهر قلب ، ولا سيما في يوم اليمامة مع مسيلمة الكذاب وبني حنيفة ومن أوى إليهم ولفّ لفّهم ، مما دعا عمر بن الخطاب إلى تنبيه أبي بكر على ضرورة جمع القرآن صيانة له وحفظاً من الاندثار بانقراض حُفّاظه بالقتل والموت في تلك الحروب التي دامت قرابة عشرة شهور من خلافة أبي بكر ، ولأن تدوينه في السطور يقيه عوادي النسيان[2] ، فدعا أبو بكر بزيد بن ثابت وأمره بجمعه[3] ، وفي ذلك يقول زيد : « فجعلت أتتبع القرآن من صدور الرجال ، ومن الرّقاع ، ومن الأضلاع ، ومن العُسُب »[4] .

(١) وسنذكر أسماء هؤلاء في جملة كُتّاب النبي ﷺ لاحقاً .

(٢) المقنع لأبي عمرو الداني ، ص ٣ و ٥

(٣) م.ن .

(٤) م.س ، ص ٣ وقد ورد في ص ٥ قوله : « من الرّقاع ، والعُسُب ، واللّخاف ، ومن صدور الرجال » .

ويروي اليعقوبي أن أبا بكر « أجلس خمسة وعشرين رجلاً من قريش ، وخمسين رجلاً من الأنصار ، وقال : اكتبوا القرآن ، واعرضوا على سعيد بن العاص ، فإنه رجل فصيح »[1] . فكان أن جُمِع القرآن جميعاً في صحف متفرقة وضعت كلها في موضع واحد ، فكانت في حوزة أبي بكر أولاً ، ثم حفظت في بيت حفصة بنت عمر أم المؤمنين في خلافة أبيها . وكانت هذه هي المرحلة الثانية . أما المرحلة الثالثة فكانت في عهد عثمان بن عفان ، إذ اشتكى له بعض الصحابة من اختلاف الناس في قراءة القرآن ، فخشي تفرق كلمة المسلمين فأمر زيد بن ثابت الذي قام بتدوين القرآن وجمعه في المرحلة الثانية زمن أبي بكر بأن يقوم هذه المرة بجمع القرآن نسخة واحدة موحدة في مصحف واحد بلسان قريش ، فامتثل لذلك يعاونه نفر من قريش هم : عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام[2] ، ثم أمرهم عثمان بكتابة أربع نسخ أو سبع[3] من هذا المصحف الإمام الذي أنجزوه ، ثم أرسلها إلى الأمصار الكبرى ودعا بكل مصحف غيرها في أيدي الناس ، ولا سيما كبار الصحابة ، فأتلفها وحرقها[4] ، فكانت هذه المرحلة هي الأخيرة في حركة جمع القرآن وتدوينه .

ومن الثابت حكماً أن هذه المراحل الثلاث من تدوين الوحي وجمع القرآن تطلبت وجود عدد كبير من الكتاب للقيام بهذه المهمة ، وكانت إشارة اليعقوبي آنفاً إلى خمسة وسبعين كاتباً من الأنصار والمهاجرين مؤيدة لهذه الحاجة في زمن أبي بكر ، مما يجعل هذا العدد أضعافاً مضاعفة في زمن عثمان بعد أن توسعت رقعة

---

(١) انظر : تاريخه ، ١٣٥/٢

(٢) المقنع لأبي عمرو الداني ، ص ٤ و ٦

(٣) م.س ، ص ٥٩

(٤) م.س ، ص ٦ وانظر : تاريخ اليعقوبي ، ١٧٠/٢

الفتوح ، وأصاب النـاسُ نصيبـاً وافراً من سعـة العيش وحلاوتـه ، فـأقبلـوا على العمران وتثمير الأموال ، وفرغوا للجدل والعلم في مختلف شؤون حياتهم .

وإذا قارنا عدد المصاحف التي كان أهل الشام يملكونها زمن عثمان ، وكانت تلك النسخة التي بعث بها عثمان إليهم في حدود سنة ٢٧ هـ كما نتوقع ، بعددها عندهم سنة ٣٧ هـ ، حين رفعوها على رؤوس الرماح طلباً للتحكيم في وقعة صفين ، إذ يَروي المسعودي أنـه « رُفِـع في معسكر معـاويـة نحو من خمسمئـة مصحف »[1] ، وذكر نصر بن مزاحم أن أهل الشام « استقبلوا علياً بمئة مصحف ، ووضعوا في كل مجنبة مئتي مصحف ، وكان جميعها خمسمئـة مصحف »[2] ، فـإننـا ندرك بوضوح مقدار انتشـار الكتـابـة والقراءة في صفوف النـاس عموماً في أواخر فترة الخلفاء الراشدين ، لأننـا إذا مـا افترضنـا أن عـدد جيش أهل الشـام كان في حدود مئة وخمسين ألفاً ، وأن العدد المرفوع من المصاحف هو كل مـا كان معهم من نسخـه ، وأن كل مصحف لا يقرأ فيـه غير رجـل واحـد ، فـإن نسبـة من يعرف القراءة والكتابة في ذلك الجيش تكون واحداً إلى ثلاثمئة ، وهذه نسبة عاليـة جداً في ذلك الزمان . ولعل كثيراً من الكتاب اتخذوا من نسخ المصاحف للناس آنذاك مهنة جديدة لهم يرتزقون منها .

جـ ـ كتابة الحديث النّبوي :

روي عن النّبي ﷺ قولـه : « لا تَكْتُبوا عَنِّي شَيْئـاً سِـوى القُرآنِ وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ القُرآنِ فَلْيَمْحُهُ »[3] . وأُثِر عن الصحابة بعـد النّبي ﷺ أنهم كانوا يـأبون كتابة الحديث اقتداء بسنّة رسول الله ﷺ ، ومن ذلك أن أناساً سـألوا أبـا سعيـد

---

(١) انظر كتابه : مروج الذهب ، ٤٠٠/٢

(٢) انظر كتابه : وقعة صفين ، ص ٤٧٨

(٣) تقييد العلم للخطيب البغدادي ، ص ٢٨ وروي بـاختلاف يسير في ص ٢٩ و ٣٠ أيضاً ، وذُكِرَ النهي في أحاديث شتى وردت في ص ٣٢ و ٣٣ و ٣٥

الْخُدْرِيّ فقالوا : « إنّك تحدثنا بأحاديث مُعْجِبَة ، وإنا نخاف أن تزيد وتَنْقُص ، فلو أنا كتبنا ، قال : لن نُكْتِبَكُمْ ، ولن نجعله قرآناً ، ولكن احفظوا كما حفظنا »[1] . وروى عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود قال : « كنا نسمع الشيء فنكتبه ، ففطن لنا عبد الله ـ يعني أباه ـ فدعا أم ولده ودعا بالكتاب وبإجّانة من ماء فغسله »[2] . ولما كان مروان بن الحكم والياً على المدينة لمعاوية ، أقعد في السرّ كاتباً لَقِناً يكتب كل ما يسمع من حديث النَّبي ﷺ الذي يرويه أبو هريرة ، حتى استفرغ روايته أجمع ، فأعلمه بما صنع ، فقال أبو هريرة : « إنْ تُطِعْنِي تَمْحُهُ . قال : فمحاه »[3] . وكان ابن عباس يقول : « إنّا لا نكتب في الصحف إلا الرسائل والقرآن »[4] ، ولمّا عَمِيَ في أواخر حياته كان يحدِّث الناس ، فإن علم أن بينهم أحداً يكتب عنه سكت عن الكلام[5] .

ويلمس المرء من هذه الأحاديث والأخبار شدة إقبال الناس ، زمن النَّبي ﷺ ومن بعده زمن الصحابة ، على تدوين كلامه ﷺ ، ويلمس شدة رغبتهم في حفظ هذا الكلام في السطور بعد أن وعته الصدور ، لأن الذاكرة أو الحافظة تخون وتضعف مع الزمان ، في حين أن السطور تظل على ما هي عليه ، وهي لذلك أوعى للكلام وأوعب من الصدور . إلا أن هنالك قضية كبرى كانت وراء منع النَّبي ﷺ ، ثم صحابته من بعد ، لتدوين الحديث ، وكانت هذه القضية تحول دون هذا التدوين مادام السبب قائماً ، فإذا زال السبب اختلف الصحابة ، ثم التابعون ومن تبعهم بإحسان ، في تأويل هذا المنع والإذن بتدوين هذا الحديث . وتتلخص هذه القضية في الخوف من أمور : منها خلط آيات

---

(١) م . س ، ص ٣٨ وانظر كذلك ص ٣٦ و ٣٩ و ٤٠ و ٤١ و ٤٢ و ٤٣ و ٤٤ و ٤٧

(٢) م . س ، ص ٣٩ والإجّانة : نوع من الأوعية .

(٣) م . س ، ص ٤١

(٤) م . س ، ص ٤٣

(٥) م . ن .

القرآن الكريم بأحاديث النّبي ﷺ ووقوع النـاس في اللبس بينهما ، نظراً لضعف وسائل التدوين آنذاك وقلـة أسبـابـه وأدواتـه وضيق انتشـار القراءة والكتـابـة في الناس على وجه العموم . ومنها انشغال الناس بالفروع دون الأصول ، بأن يقبلوا على درس الحـديث ويهملوا درس القرآن وهـو الأصـل في الـدين والتشريـع ، وتتوضح لنـا صحـة ذلـك من قـول عمر بن الخطـاب مرة : « إني كنت أردت أن أكتب السُّنَن ، وإني ذكرت قومـاً كانوا قبلكم كتبوا كتبـاً ، فـأكبّوا عليهـا وتركوا كتـاب الله تعـالى ، وإني لاأَلْبِس كتـابَ الله بشيء أبـداً »[1] . ويفسر لنـا الأمر الأول ، أي الخوف من الخلط بين القرآن والحديث قول الضحـاك (م ١٠٥ هـ) ، وهو أحد التابعين : « لاتتخـذوا للحـديث كراريس ككراريس المصـاحف »[2] ، فإذا كان هـذا الحرص على دفع اللبس ظل قـائمـاً حتى نهـايـة القرن الأول للهجرة ومطلع الثاني ، وقـد استبحر العلم وانتشرت الكتـابـة وأدواتهـا انتشـاراً عظيمـاً بين النـاس ، فلا شـك في أن الخوف من وقوع مثـل هـذا اللبس قبـل ذلـك كان أكبر وأشد لقلة انتشار الكتابة وقلة العلم في الناس آنذاك .

وإذا كان الصحابة والتابعون قد حذروا النـاس من إتخـاذ كراريـس مستقلـة مشابهة لكراريس القرآن ، لتدوين الحديث ، منعـاً لأي لبس بينهـا ، فقـد كانوا يحذرون أكثر من كتابة القرآن والحديث معاً في كراس واحـد أو صحيفـة واحـدة خوفاً من أن يختلط الكلامان عند من ليس له مُسْكَة من العلم يميز بهـا القرآن من الحديث ، وقـد حـذروا كـذلـك من كتـابـة التفسير مع القرآن أو مع الحـديث ، أو كتابة الرأي[3] . ويفسر الخطيب البغدادي (م ٤٦٣ هـ) كراهة كتابة العلم في

---

(١) م . س ، ص ٤٩ وهذا يفسر لنا فيا بعد موقف عمر وبعض كبـار الصحـابـة الآخرين من جميع المدونات الأخرى التي كانت منتشرة في زمنهم .

(٢) م . س ، ص ٤٧

(٣) م . س ، تصدير المحقق ، ص ٢٠

صدر الإسلام فيقول : « وجدته لقلة الفقهاء في ذلك الوقت والمميزين بين الوحي وغيره ، لأن الأعراب لم يكونوا فقهوا في الدين ، ولا جالسوا العلماء العارفين ، فلم يؤمَنْ أن يُلْحِقوا ما يجدون من الصحف بالقرآن ويعتقدوا أن ما اشتملت عليه كلام الرحمن »[1] .

على أن تدوين الحديث تدويناً جزئياً وقليلاً كان معروفاً زمن النَّبي ﷺ : إما ليكون تدويناً دائماً ، وإما ليكون تدويناً مؤقتاً للاستعانة به على الحفظ في الصدور ، ثم يمحى من الصحف[2] ، وكان ذلك يتم بإذن مباشر من النَّبي ﷺ ، ولم يكن يأذن به إلا حين يؤمن اللبس تماماً بينه وبين الوحي ، ومن ذلك ما وقع لعبد الله بن عمرو بن العاص ، فقد استأذن النَّبي ﷺ في كتابة الحديث فأذن له[3] ، فكان يدوِّن حديث رسول الله ﷺ في صحيفة كان يسميها (الصادقة)[4] ، ولذا كان أبو هريرة يقول : « ما أجد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب »[5] ، ويروى أن رجلاً شكا للنَّبي ﷺ قلة حفظه ، فقال له النَّبي ﷺ : « اِسْتَعِنْ عَلى حِفْظِكَ بِيَمِيْنِكَ »[6] ، يعني بالكتابة .

ولا شك في أن هذا التردد الطويل بين كتابة الحديث وحفظه إلى سنة ١٠٠ للهجرة ، حين أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بتتبع روايته وتدوينه ، كان نوعاً من الإفراط في الحيطة للقرآن الكريم ، وكان نوعاً من التحرُّج الذي سبَّبته

(١) م . س ، ص ٥٧ وانظر رأي المحقق في التصدير ، ص ١٨

(٢) م . س ، ص ٥٨

(٣) م . س ، ص ٦٨ و ٧٠ و ٧٤ و ٨٢ وانظر : كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ، ١٢٥/٢/٢

(٤) تقييد العلم للخطيب البغدادي ، ص ٧٩ و ٨٤ و ٨٥ وانظر : كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ، ١٢٥/٢/٢

(٥) الإصابة ، ٣٤٣/٢

(٦) تقييد العلم للخطيب البغدادي ، ص ٦٥ و ٦٦ و ٦٧

أحاديث النَّبي ﷺ بالمنع ، ومواقف الصحابة الناهية عن تدوينه أيضاً ، فضاع بذلك علم كثير عنه ﷺ وثروة لا تعوض بأي حال من الأحوال ، حتى إنه ليروى عن عروة بن الزبير أنه قال : « كتبت الحديث ثم محوته ، فوددت أني فديته بمالي وولدي وأني لم أمحه »[1] . وقد جرّ هذا التحرُّج من تدوين الحديث حتى زمن متأخر تحرُّجاً أكبر من تدوين كلام الخلفاء الراشدين والصحابة أنفسهم في كل مجال ، فضاعت بذلك ثروة أخرى لا نظير لها ولا بديل .

على أنه روي عن النَّبي ﷺ قوله : « قَيِّدُوا العِلْمَ بِالكِتَابِ »[2] ، وقوله : « العِلْمُ صَيْدٌ وَالكِتَابَةُ قَيْدٌ »[3] ، وهو نفسه كان يكتب إلى القبائل والأمراء والملوك ، وكان يكتب إلى عماله على الصدقات وإلى قادة جنده في كثير من الشؤون ، وكان يكتب للناس كذلك أنواعاً أخرى من المدونات غير القرآنية ، وهي داخلة حكماً في نطاق أحاديثه ﷺ .

د ـ كتابة المواثيق (أو الحقوق والمعاملات) :

ونعني بها جميع أنواع الوثائق التي تحفظ حقوق الناس في معاملاتهم ، وكان الإسلام حريصاً على ذلك كل الحرص ، وكانت المداينات هي النموذج المحتذى في مثل هذه المواثيق ، وقد نظَّمها القرآن في آية طويلة هي آية المداينة المعروفة في سورة البقرة[4] . ولعل هذا النوع من الكتابة كان من أوسع أنواع الكتابة بين الناس في كل العصور ، ذلك لأن العقود على اتصال مباشر بحياتهم العملية يومياً .

ويمكن أن نعد من هذه المواثيق على سبيل المثال فقط : المداينات ، والرهون ، والعقود ، وصكوك البيع والشراء ، ومكاتبات الرقيق ، وكتب الضمان

(١) م . س ، ص ٦٠

(٢) م . س ، ص ٧٠

(٣) كشف الظنون لحاجي خليفة ، ٢٦/١

(٤) القرآن ، ٢٨٢/٢

والصلح ، والبراءات ، والإقطاعات ، والصدقات ، والوصايا ، والعهود . والمعاملات بين الناس لاانقضاء لها عادة ، وتعد الحاجة إليها من أسباب ازدهار الكتابة وانتشارها على نطاق واسع .

هـ ـ وجود بعض المدونات المختلفة :

يبدو لنا في زمن النَّبي ﷺ وخلفائه الراشدين ، ولا سيا عمر بن الخطاب ، توجه واضح إلى دفع كل شكل من أشكال التدوين أو التأليف ، سواء ماحاول بعض المسلمين استحداثه أم كان مدوناً جاهزاً بين أيدي الناس ، ويتجلى لنا ذلك في موقف النَّبي ﷺ من مجلة لقمان التي قرأها عليه سويد بن الصامت حين دعاه إلى الإسلام ، وكان ذلك قبل الهجرة ، ثم في موقفه ﷺ من الصحيفة التي يحدثنا عنها عمر فيقول : « انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب ، ثم جئت به في أديم . فقال لي رسول الله ﷺ : ماهذا في يدك ياعمر ؟ قال : قلت : يارسول الله ، كتاب انتسخته لنزداد به علماً إلى علمنا . فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرّت وجنتاه ، ثم نودي بالصلاة جامعة ، فقالت الأنصار : أُغْضِبَ نبيّكم ﷺ ، السلاح ! السلاح ! فجاؤوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ ، فقال : ياأيُّها النَّاسُ ، إنِّي أُوْتِيتُ جَوامِعَ الكَلِمِ وَخَوَاتِيْمَهُ واخْتُصِرَ لِيَ الكَلامُ اخْتِصاراً ، ولَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِها بَيْضاءَ نَقِيَّةً ، فَلا تَتَهَوَّكُوا[1] ، ولا يَقْرَبْكُمُ الْمُتَهَوِّكُونَ . قال عمر : فقمت فقلت : رضيت بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبك رسولاً . ثم نزل رسول الله ﷺ »[2] . وتقول رواية أخرى إن عمر قال للنَّبي ﷺ : « إنّا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا ، أفترى أن نكتبها ؟ فقال النَّبي ﷺ : أَمُتَهَوِّكُونَ أَنْتُم كَما تَهَوَّكَتِ اليَهُودُ والنَّصارى ؟ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِها بَيْضاءَ نَقِيَّةً »[3] . وكان ذلك الموقف النَّبوي بعد الهجرة .

(١) لاتَتَهَوَّكُوا : لاتتحيّروا وتسقطوا في هوة الردى ، والْمُتَهَوِّكون : المتحيّرون في أمرهم .

(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي ، ص ٥٢

(٣) لسان العرب : مادة (هوك) ، ٥٠٨/١٠

وبلغ عمر عن رجل أنه انتسخ كتاب دانيال[1] ، فأحضره وضربه بقناة معه ثلاثاً ، وقال : « أنت الذي انتسخت كتاب دانيال ؟ قال : مُرْنِي بِأَمْرِكَ أَتَّبِعْهُ . قال : انطلق فَامْحُهُ بالْحَمِيمِ والصُّوف الأبيض ، ثم لا تَقْرأْهُ ولا تُقْرِئْهُ أحداً من الناس ، فلئن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأُنْهِكَنَّكَ عُقُوبَةً »[2] . ويروى أن عمر بلغه كذلك ظهور كتب في أيدي الناس « فاستنكرها وكرهها ، وقال : أيها الناس ، إنه قد بلغني أنه قد ظهرت في أيديكم كتب ، فأحبُّها إلى الله أعدلها وأقومها ، فلا يَبْقَيَنَّ أحَدٌ عنده كتاب إلا أتاني به فأرى فيه رأيي . قال : فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ويقوِّمها على أمر لا يكون فيه اختلاف ، فأتوه بكتبهم ، فأحرقها بالنار ، ثم قال : أُمْنِيَّةٌ كأمنيَّةِ أهل الكتاب »[3] .

ثم إن بعض كبار الصحابة نهج في مثل هذه المدونات نهج النَّبي ﷺ وعمر ، فوقف لها بالمرصاد ، وتشدد في أمرها ، كعبد الله بن مسعود (م ٣٢ هـ) . فقد روي أن رجلاً أتاه بكتاب وقال : « وجدته بالشام فأعجبني ، فجئتك به ، قال : فنظر فيه عبد الله ، ثم قال : إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم الكتب وتركهم كتابهم . قال : ثم دعا بطست فيه ماء ، فماثه فيه ثم محاه »[4] . ويروي رجلان أصابا صحيفة فيقولان : « انطلقنا بها إلى عبد الله .. قلنا : هذه صحيفة فيها حديث عجيب . فقال : هاتها ، يا جارية ! هاتي الطِّسْتَ ، اسكبي فيها ماء . فجعل يمحوها بيده ويقول : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾[5] . قلنا :

---

(١) والمتوقع أن يكون هذا الكتاب هو نفسه (سفر دانيال) من العهد القديم .

(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي ، ص ٥١ والْحَميم : الماء الحارّ . ولأنهكنّك عقوبة : لأبالغنّ فيها .

(٣) م . س ، ص ٥٢

(٤) م . س ، ص ٥٢ ـ ٥٣ وماثه : مرسه .

(٥) القرآن ، ١٢/من الآية ٣

انظر فيها ، فإنَّ فيها حديثاً حسناً ، فجعل يمحوها ، ثم قال : إنما هذه القلوب أوعية ، فَاشْغَلُوها بالقرآن ولا تَشْغَلُوها بغيره »[1] . ويروى أيضاً أن رجلين بالكوفة رأيا صحيفة فيها « قصص وقرآن » مع رجل ، فاشتريا صحفاً وتواعدوا المسجد لينتسخوا الصحيفة ، وبينا هما ينتظران ، أتى من يدعوهما إلى عبد الله بن مسعود ، فلما انتهيا إليه ، إذا الصحيفة في يده ، فقال : « إن أحسن الهَدْي هَدْيُ محمد ﷺ ، وإن أحسن الحديث كتاب الله ، وإن شرّ الأمور محدثاتها ، وإنكم تُحدِثُون ويُحْدَث لكم ، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالهَدْي الأول ، فإنما أهلكَ أهلَ الكتابين قبلكم مثلُ هذه الصحيفة وأشباهها ، توارثوها قرناً بعد قرن حتى جعلوا كتاب الله خلف ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون ، فَأَنْشُدُ الله رَجُلاً عَلِمِ مكان صحيفة إلا أتاني ، فوالله لو عَلمْتُها بدير هند لانتقلت إليها »[2] .

وكان الرأي الاجتماعي العام للأتقياء وعامة الناس ينحو هذا النحو المتشدد من المدونات غير القرآنية الخالصة ، فيروي بعضهم واقعة ذات دلالة فيقول : « كنا جلوساً بالكوفة ، فجاء رجل ومعه كتاب ، فقلنا : ما هذا الكتاب ؟ قال : كتاب دانيال . فلولا أن الناس تحاجزوا عنه لقتل . وقالوا : أكتاب سوى القرآن ! »[3] .

وظل هذا التيار المتشدد مستمراً إلى أواخر فترة الخلفاء الراشدين وأوائل العصر الأموي . ويمكننا أن نفسر هذا الموقف العام من المدونات غير القرآنية بما سبق لنا أن فسرنا به موقفهم من تدوين الحديث النبوي أو تفاسير القرآن والحديث والرأي . فإذا كان المسلمون أبوا حتى حدود سنة ١٠٠ للهجرة أن يبيحوا لأنفسهم تدوين كلام نبيّهم ﷺ ، على منزلته الرفيعة في باب التشريع ، فلن

---

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي ، ص ٥٣ ـ ٥٤

(٢) م . س ، ص ٥٥ وتجد خبراً قريباً من ذلك في ص ٥٥ ـ ٥٦

(٣) م . س ، ص ٥٦ ـ ٥٧

يقبلوا بيسر تدوين كلام آخر لأحد من الناس أقل شأناً في هـذه الفترة ، ولا سيما ما كان له علاقة بأسفار أهل الكتاب التي جاء القرآن الكريم على ذكر تحريفها ، فكان الحفظ والرواية الشفوية هما سبيل تداول جميع المعارف والعلوم تقريباً . وإذا كان لذلك ما يسوغه ، بل يستوجبه في بدايات الإسلام الأولى ، فإن الاستمرار في هذا النهج بعد زوال أسبابه باستبحار الكتابة وتعمق المعرفة بكتاب الله تعالى ، ولا سيما بعد توحيد نسخته في المصحف الإمام زمن عثمان ، وبعد انتشار نسخه الموحدة بكثرة في أيدي الناس في جميع الأمصار ، يعدّ أمراً زائداً في الحذر والحيطة ، مما أخَّرَ بطبيعة الحال حركة جمع التراث ونشأة التأليف في كثير من المجالات العلمية أكثر من نصف قرن تقريباً[1] .

وتَرَدُّدُ الناس في الإقبال على قراءة مدونات أخرى غير القرآن واستنساخها منذ زمن النَّبي ﷺ إلى أواخر العصر الراشدي ، إنما يدلنا على مدى انتشار القراءة والكتابة وعلى نزعة الناس القوية إلى الاطلاع على كل ما هو مجهول وجديد أو مدون لإشباع غريزة الفضول المتأصلة في جِبِلَّة الإنسان ، بعيداً عن أي زجر أو نهي من قبل قادة الرأي والمجتمع .

و ـ كثرة أدوات الكتابة وانتشارها :

سبق لنا أن تتبعنا الحالة التي كانت عليها أدوات الكتابة في الجاهلية وفي حياة النَّبي ﷺ ، ورأينا أن الغالبية المطلقة من هذه الأدوات كانت مما توفر للعرب في بيئتهم داخل جزيرتهم من المواد الأولية التي كانت بين أيديهم والتي لم تكن تكلفهم من التصنيع إلا الجهد اليسير المتيسر ، ولم تكن الصحف المصنَّعة تصنيعاً معقداً والمعدة خصيصاً للاستعمالات الكتابية متوفرة عند العرب إلا فيما

---

(١) وقد اندلعت المعركة من جديد ، بعد سنة ١٢٠ هـ ، بين أنصار التدوين وأنصار الحفظ ، انظر : م . س ، تصدير المحقق ، ص ٢٠ ـ ٢١

ندر ، نظراً لما كانت تحتاج إليه من خبرة لصنعها ، ولقلة الحاجة التي تدعو إلى توفرها ، وازدهار صناعتها عندهم : كالمهارق النسيجية الفارسية والهندية من الحرير ، والورق الصيني والقراطيس الشامية والطوامير أو القباطي المصرية من المصادر النباتية . وهذا ما يفسر لنا لم كانت آيات القرآن الكريم تجمع في عهد أبي بكر من العظام واللِّخاف والأضلاع والأكتاف وعُسُب النخل وجريده والرُّقوق والرِّقاع والرقائق الحجرية وما أشبه ذلك من مواد بسيطة ، وكانت الصحف أندر هذه المواد وأقلها استخداماً لتدوين الوحي عند النَّبي ﷺ وسائر المسلمين ممن سجلوا شيئاً منه لأنفسهم . حتى إنه لَمُرَجَّح عندنا أن جمع القرآن في صحف أيام أبي بكر لم يكن على الصحف المستوردة من الخارج ، وإنما كان على الرقوق المصنعة على أيدي العرب محلياً ، وربما فكروا لذلك في جعل هذه الرقوق من قياس واحد لينتظم بعضها فوق بعض انتظاماً يسهّل حفظها ومراجعتها .

غير أن الأمور تطورت في المرحلة الثالثة من حركة تدوين القرآن ، إذ نُظِر فيها إلى الترتيب والتنظيم النهائي للسور والآيات في نسخة المصحف الإمام ، وهي التي نراها بين أيدينا اليوم ، إذ نرجِّح أن تكون الصحف المستعملة في التدوين هذه المرة من المهارق الحريرية والقباطي أو القراطيس الورقية المصنوعة من نبات البردي ، إذ إن الازدهار التدريجي للكتابة وانتشارها في الأمصار المختلفة التي افتتحها العرب واستقروا فيها حتى زمن عثمان ، ولا سيما فارس والعراق والشام ومصر ، حيث تتوفر هذه الصحف بكثرة ، جعل تجارتها تنتشر من هذه الأمصار إلى المدينة قاعدة الخلافة وبؤرة الحركة العلمية في تلك الفترة .

وقد روي عن ابن عباس قوله : « إنا لا نكتب في الصحف إلا الرسائل والقرآن »[1] ، وهو بذلك يريد حصر استعمال الصحف في هذين النوعين من أنواع التدوين ، وكان كلامه هذا في معرض النهي عن كتابة الحديث والتفسير

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي ، ص ٤٣

والرأي ، وهذا تأييد لرأيه الذي قال فيه حين سأله رجل أن يكتب له : « إنّا لانكتب العلم »[1] ، أو قوله : « إنّما أضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمُ الكُتُب »[2] . إلا أن الواقع العملي كان على غير ذلك ، إذ كان يفرض استعمالَ هذه الصحف في كثير من معاملات الناس في مصالح حياتهم المختلفة غير الرسائل والقرآن ، مما أدى إلى شيوعها التدريجي تلبية لهذه الحاجات الجديدة والمتزايدة على نطاق واسع ، حتى كان بإمكان المرء أن يجد حاجته منها في السوق ، وهذا ما نستنبطه من خبرٍ مرَّ بنا عن رغبة بعض الناس في استنساخ صحيفة فيها شيء من القصص والقرآن ، أو من الحمد والثناء على الله تعالى ، أو غير ذلك من المضامين والموضوعات ، إذ قال أحدهم في نفسه : « أَشْتَرِي صُحُفاً بدرهم »[3] ، وسأل رجلٌ آخرَ معه صحيفة مكتوب فيها فقال : « أعطنيها فأنسخها . قال : فإني وعدت بها رجلاً ، فَأَعِدَّ صُحُفَكَ ، فإذا فرغ منها دفعتُها إليك »[4] ، ويروي الرجل فيقول : « فأعددتُ صُحُفي »[5] . وهذه كلها إشارات زمن عبد الله بن مسعود بالكوفة ، مما يؤكد كثرة أدوات الكتابة فيها ، وخاصة الورق بأنواعه المختلفة ، فكان الناس يشترونها كما يشترون أي سلعة أخرى من الأسواق ، وربما كانت هنالك دكاكين للوراقين أخذت طريقها إلى الظهور ، أو كانت هنالك حوانيت تبيع الصحُف في جملة ما تبيع ، ثم أليست الكوفة هي وريثة الحيرة والأنبار معاً وقد كانتا ـ قبل الفتح ـ مركزَيْ إشعاع في مجال الكتابة والخط العربيين ؟ وقد ظل اعتماد الناس على القباطي وغيرها من أنواع الصحف الأخرى التي يصنعها أهل البلدان المفتوحة إلى زمن عبد الملك بن مروان الذي أمر مثلاً بتعريب القباطي المصرية وطبعها بالطابع الإسلامي[6] .

(١) م . س ، ص ٤٢

(٢) م . س ، ص ٤٣

(٣) م . س ، ص ٥٥

(٤) م . ن .

(٥) م . ن .

(٦) فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٢٤١

الفصل الثاني

بدايات نشوء الدواوين العربية

تعدّ الدواوين[1] مظهراً من مظاهر الإدارة المنظمة ، وهي لا تنشأ بشكل واضح عادة إلا عند ظهور الحاجة إليها في المجتمع الذي يكون قد أخذ سبيله إلى الاستقرار ، وبدأ بإرساء أسسه الراسخة التي تقوم عليها الدولة ، وبهذه الدواوين تنتظم مصالح الناس وتسير شؤونهم في جميع المجالات . إلا أنه ينبغي لنا أن نشير هنا إلى أن العرب داخل جزيرتهم ـ فيما عدا الطرف الجنوبي الغربي منها ـ لم يعرفوا شيئاً من هذه الدواوين ، في الجاهلية المتأخرة على وجه الخصوص ، بسبب غياب الدولة ذات المظهر السياسي الموحد الذي يديره رئيس واحد وفق

---

(١) الدواوين : جمع ديوان ، وهو « مُجْتَمَع الصحف » أو « السِّجِلّ » أو « الدَّفْتر الذي تكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء » ، انظر : لسان العرب ـ مادة (دون) ، ١٦٦/١٣ . وقد اختلف في أصله : فذهب من قال بعربيته إلى أنه من قولهم : دَوَّن دِوّاناً على وزن (فِعّال) ، ثم قلبت إحدى واوي العين (ياء) فأصبح (ديواناً) ، انظر : م . ن . غير أننا ندفع هذا التفسير لأن العربية لم تألف مبنى (فِعّال) ، ولم تجئ عليه غير هذه الكلمة ، ولذا فإننا نرجح أن يكون اللفظ فارسياً معرباً كما ذهب أبو عبيدة وابن الأثير ، انظر : م . ن . والأصمعي والجوهري ، انظر : صبح الأعشى ، ٩٠/١ . وذكر ابن خلدون في : مقدمته ، ص ٢٤٣ أن أصل هذه التسمية أن كسرى « نظر يوماً إلى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون ، فقال : دِيْوانَهْ ! أي : مجانين ! بلغة الفرس ، فسمي موضعهم بذلك ، وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً ، فقيل : ديوان . ثم نقل هذا الاسم إلى (كُتّاب) هذه الأعمال .. وقيل : إنه اسم للشياطين بالفارسية ، سُمّي الكُتّاب بذلك لسرعة نفوذهم في فهم الأمور ووقوفهم على الجلي منها والخفي ، وجمعهم لما شذّ وتفرّق . ثم نقل إلى (مكان) جلوسهم لتلك الأعمال » . وساق القلقشندي في كتابه : صبح الأعشى ، ٩٠/١ قريباً من هذا الخبر .

قوانين وقواعد محددة . ومن هنا يمكن الحكم بأن عدداً من الدواوين ذات النشأة العربية إنما ظهرت في ظل الدولة الإسلامية بعد الهجرة النبوية إلى المدينة ، وقد أخذت في النضج التدريجي مع تطور الإدارة وتعقدها واكتسابها الخبرة المتراكمة .

ويلاحظ المتتبع لحركة التنظيم الإداري للدولة ظهور نوعين مختلفين من هذه الدواوين : الأول هو الدواوين العفوية التي كانت تتمتع بطابع من البساطة إلى حد أننا لانستطيع تسويغ إطلاق اسم (الدواوين) عليها ، وقد ظلت هذه الدواوين ، في الوقت نفسه ، تمارس نشاطها في الإدارة بشكل فعال حتى قيام الدولة الأموية بعد العهد الراشدي . والثاني هو الدواوين المنظمة التي كانت في بدء أمرها عفوية ، ثم اكتسبت سريعاً في العهد الراشدي نفسه طابعاً منظماً يقوم على أسس ثابتة واضحة .

١ ـ الدواوين العفوية :

أ ـ ديوان الرسائل والشؤون العامة :

كان النّبي ﷺ ، بحكم أميته ، في حاجة إلى من يكتب له في جميع الميادين التي يضطر قائد الدولة آنذاك إلى الكتابة فيها عادة ، ولذا فقد انتخب عدداً من أصحابه الذين يتقنون الكتابة جيداً ليكونوا له كُتّاباً ، حتى إن بعض هؤلاء الكُتّاب كان يعرف بنوع واحد من الكتابة دون غيره ، مما يؤكد لنا ظهور بعض أشكال التخصص في تلك الفترة ، فكان بعضهم يكتب للنّبي ﷺ الوحي(١) ، وبعضهم يكتب بين يديه في حوائجه(٢) ، وبعضهم يكتب في معاملات الناس(٣) ، وبعضهم يكتب بين القوم في قبائلهم ومياههم وفي دور الأنصار بين الرجال

(١) الوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٢

(٢) م . ن .

(٣) م . ن .

والنساء[١] ، وبعضهم يكتب الرسائل للملوك[٢] ، وبعضهم يكتب مغانم رسول الله ﷺ[٣] ، حتى إن بعض الكتّاب كان ملمّاً بكل هذه الأنواع من الكتابة فكان خليفة كل كاتب في تخصصه إذا غاب عن عمله ، فغلب عليه لذلك اسم (الكاتب) ، كحنظلة بن الربيع التميمي[٤] .

فإذا كان هذا التخصص في الكتابة سمة من سمات الدواوين المنظمة ، فإن هنالك افتقاراً إلى سمات أخرى أكثر دلالة على التنظيم ، مثل وجود مقر خاص بهؤلاء الكتاب يعملون فيه ، وصرف الأرزاق المرتبة كل شهر أو كل عام حتى يتم لهم الانقطاع إلى عملهم انقطاعاً تاماً ويفرغوا له طوال الوقت ، أي أن عملهم كان باختصار نوعاً من التطوع لا يأخذون منه أي أجر مادي معلوم ، مما يؤكد لنا أن عمل هذا الديوان ، وإن كان يتم بوعي تام لوظيفته وأهميته ، لم يأخذ طابعاً تنظيمياً راسخاً ، وبقي يجري في عفوية تامة من غير إلزام ولا تقييد . وكان الحاضر من هؤلاء الكتاب يسد مسد الغائب . ويروى أن عددهم الإجمالي - زمن النّبي ﷺ - كان يبلغ نحو خمسة وأربعين كاتباً[٥] .

وقد كانت أنواع الكتابات التي تصدر عن هذه المجموعة من الكتاب كثيرة ، منها : الإقطاع ، والمعاهدات ، والاتفاقات ، والأمان ، والصلح ، والمهادنات ، والمقاسم ، والمغانم ، والسُّنَن والفرائض والدِّيات ، والصدقات ، وصكوك البيع والعتق والفداء ، وعقود الزواج ، والمداينات ، والبراءات ، والعهود . ولعل أهم هذه الكتابات كانت كتابة الرسائل ، يؤكد لنا ذلك أن ديوان الرسائل فيما بعد ،

---

(١) م . ن .

(٢) م . ن .

(٣) م . س ، ص ١٣

(٤) م . ن .

(٥) نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي لحسين نصار ، ص ٤٣

حين أخذ شكله الواضح المنظَّم ، كان يخوض في أكثر تلك الكتابات المذكورة ، إلا أنه لم يُسَمَّ إلا بالرسائل ، لكونها أبرز نشاطاته وأخطرها ، بل وأكثرها أيضاً[1] .

وقد استمرت ظاهرة كتابة الرسائل والأنواع الكتابية الأخرى على ما هي عليه من عفوية إلى أواخر فترة الخلفاء الراشدين . وذكر القلقشندي أن ديوان الرسائل « أول ديوان وضع في الإسلام ، ذلك لأن النَّبي ﷺ كان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة رضوان الله عليهم ويكاتبونه ، وكتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام ، وبعث إليهم رسله بكتبه »[2] . وقد ناقش د . حسين نصار هذا الرأي وخلص إلى القول : « لا يمكننا تصديق هذا الخبر ، بل نقول إن هذا الديوان لم يوجد حتى في عهد الخلفاء الراشدين أنفسهم »[3] ، ونحن نؤيد هذا الرأي إذا نظرنا إلى هذا الديوان من الناحية التنظيمية البحتة ، وليس من الناحية الوظيفية التي كانت تؤدى في زمن النَّبي ﷺ وخلفائه الراشدين على خير وجه .

ومن المعروف أن الولاة والعمال في عهد النَّبي ﷺ وخلفائه الراشدين كانوا هم الذين يكتبون رسائلهم بأنفسهم ، وهم الذين يجيبون النَّبي ﷺ وخلفاءه ، ولم يكن إلى جانبهم كُتّاب منقطعون إلى كتابة مثل هذه الرسائل أو دواوين منظمة لخدمة هذا الغرض .

ب ـ ديوان الخاتم :

عرف ختم الرسائل بعد طيّها أولفّها أو حزمها عند الأمم القديمة في

---

(١) صبح الأعشى ، ٩٠/١

(٢) م . س ، ٩١/١

(٣) انظر كتابه : نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ، ص ٤٨

الحضارة ، كالمصريين القدماء[1] ، والفرس[2] ، وغيرهم[3] . ويروى أن أول من ختم الرسائل عند العرب في الجاهلية عمرو بن هند ، بعد أن بلغه خبر ما فعل المتلمس بصحيفته المشهورة[4] .

وكان النَّبي ﷺ أول من اتَّخذ الختم في الإسلام ، إلا أن المرء يقع أحياناً في اللبس بين نوعين من الختم : الأول الختم الذي يكون في آخر الرسالة . والثاني الختم الذي يقع على حزام الرسالة بعد لفّها أو طيّها ، ليكون مانعاً من فضّها والاطِّلاع على مافيها من أسرار أو تغيير شيء فيها بالتزوير ، ولا يفض هذا الختم إلا من أرسلت إليه الرسالة ، حتى إذا فضّها أحد غيره ظهر ذلك عليها .

ووظيفة الختم في النوعين إنما هي واحدة ، أعني توثيق الرسالة وإثبات صحتها ودفع الشك عنها . فهل كان النبي ﷺ يستخدم النوعين معاً أم نوعاً واحداً ؟

---

(١) الأدب المصري القديم لسليم حسن ، ص ٣٣٤ إذ كان يختم على الحزام بقطعة من الطين عليها خاتم المرسل .

(٢) يروى أن كسرى أبرويز كان له تسعة خواتم كل منها مخصص لمجال من المجالات ، فكان منها خاتم من حديد نقشه صورة عُقاب « يُخْتَم به كتب الملوك إلى الآفاق » ، انظر : مروج الذهب للمسعودي ، ٢٧٨/١ ـ ٢٧٩ ، ويروى أن خاتم الأكاسرة للبريد كان صورة ذباب يريدون أنه لايحجب ، انظر : أدب الكتاب للصولي ، ص ١٤٢

(٣) يجد المرء في أسفل الرسائل التي وصلت إلينا من حضارتي أوغاريت وايبلا على الرقم أختاماً منقوشة ، ومع أن هذه الرقم مكشوفة إلا أن التزوير فيها من أعسر الأمور .

(٤) صبح الأعشى ، ٣٥٣/٦ وهذا يعني أن الرسالة أصلاً كانت مفتوحة ، غير أننا نرجح أنها كانت مختومة ومغلقة ، وهذا أقرب للصواب ، إذ لم يكن عمرو بن هند يأمن ألا يتصل طرفة والمتلمس بمن يقرأ لهما ما في صحيفتيهما لوكانتا مفتوحتين ، والدليل على ذلك أن طرفة أبى أن يقرأ ما في صحيفته لئلا يفضّها أو يفسد ختمها ويبطل ما كان يظنه فيها من أمر بجائزة ، وإلا كان أيسر شيء عليه أن يلقيها إلى من قرأ صحيفة المتلمس لتطمئن نفسها إلى مافيها من خير أو شر مادام ذلك لن يغير في الأمر شيئاً ، إلا أن هنالك مانعاً كان يحول دون ذلك هو الختم .

يتبين لنا مما وصل إلينا من أخبار أن النبي ﷺ كتب رسائل إلى الملوك والأمراء منصرفه من الحديبية في أواخر سنة ٦ للهجرة ، وانطلق رسله بها في مطلع سنة ٧ للهجرة ، وهو يدعوهم فيها إلى الإسلام ، فقيل له : « يا رسول الله ، إن الملوك لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً ، فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتماً من فضة ، فَصُّه منه ، ونقشه ثلاثة أسطر : محمد رسول الله ﷺ ، وختم به الكتب »[١] ، وتروى عن هذا الخاتم أخبار كثيرة حول سبب اتخاذه ، ومَنْ صنعه له ، ومادته ، ونقشه ، وانتقاله إلى أبي بكر وعمر وعثمان من بعده ، وضياعه[٢] ، ولا مجال لذكرها هنا ، وإذا نظرنا إلى ختم كتابَيِّ النبي ﷺ اللذين ذكر أن أصلها وصل إلينا وهما مبعوثان إلى المقوقس والمنذر بن ساوى ، فإننا نفهم من هذا الختم النوع الأول الذي تُمْهَر به الرسالة في أسفلها بعد انتهاء نصها مباشرة ، ولكن يعترضنا خبر آخر يذكره ابن سعد رواية عن عمرو بن العاص الذي حمل كتاب النبي ﷺ رسولاً إلى جَيْفَر وعبد ابني الْجُلَنْدى بعُمان سنة ٨ هـ ، إذ يقول : « فدفعتُ إليه ـ يريد : إلى جيفر وكان الملك ـ الكتاب مختوماً ، ففض خاتمه وقرأه »[٣] ، إذ إن المفهوم من الفض هنا إنما هو الختم على الطينة الموضوعة على حزام الرسالة من الظاهر وليس من الباطن ، لأن الختم الداخلي لا يفض بطبيعة الحال[٤] ، وهذا يقتضي كتابة عنوان الرسالة على حيز واضح من خارجها بعد الطي أو اللف أو الحزم ، وخاصة إذا كان المرء يحمل أكثر من رسالة ، لئلا يلتبس عليه الأمر ، إلا أن الأمر لا يحتاج إلى مثل هذه الكتابة على ظاهر الرسالة

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٢٥٨/١ و ٤٧١ وأدب الكُتّاب للصولي ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٤٧٢/١ ـ ٤٧٧ وفتوح البلدان للبلاذري ، ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨ ومقدمة ابن خلدون ، ص ٢٦٤ وصبح الأعشى ، ١٣٢/٢ و ٢٦٩/٣ و ٣٥٣/٦ ـ ٣٥٤

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٢٦٢/١

(٤) ومن الجائز أنه أراد بـ (خاتمه) ههنا حزامه لأكثر ، وهذا أقرب إلى طبيعة الأحوال وبساطة الرسائل حينذاك .

إذا كانت وحيدة مع حاملها ، أو كان لكل رسالة علامة مميزة يدركها هذا الحامل فلا يقع في اللبس بينها . ونتساءل هنا : أيّ الختمين المذكورين كان النبي ﷺ يستعمل في رسائله ؟[١] . فإذا كان يستعمل النوع الثاني ، أي الختم الخارجي ، فلماذا روى لنا القدماء أن معاوية كان أول من اتخذ ديوان الخاتم بعد حادثة التزوير المشهورة التي جرت في خلافته ؟[٢] . فإن كان هذا الخبر صحيحاً دلّ ذلك ، على وجه الترجيح ، على أن جميع كتب النبي ﷺ كانت مختومة من الداخل فقط ، وأنها بقيت من الخارج مفتوحة يمكن للمرء أن يطلع على مضمونها بكل حرية ، ونغلّب أن تكون هذه الطريقة متبعة حتى وقعت تلك الحادثة زمن معاوية ، فاضطر إلى ختم الرسائل ختماً ثانياً من الخارج بعد حزمها منعاً لفضها وإحداث أيّ تغيير فيها أو تزوير . وإذا لم يكن هذا الخبر صحيحاً ، فإننا نرى أن النبي ﷺ وخلفاءه الراشدين كانوا يختمون على وجه الإجمال من الداخل ، وأما في بعض الظروف الخاصة ، مثل الكتابة إلى الملوك أو في بعض المسائل الخطيرة[٣] ، فكانوا يختمون الرسالة فيها ختمين : أحدهما داخلي ، والآخر خارجي . ونظن أن عدم الختم من الخارج لا يعني دائماً أن الرسالة لم تكن محزومة بخيط وما أشبهه ، أو ملصقة بمادة من المواد اللاصقة إن كانت ورقاً ، بل إنها قد تكون كذلك حيناً وتكون حرة طليقة في أحيان كثيرة .

---

(١) وقد أشار ابن خلدون بوضوح إلى قضية اللبس هذه بين نوعي الختم في الرسائل القديمة ، فقال : « يُخْتَمل أن يكون الختم بهذا الشكل بغمسه في المداد أو الطين ، ووضعه في الصفح فتنتقش الكلمات فيه » ، ثم قال : « ويحتمل أن يُخْتَم به في جسم لين فتنتقش فيه حروفه ، ويجعل على موضع الحزم من الكتاب إذا حزم » ، انظر : مقدمته ، ص ٢٦٥

(٢) انظر : الوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ٢٤

(٣) ذكر الجهشياري في كتابه : الوزراء والكتاب ، ص ٢١ أن أهل مصر منصرفهم عن عثمان ، قبضوا في الطريق إلى مصر على غلام لعثمان ومعه صحيفة « عليها خاتم عثمان ، ففتحوا الصحيفة ، فإذا فيها .. » ، فإذا أخذنا هذا الترتيب على الحقيقة ، فإن الخاتم يكون على ظاهر الرسالة ، وإلا فكيف عرفوا الختم قبل أن يفتحوا الصحيفة إن كان المقصود به الختم الداخلي ؟

وقد كانت المادة التي يُخْتَم بها الكتاب من الداخل هي المداد أو نوعاً خاصاً من التراب الذي يُذاب في الماء[1] ، أما من الخارج فكانت نوعاً من الطين الذي يكون طرياً عند الختم عليه بالخاتم ، ثم لا يلبث أن يصبح صلباً قاسياً عندما يجف فيصعب كسره أو تهشيمه[2] ، وربما كانت تلك المادة من الشمع[3] ، أو الرصاص[4] ، وما أشبه ذلك من مواد لينة قابلة للتصلب بعد الختم . وذكر ابن خلدون أنه ربما طبع الخاتم الداخلي أيضاً على طرفَي الكتاب عند طيّه وإلصاقه[5] ، كما نفعل نحن في أيامنا .

وهكذا نرى أن الخاتم في زمن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين لم يكن له ديوان منظم ، بمعنى إدارة خاصة به منقطعة فقط إلى العناية بختم كتبهم من الباطن أو الظاهر ، أو منهما معاً ، مع تسجيل بعض المعلومات عن مضمون الرسالة والجهة التي بعثت إليها[6] ، إذ كان ختم الرسائل في زمنهم بسيطاً إلى أبعد الحدود ، يتم بيسر ومن غير تكلف إدارة مختصة به ، مما أدخل هذا الجانب من النشاط الخاص بتوثيق الرسائل في نطاق الدواوين العفوية في تلك الفترة .

ويبدو لنا أن خواتم الخلفاء ، منذ فُقِد خاتم النبي ﷺ بعد ست سنين من خلافة عثمان في بئر أَريسَ ، نُقِشَتْ على الأرجح نقوشاً خاصة بكل منهم ، تمييزاً لكتبهم من كتب غيرهم من الخلفاء ، فكان نقش خاتم عثمان الجديد مثلاً (آمنت

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٤٦ و ٢٦٤ و ٢٦٥ وصبح الأعشى ، ٣٥٦/٦

(٢) وقد روي عن عمر بن الخطاب قوله : « طينة خير من ظِنَّة » ، أي : تهمة ، وروي عن غيره قوله : « إن طَيَّنْتَ وإلا وَقَعْتَ » ، انظر : صبح الأعشى ، ٣٥٣/٦

(٣) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٦٥

(٤) الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ، ص ٢٨٨

(٥) انظر : مقدمته ، ص ٢٦٦ وصبح الأعشى ، ٣٥٦/٦

(٦) الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي ، ص ١٠٧ ومقدمة ابن خلدون ، ص ٢٦٦

بالذي خلق فسوّى)[1] ، وقيل : بل (لَتَصْبِرَنَّ أو لَتَنْدَمَنَّ)[2] . ونقش خاتم علي (المُلْكُ لله الواحد القهّار)[3] . ونقش خاتم الحسن بن علي (لا إله إلا الله الملك الحق المبين)[4] .

جـ - ديوان البريد :

اختلف في أصل كلمة (بريد) هل هو عربي أم أعجمي معرب[5] ، وأياً كان هذا الأصل ، فإنه يدل على نظام معين من أنظمة الدولة والإدارة في المجتمع ، وقد عرف تنظيم البريد تنظيماً إدارياً عميقاً زمن المصريين القدماء والرومان والفرس ، إلا أن العرب في جاهليتهم المتأخرة لم يكونوا يجرون على هذا النظام ، نظراً لعدم وجود دولة منظمة لهم مترامية الأطراف تدار من مركز واحد ، ولم تكن هنالك بالتالي حاجة ماسة إلى هذا النظام .

---

(١) صبح الأعشى ، ٣٥٤/٦

(٢) م.ن .

(٣) م.ن .

(٤) م.ن .

(٥) ذكر ابن منظور أن (البريد) كلمة فارسية أصلها (بريده دم) أي : محذوف الذنب ، لأن بغال البريد عند الفرس كانت محذوفة الأذناب ، علامة لها ، فعُرِّبَتْ ثم خُفِّفَتْ ، وقد توسعوا فيها بعد ذلك فأُطْلِقَتْ على (الرسول) الذي يركب دواب البريد ، واشتقوا منها فعل (أبرد) ، انظر : لسان العرب - مادة (برد) ، ٨٦/٣ - ٨٧ . ونُرَجِّح أن تكون الكلمة معربة عن الكلمة اللاتينية veredus بمعنى : فرس البريد ، وقد ذكر من معانيها أيضاً : فرس السفر وفرس الصيد ، انظر :

Quicherat (L.) et Daveluy (A.), Dictionnaire latin-français (éd. 55, Librairie Hachette, Paris), v.veredus, p.1477

وهذا يجعلنا نذهب إلى أن الكلمة من الدخيل المعرب ، أما ما روي عن الخليل من أدلة على عربيتها ، فهو مدفوع لعدم وجود رابط دلالي متين بين معناها والمعاني العربية التي ذكرها ، انظر : صبح الأعشى ، ٣٦٧/١٤

ويبدو لنا جلياً أن الأمور سارت على هذا النحو في زمن النبي ﷺ ، ثم في زمن خلفائه الراشدين ، إذ لم تكن لهذا البريد إدارة منظمة خاصة به ، ولم تكن له طرق تصل أطراف الدولة القصية بمركزها الإداري ، ولم تكن له محطات ولا خيل ولا موظفون منقطعون إلى نقل الرسائل من جهة إلى أخرى وبأقصى سرعة ممكنة ، كما كان عليه الأمر عند الروم والفرس مثلاً ، إذ رأينا أن البريد كان يعد لازمة أساسية وحساسة لبقاء الدولة وأمن المجتمع ، بما يحمل من أخبار العدو عن طريق العيون والجواسيس ، وما ينقل من معلومات عن أحوال المجتمع والرعية ، وعن سير الحياة اليومية وتطبيق الأنظمة والشرائع المعمول بها ، وما ينقل من أوامر وتوجيهات من الملك إلى عماله في كل مكان .

ومع ذلك فقد اعتمد النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون لتحقيق هذه الغايات على نظام (الرسل) الذين كانوا يبعثون إلى الجهات المختلفة برسائلهم ، ثم يأتون هم أنفسهم بجواباتها ، أو يأتي رسل خاصون من لدن القوم الذين بعثوا إليهم يحملون تلك الجوابات . وكان لهؤلاء الرسل ، في ذلك الوقت ، نوع من الحماية الأخلاقية تشبه المفهوم من مصطلح (الحصانة السياسية) للسفراء في أيامنا ، ويتجلى ذلك في قول معاوية لصَعْصَعَة بن صُوحان رسول علي إليه : « أَمَا إنَّه لو كانت الرسل تقتل في جاهلية أو إسلام لقتلْتُك »[1] . غير أن هؤلاء الرسل لم يكونوا هيئة ثابتة من الرجال المنقطعين إلى هذا العمل ، إذ لم تجر عليهم أجور مرتبة أو أرزاق ، ولم يُزَوَّدوا بخيل أو إبل تنقلهم إلى غاياتهم ، ولم تُعْمَل لهم محطات يرتاحون فيها ويسلمون الرسالة إلى الموكلين بها على التوالي ، فكان حامل الرسالة يَعْمِد إلى وسائله الخاصة في ذلك كله ، ولا يسلِّم الرسالة إلى غيره بأي حال من الأحوال ، بخلاف البريد المنظم الذي تنتقل فيه الرسالة على أيدٍ عديدة إلى أن تصل إلى غايتها .

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ، ٤٨/٣

ولـذا فقـد كان هـؤلاء الرسـل يُختـارون من بين أفضـل الرجـال المعروفين بالقدرة على تحمل مشاق السفر ، والموصوفين بالأمانـة ، وقوة الإيمـان ، والعقل ، وقـوة الرأي ، والفصـاحـة ، وسعـة الاطـلاع ، والجرأة ، ليكـونـوا بمنزلـة السفراء الحقيقيين الـذين يمثلـون من أرسلـوهم خير تمثيـل ، ويعبرون عن قضـايـاهم ، ويخدمون مصالحهم . وكتب المصادر تَعِجُّ بأسماء الرسل الـذين بَعَث بهم النبي ﷺ وخلفـاؤه الراشـدون ، أو بُعِثـوا إليهم من قـادة جيـوشهم أو عمـالهم في الأمصـار المختلفة ، ولا سبيلَ هنا إلى حصر عددهم أو سرد أسمائهم ، ولذا فإننا نكتفي بـذكر أسماء الرسـل الـذين بَعَث بهم النبي ﷺ إلى الملـوك والأمراء حـاملين كتبـه التي يدعوهم فيها إلى الإسلام : يروي ابن سعد[1] أن النبي ﷺ لما رجع من الحـديبيـة في شهر ذي الحجة سنة ٦ هـ ، أرسل هؤلاء الرسل بكتبـه ، فخرج منهم ستـة نفر في يـوم واحـد من شهر محرم سنــة ٧ هـ ، فـانطلـق عمرو بن أميـة الضَّمْرِيّ إلى النجـاشي ، ودِحْيَـة بن خليفـة الكلبي إلى قيصر الروم ، وعبـد الله بن حُـذافـة السهمي إلى كسرى أبرويز ، وحاطب بن أبي بَلْتَعَة اللَّخْمِيّ إلى المقوقس صـاحب الإسكندرية وعظيم القبـط ، وشجـاع بن وهب الأسـدي إلى الحـارث بن أبي شَمِر الغساني بدمشق ، وسَلِيط بن عمرو العامري إلى هَوْذَة بن علي الحنفي باليمامة .

ويمكن القول هنا : إن النـاس جميعاً في تلـك الفترة كانوا يتبـادلون الرسـائل الخاصة عن طريق الرسل الـذين يبعثون بهم ، أو عن طريق التجـار المتنقلين بين البلدان أو المسافرين ، أو عن طريق الحجـاج الـذين يـأتون من كل فجّ عميق إلى مكة والبيت العتيق مارين بعدد كبير من المدن والقرى . ولم تكن هنـالـك إدارة بريـد منظم لحمـل رسـائـل أفراد الرعيــة من بعضهم إلى بعض ، وربمـا حـدثت استثناءات قليلة كان رسول الخليفة يحمل فيهـا مثل هـذه الكتب من مـدينـة إلى

---

(١) ونقتصر هنا على روايته للخبر لئلا نـدخل في اختلاف الروايـات بين المصـادر القـديمـة ، فـانظر كتابه : الطبقات الكبرى ، ٢٥٨/١ ـ ٢٦٣

أخرى في الـدولـة ، كما ورد في خبر يقـول : « أبرد عمر بريـداً إلى عتبـة بن أبي سفيان بالبصرة ، فأقام بها أياماً ثم نادى منادي عتبـة : من أراد أن يكتب إلى أهله بالمدينـة أو إلى أمير المؤمنين شيئـاً فليكتب ، فـإن بريـد المسلمين خـارج ، فكتب الناس »[1] ، فإن كان هـذا الخبر صحيحـاً ، وهـذا مـانرجحـه نظراً لكون غايته الخدمة العامة للناس - إذ إن رسول عمر عائد إلى المدينـة ، ولن يثقل عليـه ذلك في شيء - وإن كان مثل هذا التصرف قاعدة عامة وليس استثناء ، استنبطنا من ذلك وجود خدمة بريدية عامة عفوية وطوعية ليس لها صبغـة تنظيميـة ذات مسؤوليـة دقيقـة ، وبـالتـالي فـإن هـذا الطريـق لا يختلف كثيراً عن الطرق التي ذكرناها آنفاً لتبادل الرسائل بين أفراد الرعية .

ويروي ابن منظـور أن النبي ﷺ كان يكتب إلى أمرائـه : « إذا أَبْرَدْتُمْ إِلَيَّ بَرِيداً ، فَاجْعَلُوهُ حَسَنَ الوَجْهِ ، حَسَنَ الاسْمِ »[2] ، فـإذا ضممنـا هـذا الحـديث إلى الخبر السابق وجدنا أن معنى البريـد فيهما هو : الرسول ، وأبرد : أرسل أو بعث ، والدليل على ذلك واضح . وقد رُوِي عن النبي ﷺ أنـه كان يظهر اهتمامـاً بـالغـاً بوصول الرسائل إلى أصحابها ، ومن ذلك قوله : « مِنْ أَعْظَمِ الأَمانَـةِ أداءُ الكِتـابِ إلى أَهْلِهِ »[3] ، وقوله : « مَنْ بَلَّغَ كِتابَ غازٍ في سَبِيلِ اللهِ إلى أَهْلِهِ أَوْ كِتـابَ أَهْلِـهِ إِلَيْهِ كانَ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عِتْقُ رَقَبَةٍ ، وَأَعطاهُ اللهُ كِتابَـهُ بِيَمينِـهِ ، وَكَتَبَ لَـهُ بَراءَةً مِنَ النّارِ »[4] ، وفي مثل هذه المبالغة في عدّ تبليغ الرسالة من أعظم الأمـانـة شيء من الإلزام ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَماناتِ إلى أَهْلِها ﴾[5] ، ثم إن المبالغة أيضاً في أجر مبلِّغها ترغيب مغرٍ يحث على تقديم هذه الخدمـة طوعـاً

---

(١) جمهرة رسائل العرب ، ٢٨٣/١

(٢) لسان العرب : مادة (برد) ، ٨٦/٣

(٣) صبح الأعشى ، ٣٥٨/٦

(٤) م.ن .

(٥) القرآن ، ٤ / من الآية ٥٨

للناس طمعاً في هذا الأجر العظيم . وقد رُوِي في حفظ سر هذه الرسائل وكتمان مضمونها وعدم الاطلاع على مافيها حديث عن النبي ﷺ يقول فيه : « مَنِ اطَّلَعَ في كِتابِ أَخِيهِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ أَطْلَعَهُ اللهُ طَلْعَةً في النّارِ »[1] ، وهذا يدل على أن كتب أفراد الرعية فيما بينهم كانت مفتوحة وغير مختومة من الظاهر بشيء يمنع من الاطلاع على مافيها ، وذلك في مطلق الأحوال ، لأن سواد الناس غير قادرين على اتخاذ الأختام وما يتصل بها من مواد كالطين والشمع والرصاص .

٢ ـ الدواوين المنظمة :

أ ـ ديوان الجند :

وقد دعت ظروف الفتح إلى اتخاذه نظراً للحاجة إلى ضبط المشاركين في جيوش هذا الفتح ، وكان سببه أن عمر بعث بعثاً وعنده الْهُرْمُزان ، فقال لعمر : « هذا بَعْثٌ قد أعطيتَ أهله الأموال ، فإن تخلف رجل منهم وأخلَّ بمكانه فمن أين يعلم صاحبك ؟ فَأَثْبِتْ لهم ديواناً ، فسأله عن الديوان حتى فسَّره له »[2] ، فاستشار الصحابة في ذلك فأشاروا عليه به ، وذكر بعضهم أنه كان قد رأى الملوك في الشام قد دَوَّنوا ديواناً وجَنَّدوا جنوداً ، فكتب عمر الناس على منازلهم من النبي ﷺ في النسب وعلى السابقة[3] .

وذكر اليعقوبي أن عمر دَوَّن الدواوين وفرض العطاء سنة ٢٠ هـ[4] ، ونحن

---

(١) صبح الأعشى ، ٣٦٢/٦

(٢) أدب الكتاب للصولي ، ص ١٩٠ وقد ورد اسمه فيه (الفَيْرُزان) ، وحُدِّدَتْ لذلك سنة ١٣ هـ ، ونحن نستبعد هذا التاريخ كما أننا نستبعد أن يكون (الْهُرْمُزان) صاحب الاقتراح في تلك السنة لأنه أسر بعدها ببضع سنين ، وانظر : نهاية الأرب للنويري ، ١٩٧/٨ وصبح الأعشى ، ١٠٦/١٣

(٣) نهاية الأرب للنويري ، ١٩٨/٨ وصبح الأعشى ، ١٠٧/١٣

(٤) انظر : تاريخه ، ١٥٣/٢

نستبعد أن يكون تدوين ديوان الجند قد تأخر إلى هذا التاريخ ، لأن الفتوح بدأت بالاشتداد من سنة ١٣ هـ ، فلا بدَّ إذن من بروز الحاجة إلى مثل هذا الديوان بُعَيْد ذلك مباشرة . وقد ورد عند الطبري أن تدوين عمر الدواوين كان سنة ١٥ هـ[1] ، وهذا أقرب الأزمنة إلى واقع الحال ويمكن أن يكون أصحها .

ويبدو لنا أن وظيفة هذا الديوان لم تكن تقتصر على تدوين أسماء الجند في الجيش وفق مِعْيارَي النسب والسابقة فحسب ، وإنما كان يسجل مع الاسم ما يسمى بـ (حِلْيَة) صاحبه ، أي صفاته الخاصة وسماته الفارقة أو المميِّزة له من غيره ، نظراً لتشابه الأسماء في كثير من الأحيان . وربما سُجِّلَتْ مع ذلك أسماء أزواجه وذراريه ومنازلهم ، حتى يكون هذا الديوان شاملاً وضابطاً في الوقت نفسه ، إلا أننا لا نستطيع تكوين فكرة دقيقة عن طبيعة هذا الديوان وطريقة عمله ، لأن الوثائق اندثرت فيما اندثر من آثار المتقدمين في صدر الإسلام والعصر الأموي ، لأن الحاجة إلى الاحتفاظ بسجلات هذا الديوان كانت تزول بعد مرور الوقت وتوقف الفتح واستقرار الناس في الآفاق .

وكانت غاية هذا الديوان ضمان الحقوق المادية من أموال الفيء لجنود الفتح ولمن يرثهم بعد موتهم أو استشهادهم . وهي غاية غير سهلة البتة ، لأنها تتطلب عدداً غير قليل من الكتاب الذين ينفذون هذه السجلات ويعدونها ، وخاصة حين نعلم أن السواد الأعظم من العرب قد انخرطوا في صفوف جيوش الفتح هذه زمن عمر وعثمان ، ولو وصلت إلينا سجلات هذا الديوان لأخذنا منها علماً واسعاً بالنسب خاصة . وبعد قيام الدولة الأموية صار للدولة جيوش نظامية محدودة ومضبوطة تماماً ، وقائمة في أيام السلم ، وكانت هنالك أعداد كبيرة من المتطوعة والمنتدبين من الرعية تستنفر مع هذه الجيوش عند الملمات ، من غير أن تشمل هذه الجيوش على الحالين أفراد الأمة جميعهم .

(١) انظر : تاريخه ، ٦١٣/٣

ب ـ ديوان العطاء :

قد يشتبه علينا الأمر بين ديوان الجند وهذا الديوان إلى حد الاعتقاد بأنهما ديوان واحد ، وهذا ناجم عن شدة خلط القدماء بينهما وعدم الدقة في كلامهم على كل منهما بمعزل عن الآخر . مع أن الظاهر أن أحدهما يكمل وظيفة الآخر ، إلا أن الأول يقتصر في سجلاته على المشتركين في الحروب فعلياً ، أما الثاني فإنه يشمل ما يسمى في أيامنا (الجبهة الداخلية) التي تسهم في دعم أولئك المقاتلين وهم في مواقعهم التي يسهرون على حفظها والدفاع عنها وحسن إدارتها ، ولولاهم ما كان للمقاتلين أن ينعموا براحة البال على أهليهم وذراريهم ، أو يقاتلوا باطمئنان ويفتحوا البلدان ويتسببوا في انهيال الأموال على بيت المال من الفيء . وكان سببه أن عمر سنة ١٥ هـ كما يذكر ابن الطقطقي « رأى أن الفتوح قد توالت ، وأن كنوز الأكاسرة قد مُلِكَتْ ، وأن الْحُمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت ، فرأى التوسع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم ، ولم يكن يعرف كيف يصنع وكيف يضبط ذلك »[(١)] ، وكان عنده بعض الْمَرازبة من الفرس ، فأشار عليه بالديوان الذي كان الأكاسرة يتخذونه لضبط جميع دخلهم وخرجهم من غير أن يشذ منه شيء ، ولترتيب أهل العطاء في مراتب لا يتطرق إليها خلل ، فأمر بتدوين ديوان العطاء[(٢)] ، وهكذا فإن المرء يتبين من وظائف هذا الديوان ضبط موارد بيت المال الداخلة فيه والأموال الخارجة منه في مجال أموال الفيء فقط . ولم يكن هذا الديوان يشمل غير السابقين إلى الإسلام وأهل النُّصْرة أو السابقة من المهاجرين والأنصار وسائر العرب ممن شهدوا الوقائع والمشاهد مع النبي ﷺ ، وكان ترتيبه لهؤلاء على النسب قرباً وبعداً من

---

(١) انظر كتابه : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٨٣ وذكر البلاذري في كتابه : فتوح البلدان ، ص ٤٣٦ و ٤٤٣ أن ذلك كان سنة ٢٠ هـ .

(٢) الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي ، ص ٨٣ ونهاية الأرب للنويري ، ١٩٧/٨

النبي ﷺ تسهيلاً للعمل ، فكان الناس في هذا الديوان طبقات بحسب زمن إسلامهم والمواقع التي حضروها ، وكان لكل طبقة منهم مقدار معين من العطاء يُدْفَع إليهم كلَّ عام ، وكان هذا المقدار يقلّ كلما تأخر هذا الزمن . وقد اسْتُخْدِم لتدوين أهل العطاء هؤلاء كُتّابٌ ذوو علم بالأنساب[1] .

وكان المال إذا ورد المدينة قبلَ ذلك أيامَ النبي ﷺ وفي خلافة أبي بكر « أُحْضِر إلى مسجد الرسول ﷺ ، وفُرِّق فيهم على حسب ما يراه »[2] ، فلا يبقى منه في بيت المال شيء ، وعلى ذلك جرى عمر وعثمان وعلي في توزيع الأموال ، إلا أنه كان مضبوطاً في أيامهم بهذا الديوان : على الطبقات زمن عمر وعثمان ، وعلى السَّوِيَّة زمن علي .

ولم يكن ديوانا الجند والعطاء مركزيين ، نظراً لانتشار الفتح واتساع رقعة الدولة ، ولذا فقد كان في كل مصر من الأمصار ، ولا سيا قاعدته الأساسية التي كانت في البداية بمنزلة معسكر وتجمع حربي ، ومنها على سبيل المثال البصرة والكوفة إذ كان فيها « ديوانان لإعطاء الجند والمقاتلة والذرية »[3] .

جـ - بيت المال والأرزاق :

يبدو أن بيت المال لم يكن ديواناً قائماً بذاته ، وإنما كان تابعاً لديوان العطاء مباشرة ، وكانت مهمته الأساسية أشبه اليوم بمهمة (المصرف المركزي) في كل دولة من الدول الحديثة ، أي إيداع الأموال الواردة وخزنها وحفظها من السرقة أو النهب أو الاختلاس ، وتسجيل الوارد إليه والصادر عنه من هذه الأموال ، ولذا كانت مفاتيحه تسلم إلى أيدٍ موثوقٍ بأمانة أصحابها عند الخليفة وبعفتهم ونزاهتهم ، ويبدو أن أمواله على وجه العموم لم تكن تخزن في زمن الراشدين على

(١) فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٤٤٣ - ٤٤٤ وتاريخ الطبري ، ٢٠٩/٤ - ٢١٠

(٢) الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٨٣

(٣) أدب الكتاب للصولي ، ص ١٩٢

مدار السنة ، بل كانت تحفظ ريثما توزع بعد وصولها بقليل على مستحقيها ، أما ما يسمى بـ (الأرزاق) التي جُعِلَتْ لأهل العطاء وذراريهم مشاهرة[1] ، فكانت تصرف من ملاحق لبيت المال هي أشبه بما نسميه اليوم (المستودعات) التي تحفظ فيها المواد الاستهلاكية ، ويبدو أن أهم المواد فيها آنذاك كانت الزيت والسمن والقمح والدقيق والثياب .

وكانت الأموال التي تصب في بيت المال نوعين : الأول أموال الفيء من الخراج والجزية ، وأموال الأخماس من غنائم حروب الفتح ، وأموال العشور من تجارة أهل الذمة وأهل الحرب . والثاني أموال الصدقات التي تؤخذ من المسلمين . وقد ذكر الماوردي الفرق بين النوعين مصدراً ومصرفاً ومتوليَ الصرف فيهما وحكمَ كلٍّ نوع منهما[2] ، ونتبين من ذلك أن الْمُعَوَّل في إعمار بيت المال كان على النوع الأول ، ذلك لأن الصدقات كانت تُرَدُّ على فقراء المنطقة التي حصلت منها في مطلق الأحوال ، فلا يبقى منها عملياً غير القليل أو لا يبقى منها شيء لبيت المال . وأما أهل العطاء فكانوا يأخذون من أموال الفيء والغنائم والعشور فقط .

وخلاصة القول أن هذه الدواوين العربية التي كانت عفوية أو منظمة تنظيماً بسيطاً كان لها أثر عميق في ازدهار الخط والكتابة وانتشار الرسائل التي تتطلبها إدارتها إدارة نشيطة وفعالة ودقيقة ، مما يؤكد لنا دورها البارز في حركة الكتابة أولاً ، وفي ازدياد عدد الكتاب ازدياداً مطرداً وكبيراً ثانياً ، ذلك لأن حاجة هذه الدواوين إلى الكُتّاب كانت مستمرة ، وكان توسع رقعة الدولة بالفتوح يزيد من عددها في الأمصار ، كما أن تعقُّد نظام الإدارة كان بدوره يزيد من تلك الحاجة ، وهذا كله كان محرضاً كافياً لإقبال الناس على الكتابة وتعلمها والتزود منها إلى حدّ الإتقان لمن أراد أن ينخرط في أعمال أحد هذه الدواوين .

---

(١) م.س ، ص ١٩٠

(٢) انظر كتابه : الأحكام السلطانية ، ص ١٢٦

الفصل الثالث

كُتّاب النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وعمالهم

١ ـ كُتّاب النبي ﷺ :

كان النبي ﷺ يقدر أهمية الكتابة في نجاح دعوته وانتشارها واستمرارها ، ولتسخير هذه الكتابة في خدمة الدعوة كان لا بدّ له من أن يستغل الطاقات الكتابية المتاحة له بين صحابته ، وخصوصاً بعد الهجرة إلى المدينة التي عُدَّتْ فاصلاً تاريخياً بين عهدين من الدعوة : الأول عهد الدعوة باللسان والجدل والإقناع من غير توفر القوة المادية لحماية هذه الدعوة . والثاني عهد الدعوة ذات الشوكة والمنعة . وقد شهد العهد الثاني تنظيماً عملياً ونظرياً واسعاً للمجتمع الجديد ، ولم يكن مثل هذا التنظيم ليبقى في كثير من جوانبه شفوياً ، ولم يكن هنالك بُدٌّ من الكتابة والتدوين . وقد اختار النبي ﷺ من صحابته عدداً من الكتاب المتقنين للكتابة والخط إتقاناً جيداً ، وغلب على اختيارهم كونهم من المقربين إلى النبي ﷺ والذين يثق بهم ، ليكونوا مخلصين له في أداء ما يطلب منهم تقييده في مختلف المجالات . فَمَنْ هؤلاء الكتاب ؟ وماذا كانوا يكتبون ؟

لم يكن أيٌّ مصدر من المصادر القديمة التي تناولت حياة النبي ﷺ أو تاريخ دعوته بعد الهجرة خاصة ، يغفل الإشارة إلى كُتّاب النبي ﷺ وأنواع الكتابات التي مارسوها بأمره ، فكانت الإشارات تتوالى إلى أحد هؤلاء الكتاب أو إلى طائفة منهم ، من غير أن تحاول إجراء إحصاء دقيق وشامل لعددهم ، إذ كانت تلك الإشارات ترد في معرض ترجمة أحد الصحابة أو في سياق خبر لم يوقف على

حصر عدد الكتاب ، ولا استقصائهم ، ولذا كانت هذه الإشارات متفاوتة ، ولا يمكننا بطبيعة الحال أن نحصر هؤلاء الكتاب بدقة لأننا نفتقر في الحقيقة ـ كما افتقر القدماء من قبل ـ إلى معيار محدد ودقيق لمفهوم (الكاتب) الذي يمكن أن يدخل آنذاك في نطاق هذا الحصر : هل يمكن أن يُحَدَّد بقدر ملازمته النبي ﷺ أم بنوع الكتابة التي كان يمارسها أم بمجرد كتابة أي شيء له أو بحضرته ولو كان حدث مرة واحدة فقط ؟ لذا لانرى أهمية ملحة لحل هذا الإشكال ، إذ لاتُعَلَّق عليه فائدة كبيرة ، ونكتفي بالإشارة إلى إحصائية قديمة وردت عند القلقشندي إذ يقول : « قد رأيتُ في سيرة لبعض المتأخرين أنه كان للنبي ﷺ نَيِّفٌ وثلاثون كاتباً »[1] ، وإلى إحصائية حديثة وردت عند حسين نصار إذ يقول : « وقد حاولتُ أن أجمعهم ، فعثرتُ بعد البحث على قريب من (خمسة وأربعين كاتباً) ، ولا يخامرني الشك أنهم ليسوا جميع من كتب للرسول ، إذ لابد أنه قد فاتتنا أسماء كثيرة في الإحصاء كما يُرَجِّح أن ذكر كثيرين منهم ضاع فيما ضاع من كتب »[2] . وهذا التفاوت في الإحصاء ظاهرة طبيعية بلا ريب ، لأن عمل الكتابة على وجه الإجمال كان طوعياً وعفوياً في الوقت نفسه ، مما لا يفسح مجالاً واسعاً لدقة هذا الإحصاء ، نظراً لعدم استقرار الظاهرة نفسها .

ويلاحظ إلى جانب ذلك نوع من توزيع الاختصاصات على هؤلاء الكتاب ـ كما مرَّ بنا من قبل ـ إذ ذكرت بعض المصادر أن اسم بعضهم قد ارتبط بنوع من الكتابة أو عرف به ، ولا شك في أن هذه الاختصاصات كانت ظاهرة تدعو إلى شدة إتقان الكاتب كتابته ، وخاصة إذا كان هذا النوع الكتابي الذي يكتب فيه لايحتاج إلى شيء من الإملاء من غيره ، بل يمكن أن ينشئه بنفسه كما هو الأمر في كتابة المعاملات والمستندات والوثائق مثلاً . غير أن هذا التخصص ـ كما يبدو

(١) انظر كتابه : صبح الأعشى ، ٩٢/١

(٢) انظر كتابه : نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ، ص ٤٣

لنا ـ لم يكن قاعدة عامة إلا في كتابة الوحي لما يحتاج إليه من ثقة أكبر وإتقان أكثر ، أما سائر التخصصات فإننا لا نستطيع الربط بينها وبين كتابها ربطاً أكيداً قاطعاً ، لأن هذه التخصصات لم تكن دقيقة ولا واضحة ولا صارمة مرعية دائماً ، ولذا كانت المصادر تتردد كثيراً في مثل هذا الربط كما ترددت في عدد الكُتّاب أنفسهم ، وسنحاول أن نتبين أبرز مَنْ ورد ذكره منهم في المصادر المختلفة التي أتيح لنا الاطلاع عليها مع ذكر تخصص كل منهم .

كان من أبرز كتاب النبي ﷺ كبار صحابته الذين تولوا الخلافة من بعده : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي[1] . وكان عثمان وعلي من بينهم يكتبان الوحي ، فإن غابا كتبه أُبَيّ بن كعب وزيد بن ثابت[2] ، ويبدو أن زيداً كان ألزمهم جميعاً لكتابة الوحي بين يدي النبي ﷺ[3] وفي مختلف الشؤون الأخرى وخاصة كتابة الرسائل[4] ، وذُكِر زيد كذلك في قُرّاء القرآن على عهد النبي ﷺ[5] أو الذين جمعوه في حياته[6] ، ولهذا يعد زيد عملياً ونظرياً أكثر الصحابة خبرة بكتابة الوحي ، مما جعله أكفأهم لتولي زمام الحركة العلمية الأولى في تاريخ الإسلام[7] ، وهي التي هدفت لجمع القرآن وتدوينه في الصحف زمن أبي بكر

(١) الاستيعاب ، ص ٦٩ وذُكِر عثمان في : فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٤٥٩

(٢) تاريخ الطبري ، ١٧٩/٦ والوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٢

(٣) المحبر لابن حبيب ، ص ٣٧٧ وفتوح البلدان للبلاذري ، ص ٤٥٨ والعقد الفريد ، ٢٥٤/٤ والوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٢ والاستيعاب ، ص ٦٨ و ٥٣٨ و ٨٦٥

(٤) فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٤٥٨ والوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٢ وفي : الاستيعاب ، ص ٦٨ أنه « كان يكتب كثيراً من الرسائل » ، وانظر كذلك ص ٨٦٥

(٥) الاستيعاب ، ص ٣٨٢

(٦) م.س ، ص ٥٣٧ والمقنع لأبي عمرو الداني ، ص ١٢١ حيث ذكر أن بعضهم قد اعترض على هذا الجمع بأنه لو كان حصل منه في حياة النبي ﷺ ما احتاج إلى جمعه وتتبعه عند الناس زمن أبي بكر .

(٧) المقنع لأبي عمرو الداني ، ص ١٢١

أولاً ، ثم لتوحيد نسخته زمن عثمان فيما بعد ، خشية عليه من الضياع في الحالة الأولى ، ومنعاً للاختلاف في وجوه قراءته في الحالة الثانية . ويبدو أن زيداً كان أثيراً عند رسول الله ﷺ وحائزاً ثقته ، حتى قال له : « إِنَّهُ يَأْتِينِي كُتُبٌ مِنْ ناسٍ لاأُحِبُّ أَنْ يَقْرَأَها أَحَدٌ ، فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعَلَّمَ كِتابَ العِبْرانِيَّةِ ، أَوْ قالَ : السُّرْيانِيَّةِ ؟ »[1] ، فتعلمها في سبع عشرة ليلة[2] ، وتَعَلُّمُ زَيْدٍ اللغاتِ الأعجمية قراءة وكتابة ، خدمة للنبي ﷺ في مراسلة أهلها أو الردّ على كتبهم ، أمْرٌ مشهور[3] ، وهذا ينفي ما نقله بعض القدماء من أن النبي ﷺ كان يفهم لغات البشر جميعاً لكونه مبعوثاً إلى الناس كافة[4] .

ورُوِي أن « السجلات التي سجلها رسول الله ﷺ لأهل نجران وغيرهم .. أكثرُها بخط أمير المؤمنين علي بن أبي طالب »[5] ، وكان علي أيضاً يكتب عهود النبي ﷺ إذا عاهد ، وصلحه إذا صالح[6] .

وكان أول من كتب للنبي ﷺ مقدمه إلى المدينة أُبَيّ بن كعب[7] ، وقد ذكره النبي ﷺ ، وهو يصف كُلاً من صحابته بأبرز صفة فيه ، فقال : « وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتابِ اللهِ أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ »[8] ، وكان ممن قرأ القرآن على عهد

---

(١) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ، ١١٥/٢/٢

(٢) م٠ن٠ .

(٣) انظر : فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٤٦٠ والاستيعاب ، ص ٥٣٨ وصبح الأعشى ، ١٦٥/١

(٤) صبح الأعشى ، ١٦٦/١

(٥) م٠س ، ٣٧/١

(٦) الاستيعاب ، ص ٦٩

(٧) فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٤٥٨ والاستيعاب ، ص ٦٨ والإصابة ، ٣٢/١

(٨) الاستيعاب ، ص ١٧

النبي ﷺ[1] ، وكان يكتب الوحي[2] والكتب إلى الناس[3] والإقطاع[4] .

على أن بعض الكتاب كانوا يخونون الثقة التي مُنِحوها أو يزعمون هذه الخيانة ، أو كانوا يبطئون ويتثاقلون عن إجابة النبي ﷺ حين يدعوهم إلى الكتابة ، ولدينا من الطراز الأول شاهد وحيد هو عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، من قريش ، فقد أسلم قبل الفتح وهاجر إلى المدينة ، فاتخذه النبي ﷺ كاتباً للوحي[5] ، ثم إنه ارتد مشركاً قبل الفتح أيضاً ورجع إلى مكة يزعم أن النبي ﷺ كان يملي عليه في أواخر الآيات (سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ) فيكتب (غَفُورٌ رَحِيْمٌ)[6] ، وما أشبه ذلك ، فلما بلغ الخبر النبي ﷺ أهدر دمه لردته من جهة ولزعمه هذا من جهة ثانية ، فلما كان فتح مكة شفع له عثمان وكان أخاه من الرضاع فشفَّعه فيه وعفا عنه وعاد تائباً ، وحَسُن إسلامه وبلاؤه فيه بعد ذلك[7] . وكان من الطراز الثاني شاهد وحيد أيضاً ، إذ يروى أن النبي ﷺ دعا يوماً بمعاوية ليكتب له في شيء ، فقيل له إنه يأكل ، فأمهله مرتين أو ثلاثاً وهو يتباطأ عن إجابته شغلاً بطعامه[8] .

---

(١) م.س ، ص ٣٨٢

(٢) م.س ، ص ٦٨

(٣) م.ن .

(٤) م.ن .

(٥) م.س ، ص ٦٩ و ٩١٨

(٦) فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ وتاريخ اليعقوبي ، ٥٩/٢ والوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٣ والاستيعاب ، ص ٩١٨

(٧) فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٤٥٩ وتاريخ اليعقوبي ، ٥٩/٢ والعقد الفريد ، ٢٥٤/٤ والوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٣ والاستيعاب ، ص ٦٨ و ٩١٨ والإصابة ، ٣٠٩/٢

(٨) وقد ورد الخبر في سياق ترجمة معاوية في : الاستيعاب ، ص ١٤١٦ ـ ١٤١٩

وكان من كُتّاب الوحي أيضاً : معاوية[1] ، وحنظلة بن الربيع التميمي[2] .
وهنالك جهرة أخرى من الكتاب عرفوا بتخصصات أخرى في الكتابة : فكان خالد بن سعيد بن العاص يكتب للنبي ﷺ في حوائجه[3] ، وكان المغيرة بن شعبة والحُصَيْن بن نُمَيْر يكتبان ما بين الناس[4] ، وكان عبد الله بن الأرقم والعلاء بن عقبة يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء[5] ، على أن عبد الله كان أيضاً من المواظبين على كتابة الرسائل للنبي ﷺ[6] ، وكان مُعَيْقِيب بن أبي فاطمة يكتب مغانم النبي ﷺ[7] ، وكان العباس بن عبد المطلب يكتب بأخبار المشركين بمكة إلى النبي ﷺ[8] ، وكان الزبير بن العوام وجُهَيْم بن الصَّلْت يكتبان أموال الصدقات[9] .

وهنالك أسماء أخرى ورد في المصادر القديمة أن أصحابها كانوا ممن كتب للنبي ﷺ شيئاً ، من غير تحديد نوع الكتابة أو التخصص ، مثل : شُرَحْبِيلَ بن

---

(١) تاريخ الطبري ، ١٧٩/٦ والعقد الفريد ، ٢٥٤/٤ والوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٢ والاستيعاب ، ص ٦٩ وصبح الأعشى ، ٣٩/٣

(٢) العقد الفريد ، ٢٥٤/٤

(٣) تاريخ الطبري ، ١٧٩/٦ والوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٢ والاستيعاب ، ص ٦٩ وذُكِر فيه من غير أي تخصص محدد .

(٤) الوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٢ وذُكِر المغيرة في : الاستيعاب ، ص ٦٩ بلا تخصص .

(٥) الوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٢

(٦) تاريخ الطبري ، ١٧٩/٦ والاستيعاب ، ص ٦٩ و ٨٦٥ ـ ٨٦٦

(٧) الوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٢ وذُكِر في : الاستيعاب ، ص ٦٩ بلا تخصص .

(٨) الاستيعاب ، ص ٨١٢

(٩) الإصابة ، ٢٥٧/١ وذُكِرا في : الاستيعاب ، ص ٦٩ بين كُتّاب النبي ﷺ من غير بيان نوع كتابتها .

حَسَنَة الطابخي[١] ، وأبان بن سعيد بن العاص[٢] ، والعلاء بن الحضرمي[٣] ، وعبد الله بن رَواحة[٤] ، ومحمد بن مسلمة[٥] ، وعبد الله بن أُبَيّ[٦] ، وعمرو بن العاص[٧] ، وخالد بن الوليد[٨] .

ويظل تخصص هؤلاء الكتاب تخصصاً عفوياً غير محدد ولا مقيد بأي شرط من الشروط ، أعني أن هذا التخصص لم يكن مضبوطاً ولا منظماً بقواعد وأصول واضحة ، ونؤيد في ذلك ماذهب إليه حسين نصار إذ وصفه بأنه « ليس بالنظام الصارم الواجب اتباعه .. إذ لم يكن الحضور فرضاً عليهم ، ولم يكونوا معينين كُتّاباً له ﷺ »[٩] ، ودليلنا على ذلك أمران : الأول أن هنالك كاتباً مرَّ بنا ذكره هو حنظلة بن الربيع كان يُعْرَف بلقب (الكاتب)[١٠] زمن النبي ﷺ ، تمييزاً له من سائر كُتّابه ﷺ ، وذلك من باب التغليب ، لأنه كان « خليفة كل كاتب من كُتّاب النبي إذا غاب عن عمله »[١١] . والثاني أن النبَي ﷺ كان إذا احتاج إلى الكتابة في شيء « أمر من حضر أن يكتب له »[١٢] ، وهذا يعني عدم الاعتماد الخالص على أحد بعينه في أي اختصاص كان أو بأي نوع من أنواع الكتابة ، مما

---

(١) و (٢) و (٣) فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٤٥٩ والاستيعاب ، ص ٦٩

(٤) الاستيعاب ، ص ٦٩

(٥) م.ن .

(٦) م.ن .

(٧) م.ن .

(٨) م.ن .

(٩) انظر كتابه : نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ، ص ٤٦

(١٠) المعارف لابن قتيبة ، ص ٣٠٠ وعلَّل ابن قتيبة هذا اللقب بالقول إنه كتب للنبي ﷺ مرة كتاباً فسُمِّي بذلك ، ثم عقَّب قائلاً : « وكانت الكتابة في العرب قليلة » ، وهو تعليل مدفوع . وانظر : الوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٣ والاستيعاب ، ص ٣٧٩

(١١) الوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٣

(١٢) الاستيعاب ، ص ٨٦٥

يترك المجال واسعاً لأن يكتب أي كاتب منهم في جميع الأنواع تقريباً . ويدل هذا كله على أن الكُتّاب لم يصلوا بعد في زمن النبي ﷺ إلى أن يكونوا كُتّاباً محترفين متفرغين لأعمالهم الكتابية .

ونحن إذا تأملنا هذا العدد الكبير من كُتّاب النبي ﷺ وأنواع الكتابات التي مرَّت بنا ، أدركنا وجود حركة علمية واسعة كان النبي ﷺ يستقطبها حوله خدمة لأغراض دعوته وفي سبيل نشرها ، وخدمة لمتطلبات تنظيم المجتمع وبناء أسسه الحضارية الراسخة التي تقوم على جهود الكتاب ومنجزات الكتابة في كل مجال .

٢ ـ كُتّاب أبي بكر :

انقطع الوحي الإلهي نهائياً بوفاة النبي ﷺ في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١١ هـ ، فزالت الحاجة إلى كُتّاب الوحي الذين كانوا يلتفون حول النبي ﷺ ، وأصبحت أنواع الكتابات مقتصرة على الكتابات المتداولة بين الناس ، فتحول هؤلاء الكتاب إلى تلك الأنواع على اختلافها ، ويمكن القول إن عِقْدَهم على وجه العموم قد انفرط بعد وفاة النبي ﷺ ، فتفرقوا في البلاد ، وانتشروا بين العباد ، وانشغل كل منهم بحياته الجديدة في ظل حروب الردة أولاً ، وحروب الفتح ثانياً ، وتأثروا بما نتج عن هذه الحروب من تغير نوعي في حياة العرب واستقرارهم ، غير أن عدداً من هؤلاء الكتاب عملوا في زمن أبي بكر في الحركة العلمية الثانية التي نشأت حول جمع القرآن وتدوينه في الصحف ، وقد اشترك بعض هؤلاء مع من نَبَتَ من الكُتّاب الجدد في المرحلة الثالثة أيضاً من هذه الحركة في زمن عثمان[1] .

---

(١) وكانت الحركة العلمية الأولى قد بدأت في حياة النبي ﷺ بعد البعثة متمثلة بتدوين الوحي .

وقد بقي خليفة النبي ﷺ ، مع كونه كاتباً ، يستعين ببعض المقربين إليه من الكتاب الذين كانوا في زمن النبي ﷺ ، مثل : عثمان بن عفان[1] ، وزيد بن ثابت[2] ، وعبد الله بن الأرقم[3] ، وعبد الله بن خلف الخزاعي[4] ، وحنظلة بن الربيع[5] ، ومُعَيْقِيب الدَّوْسيّ[6] ، وكان من حضر من هؤلاء الكتاب أو غيرهم يكتب له أيضاً[7] ، مما يؤكد أن الاحتراف كان لا يزال بعيداً عن هؤلاء الكُتّاب الذين خدموا الخليفة خدمة طوعية غير ملزمة لهم بأي حال من الأحوال .

ولعلَّ بعض كبار الصحابة ، كعمر وعلي مثلاً ، كانوا يترفعون عن الكتابة للخليفة ، أو ربما كان ذلك نتيجة شعور بأن الكتابة عمل أحط من أن يتنزلوا إليه ، وخصوصاً إذا كانت هذه الكتابة إملاء خالصاً من غيرهم ، وهذا يفسر لنا لم كان أكثر كتاب النبي المكثرين من الفتيان النابتين . وكان تفاقم هذا الشعور بين الصحابة وأبنائهم يدعو باستمرار إلى ظهور عدد من الكتاب المحترفين من غير هؤلاء الصحابة أو أبنائهم في أغلب الأحيان ، ولعل هذا الشعور نفسه قد انتقل بعد ذلك إلى العرب عامة فيا بعد ، فأتاح ذلك الفرصة الثمينة لاقتحام الموالي هذا الميدان الحضاري والإداري الخطير ليستولوا عليه ويستبدوا به دون أقرانهم من العرب الذين ظلوا يرون في احتراف الكتابة في دواوين الخلافة أمراً غير لائق بهم ، وخصوصاً في أواخر العصر الأموي .

---

(١) ذكر الطبري في : تاريخه ، ٤٢٦/٣ أنه كان يكتب له الأخبار ، وانظر أيضاً ١٧٩/٦ والوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٥

(٢) تاريخ الطبري ، ١٧٩/٦

(٣) م.ن . وانظر : الاستيعاب ، ص ٨٦٥

(٤) تاريخ الطبري ، ١٧٩/٦

(٥) م.ن . وانظر : الوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٥

(٦) الاستيعاب ، ص ٥٣٨

(٧) تاريخ الطبري ، ٤٢٦/٣

٣ ـ كُتّاب عمر :

كتب له زيد بن ثابت[١] ، وعبد الله بن الأرقم[٢] ، ومُعَيْقِيب الدَّوْسيَ[٣] ، وبلغ من ثقة عمر بزيد أنه استخلفه على المدينة ثلاث مرات في حجتين وفي خروجه إلى الشام[٤] .

٤ ـ كُتّاب عثمان :

كتب له ابن عمه مروان بن الحكم[٥] ، وأبو غطفان بن عوف[٦] ، وأهيب مولاه[٧] ، وحمران مولاه[٨] . غير أن الغالب عليه كان مروان ، فاستبد به من دون الصحابة وسائر الناس ، وكان له دور مهم في خلق جو الفتنة التي انتهت إلى مقتل عثمان سنة ٣٥ هـ لتبدأ مرحلة أخطر دامت حتى تولي معاوية زمام الخلافة بالغلبة سنة ٤١ هـ[٩] .

٥ ـ كُتّاب علي :

كتب له سعيد بن نِمْران الْهَمْداني[١٠] ، وعبد الله بن جُبَيْر[١١] ،

---

(١) المحبر لابن حبيب ، ص ٣٧٧ وتاريخ الطبري ، ١٧٩/٦ والوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٦ والاستيعاب ، ص ٥٣٨

(٢) تاريخ الطبري ، ١٧٩/٦ والوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٦ والاستيعاب ، ص ٨٦٥

(٣) الاستيعاب ، ص ٥٣٨

(٤) م.ن .

(٥) المحبر لابن حبيب ، ص ٣٧٧ وتاريخ الطبري ، ١٨٠/٦

(٦) تاريخ الطبري ، ١٨٠/٦ والوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ٢١

(٧) م.م.ن .

(٨) م.م.ن .

(٩) إعتاب الكتاب لابن الأبار ، ص ٤٩ ـ ٥١

(١٠) تاريخ الطبري ، ١٨٠/٦ والوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ٢٣

(١١) م.م.ن .

وعبيد الله بن أبي رافع[١] ، وذكر الطبري أن عبد الله بن مسعود كتب له[٢] ، وهذا وهم ، لأن عبد الله توفي سنة ٣٢ هـ أو ٣٣ هـ[٣] ، أي قبل أن يتولى علي الخلافة ، والصحيح أن الذي كتب له عبد الله بن جعفر كما ذكر الجهشياري[٤] .

٦ ـ كُتّاب الولاة والعمال :

كانت حاجة الولاة والعمال في الأمصار الجديدة إلى الكتابة والكُتّاب لا تقل إلحاحاً عن حاجة الخلفاء الراشدين في قاعدة الخلافة المركزية . ونجد أقدم إشارة إلى كُتّاب الولاة في خلافة عمر ، إذ يروي ابن حبيب أن زياد بن أبيه كان « كاتباً للمغيرة بن شعبة ، ثم كتب لأبي موسى الأشعري ، ثم لعبد الله بن عامر بن كُرَيْز ، ثم لعبد الله بن العباس بن عبد المطلب »[٥] . وكان أبو جَبِيرَة بن الضحّاك الأنصاري كاتباً على ديوان الكوفة[٦] ، وكان عبد الله بن خلف الْخُزاعي على ديوان البصرة[٧] .

ولا شك في أن الحاجات الإدارية إلى الكتابة كانت تتزايد باطراد منذ بداية الفتح ، مما يؤكد لنا ضرورة التوسع المستمر في استيعاب أعداد جديدة من الكُتّاب

---

(١) م.م.ن . وانظر : الاستيعاب ، ص ٨٤

(٢) تاريخ الطبري ، ١٨٠/٦

(٣) الإصابة ، ٣٦١/٢

(٤) انظر كتابه : الوزراء والكتاب ، ص ٢٣

(٥) انظر كتابه : المحبر ، ص ٣٧٨ والمعارف لابن قتيبة ، ص ٣٤٦ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ، ص ٥١ ـ ٥٢ والاستيعاب ، ص ٥٢٣ وقد ذكر الجهشياري في كتابه : الوزراء والكتاب ، ص ٢٣ أن علياً استعمله على الخراج والديوان حين دخل البصرة .

(٦) المحبر لابن حبيب ، ص ٣٧٨ وتاريخ الطبري ، ١٧٩/٦ والوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٦ وقد كان هذا الديوان زمن عثمان أيضاً ، انظر : تاريخ الطبري ، ١٨٠/٦ والوزراء والكتاب أيضاً ، ص ٢١

(٧) تاريخ الطبري ، ١٧٩/٦

في مختلف الإدارات التي يحتاج إليها الولاة في الأمصار ، وكان ذلك مشجعاً لإقبال الناس على تعلم الكتابة لوضع طاقاتهم في خدمة إدارتها تلك ، وفي النتيجة كانت تلك الحاجات الإدارية إلى الكتابة ، وهذه الاستجابات المستمرة لها من قبل الناس عبارة عن قُطْبَي الحركة الكتابية التي بدأت تزدهر منذ أن وضع الخليفة عمر بن الخطاب أسس بعض الدواوين المنظمة التي وجد لها نظير في الأمصار أيضاً ، كما ساعد على ازدهار هذه الحركة أيضاً استمرار عمل الدواوين العفوية إلى جانبها .

الفصل الرابع

كتابة الرسائل

١ ـ ازدهار كتابة الرسائل ودواعيه :

كانت كتابة الرسائل من أكثر أنواع الكتابة ازدهاراً ونشاطاً وانتشاراً في الحركة الكتابية التي شبَّتْ وتطوَّرَتْ بسرعة في صدر الإسلام ، منذ أن استقطب النبي ﷺ حوله مجموعة طيبة من الصحابة الكاتبين . وإذا قارنا بين وضع الرسائل النثرية بعد الهجرة وما كانت عليه هذه الرسائل في الجاهلية ، وجدنا بوناً شاسعاً جداً بينهما ، فقد ثبت لدينا أن الرسائل الجاهلية النثرية كانت نادرة ندرة كبيرة ، وما وصل إلينا منها كان مشوهاً أو موضوعاً على وجه الإطلاق ، ولم تكن هذه الرسائل لتمثل شيئاً أو تعبر عن شيء من أحوال الجاهلية ، في حين أن الرسائل الشعرية في تلك الفترة من الجاهلية المتأخرة كانت هي الممثل الحقيقي للعصر وقضاياه وهمومه المختلفة ، وهذا يجعلنا نثبت هنا مطمئنين أن النشأة الحقيقية لكتابة الرسائل أو لأدب الترسُّل ، إنما بدأت فعلاً مع بداية الهجرة النبوية إلى المدينة ، ومنذ ذلك التاريخ أخذ أدب الترسُّل هذا يزدهر ازدهاراً متعاظماً لا نظير له في أي نوع أدبي نثري آخر ، مما يبرهن برهاناً قاطعاً على أن النثر الأدبي العربي المكتوب كان مقروناً بنشأة أدب الترسُّل وازدهاره منذ ذلك التاريخ . ويجب أن نفرق هنا بين نوعين من النثر الفني : الأول هو (النثر المكتوب) ، كهذه **الرسائل** ، وكانت نشأته مرافقة لازدهار الخط والكتابة ذلك الازدهار الذي رأيناه مع هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ، نظراً لكثرة دواعيه التي تحدثنا عنها من قبل ، وعلى هذا يكون النثر الأدبي المكتوب وليداً للتطور الجديد

الـذي جرى في حيـاة المجتمع العربي في ظـل الـدعـوة الإسـلاميـة ، وكانت كتـابـة الرسائل هي أقدم أنواع هذا النثر الأدبي وأبرزها وأكثرهـا وأغنـاهـا . والثـاني هو (النثر الشفوي) ، **كالخطابة** مثلاً ، ونحن نعدُّه قديماً موغلاً في القدم .

وهـذا كلـه يعني أن العرب كانـوا عريقين في (الكتـابـة) النثريـة الأدبيـة و (القـول) النثري الأدبي على حـد سـواء ، غير أن ضعف الكتـابـة وقلتهـا في الجـاهليـة كانت ، على وجـه الخصوص ، سبب ضعف الرسـائـل وقلتهـا آنـذاك ، ولا شـك في أن ازدهـار النثر الأدبي العربي لا يقترن فقـط بـازدهـار الكتـابـة وانتشارها ، وإنما بازدهار العقل وتفتحه ورقيه بما يطرأ عليـه من تطور في منهج التفكير والنظرة إلى الكون والعالم والإنسان والمجتمع ومحركاتهـا ، وإن كان المستوى الفني للنثر الأدبي يبقى معادلاً في كل عصر تقريباً للمستوى العقلي للناس في ذلـك العصر بساطة وتعقيداً ، ضعفـاً وقوة ، انحطـاطـاً وسمواً ، ويبـدو أن هـذا قـانون أساسي في ميدان النثر ينطبق على المكتوب منه والشفوي معاً ، ولا مفرَّ لهذا النثر منه بأي حال من الأحوال .

ولا يكاد المرء يقلب صفحة واحدة من كتب التاريخ القديمة إلا وجـد ذكراً لتوجيه الكتب أو تلقي الرسائل على نطاق واسع بين النـاس في المجتمع ، وخـاصـة منذ بداية التاريخ الهجري ، إذ إن تطور الدعوة الإسلامية وتفـاقم حركـة الفتح ، ونشوب الفتن والأحـداث ، وسَّع العلاقـات بين العرب على اختـلاف مستـويـاتهم داخل شبه جزيرتهم وخارجها ، فدعا ذلك إلى ازدهار الكتابة الترسليـة التي تعـد بحق انقلاباً نوعياً فيها قياساً على ما كان منها معروفاً في الجاهلية . وقد مرَّ بنـا أن هذه الرسـائل تنقسم ، عمومـاً ، إلى نوعين من حيث منشؤهـا : الأول (الرسـائل الديوانية) ، ويصـدر عن إدارات الـدولـة وشخصيـاتهـا على مختلف المستويـات ، وتـدور عـادة حول سيـاسـة الخلافـة وإدارة شـؤون المجتمـع . والثـاني (الرسـائـل الشخصيـة) التي كان القـدمـاء يـدعونهـا الرسـائـل الإخـوانيـة ، أو بـاختصـار :

الإخوانيات ، وهي تصدر عن أفراد الرعية فيما بينهم ، وتدور غالباً حول همومهم الخاصة ، وقد اعترض بعض الباحثين على وصفها بـ « الإخوانية » « لأنها ، أحياناً ، تخلو من المودة والإخاء ، وقد تفيض بالتهكم والتجريح »[1] ، وهو يفضل أن يطلق عليها اسم (الرسائل الشخصية)[2] ، وصفة (الشخصية) هنا ، في الحقيقة ، أقرب إلى الدقة والواقع ، وقد ذكر القلقشندي لهذا النوع من الرسائل سبعة عشر موضوعاً[3] .

وكانت تلك الرسائل بنوعيها أصعب من أن تحصى كثرة في صدر الإسلام ، وكانت تتطرق إلى شتى الموضوعات التي تهم الناس آنذاك حكاماً ورعية ، غير أن الكثرة الغالبة مما وصل إلينا منها كانت على صلة مباشرة ووثيقة بحركة التاريخ ، وخصوصاً بمركز صنع الأحداث حول النبي ﷺ وخلفائه الراشدين والصحابة ، أي أن تلك الرسائل كانت تتصل بالإسلام دعوة ، وبالخلافة إدارة وتنظيماً ، وبالمجتمع ترتيباً وتوجيهاً ، ولذا فقد كانت الفرصة ضيقة جداً وضئيلة لوصول رسائل شخصية مما كان يدور بين أفراد الرعية ويعبر عن همومهم الخاصة ، لأن المؤرخين أهملوا تقييده « ولو أنصفوا ماأغفلوا هذا اللون العاطفي الذي يفيض بالحيوية ، وينبض بالقوة ، وكيف لا يكون كذلك ، وهو الأدب الطليق الصادق الذي ينبع من الشعور ويترجم عن العاطفة »[4] ، إلا أن بعض النفثات

---

(١) بلاغة الكُتّاب في العصر العباسي لمحمد نبيه حجاب ، ص ٥٦

(٢) م.ن .

(٣) انظر كتابه : صبح الأعشى ، ٥/٩ وإذا كانت هذه الموضوعات تمثل الترسل في عصر المؤلف (أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع للهجرة) تمثيلاً دقيقاً ، إلا أنها ذات علاقة قوية بطبيعة النفس الإنسانية الثابتة أو المتشابهة في كل زمان ومكان تقريباً ، وذات علاقة أيضاً بطبيعة الصلات بين أفراد المجتمع ، مما يجعلنا نتوقع أن تكون تلك الموضوعات هي نفسها أيضاً موضوعات الترسُّل في صدر الإسلام .

(٤) بلاغة الكُتّاب في العصر العباسي لمحمد نبيه حجاب ، ص ٥٧ يلوم المؤلف المؤرخين على هذا الإهمال ، وكان حقه أن يوجه هذا اللوم إلى الأدباء والبلاغيين ونُقّاد الأدب ومؤرخيه الذين =

الشعرية التي اتخذت الرسائل شكلاً تعبيرياً لها استطاعت أن تحمل بعض معالم تلك الرسائل الشخصية ، غير أن مثل تلك الرسائل الشعرية غير داخلة في نطاق بحثنا هذا ، نظراً لوجود الرسائل النثرية في صدر الإسلام .

ويمكن أن نميز هنا بين أربعة أنواع من الرسائل التي وصلت إلينا بحسب الرواية :

١ ـ ما روي لنا نصه كاملاً .
٢ ـ ما روي لنا نصه رواية جزئية أو ناقصة .
٣ ـ ما روي لنا مضمونه العام بغير ألفاظه الأصلية .
٤ ـ ماأشير إليه على أنه رسالة من غير أن يذكر مضمونه البتة .

وقد كانت الأنواع الثلاثة الأخيرة هي السائدة في ميدان الرواية على وجه العموم ، ولم يُرْوَ لنا من النوع الأول التام غير عدد قليل ، ولكن يمكن الاعتماد عليه في وجوه شتى من هذا البحث .

وقد بلغ من اهتمام الناس عامة بكتابة الرسائل أو الرد عليها في تلك الآونة أنهم كانوا يروون قولاً لابن عباس نصه : « أرى ردّ الجواب كردّ السلام »[(١)] ، ملمحاً بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ وَإذا حُيِّيْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها ﴾[(٢)] ، وقد أيد الصولي ذلك بشعر غير منسوب يقول فيه صاحبه[(٣)] :

إذا جاءَ الْكِتابُ إلىٰ صَدِيْقِي فَحَقٌّ واجِبٌ رَدُّ الْجَوابِ

= وضعوا كتباً ومؤلفات على صلة بهذا الجانب من غير أن يتطرقوا إلى حفظ هذه الرسائل وجمعها وتحليلها ، في حين أن كتب المؤرخين لاتهتم بطبيعة الحال بغير ما يخدم غايتها .

(١) أدب الكُتّاب للصولي ، ص ١٦٦
(٢) القرآن ، ٤ / من الآية ٨٦
(٣) أدب الكُتّاب للصولي ، ص ١٦٦

٢ ـ تأريخ الرسائل :

عرف الناس في المجتمعات البشرية منذ أقدم الأزمنة أهمية الاصطلاح على الزمان وتقسيمه إلى دورات متتابعة متماثلة في ظواهرها ، فكانت السنون ، والشهور ، والفصول ، والأسابيع ، والأيام ، والساعات ، ولما كانت هذه الدورات تتراكم باستمرار في حياة المجتمع ، فقد شعر الإنسان بقيمة معرفة ماضيه أو تاريخه[١] متسلسلاً حسب حدوث هذا التراكم ، لمعرفة المتقدم والمتأخر في حياته ، فوضع لذلك علامات مميزة تكون وسيلة لتقويم الحوادث وتحديد مواقعها الزمنية بالنسبة إليها . وكان ضرورياً أن تكون هذه العلامات من الحوادث العظام التي غيرت مجرى حياة المجتمع ، وتختلف النظرة إلى قيمة هذه الحوادث بحسب عموم أثرها وسعته أو خصوصيته وضيقه ، فيؤرخ الفرد لنفسه بشيء يعده هو خطيراً كالولادة والمرض والسفر والوفاة وغيرها ، وتؤرخ القبيلة بغزوة أو حرب أو سنة وباء أو جدب أو خصب أو ظاهرة طبيعية أو موت عظيم ، ويؤرخ أبناء البيئة الواحدة بمثل ذلك ، وتؤرخ الأمة بالأحداث التي أثرت في مجرى حياتها ، ولذا فإننا نجد سبل التأريخ كثيرة لا تحصى ، وهي متنوعة تنوعاً كبيراً ، وتتسم في الوقت نفسه بالنسبية والتغير المستمر ، وتقل فرص الكثرة والتنوع والتغير كلما كان هذا التاريخ أعم وأكثر انتشاراً في المجتمعات البشرية قاطبة ، حتى يبلغ الأمر به درجة الاصطلاح الدولي الذي نرى له أشكالاً مختلفة في حياتنا الراهنة .

وكانت العرب تؤرخ من « عام التَّفرُّق »[٢] ، ثم من « عام الغَدْر »[٣] ، ثم من

---

(١) انظر اشتقاق كلمة (تاريخ) في كتاب : الكُتّاب لابن درستويه ، ص ١٣٣ ـ ١٣٤ وأهم معانيه التي ذكرها المؤلف أنه « تَبَيُّنُ وَقْتٍ من الزمان » .

(٢) المحبر لابن حبيب ، ص ٥

(٣) م . ن .

« عام الفيل »[1] ، ومن « يوم الفِجار »[2] ، وأرّخت قريش بـ « موت هشام بن المغيرة المخزومي »[3] لجلالة قدره فيهم . وأما الأعراب فكانوا يؤرخون « بما يكون في السنين من حرب أو عاهة وما أشبه ذلك »[4] ، وكانت العرب « تؤرخ بكل عام يكون فيه أمر مشهود متعارف »[5] . وكان عرب الشام قبل الإسلام قد تركوا لنا بعض النقوش التي أرّخت بسقوط بُصرى أو سَلْع (وهي البتراء) بيد الاحتلال الروماني .

ويبدو لنا أن أمثال هذه العلامات البارزة والمتميزة لم تكن تدون دائماً في الوثائق والمستندات ، وعلى رأسها الرسائل ، وإنما كان يكتفى بها في سرد الأحداث ورواية مامضى من أخبار الناس ، ولم نجد من الناحية العملية إلا تلك النقوش القليلة في بلاد الشام التي أرخت بما ذكرنا آنفاً من أحداث جليلة ، واستمرت الحال على هذا النمط من غير أن يكون للعرب تاريخ جامع مدون أو تقويم عام يتداولونه فيما بينهم حتى خلافة عمر بن الخطاب ، إذ تذكر المصادر القديمة في سبب وضع التاريخ عند العرب روايات شتى أصحها عندنا اثنتان : الأولى هي أن أبا موسى الأشعريّ كتب إلى عمر يقول : « إنه يأتينا من قِبَل أمير المؤمنين كُتُبٌ ليس لها تاريخ ، فلا ندري على أيها نعمل »[6] . والثانية هي أن عمر قرأ صَكّاً مَحلُّه شهر شعبان ، فتحيَّر فيه : أهو شعبان الماضي أم الآتي[7] ؟

---

(١) م . ن . وانظر : أدب الكتاب للصولي ، ص ١٧٩

(٢) صبح الأعشى ، ٢٣٦/٦ وكان بين قريش وقيس .

(٣) أدب الكتاب للصولي ، ص ١٧٩

(٤) المحبر لابن حبيب ، ص ٨

(٥) أدب الكتاب للصولي ، ص ١٧٨

(٦) م . س ، ص ١٧٩ وانظر : الوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ٢٠ وصبح الأعشى ، ٢٤٠/٦ - ٢٤١ ودمج المؤلف الروايتين معاً في رسالة واحدة .

(٧) أدب الكتاب للصولي ، ص ١٨٠ وصبح الأعشى ، ٢٤١/٦

فكان ذلك باعثه على التفكير في اتخاذ تاريخ للمسلمين ، لأن اللبس في تواريخ الرسائل والوثائق والمستندات يؤثّر في تنفيذ الأوامر والتعليمات الصادرة ، ويوقع الشك في المتقدّم منها والمتأخّر ، ويعطّل الحقوق والأحكام ، إذ إنّ « الكِتاب بغير تاريخ نكرة بلا معرفة ، وغفل بغير سمة »[1] ، والتاريخ « يستدل به على بعد مسافة الكِتاب وقربها ، وتحقيق الأخبار على ما هي عليه »[2] ، وكان قد بلغ عمر أن « العجم تؤرّخ »[3] ، وكان ذلك في سنة ١٦ هـ[4] ، فجمع الصحابة واستشارهم في الأمر ، فأشاروا عليه به ، واختلفوا في مبدئه : فرأى بعضهم التأريخ بعام الفيل[5] ، وبعضهم بمولد النّبي ﷺ[6] ، وبعضهم بمبعثه[7] ، وبعضهم بهجرته إلى المدينة[8] ، وبعضهم بوفاته[9] ، ثم حسم علي بن أبي طالب هذه الآراء فقال : نؤرّخ « من يوم هاجر رسول الله ﷺ وترك أرض الشرك »[10] ، لأن مهاجره ﷺ قد « فرّق بين الحق والباطل »[11] ، وكان « أول ظهور الإسلام

---

(١) أدب الكتاب للصولي ، ص ١٨٤

(٢) صبح الأعشى ، ٢٣٥/٦

(٣) انظر كتاب : الكُتّاب لابن درستويه ، ص ١٣٣

(٤) أجمعت الروايات في المصادر المختلفة على هذا التاريخ ، غير أن الجهشياري لا يقطع بذلك ، فيروي أنه كان سنة ١٧ هـ أو ١٨ هـ ، انظر كتابه : الوزراء والكُتّاب ، ص ٢٠ بل إن منهم من أرجعه إلى زمن النّبي ﷺ بُعَيْد هجرته ، انظر : صبح الأعشى ، ٢٤٠/٦ وهذا أمر مدفوع في رأينا .

(٥) أدب الكُتّاب للصولي ، ص ١٨٠

(٦) تاريخ اليعقوبي ، ١٤٥/٢

(٧) م . ن . وانظر : الوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ٢٠ وأدب الكتاب للصولي ، ص ١٨٠ وكتاب الكُتّاب لابن درستويه ، ص ١٣٣ وصبح الأعشى ، ٢٤١/٦

(٨) تاريخ اليعقوبي ، ١٤٥/٢ والوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ٢٠ وأدب الكتاب للصولي ، ص ١٧٩ وكتاب الكُتّاب لابن درستويه ، ص ١٣٣ وصبح الأعشى ، ٤٢٢/١ و ٢٤١/٦

(٩) كتاب الكتاب لابن درستويه ، ص ١٣٣ وصبح الأعشى ، ٢٤١/٦

(١٠) تاريخ الطبري ، ٣٩/٤ وانظر أيضاً ٣٨/٤ وكذلك : تاريخ اليعقوبي ، ١٤٥/٢

(١١) الوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ٢٠

وقوته »[1] ، ثم إنهم بدؤوا السنة الهجرية في أول شهر محرم[2] ، فكان عمر بذلك أول من وضع التأريخ في الإسلام وأدخله في نطاق الرسائل والوثائق على اختلافها ، وكانت له فوائد جمة في كثير من الميادين الأخرى .

ويذكر لنا سليم حسن أن المصريين القدماء كانوا يكتبون تأريخ الرسالة في أولها زمن الدولة القديمة ، وأنه كان يكتب على ظاهر الرسالة عند نهاية العنوان في عهد الدولة الوسطى ، وكان يكتب في آخر الرسالة في عهد الدولة الحديثة[3] ، وقد ذكر القلقشنديّ أن الكِتاب عند العرب إذا كان في أمر « تتشوف النفوس إلى معرفة اليوم الذي وقع فيه .. يؤرّخ في صدره »[4] ، وإن لم يكن كذلك فإنه « يؤرّخ في آخره »[5] ، ثم ذكر أن « الذي استقر عليه حال كتاب الزمان كتابة التاريخ في آخر الكتاب بكل حال »[6] ، وهي القاعدة المتبعة دائماً في رسائل صدر الإسلام والعصر الأموي أيضاً ، ذلك لأن كتابته في ذيل الرسالة وآخرها هو الأمر الطبيعي المقبول فيها .

٣ ـ كتابة محرِّر الرسالة :

كان لكتابة اسم محرر الرسالة في ذيلها أهمية خاصة لكونها نوعاً من التوثيق الذي يزيد الاطمئنان إلى صحتها ، وذلك لأنه إذا عرف كاتبها عرف خطه ، وإذا عرف الكاتب والخط قلّ احتمال الوضع ، لأن الكاتب يظل مسؤولاً عن كتابته .

---

(١) صبح الأعشى ، ٢٤١/٦

(٢) أدب الكتاب للصولي ، ص ١٨٠ وكتاب الكُتّاب لابن درستويه ، ص ١٣٣ وصبح الأعشى ، ٢٤٢/٦

(٣) انظر كتابه : الأدب المصريّ القديم ، ص ٣٤٥

(٤) انظر كتابه : صبح الأعشى ، ٢٦١/٦

(٥) م . ن .

(٦) م . س ، ٢٦٢/٦

وتروي لنا المصادر القديمة بالإجماع أن أول من كتب في آخر كتابه عبارة « وكتب فلان بن فلان » هو أُبَيّ بن كعب[١] ، وكان أُبَيٌّ - كما مرَّ بنا من قبل - « أول من كتب لرسول الله ﷺ مقدمه المدينة »[٢] ، وبذا تكون هذه الظاهرة في كتابة الرسائل خاصة ، والوثائق المختلفة عامة تقليداً يرجع إلى أول عهد النَّبي ﷺ بالمدينة بعد الهجرة ، على أن الوثائق والمستندات كانت بحاجة إلى شهود تدون أسماؤهم في آخرها لضمان ما فيها من الحقوق ، ولم تكن الرسائل بحاجة إلى ذلك . وقد نهج سائر كُتّاب النَّبي ﷺ وكُتّاب خلفائه الراشدين وعمالِهم هذا النهج في الأعم الأغلب . ولا يكون إثبات اسم الكاتب في آخر الكتاب إلا إذا كان مكتوباً إملاء من غيره كأن يكون المملي أمياً أو كاتباً يملي على ذلك الكاتب ، أو يكون الكاتب قد أمر بأن ينشئ الكِتاب عنه بنفسه . ولعل إثبات اسم الكاتب هنا يشير من طرف خفي إلى هذا الإنشاء الذي يتولاه الكاتب عن صاحب الكِتاب في بعض الأحيان ، ليتحمل هو مسؤولية ما كتب فيما أمر به ، سواء اطّلع عليه صاحبه هذا فأمضاه أم اكتفى بأمانة الكاتب وحسن كتابته ما يطلب منه لكفاءته وفهمه . والشواهد على كتابة اسم المحرر في آخر الكتاب كثيرة ، منها على سبيل المثال أن رسول الله ﷺ كتب إلى بني عمرو من حمير يدعوهم إلى الإسلام ، وفي الكتاب : « وكتب خالد بن سعيد بن العاص »[٣] ، وكتب كذلك إلى همدان بعد أن بعثوا إليه بإسلامهم يبين لهم مالهم وما عليهم ، وفي آخر الكتاب : « وكتب علي بن أبي طالب »[٤] .

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٤٥٨ والاستيعاب ، ص ٦٨ وصبح الأعشى ، ٤٢٢/١ و ١٩٩/٦ والإصابة ، ٣٢/١

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٤٥٨ وانظر : الاستيعاب ، ص ٦٨ والإصابة ، ٣٢/١

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٢٦٥/١

(٤) تاريخ اليعقوبي ، ٨١/٢

الباب الثاني

موضوعات الترسُّل في صدر الإسلام



الفصل الأول

في حياة النَّبي ﷺ : الدعوة

كانت الدعوة إلى الإسلام تأخذ كل اهتمامات النَّبي ﷺ ، وتستغرق أغلب جهده ووقته ، حتى إن ماوصل إلينا من رسائل هذه الفترة لم يكن يتعدى هذا الموضوع بأي حال من الأحوال ، لأنها كانت تستقطب المسلمين جميعاً حولها وتشغل بالهم ووقتهم أيضاً ، ولا سيما بعد الهجرة إلى المدينة ، حيث أرسى النَّبي ﷺ قواعد العلاقات بين جماعة المسلمين مهاجرين وأنصاراً ، ثم بينهم جميعاً وبين غيرهم من الملل والجاليات ، ولا سيما اليهود منهم . ومن المدينة انطلق ﷺ إلى مايحيط بها ويجاورها من القرى والبوادي ، فعقد المعاهدات والأحلاف لحفظ تلك المدينة من عواديهم ، ولضمان الحرية الكاملة للمسلمين حتى يبلِّغوا دعوته للقاصي والداني ، ومن المدينة كان النَّبي ﷺ أيضاً يقود حملات الدعوة في جميع أنحاء جزيرة العرب وما يحيط بها من دول عظمى في ذلك الزمان . وقد عمد النَّبي ﷺ إلى نوعين متكاملين من العمل : **الأول** نشر الدعوة سلماً وفق منظور يبدأ من أضيق دائرة إلى أوسع نطاق ممكن ، الأقرب فالأقرب ومن العرب إلى العجم . **والثاني** الدفاع عن هذه الدعوة ، وقتال كل من يحول دون نشرها حتى يقرّ له بحرية هذا النشر وبحقه في تبليغ الرسالة للناس كافة ، ولذلك كان ﷺ يستعمل كل الوسائل المشروعة في قتال أعداء الدعوة : كعقد المحالفات ، والضغوط الاقتصادية ، وشنّ الغزوات وإطلاق البعوث والسرايا للردع والتأديب بالقتل والأسر والسبي والمغنم .

وقد كانت الحاجة إلى كتابة الرسائل من الحاجات الملحة في هذا المجال ، نظراً لبعد المسافات ، وكثرة القضايا التي ظهرت في المجتمع الجديد ، وكانت بحاجة إلى تنظيم وحل ، مما جعل هذه الرسائل أداة رئيسية في العمل لا غنى عنها ، ووسيلة مهمة للاتصال بين النَّبي ﷺ وأصحابه وأتباعه من المسلمين أو الحلفاء الذين كانوا منتشرين هنا وهناك ، أو بينه وبين الأطراف التي كان يدعوها باستمرار إلى الإسلام ، أو بينه وبين خصومه وأعدائه الذين يكيدون له ولدعوته وللمسلمين عامة كيداً باللسان تارة واليد تارة أخرى ، أو بهما معاً تارة ثالثة .

وقد انبثقت من هذا الموضوع المركزي أو الأساسي جملة من الموضوعات الفرعية التي تنوعت بتنوع المشكلات التي كانت الدعوة تواجهها وتتصدى لها . ومن أبرزها :

١ ـ موضوعات الدعوة إلى الإسلام :

كانت هذه الدعوة هي المهمة الأولى للنَّبي ﷺ بوصفه رسول الله عزّ وجلّ إلى (العالمين) ، أو (البشر أجمعين) ، أو (الناس كافة) ، ليبلّغهم رسالة ربّهم إليهم ، وكان عليه أن يبدأ بدعوة الأقرب فالأقرب تمشياً مع طبائع الأشياء ، وقد كانت حوله ثلاث دوائر أساسية هي : دائرة أهله وعشيرته الأدنين ، ثم دائرة المحيط العربي ، ثم دائرة المحيط العجمي الواسع حول جزيرة العرب . ولا شك في أن دعوة الناس في الدائرة **الأولى** وهو بمكة كانت تتم مباشرة وبالمشافهة ، أما في **الثانية** فقد تمّ جزء منها بهذه الطريقة : سواء بمقابلة وفود الحجيج في الموسم أم بخروجه إلى الطائف ، إلا أن الجزء الأكبر فيما بعد تمّ عن طريق الكتب والرسل ، أما في **الثالثة** فقد تمت الدعوة فيها عن طريق واحد هو إرسال الكتب والرسل . ويلاحظ أن بعد المسافات وقربها هو الحكم الفيصل في وسيلة التبليغ والدعوة .

وقد كانت كتب الدعوة تتناول عموماً ثلاثة موضوعات أساسية تتكرر تقريباً في كل كتاب يوجه إلى فرد أو جماعة ، وهي :

أ ـ عرض الدعوة :

لم يكن من مهمة هذا العرض أن يفصِّل في ذكر العقيدة ، ولذا كان النَّبي ﷺ يكتفي ، في أكثر الأحيان ، بدعوة مباشرة ومجملة إلى التوحيد الخالص من غير مقدمات عن الإسلام . ويبدو أنه ترك هذه التفاصيل المطلوبة لرسله إلى الملوك والأمراء ورؤساء القبائل وسائر الناس ، فهم يجيبون عنه في حدود سؤالهم عن الإسلام إن كانوا من العجم ، أما إن كانوا من العرب فإن أخبار الدعوة وكثيراً من تفاصيل العقيدة الجزئية كانت معروفة عندهم ومنتشرة في أوساطهم المختلفة مع الركبان في المدن والقرى والبوادي على حدّ سواء ، لسرعة انتقال الأخبار وانتشارها في العرب ، فكانوا لذلك على اطّلاع كافٍ عليها يغني عن التفصيل .

وهذا يفسر لنا لِمَ خاطب النَّبي ﷺ هرقل حين كتب إليه بقوله : « إنِّي أدْعُوكَ بِدِعايَةِ الإِسْلام »[1] ، من غير أن يذكر له ماهذه الدعاية ، وما مضمونها ، وما تفاصيلها ، إلا ما جاء فيها من شاهد قرآني ، هو قوله تعالى : ﴿ ياأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[2] . وجاء في كتابه ﷺ إلى النجاشي : « سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ، وآمَنَ باللهِ وَرَسُولِهِ ، وَشَهِدَ أنْ لاإلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاشَرِيْكَ لَهُ ، لَمْ يَتَّخِذْ صاحِبَةً ولا وَلَداً ، وأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . وأدْعُوكَ بِدِعايَةِ اللهِ ، فَإِنِّي أنا

(١) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٨١ وفي رواية أخرى : « إنِّي أدْعُوكَ إِلَى الإِسْلامِ » ، انظر : م . س ، ص ٨٢ وقد وردت رواية المتن أيضاً في كتاب النَّبي ﷺ إلى المقوقس ، انظر : م . س ، ص ١٠٦

(٢) القرآن ، ٣/من الآية ٦٤

رَسُولُهُ »[1] ، ثم عزّز هذه الدعوة بالآية الكريمة المذكورة آنفاً . وقد روي أن كتاب النَّبي ﷺ إلى المقوقس كان كالتالي : « إنَّ اللهَ تَعالى أرْسَلَنِي رَسُولاً ، وأنْزَلَ عَلَيَّ قُرآناً ، وأمَرَنِي بالإعْذارِ وَالإنْذارِ ، ومُقَاتَلَةِ الكُفَّارِ ، حَتَّى يَدِيْنُوا بِدِيْنِي ، وَيَدْخُلَ النَّاسُ في مِلَّتِي ، وَقَدْ دَعَوْتُكَ إلى الإقْرارِ بِوَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى »[2] ، وفي هذه الرسالة توسع أكبر من ذكر الوحدانية فقط في شرح الدعوة كما نرى . وأما كتابه ﷺ إلى كسرى فنصه : « سَلامٌ عَلى مَن اتَّبَعَ الهُدَى ، وآمَنَ باللهِ ورَسُولِهِ ، وَشَهِدَ أنْ لاإلهَ إلاَّالله وَحْدَهُ لاشَرِيْكَ لَهُ ، وأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وأدْعُوكَ بِدُعاءِ اللهِ ، فَإنِّي أنا رَسُولُ اللهِ إلى النَّاسِ كافَّةً ، لأُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيّاً وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكافِرِينَ »[3] .

هذا هو مجمل عرض الدعوة في كتب النَّبي ﷺ إلى ملوك العجم الذين لم يكونوا يعرفون تفاصيل ماجاء به النَّبي ﷺ فيها ، وهي تركز على قضايا التوحيد وعلى عالمية الدعوة أو شمولها البشر أجمعين ، وطلب الاستجابة لهذه الدعوة على ذلك ، وهي قضايا أساسية إن أقرّ بها هؤلاء المدعوون فإن السبيل إلى التفاصيل تكون معبدة ميسرة ، أما إذا كان هنالك رفض لها وإعراض عنها فإن الموقف يتغير .

ب ـ الترغيب في قبول الدعوة :

وهو الموضوع الثاني بعد عرض الدعوة ، وكان التعبير عنه واضحاً كل

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٧٧ ويَرِد هذا المنحى من الخطاب في رواية أخرى في : م . س ، ص ٧٦ يركّز فيها على قضية التوحيد تركيزاً واضحاً . وفي رسالته إلى أسقف الروم في القسطنطينية يَظْهَر جانب آخر من العقيدة هو : الإيمان بالرسل الغابرين وبما أُنْزِل عليهم من عند الله تعالى ، انظر : م . س ، ص ٨٦ ـ ٨٧

(٢) م . س ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨

(٣) م . س ، ص ١١٠

الوضوح في مثل قول النَّبي ﷺ في كتابه إلى كسرى : « فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ »[1] ، وقوله في كتابه إلى هرقل : « أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وأَسْلِمْ يؤتِـكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ »[2] ، وقوله في كتابه إلى المقوقس : « فَإِنْ فَعَلْتَ سَعِدْتَ »[3] .

وورد مثل هـذا الترغيب في كتب النَّبي ﷺ إلى ملوك العرب وأمرائهم ، فقد كتب إلى المنذر بن ساوى العبدي عامل كسرى على البحرين : « أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، يَجْعَلِ اللهُ لَكَ مَاتَحْتَ يَدَيْكَ »[4] ، وإلى الهلال صاحب البحرين : « فَإِنَّهُ خَيْرٌ لَكَ »[5] ، وإلى هَوْذَة بن علي الحنفي : « أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وأَجْعَلُ لَكَ ماتَحْتَ يَدَيْكَ »[6] ، وإلى جَيْفَر وعبد ابني الْجُلَنْدى بعُمان : « وَإِنَّكُما إِنْ أَقْرَرْتُما بِالإِسْلامِ وَلَّيْتُكُما »[7] ، وإلى الحارث بن أبي شَمِر الغساني : « فَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلى أَنْ تؤمِنَ باللهِ وَحْدَهُ لاشَرِيْكَ لَهُ ، يَبْقى لَكَ مُلْكُكَ »[8] .

جـ ـ الترهيب من الرفض :

وكان هذا الترهيب الموضوع الثالث في كتب الدعوة النَّبوية إلى الإسلام ، غير أن هذا الترهيب اقتصر على ما يمكن أن ندعوه « تحمل الإثم » فيما يخص ملوك الدول الكبرى آنذاك ، فقد كتب النَّبي ﷺ إلى كسرى يقول : « فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِنَّ إِثْمَ الْمَجُوس عَلَيْكَ »[9] ، وإلى هرقل : « فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ

---

(١) م . ن . وقد وردت العبارة نفسها في كتابه إلى النجاشي ، انظر : م . س ، ص ٧٧ وفي كتابه إلى الهرمزان من عمال كسرى ، انظر : م . س ، ص ١١٢

(٢) م . س ، ص ٨١ وقريب من ذلك ورد في كتابه إلى المقوقس ، انظر : م . س ، ص ١٠٦

(٣) م . س ، ص ١٠٨

(٤) م . س ، ص ١١٢

(٥) م . س ، ص ١٢٢

(٦) م . س ، ص ١٢٣

(٧) م . س ، ص ١٢٤

(٨) م . س ، ص ٩٧

(٩) م . س ، ص ١١٠

الإِرِّيْسِيِّيْنَ »[١] ، وإلى المقوقس : « فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ القِبْطِ »[٢] ، وإلى النجاشي : « فإنْ أَبَيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ النَّصارى مِنْ قَوْمِكَ »[٣] . في حين أن هذا الترهيب كان تهديداً صريحاً بإزالة الملك فيما يخص ملوك العرب وأمراءهم خارج جزيرة العرب وداخلها ، إن هم لم يستجيبوا للدعوة ، فكتب النّبي ﷺ إلى الحارث الغساني يقول : إنه إن أجاب بقي له ملكه[٤] ، والتهديد المبطن في هذه العبارة واضح إن هو رفض الدعوة ، وكتب إلى المنذر بن ساوى يقول : « وَاعْلَمْ أنَّ دِيْنِي سَيَظْهَرُ إلى مُنْتَهى الْخُفِّ وَالْحَافِرِ »[٥] ، وكتب إلى هَوْذَة بن علي بمثل ذلك[٦] ، وإلى جَيْفَر وعبد : « وَإِنْ أَبَيْتُما أَنْ تُقِرَّا بالإسْلام فَإِنَّ مُلْكَكُما زائِلٌ وَخَيْلِي تَحُلُّ بِساحَتِكُما ، وتَظْهَرُ نُبُوَّتِي عَلى مُلْكِكُما »[٧] .

٢ ـ موضوعات إجابة الدعوة :

أ ـ الرد باللين أو القبول :

كان بعض المدعوين إلى الإسلام يرد على دعوة النّبي ﷺ رداً ليناً لطيفاً من غير الاستجابة لها ، كما فعل المقوقس مثلاً ، إذ تلقى رسول النّبي ﷺ بالترحيب والتكريم ، وبعث معه إلى النّبي ﷺ بهدية : جاريتين قبطيتين وكسوة وبغلة[٨] ، ويُروى أن هرقل والنّجاشي استجابا للدعوة في دخيلتهما ولم يَجْرُؤا على

---

(١) م . س ، ص ٨١ والإِرِّيْسِيُّون : الفلاحون .
(٢) م . س ، ص ١٠٦ وفي رواية أخرى : « وَإِنْ أَبَيْتَ شَقِيْتَ » ، انظر : م . س ، ص ١٠٨
(٣) م . س ، ص ٧٧
(٤) م . س ، ص ٩٧
(٥) م . س ، ص ١١٣
(٦) م . س ، ص ١٢٣
(٧) م . س ، ص ١٢٨
(٨) م . س ، ص ١٠٧

إعلان ذلك على الملأ[1] ، غير أننا نستبعد هذه الاستجابة استبعاداً تاماً . وإذا نظرنا في ردود هؤلاء الملوك الثلاثة وجدناها تتفق في الرّد اللين ، ولعل هذا الموقف المشترك بينهم ، وهم يمثلون النصرانية آنذاك ، كان يخدم السياسة التي انتهجوها في تأليف العرب ، والتي كان الروم خاصة يتبعونها معهم لكسبهم إلى صفهم في الصراع المرير الدائر بينهم وبين الفرس الذين يدينون بالمجوسية ، ودلالة هذا الرّد واضحة ، فهو نوع من التملص المهذب الذي يحفظ الود بين العرب والروم ، ولا سيا أن هذه الدعوة توحيدية تقرّ بالنصرانية وبمنزلة السيد المسيح عليه السلام ، وهذا يفسر لنا المودة الخاصة بين الطرفين في قوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِيْنَ آمَنُوا الَّذِيْنَ قَالُوا إِنَّا نَصارى ﴾[2] ، حتى إن عواطف المسلمين كانت إلى جانب الروم في حربهم مع الفرس ، وهذا ما يفسر تبشير الله تعالى المؤمنين بنصر الروم القريب عليهم بعد أن هزموا أمامهم ، ويفسر أيضاً فرح المؤمنين بالنصر الموعود في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤمِنُونَ ﴾[3] . وقد ردّ بعض العرب يُثْنُون على الدعوة ويشترطون لأنفسهم شيئاً من المكسب الشخصي ، فكتب هَوْذَة بن علي في رده مثلاً يقول : « اجعل لي بعض الأمر أتبعك »[4] . في حين أن بعض المدعوين كانوا يكتبون إليه بإعلان إسلامهم واتّباعه في دعوته ، غير أن نصوص هذه الكتب لم تصل إلينا ، ولكن المصادر القديمة أشارت إليها .

ب ـ الاستفسار عن الإسلام :

كان بعض المدعوين يرغبون في تعرف الدين الجديد حين يدعون إليه ،

---

(١) م . س ، ص ٨٢ ـ ٨٣ و ٨٦ (عن هرقل) و ٧٨ و ٧٩ ـ ٨٠ (عن النجاشي) .

(٢) القرآن ، ٥/من الآية ٨٢

(٣) القرآن ، ٣٠/من الآية ٣ وأسميت هذه السورة باسم (الروم) .

(٤) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٢٣

فكانوا يكتبون إلى النَّبي ﷺ مستفسرين عن الإسلام ومستوضحين عقيدته ، ولم يصل إلينا من ذلك ـ في حدود اطِّلاعنا ـ غير كتاب ينسب إلى أكثم بن صيفي كتبه إلى النَّبي ﷺ مع ابنه حُبَيْش ، يقول فيه : « باسمك اللهم . من العبد إلى العبد ، أما بعد ، فأبلغنا مابلَغك ، فقد أتانا عنك خبر لاندري ماأصله ، فإن كنت أُرِيْتَ فأَرِنا ، وإن كنت عُلِّمْتَ فَعَلِّمْنا ، وأشركنا في خيرك . والسلام »[1] ، فردّ عليه النَّبي ﷺ بكتاب مجمل في التوحيد والْخَلْق والموت والبعث[2] .

جـ ـ الإخبار بإسلام الناس :

كان النَّبي ﷺ يبعث إلى بعض الأقوام برسل من أصحابه يدعونهم إلى الإسلام ، وكان يأمرهم بأن يقيموا بينهم إن أسلموا على يديهم ، ليعلموهم أصول العقيدة ، فكان هؤلاء الرسل ، إن استجيب لدعوتهم ، يكتبون إلى النَّبي ﷺ يبشرونه بإسلام القوم ويخبرونه بأمرهم ، وقد أثر من ذلك عدة كتب : منها كتاب خالد بن الوليد إلى النَّبي ﷺ حين بعثه إلى بني الحارث بن كعب ، وفيه : « دعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام .. فأسلموا .. وأنا مقيم بين أظهرهم آمرهم بما أمرهم الله به ، وأنهاهم عما نهاهم عنه ، وأعلمهم معالم الإسلام وسنّة النَّبي ﷺ[3] . ومنها أيضاً كتاب علي إليه ﷺ بإسلام أهل اليمن كلهم في يوم واحد ، ولم يرو نصه[4] . ومنها كتاب ملوك حمير عن أنفسهم بإسلامهم ، ولم يرو نصه أيضاً[5] .

---

(١) م . س ، ص ٢١٠

(٢) م . س ، ص ٢١١ وانظر : جمهرة رسائل العرب ، ٨٧/١ ـ ٧٩

(٣) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٣١ وجمهرة رسائل العرب ، ٦١/١

(٤) م . م . ن .

(٥) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٨٠

ومنها كتـاب فَرْوَة بن عمرو عـامل مَعـان بـإسلامـه[1] . ومنهـا كتـاب بَحِيْر بن رَيْسان الكُلاعي بإسلامه[2] .

د ـ طلب المعلمين والمفقهين :

كان الناس ، حين يجيبون النَّبي ﷺ إلى الإسلام ، يكتبون إليـه بطلب من يعلّمهم معالم الدين ويفقّههم في شرائعه وحدوده وعباداته ، حتى يلموا به ويتمكنوا منه . ولم يصل إلينا غير كتاب واحد من أهل يثرب قبل الهجرة ، حين فشا فيهـا الإسـلام ، وفيـه : « ابعث إلينـا رجـلاً يفقّهنـا في الـدِّين ويُقْرِئُنـا القرآن »[3] ، فبعث إليهم النَّبي ﷺ بمصعب بن عُمَيْر .

هـ ـ التعاليم والفرائض والحدود :

كان النَّبي ﷺ يخص هذا الموضوع في رسائله إلى من أجـابوا إلى الإسلام بحيِّز مهم من اهتمامـاتـه ، فكان يكتب هـذه التعـاليم والفرائض والحـدود في كتـاب مع وفدهم إلى مَنْ وراءهم ، أو يكتب بها إلى أحد من أصحـابـه الـذين يقيمون بينهم ، أو إلى رئيس القبيلـة ، أو أمير المنطقـة . وتشمل هـذه التعـاليم كثيراً من جوانب الفرائض والحـدود والعبـادات : كالصلـوات ، والـزكاة ، والجـزيـة ، والعشـور ، والربا ، والصوم ، والحج ، والديات ، وغيرهـا[4] . ولا شـك في أن كتب التعـاليم هذه كانت ضرورية لضبط حياة الناس وتنظيمها وفق تعاليم الإسلام .

---

(١) م . س ، ص ٩٦

(٢) الإصابة ، ١٧٤/١

(٣) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٤

(٤) م . س ، ص ٣٥ و ١١٤ و ١١٦ و ١١٨ و ١١٩ ـ ١٢١ و ١٢٢ ـ ١٢٦ و ١٢٧ ـ ١٣٨ و ١٧٩ و ١٨١ و ١٨٥ ـ ١٨٩ و ١٩٧ ـ ١٩٨ و ٢٠٩ و ٢١٩ و ٢٢٩ و ٢٣٩ ـ ٢٤٣ و ٢٤٦ و ٢٥٥ و ٢٧١ و ٢٨٢ ، وانظر : جمهرة رسائل العرب ، ٤٩/١ ـ ٥٠ و ٦٥ و ٨٩ ـ ٩٠

و ـ التوصية بالمسلمين :

وقد طرق هذا الموضوع قبل الهجرة إبان ضعف المسلمين وقلة حولهم ، فقد أمر النَّبي ﷺ طائفة من أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ليسلموا من أذى قريش بمكة ، وكتب معهم إلى النجاشي كتاب توصية جاء فيه : « وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم »[1] .

٣ ـ موضوعات رفض الدعوة :

كان رفض الدعوة يتراوح بين التملص المهذب بالرد اللين وبين الشدة والعنف ، كتمزيق كتاب الدعوة ودَوْسه بالرِّجْل[2] ، أو حرقه[3] ، أو رقع الدلاء به[4] ، أو إلقائه جانباً[5] ، أو كسره إن كانت المادة التي كتب عليها مما يكسر[6] ، أو قتل حامله في بعض الأحيان . ويكون ذلك عادة إذا ماوُجِّهَت الدعوة بالرسائل ، وهو الأمر الغالب بعد الهجرة ، وكانت رسائل الرفض أو الرد عليها مشحونة بعدد من الموضوعات التي تعبِّر عن العنف الصريح حيناً والمبطن حيناً آخر ، وكان الميل إلى تأليف القلوب يمتزج أحياناً بتلك الموضوعات ، وأبرزها :

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٢٥ و ٧٤

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٢٥٩/١ ـ ٢٦٠ والاستيعاب ، ص ٨٨٩ والإصابة ، ١٧٣/١ وانظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١١٢

(٣) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١١١

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٢٨٠/١ وتاريخ اليعقوبي ، ٧٧/٢ والاستيعاب ، ص ٢٧٤ و ٥٠٧ والإصابة ، ٢٤٢/١ وانظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٣٩ و ٢٧٥

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٢٦١/١ وانظر : جمهرة رسائل العرب ، ٤١/١

(٦) فقد كتب النَّبي ﷺ إلى عُذْرة كتاباً على عَسِيْب يدعوهم فيه إلى الإسلام مع واحد منهم ، فعدا عليه رجل فكسره ، انظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٢٣٥

أ ـ تأليف القلوب :

وكان ذلك يتم عن طريق الكتب بوسائل شتى : منها **المهاداة** ، فقد أهدى النَّبي ﷺ أبا سفيان ، في السنة الخامسة للهجرة ، وكان أهل مكة قد أسنتوا فيها ، تمراً وكتب إليه يستهديه أدَماً[1] . ومنها **صلة الرحم** ، وذلك حين كتب النَّبي ﷺ إلى ثُمامة بن أُثال الحنفي باليمامة ، وكان سيِّد أهلها ، بأن يُخَلِّي بين قريش وميرتهم من اليمامة ، بعد أن كان قطعها عنهم حين دخل في الإسلام[2] ، وكانت غاية النَّبي ﷺ من ذلك تأليف قلوب قريش وإظهار حرصه على مصالحها . ومنها **المصاهرة** ، إذ كتب النَّبي ﷺ إلى النَّجاشي أن يزوِّجه من أم حبيبة بنت أبي سفيان حين ارتد زوجها عن الإسلام وتنصَّر وهو مهاجر بالحبشة[3] ، وذلك تأليفاً لأبي سفيان زعيم المعارضة القرشية ، ولما سار عبد الرحمن بن عوف إلى دُومَة الجندل وأسلم صاحبها الأصبغ الكلبي ، كتب إليه النَّبي ﷺ أن يتزوج تُماضِر بنت الأصبغ[4] ، تأليفاً لأبيها وقومها على الإسلام . **ومنها التداوي** ، إذ كتب أبو بَراء عامر بن مالك ، وهو على الشرك ، يسأل النَّبي ﷺ أن يصف له دواء لوجع أصابه ، فأرسل إليه النَّبي ﷺ بعُكَّة عسل ، وكتب إليه معها أن يستشفي به[5] . ومنها **طلب ماء من زمزم** ، إذ كتب النَّبي ﷺ إلى سهيل بن عمرو ، ويرجح أنه كان لا يزال على شركه ، يقول : « إنْ جاءَكَ كِتابِي لَيْلاً فَلا تُصْبِحَنَّ ، أوْنَهاراً فَلا تُمْسِيَنَّ ، حَتَّى تَبْعَثَ إلَيَّ مِنْ زَمْزَمَ »[6] ، وهذا نوع من التأليف لقريش أيضاً بإظهار بركة هذا الماء .

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٥٧

(٢) الاستيعاب ، ص ٢١٥ وانظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٥٧ ولم يرو نصه .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٢٥٩/١ وانظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٧٩

(٤) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٢٤٧

(٥) م . س ، ص ١٦٥

(٦) م . س ، ص ٢٦٧

ب ـ تجسس الأخبار :

كان بثّ العيون في الناس ، ولا سيا الأعداء منهم ، وسيلة من وسائل معرفة النَّبي ﷺ أحوالهم ونياتهم ، ورصد حركاتهم ، ولذا كان هذا الموضوع أحد موضوعات الترسل في حياته ، ومن ذلك أن عمه العباس بن عبد المطلب ، وكان مقيماً بمكة ، كان يكتب إليه بأخبار المشركين أولاً بأول ، فكتب إليه ذات مرة عن تأهب قريش لغزوه قبيل أحد ويقول : « اِصْنَعْ ما كنت صانعاً إذا وردوا عليك ، وتَقَدَّمْ في استعداد التأهب »[1] . ولما سأل العباس النَّبي ﷺ أن يقدم إلى المدينة مهاجراً ، كتب إليه يقول : « إنَّ مُقامَكَ بِمَكَّة خَيْرٌ »[2] ، ليظل فيها عيناً له يتجسس أخبار أهلها ، ويطلع النَّبي ﷺ على كل صغيرة وكبيرة تجري في معقل المعارضة القوية الأول لدعوته .

وكما كان هنالك تجسس لصالح النَّبي ﷺ ، فقد كان هنالك تجسس عليه يقوم به خصومه ، وقد وقعت حادثة من هذا القبيل من أحد الصحابة وبحسن نية ، إذ كتب حاطب بن أبي بَلْتَعَة إلى قريش يخبرهم بتأهب النَّبي ﷺ لغزو مكة بعد أن نقضوا بعض شروط صلحهم معه بالحديبية ، غير أن جبريل نزل على النَّبي ﷺ بخبر هذا الكتاب ، فأرسل من تداركه قبل وصوله إلى طيته[3] ، فبطل أثره في تنبيه قريش ، وكانت المفاجأة ودبّ الذعر في نفوس أبنائها .

ولما تفتحت أزرار الردة في بعض المواطن قبيل وفاة النَّبي ﷺ ، كان مَنْ بقي على الإسلام من الناس يكتب إلى النَّبي ﷺ بأخبار المرتدين ليحيط بها علماً[4] .

---

(١) م . س ، ص ٥٠

(٢) الاستيعاب ، ص ٨١٢ وانظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٥٢

(٣) تاريخ اليعقوبي ، ٥٨/٢ والاستيعاب ، ص ٣١٢ ـ ٣١٣ وانظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٦٦

(٤) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٧ و ٢٩٩ ـ ٣٠١

جـ ـ طلب المدد :

كان النَّبي ﷺ يبعث بسراياه وبعوثه للدعوة ولغزو مَنْ يقف حائلاً في طريق نشر الدعوة أو تبليغها بين القبائل ، فكانت بعض هذه السرايا والبعوث تضطر إلى طلب المدد من النَّبي ﷺ لتعزيز قدرتها ، كما فعل عمرو بن العاص حين بعثه النَّبي ﷺ بعد الحديبية إلى الشام إلى بلاد بَلِيّ أخوال أبيه ليدعوهم إلى الإسلام ، فلما أوغل في تلك البلاد خاف أن يؤتى من قلة ، فكتب إلى النَّبي ﷺ يستمده ، فأمده بجيش فيه كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وأبي عبيدة ، وعرفت تلك الغزوة بـ « ذات السلاسل »[1] .

د ـ الإغراء بالنَّبي ﷺ وتخذيل المسلمين عنه :

لما قدم النَّبي ﷺ إلى المدينة مهاجراً ، كتب أبو سفيان وأُبَيّ بن خلف إلى الأنصار الذين آووه يحرضانهم على التخلية بين قريش والنَّبي ﷺ ، ويحذرانهم العداوة التي تترتب على إيوائهم إياه ومنعه منهم ، وذلك في محاولة لترهيبهم من العواقب[2] ، لأن التخذيل عن النَّبي ﷺ كان هدفاً من الأهداف الحربية التي كان يرمي إليها المشركون في حربهم للدعوة . ولما نَبَذَ النَّبي ﷺ والمسلمون الثلاثة المخلَّفين بالمدينة ، ومنهم كعب بن مالك الشاعر ، علم ملك غسان بذلك فكتب إلى كعب يقول : « إنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فَالْحَقْ بنا نُواسِكَ »[3] ، فلما قرأه كعب زاد همّاً على همومه فأحرقه[4] .

---

(١) الاستيعاب ، ص ١١٨٦ نسبة إلى ماء نزلوا عليه في تلك البلاد يدعى (السلاسل) .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٥٠ ـ ٥١

(٣) م . س ، ص ٩٨

(٤) م . ن .

هـ ـ التهديد والوعيد :

وكان المشركون يتبعون هذه الوسيلة لإغراء الناس بالنَّبي ﷺ أو لتخذيل بعض أتباعه عنه ، وكان هذا الموضوع متبادلاً في الكتب بين النَّبي ﷺ وأعدائه ، ومن ذلك أن مشركي قريش كتبوا إلى المنافقين وضعاف الإيمان بالمدينة قبيل وقعة بدر يقولون : « إنكم آويتم صاحبنا ، وإنا نقسم بالله لَتُقاتِلُنَّهُ أو لَنَسيْرَنَّ إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم »[1] ، بغية تشتيت قوة النَّبي ﷺ وإضعافها في صراع داخلي أو هامشي ، فلما لم يفلحوا في الإيقاع بين المسلمين كتبوا إلى يهود المدينة بعد بدر يقولون : « إنكم أهل الْحَلَقَة والحصون ، وإنكم لَتُقاتِلُنَّ صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خَدَم نسائكم شيء »[2] ، فلم يصنعوا شيئاً خوفاً على أنفسهم من النَّبي ﷺ . وقد وجّه أبو سفيان إلى النَّبي ﷺ والمسلمين كتابين يتهددهم فيهما ويتوعدهم : الأول قبل وقعة الخندق يقول فيه : « قد اجتمعت القبائل والعشائر يطلبون قتالك وقلع آثارك »[3] ، والثاني أثناء حصار الخندق يقول فيه : « إنا نريد ألا نعود إليك أبداً حتى نستأصلكم .. فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحد »[4] ، وقد ردّ عليه النَّبي ﷺ بكتاب يتهدده فيه ويتوعده بتحطيم الأصنام التي يعبدونها[5] .

و ـ الأمر بتنفيذ العهود أو إبطالها :

ورد في عهد صلح الحديبية « أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده

---

(١) م . س ، ص ٤٨

(٢) م . ن . والْحَلْقة : السلاح عامة والدروع منه خاصة . وخَدَم النساء جمع خَدَمة وهي الْخَلْخال .

(٣) م . س ، ص ٥٣

(٤) النزاع والتخاصم للمقريزي ، ص ٢٨ وانظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٥٤

(٥) النزاع والتخاصم للمقريزي ، ص ٢٨ ـ ٢٩ وانظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٥٤ ـ ٥٥

عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه »[1] ، فلما أتى أبو بُصَيْر النبي في المدينة مسلماً كتبت قريش إلى النبي تطالبه بتنفيذ العهد ، ومما جاء في الكتاب : « قد عرفتَ ماشارطناك عليه ، وأشهدنا بيننا وبينك ، مِنْ رَدِّ مَنْ قدم عليك من أصحابنا ، فابعث إلينا بصاحبنا »[2] . فأرسله النبي ﷺ مع رسولَيْ قريش بالكتاب نزولاً على هذا الشرط ، فلما كان في موضع يقال له : ذو الْحُلَيْفَة ، في الطريق ، وثب عليهما أبو بُصَيْر فقتل أحدهما وفرَّ إلى ساحل البحر ، ونزل على طريق قريش إلى الشام في موضع يقال له : العِيْص ، وبلغ الخبر قريشاً فخرج إليه المسلمون الذين كانت قريش قد حبستهم عن اللحاق بالنبي في المدينة ، فاجتمع إليه نحو سبعين رجلاً راحوا يقطعون الطريق على قريش ويقتلون كل من ظفروا به منها وينتهبون عيره ، حتى ضجت منهم قريش ، فكتبت إلى النبي ﷺ تسأله بالأرحام أن يكفهم عنهم ويُؤْويهم إليه متنازلين له عن هذا الشرط[3] ، فكتب النبي ﷺ بدوره إلى أبي بُصَيْر أن يقدم إليه بمن معه من المسلمين ، فوصل إليه الكتاب وهو في النَّـزْع الأخير ، فدفنه أصحابه ولحقوا بالمدينة مهاجرين[4] .

ز ـ تعاليم عن أهل الذمة :

كان لأهل الذمة من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم ممن هم في حكمهم ، وإن كانوا عرباً في بعض الأحيان ، أن يبقوا على دينهم الذي ارتضوه لأنفسهم إن هم دعوا إلى الإسلام فلم يجيبوا ، ولكن يترتب عليهم في مقابل تركهم على حالهم

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٥٨

(٢) م.س ، ص ٦٤

(٣) م.س ، ص ٦٥

(٤) م.س ، ص ٦٥ ـ ٦٦

أن يؤدوا للمسلمين ما عرف باسم (الجزية)[1] ، ولذا فقد كان النبي ﷺ يبعث إلى عماله وأتباعه من الأمراء والرؤساء بكتب يضمنها تعاليم عن هذه الجزية وعن حسن معاملة أهل الذمة هؤلاء إن أقروا بها على أنفسهم[2] ، وربما كتب بذلك إلى أهل الذمة مباشرة[3] . غير أن تنظيم هذه المعاملة وضبط مقادير الجزية كان في وثائق الصلح والعهد والأمان مع أهل الذمة أوضح منه في هذه الرسائل .

وأخيراً ينبغي الإشارة هنا إلى أنه لم يؤثر من الرسائل الشخصية غير ثلاث رسائل ـ في حدود اطلاعنا ـ كانت بعيدة نوعاً ما عن هموم الدعوة وإن تخللتها بعض خيوط منها : الأولى من عمرو بن حزم الأنصاري إلى النبي ﷺ ، حين كان عاملاً له على بعض نواحي اليمن ، يقول فيها : « إنه قد ولد لي مولود فسميته محمداً وكنيته أبا سليمان »[4] . والثانية من النبي ﷺ إلى عمرو هذا في الردّ على هذه الرسالة يقول له فيها : « سَمِّهِ مُحَمَّداً وَكَنِّهِ أَبا عَبْدِ الْمَلِكِ »[5] . والثالثة من النبي ﷺ أيضاً كتب بها إلى مُعاذ بن جبل ، وهو باليمن ، يعزيه فيها بموت ولد له[6] ، ويغلب على الظن من أسلوبها أنها موضوعة . ولا شك في أن هذا النوع من الكتب كان بطبيعته يحمل هموماً فردية قد تكون بعيدة بعداً تاماً عن التيار العام الذي كانت الكتب العامة في حياة النبي ﷺ تَصُبُّ فيه ، وهو تيار الدعوة إلى الإسلام ، وهذا البعد هو سرُّ ندرة روايتها ، وسبب قلتها بالتالي بين أيدينا .

---

(١) وقد ورد ذكرها في : القرآن ، ٩/٢٩ وفي عدد من كتب النبي ﷺ ككتابه إلى أسقف أَيْلَةَ حيث يقول : « أَسْلِمْ أَوْ أَعْطِ الجِزْيَةَ » ، انظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٨٧

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١١٤ و ١١٥ و ١١٧ و ١١٨ و ١١٩ و ١٤٠ و ١٧٩ و ١٨٨

(٣) م.س ، ص ٩١ ـ ٩٢

(٤) م.س ، ص ١٧٨

(٥) الاستيعاب ، ص ١٣٧٤ ـ ١٣٧٥ وانظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٧٨

(٦) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ وجمهرة رسائل العرب ، ١/٦٥ ـ ٦٦

الفصل الثاني

في خلافة أبي بكر : الردة وبوادر الفتح

من خلال استقرائنا ماوصل إلينا من رسائل هذه الفترة يمكن أن تتوضح لنا معالم الموضوعات التي كانت تمثل تمثيلاً صادقاً هواجس الناس المشتركة وهمومهم الاجتماعية العامة . أما الهموم الفردية فإن الرسائل المتعلقة بها لم يكتب لها أن تخترق حجاب الزمان لتصل إلينا ، أو بتعبير أدق : لم تتح لها فرصة عادلة للتدوين في المصادر القديمة ، فكان الاندثار نصيبها ، والضياع مصيرها في ميدان الحياة أولاً ، وفي ميدان الأدب ثانياً ، فحُرِمْنا لذلك من ثروة أدبية إنسانية كان يمكن لها أن تثري نثرنا الأدبي إثراء عظيماً لو أنها وصلت إلى أيدينا .

وقد لفت انتباهنا أن رسائل هذه الفترة كانت تدور حول موضوع محوري واحد شغل بال الخليفة والمسلمين الذين ثبتوا على الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ ، وهو موضوع (الردة) التي أشعلت نار حروب دامت زهاء عشرة شهور بين المسلمين والمرتدين ، تمَّ خلالها قمع هذه الحركة قمعاً تاماً ، ثم توثبت قوى المسلمين المنتصرة في الداخل للانطلاق في حروب أخرى خطيرة الأبعاد هي حروب الفتح الخارجي على تخوم العراق والشام ، فكانت زمن أبي بكر الوقائع والأيام التي مهدت لوقعتين فاصلتين في تاريخ العرب هما وقعتا (اليرموك) في الشام و (القادسية) في العراق : كانت الأولى بُعَيْد وفاة أبي بكر وقيام عمر بالخلافة ، والثانية بعدها ببضعة شهور ، ولذا كان موضوع (الفتح) وهمومه هو الموضوع الجديد في أواخر عهد أبي بكر ، إذ حلَّ شيئاً فشيئاً محلَّ موضوع (الردة) ، مع بقاء شيء من ظلال الردة وذيولها في موضوعات الترسل بقية عهد أبي بكر ، مما

يسوّغ لنا أن نغلّب سيطرة موضوع الردة على الترسل في هذا العهد ، لأن أحداثها ظلت عميقة الجراح في نفوس المسلمين والمسلمين التائبين زمناً طويلاً بعدها ، ولم تكن لتندمل أو تتوارى لولا انشغال الناس جميعاً عنها بحروب الفتح التي غطت أحداثها وهمومها الجديدة على ما كان قبلُ في حروب الردة من حزازات تلك النفوس . ولكل ذلك رأينا أن موضوعات الترسل في خلافة أبي بكر تندرج في أربعة موضوعات رئيسية يتخلل كلاًّ منها عدد من الموضوعات الفرعية التي تدور في فلكه وتخدم غرضه وتتصل به اتصالاً مباشراً ، وهي :

١ ـ النداء العام إلى المرتدين :

وجه أبو بكر إلى جميع المرتدين كتاباً عاماً مفتوحاً نسخة واحدة مع قادة الأحد عشر جيشاً التي وجهها إليهم ليقرؤوها عليهم ويدعوهم إلى التوبة والرجوع إلى الإسلام ويُعْذِروا إليهم في حربهم إن هم أبوا ذلك وأصروا على غيهم . وقد كتب بعض وجوه المسلمين إلى من ارتد من أقوامهم كتباً في المنحى نفسه ، وهذه الكتب تحوم حول عدد من الموضوعات في هذا الإطار ، هي :

أ ـ تذكيرهم بالإسلام وطلب الاعتصام به :

كان هذا الموضوع أول ما يمكن أن يفكر به أبو بكر في كتابه العام إلى المرتدين حيث ذكّرهم بالنبي ﷺ الذي أُرْسِل إليهم بشيراً ونذيراً ، وبجهاده الطويل لبثّ الدعوة ، وبأنه إن كان قد مات فإن الله تعالى حي دائم لا يموت[1] ، وكانت الخطوة الثانية المتممة لهذا التذكير هي حثّهم على التمسك بالإسلام وفضائله التي جاءهم بها إذ يقول : « وإني أوصيكم بتقوى الله ، وحظّكم ونصيبكم من الله ، وما جاء به نبيكم ﷺ ، وأن تهتدوا بهداه ، وأن تعتصموا بدين الله ، فإنَّ من لم يهده الله ضالّ ، وكل من لم يعافه مبتلى ، وكل من لم يُعِنْهُ

(١) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٢٨٩

مخذول ، فمن هداه الله كان مهتدياً ، ومن أضله كان ضالاً .. ولم يُقْبَل منه عمل في الدنيا حتى يُقِرَّ بـه ، ولم يُقْبَل منـه في الآخرة صَرْفٌ ولا عـدل »[1] . وفي كتـاب آخر له مع خـالـد بن الوليـد إليهم يقول : « فقـد علمتم أنـه من لم يؤمن بـالله فهو ضالّ ، ومن لم يُؤَمِّنْه الله فهو خائف ، ومن لم يحفظه فهو ضائع ، ومن لم يصـدّقـه فهو كاذب ، ومن لم يُسْعِـدْهُ فهو شقي ، ومن لم يرزقـه فهو محروم ، ومن لم ينصره فهو مخذول »[2] ، ويلاحظ أن هذا التذكير بالإسلام يركز على عنـاصر تـدخل في صميم (الأمن والأمان) الذي يثير دائماً مخـاوف النفس البشريـة ، ويجعلهـا تسعى دوماً لاكتساب ما يحققه لها ، وقد استعملت هنـا لتكون أسـاس الإقنـاع بفضـائل الإسلام ، وقاعدة للحرب النفسية التي تضعف قوتهم الحربيـة بـإشعـارهم بـأنهم قـد اخترقـوا الحـدود المحرمـة عليهم حين ارتـدوا عن الإسـلام من غير رويـة أو تفكير عميق بما جاءهم به من عقـائـد وأفكار وقواعـد سلوك ، للمبـالغـة في وصمهم بعقـدة الذنب .

وفي كتـاب إلى الأشعث بن قيس وقبـائـل كنـدة التي ارتـدت عن الإسـلام باليمن كتب أبو بكر يقول : « أما بعد ، فإن الله تبارك وتعـالى يقول في كتـابـه المنزل على نبيـه عليـه السـلام : ﴿ يـا أَيُّهـا الَّـذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللهَ حَـقَّ تُقَـاتِـهِ وَلا تَمُـوتُنَّ إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُـونَ ﴾[3] ، وأنـا آمركم بتقـوى الله وحـده ، وأنهـاكم أن تنقضوا عهده وأن ترجعوا عن دينـه إلى غيره ، ولا تتبعوا الهوى فيضلكم عن سبيل الله »[4] ، وهذه كلها أوامر ونواهٍ وشواهـد من بـاب الـذكرى التي قـد تنفع هؤلاء المرتدين ليثوبوا إلى سبل الحق والرشاد بعد أن كانت أهواؤهم وشهواتهم وعصبيـاتهم قد أضلتهم .

---

(١) م.ن . والصَّرْف : التوبة .

(٢) م.س ، ص ٢٩٣ ولعل هذا الكتاب رواية أخرى للكتاب المفتوح .

(٣) القرآن ، ١٠٢/٣

(٤) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٠١

ب ـ مصانعتهم ومراوغتهم :

كان زياد بن لبيد الأنصاري عاملاً للنبي ﷺ على حضرموت ، فلما توفي ﷺ ارتد أكثر أهل اليمن وحضرموت وأخرجوا زياداً وهموا بقتله ، وهو يدعوهم فلا يجيبون ، فلما يئس منهم عاد إلى المدينة ، فسيره أبو بكر على رأس جيش إلى حضرموت ، فاجتمعت عليه كندة بقيادة الأشعث وحصروه في مدينة يقال لها : يَرِيمُ ، فاستنجد زياد المهاجر بن أبي أمية المخزومي ، فأمده بألف فارس فحُصِروا معه ، وبلغ الخبر أبا بكر ، فكتب إلى الأشعث كتاباً يراوغه فيه ويقول : « إنْ كان إنما حملكم على الرجوع عن دين الإسلام ومنع الزكاة مافعله بكم عاملي زياد بن لبيد ، فإني أعزله وأولي عليكم من تحبون . وقد أمرت صاحب كتابي هذا ، إن أنتم قبلتم الحق ، أن يأمر زياداً بالانصراف عنكم ، فراجعوا إلى الحق ، وتوبوا عن قريب ، وفقنا الله وإياكم لكل مافيه رضى ، والسلام »[1] . فقد أراد أبو بكر أن يقلّل من شأن ردتهم ، وأن يردها إلى سبب هَيِّن هو سلوك عامله عليهم ، وجَعَل عودتهم إلى الدين في مقابل صرفه عنهم ، مع أن المسألة كانت أعمق من ذلك وأعقد ، ولكن أبا بكر أراد أن يضعف شوكتهم ، وأن يوهن عزيمتهم ، وأن يفرق صفهم بتجاهل الأسباب الحقيقية ، وهذه الخطوة محاولة لكسب ود المرتدين وإعطائهم تغطية معنوية للرجوع والإعذار إليهم إن أبوا .

جـ ـ تثبيط عزائمهم ووعيدهم :

عمد أبو بكر في كتابه إلى المرتدين في عموم جزيرة العرب إلى تثبيط عزائم القوم بتأكيده أن رجوعهم عن الإسلام إنما جاء « اغتراراً بالله عز وجل ، وجهالة بأمره ، وطاعة للشيطان »[2] ، فنسب هذا الرجوع إلى الشيطان لا إلى أنفسهم ،

---

(١) م.ن .

(٢) م.س ، ص ٢٩٤ وقريب منه في ٢٨٩

ثم إنه استشهد على خطل رأيهم في اتباعه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَـانَ لَكُمْ عَـدُوٌّ فَـاتَّخِذُوهُ عَـدُوّاً إِنَّمَا يَـدْعُو حِزْبَـهُ لِيَكونُـوا مِنْ أَصْحَـابِ السَّعِيْرِ ﴾[1] ، فـإن من المغالطة أن يطيع المرء عدوه الذي يسعى إلى شقائـه وحتفـه ، أليس ذلـك ضعفـاً واضحاً في عقولهم ؟ وقد كتب ثُمَامَة بن أُثال الحنفي إلى مسيلمة الكـذاب الحنفي كتاباً ينسب فيه ردته إلى الكذب والهوى وينذره سوء المآل على يـدي خـالـد بن الوليد[2] .

فإذا أضفنا هذا التثبيـط إلى مـاتقـدم آنفـاً من حرب معنويـة أليمـة الوقع في النفوس البشرية حين ذكَّرهم بميول الأمن والاستقرار المشتركة بينهم ، فإننا سنقدر مدى التأثر الذي يمكن أن يجر الاستجابة لهذا النداء من غير كبير عنـاء . ولا سيما أن هذا التثبيط قد رافقه وعيد صريح وشـديـد ، إذ يقول لهم : « ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ، ثم لا يبقي على أحـد منهم قـدر عليـه ، وأن يحرقهم بـالنـار ويقتلهم كل قتلة ، وأن يسبي النساء والذراري ، ولا يقبل من أحـد إلا الإسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ، ومن تركـه فلن يعجز الله »[3] . فهو بهـذا الأمر إلى أمراء جنـده قـد رفع الحجـاب بينهم وبين عنـاصر الأمن والاستقرار التي هي بين أيـدي المرتدين ، وتتمثل في ميلهم الفطري إلى حفـظ : النفوس ، والـدمـاء ، والنسـاء ، والذراري ، والأموال . ولا أشد وقعاً في نفوس الناس عادة من الوعيد بزوال هـذه العناصر .

٢ ـ التعليمات والأوامر إلى قادة الجيوش :

كانت الكثرة المطلقـة من كتب أبي بكر تصب في هـذا المـوضـوع ، نظراً

---

(١) القرآن ، ٦/٣٥

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٢٩٦

(٣) م.س ، ص ٢٩٠ وقريب من ذلك في ٢٩٤ وفيها : « ويأخذ الأموال » .

لطبيعة المرحلة التي مرت بها خلافته في الميدان الداخلي من جهة ، وفي الميدان الخارجي من جهة أخرى ، وكانت هذه الكتب تتناول جملة من الموضوعات الفرعية التي يمكن إجمالها بما يلي :

أ ـ تولية القادة وعزلهم وتسيير الجيوش :

كان أبو بكر في بداية أمر الردة أو في أوائل الفتح الخارجي يكتب إلى بعض الصحابة المتفرقين في أنحاء الجزيرة يطلب منهم الشخوص إلى المدينة لقيادة جيوشه[1] ، أو كان يوليهم على بعض هذه الجيوش وهم بعيدون عنه ، أو يكتب إلى بعضهم بإلحاقهم ببعض القادة أو بتأمير بعضهم على بعض ، بحسب ما كان يرى في الرجال من صفات ومزايا قيادية أكثر ملاءمة لإدارة الحرب ، ومن ذلك أنه كتب إلى عكرمة بن أبي جهل بمكة ليحشد الناس لنجدة زياد بن لبيد المحاصر بحضرموت فقال : « فإذا قرأت كتابي هذا فسر إلى زياد بن لبيد في جميع أصحابك ومن أجابك من أهل مكة ، واسمع له وأطع فإنه الأمير عليك »[2] ، فقد ولاه أبو بكر على أصحابه حتى يصل إلى لبيد فيكون واحداً من جنده الذين يتلقون منه الأوامر . وكتب أبو بكر أيضاً إلى وجوه من أهل اليمن أقاموا على الإسلام : « اسمعوا من فيروز وجِدُّوا معه ، فإني قد وليته »[3] . وكان أبو بكر قد ولى المثنى بن حارثة الشيباني حرب الفرس على تخوم العراق ، حتى إذا فرغ خالد بن الوليد من حرب المرتدين باليمامة أمره بالتوجه إلى العراق ، وكتب إلى المثنى يقول : « ما أقام معك بالعراق فهو الأمير عليك ، فإذا شَخَص فأنت على ما كنت عليه »[4] . وقد نازع المثنى القيادة ، قبل قدوم خالد ، رجل من قومه

---

(١) م.س ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ وجمهرة رسائل العرب ، ١٤٣/١ ـ ١٤٤

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٠٢

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ١٢٤/١

(٤) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣١٥ وشخص : ذهب من بلد إلى بلد .

يدعى مذعوراً ، فكتب أبو بكر إلى مذعور يقول : « قد رأيت لك أن تنضم إلى خالد بن الوليد فتكون معه ، وتقيم معه ما أقام بالعراق ، وتَشْخَصَ معه إذا شَخَص منها »[1] . وقد وجه أبو بكر خالداً إلى العراق من أسفله ، وعِياض بن غَنْم من أعلاه ، وكتب إليهما أنَّ من يسبق منهما إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه[2] . ثم وجه أبو بكر خالداً إلى الشام لنجدة المسلمين قبيل اليرموك ، وكتب إليه يقول : « حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة »[3] ، وكتب في الوقت نفسه إلى أبي عبيدة يقول : « إني قد وليت خالداً قتال الروم بالشام فلا تخالفه ، واسمع له وأطع أمره ، فإني وليته عليك ، وأنا أعلم أنك خير منه ، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك »[4] . وكان أبو بكر قد اتخذ موقفاً صارماً من المرتدين بعد توبتهم ورجوعهم إلى الإسلام ، وكتب به إلى قادة جنده قائلاً : « ولا تستعينوا بمرتد في جهاد »[5] . وكتب إلى خالد وعياض قبيل انطلاقهما إلى العراق يقول : « استنفرا من قاتل أهل الردة ومن ثبتَ على الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، ولا يَغْـزُوَنَّ معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي »[6] . وكان مثل هذا الموقف العزلي شديد الوطأة على نفوس هؤلاء التائبين ، وكان قصد أبي بكر من ذلك أن يشعرهم بفداحة الذنب الذي اقترفوه بارتدادهم ، فكان ذلك عقوبة نفسية رادعة لهم .

(١) جمهرة رسائل العرب ، ١٢٩/١

(٢) تاريخ الطبري ، ٣٤٧/٣

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ١٥١/١

(٤) م.س ، ١٥٣/١

(٥) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٠٥

(٦) جمهرة رسائل العرب ، ١٣١/١

ب ـ التحريض على الجهاد :

وقد خصَّ أبو بكر هذا الموضوع بحيز كبير من اهتمامه ، لأنه الأداة النفسية الأساسية في تحقيق الأهداف المحددة على صعيد الواقع ، فقد كان أمام الخليفة هدف رئيسي واضح ومحدد هو القضاء على حركة الردة التي نجمت ، وقمع القائمين بها قمعاً تاماً بكل ماأوتي من قوة ومن وسائل أخرى ، وكان أمامه هدف ثانوي آخر واضح ومحدد أيضاً هو استيعاب الذيول النفسية لحروب الردة بين العرب ، وذلك بتوظيف الحزازات الحادثة والطاقات الحربية الكامنة في خدمة غرض أسمى هو الفتح الخارجي ودعوة الأمم والشعوب كافة إلى الإسلام ، استكمالاً لما كان النبي ﷺ قد بدأه بالبعوث والغزوات على تخوم الروم خاصة ، وبالرسائل التي وجهها إلى ملوك العجم المجاورين لجزيرة العرب ، وبذا تمتص جهود الفتح مالدى العرب من حزازات وطاقات فيما بينهم ، وتكون النتيجة ذات نفع مزدوج ، إذ يتجنب الناس وقوع ويلات وفتن داخلية تطحنهم طحناً من جديد وتهدر طاقاتهم ، وتتحقق في الوقت نفسه مهمة تبليغ الدعوة إلى العالمين ، وهو العبء الذي يتحمل العرب منه النصيب الأوفر ، لأن القرآن إنما أنزل قرآناً عربياً مبيناً . وكان أبو بكر يسهر على غرس الطمأنينة التامة في نفوس جنوده وقادته كلما لاحت من بعضهم بادرة خوف أو قنوط ، فينزع من هذه النفوس بكتبه تلك البادرة ويزيدهم إيماناً ويقيناً وثقة بما هم مقدمون عليه .

وقد كان للتحريض على الجهاد في تلك الكتب مجموعة عناصر : منها بيان أن الجهاد فريضة من الله تعالى على المسلمين[1] ، ومنها بيان ثواب الشهادة ومنزلة الشهداء عند الله تعالى يوم القيامة[2] ، ومنها الحثّ على طاعة الله ورسوله ﷺ

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣١٤ وانظر كذلك ص ٣٢٥ مع ملاحظة طبيعة الآيات التي استشهد بها على الجهاد والحض على القتال وبذل الأموال والأنفس فيه .

(٢) م.س ، ص ٣١٤ .

في المبادرة إلى الجهاد[1] ، ومنها الترغيب في ثمرة الفتح والغنيمة في الدنيا[2] ، ومنها إظهار الفارق العظيم بين جنود المسلمين وما يسعون إليه من مرضاة الله وطاعته وبين جنود عدوهم وما يقاتلون عليه من دنياهم[3] ، ومنها غرس الطمأنينة في نفوس الجنود ، ومنها ترسيخ الثقة بالنصر على الأعداء[4] .

جـ ـ تزويد القادة بالتوجيهات والخطط الحربية :

كان الخليفة على اطلاع دائم على تطور الأعمال الحربية التي تنفذها جيوش الفتح عن طريق الرسائل التي كانت تصل إليه تباعاً من قادة هذه الجيوش ، أو من القادمين أو العائدين من جبهات القتال ، ولذلك كان يرى ما لا يراه القادة على أرض المعارك ، وكان يبعث إلى قادته بالخطط التي تدعم موقفهم الحربي ، وتوفر التنسيق الكامل بين جيوشهم ، وتطلعنا خطط أبي بكر التي وصلت إلينا فيما وصل من رسائله على خبرة عميقة بفنون الحرب وقدرة كبيرة على إدارة شؤونها . وكانت كتبه في هذا المجال أكثر عدداً من كتبه في غير ذلك من المجالات .

فقد كتب إلى خالد يأمره بالمسير إلى مسيلمة الكذاب وبني حنيفة ويوصيه بما يجب عليه فعله معهم من الحذر والرفق والدعوة إلى أن قال له في القتال :

---

(١) م.ن . وانظر حديث النبي ﷺ الذي استشهد به عن حشر الشهداء يوم القيامة ونيلهم كل أمانيهم .

(٢) م.س ، ص ٣٢٥

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ١٤٨/١

(٤) فكان أبو بكر يذكّر المسلمين بأنهم إنما نُصِرُوا على عدوهم بالرعب وبالمدد من الملائكة ، وبالفئة القليلة التي تغلب الفئة الكثيرة ، وكان يَعِدُهم بتسيير المدد إليهم حتى يكتفوا ، انظر : جمهرة رسائل العرب ، ١٤٨/١ . وكان أيضاً يذكّر جنوده بحبهم الموت كما يحب أعداؤهم الحياة ، وبحبهم الجهاد حباً أشدّ من حب أبكار نسائهم وعقائل أموالهم ، وأن الواحد منهم خير من ألف رجل من المشركين ، ويبشرهم بالمدد والفتح والنصر ، انظر : م.س ، ١٤٦/١ ـ ١٤٧ و ١٥٠

« فـإذا عـزمت على الحرب ، فبـاشرهـا بنفســك ولا تتكل على غيرك ، وصُفّ صفـوفـك ، وأحكم تعبئتــك ، واحـزم على أمرك ، واجعـل على ميمنتــك رجـلاً ترضاه ، وعلى ميسرتك مثله ، واجعل على خيلك رجلاً عالماً صابراً ، واستشر من معـك من أكابر أصحـاب رسـول الله ﷺ ، فـإن الله تبــارك وتعــالى مـوفقــك بمشورتهم ، واعرف للمهـاجرين والأنصـار حقهم وفضلهم ، ولا تكسل ولا تفشل ، وأعـد السيف للسيف ، والرمح للرمـح ، والسهم للسهم ، واستـوص بمن معـك من المسلمين خيراً ، ولَيِّن الكـلام ، وأحسن الصحبـة ، واحفـظ وصيـة نبيـك ﷺ في الأنصـار خـاصـة (بـأن)[1] تحسن إلى محسنهم ، وتتجــاوز عن مسيئهم ، وقـل : لا حول ولا قوة إلا بـالله »[2] . وتشبـه هـذه الوصيـة أن تكون دستـوراً متكامـلاً يسير عليه القائد العسكري المبدع الذي ينشد النصر آنذاك .

وكتب أبو بكر إلى عكرمـة حين وجهـه من مكـة إلى اليمن يقول : « لا تمرن بحي من أحيـاء العرب إلا استنهضتهم فـأخرجتهم معـك إلى محـاربـة الأشعث بن قيس وأصحـابـه »[3] . وكتب إلى المهــاجر بن أبي أميــة المخـزومي بشــأن أهـل حضرموت : « إنْ ظفرتم بـالقوم فـاقتلوا المقـاتلـة ، واسبوا الـذُّرِّيَّـة إنْ أخـذتموهم عَنْوة ، أو ينزلوا على حكمي ، فـإنْ جرى بينكم صلح قبل ذلـك فعلى أن تخرجوهم من ديارهم ، فإني أكره أن أقرّ أقواماً فعلوا فعلهم في منازلهم ليعلموا أن قد أسـاؤوا وليذوقوا وَبال بعض الذي أتوا »[4] ، وهنالك كتب أخرى من أبي بكر إلى القادة الذين كانوا يحاربون المرتدين[5] .

---

(١) ورد في المصدر (وأن) .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦

(٣) م.س ، ص ٣٠٢

(٤) م.س ، ص ٣٠٦

(٥) انظر : جمهرة رسـائل العرب ، ١١٩/١ (إلى خـالـد أيضـاً) و ١٢٠ (إلى عكرمـة) و ١٢٣ (إلى العلاء بن الحضرمي) .

ولما أراد أبو بكر تسيير خالد ومن معه من المسلمين من اليمامة إلى العراق كتب إليه يقول : « سر إلى العراق حتى تدخلها ، وابدأ بفرج الهند ، وهي الأُبُلَّة ، وتألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم »[1] ، وكتب إلى خالد أيضاً وإلى عِياض يقول : « إذا اجتمعتما بالحيرة وقد فَضَضْتُما مسالح فارس ، وأمِنْتُما أن يؤتى المسلمون من خلفهم ، فليكن أحدكما رِدءاً للمسلمين ولصاحبه بالحيرة ، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارَهُمْ ومستقر عزهم : المدائن »[2] . ثم إن أبا بكر كتب إلى خالد يقول : « سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شَجُوا وأَشْجَوْا »[3] . وكان قد كتب إلى أبي عبيدة حين علم بحشد الروم جيوشاً كثيفة لقتال المسلمين في اليرموك يقول : « بُثَّ خيلك في القرى والسواد ، وضَيِّقْ عليهم بقطع المِيرة والمادة ، ولا تحاصرن المدائن حتى يأتيك أمري ، فإن ناهضوك فانهض إليهم ، واستعن بالله عليهم »[4] .

د ـ اللوم والتقريع :

لم يفت أبا بكر أن يحاسب قادته كلما هفا أحدهم هفوة عامة أو خاصة ، وذلك من أجل ألا يتمادوا في الغرور ، وليذكِّرهم بمسؤولياتهم تجاه من معهم من المسلمين وما يترتب لهم عليهم من حقوق . وقد أُثِر مثل هذا الموضوع في رسالتين اثنتين في حدود اطلاعنا : الأولى موجهة إلى عكرمة بن أبي جهل حين أمره بالمسير إلى مسيلمة وبني حنيفة باليمامة ، وكان قد أمر شُرَحْبِيلَ بن حَسَنَة بأن يلحق به ، فما كان من عكرمة إلا أن تعجل في حربهم ليذهب بالصيت قبل

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣١٢ وجمهرة رسائل العرب ، ١٣٠/١

(٢) جمهرة رسائل العرب ، ١٣١/١

(٣) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٢٤ وشَجُوا : حزنوا وغصّوا . وأَشْجَوْا : قَهروا وغَلَبُوا ، يريد أنهم قد أصيبوا من عدوهم وأصابوه .

(٤) جمهرة رسائل العرب ، ١٥٠/١

وصول شرحبيل إليه ، فهُزِم هزيمة منكرة ، فلما علم شرحبيل بذلك أقام في الطريق وكتب عكرمة يعلم أبا بكر بالأمر ، فكتب إليه أبو بكر يعنفه لتسرعه ويقول : « يا بن أم عكرمة ، لاأَرَيَنَّكَ ولا تراني على حالها ، لا ترجع فَتُوَهِّنَ الناس ، امض على وجهك حتى تساند حُذَيْفَة وعَرْفَجَة ، فقاتل معهما أهل عُمان ومَهْرة »[1] ، وفي رواية أنه كتب إليه يقول : « لاأَرَيَنَّكَ ولا أَسْمَعَنَّ بك إلا بعد بلاء »[2] . والثانية إلى خالد حين تزوج ابنة مُجّاعة بن مُرارة الحنفي باليمامة بعدما سأله الصلح وصالحه ، وقال فيها : « لعمري يا بن أم خالد ، إنك لفارغ تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومئتي رجل من المسلمين لم يَجْفِفْ بعد »[3] . وتدل هاتان الرسالتان على قوة شخصية أبي بكر وحزمه مع أصحابه حين يتطلب الأمر الحزم .

هـ ـ إقامة الحدود :

كان أبو بكر يكتب إلى قادته أحياناً بما يجب إقامته من حدود في بعض الأمور الطارئة ، وقد أثرت من هذا النوع من التعليمات ثلاث رسائل : الأولى في عقوبة شتم النبي ﷺ كتب بها أبو بكر إلى المهاجر بن أبي أمية باليمن يقول فيها : « بلغني الذي سرت فيه بالمرأة التي تغنت وزَمَّرَتْ بشتيمة رسول الله ﷺ ، فلولا ماقد سبقتني فيها لأمرتك بقتلها ، لأن حدَّ الأنبياء ليس يشبه الحدود ، فمن تعاطى ذلك من مسلمٍ فهو مرتدٌّ ، أو معاهدٍ فهو محاربٌ غادر »[4] . والثانية كتب بها أبو بكر ـ حين أخبره بعض المسلمين بأن قِياناً لكندة وعواهرَ لأهل حضرموت كُنَّ يتمنين موت رسول الله ﷺ ، فلما مات خضبن أيديهن ، وأظهرن

(١) م.س ، ١٢٠/١ وكان أبو بكر قد وجَّه حُذَيْفَة بنَ مِحْصَنٍ الغَلْفانِيّ من حِمْيَر إلى عُمان ، ووجه عَرْفَجَة بن هَرْثَمَة الأزديّ إلى مَهْرَة .

(٢) م.س ، ١٢٠/١ هـ ١

(٣) تاريخ الطبري ، ٣٠٠/٣ وجمهرة رسائل العرب ، ١٢٠/١

(٤) تاريخ الطبري ، ٣٤١/٣ ومجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٠٥ وجمهرة رسائل العرب ، ١٢٥/١

محـاسنهن ، وضربن بـالـدفـوف جراءة منهن على الله وعلى رسـولـه ﷺ[1] ـ إلى المهاجر أيضاً يقول فيها : « سر إليهن بخيلك ورجلك حتى تُقَطِّع أيـديهن ، فـإن دفعك عنهن دافع ، أو حال بينك وبينهن حائل ، فأَعْـذِرْ إليـه ، بـاتخـاذ الحجـة عليه ، وأعلمه عظيم مادخل فيه من الإثم والعدوان ، فإنْ رجع فاقبل منـه ، وإن أبى فنابذه على سواء »[2] ، فلما قرأ الكتاب فعل ماأمر به فمات عـامـة النسوة[3] .

والثالثة كتب بها أبو بكر إلى المهاجر أيضاً في المرأة التي قطع يدهـا ونزع ثنيتيهـا لتغنيها بهجاء المسلمين فقال : « إنْ كانت ممن تدعي الإسلام فَـأَدَبٌ وتَقْـدِمَـةٌ دون الْمُثْلَة ، وإنْ كانت ذِمِّيَّة فَلَعَمْري لَما صفحتَ عنه من الشرك أعظم »[4] .

٣ ـ الكتب الحربية من القادة إلى أبي بكر :

كان لابدَّ للقادة من الاتصال الدائم بمركز قيادتهم وبرئيسهم المبـاشر المتمثل في شخص الخليفة ، ليكون الارتباط وثيقاً بين الأطراف والمركز ، وليتم تبـادل الرأي بينهم فيما يعرض لهم من أمور ، وبهذا الاتصال يتم التنسيق التام بين هؤلاء القـادة وجيوشهم وبين قيادتهم العليا من أجل تحقيق الغاية المنشودة عندهم في تلك الآونة من التاريخ ، وهي القضـاء على الردة من جهـة ، وتصعيـد بوادر الفتح من جهـة أخرى . وكانت كتب القادة تدور حول عـدد من الموضوعـات الفرعيـة التي يمكن إجمالها بما يلي :

---

(١) وقد كتب إليه بعضهم شعراً يقول فيه (انظر : المحبر لابن حبيب ، ص ١٨٦) :

أَبْلِـغْ أَبـا بَكْرٍ إذا مـا جِئْتَـهُ ... أَنَّ البَغـايـا رُمْنَ كُـلَّ مَرامِ
أَظْهَرْنَ مِنْ مَـوْتِ النَّبِيِّ شَماتَـةً ... وَخَضَبْنَ أَيْـدِيَهُنَّ بِـالعُـلاَّمِ
فَـاقْطَـعْ هُـدِيتَ أَكُفَّهُنَّ بِصـارِمٍ ... كالبَرْقِ أَوْمَضَ في مُتُـونِ غَمامِ

والعُلاَّم : الحِنّاء .

(٢) المحبر لابن حبيب ، ص ١٨٧

(٣) م.س ، ص ١٨٨

(٤) تاريخ الطبري ، ٣٤٢/٣

أ ـ بيان الوضع الحربي :

حين حوصر زياد بن لبيد والمهاجر بن أبي أمية ومن معهما من المسلمين في يَرِيمَ بحضرموت ، كتب زياد إلى أبي بكر يخبره باجتماع كندة على حربهم ، ولم يصل إلينا نصّ الكتاب[1] ، ومن الطبيعي أن نخمن ما كان يتضمن من بيان دقيق للوضع الحربي الحرج ، ليكون الخليفة على اطلاع تام على مجرى الأحداث . وكانت هذه المهمة إحدى المهام المترتبة على قادة الجيوش ، وقد شغل هذا الموضوع حيزاً هاماً في رسائلهم إلى الخليفة ، نظراً لأهميته في تحقيق الأهداف . ولما علم أبو عبيدة بحشد الروم لقتال العرب كتب إلى أبي بكر يقول : « بلغني أن هرقل ملك الروم نزل قرية من قرى الشام تدعى (أنطاكية) ، وأنه بعث إلى أهل مملكته فحشرهم إليه ، وأنهم نفروا على الصعب والذلول »[2] . وكتب يزيد بن أبي سفيان في الوقت نفسه إلى الخليفة يقول : « إن ملك الروم هرقل لما بلغه مسيرنا إليه ألقى الله الرعب في قلبه ، فتحمل فنزل أنطاكية ، وخلف أمراء من جنده على مدائن الشام ، وأمرهم بقتالنا ، وقد تيسروا لنا واستعدوا ، وقد أخبرنا مسالمة أهل الشام أن هرقل استنفر أهل مملكته وأنهم قد جاؤوا يجرون الشوك والشجر »[3] . وكتب أبو عبيدة أيضاً كتاباً آخر حين بدأ تحرك الروم يقول فيه : « إن عيوني من أنباط أهل الشام أخبروني أن أوائل أمداد الروم قد وقعوا إليه ، وأن أهل مدائن الشام بعثوا رسلهم إليه يستمدونه ، وأنه كتب إليهم : (إن أهل مدينة من مدائنكم أكثر ممن قدم إليكم من العرب ، فانهضوا إليهم فقاتلوهم ، فإن مددي يأتيكم من ورائكم) ، فهذا ما بلغنا عنهم ، وأنفس المسلمين لينة بقتالهم ، وقد أخبرونا أنهم قد تهيؤوا لقتالنا »[4] . وعندما اقتربت استعدادات الروم من

(١) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١

(٢) جمهرة رسائل العرب ، ١٤٦/١

(٣) م.س ، ١٤٧/١

(٤) م.س ، ١٤٩/١

ذروتها ، كتب أبو عبيدة إلى أبي بكر يبين له آخر تطورات الوضع الحربي ويقول : « إن الروم وأهل البلد ومن كان على دينهم من العرب قد اجتمعوا على حرب المسلمين ، ونحن نرجو النصر وإنجاز موعود الرب وعادته الحسنى »[1] .

تتضح لنا من هذه الكتب صور هامة من صور الوضع الحربي الذي كان قائماً بين الطرفين المتحاربين : المسلمين والمرتدين في معظم خلافة أبي بكر ، والعرب والروم في أواخر تلك الخلافة . ويتجلى لنا من التتبع الدقيق من القادة لتطور الأحداث واستعمالهم أساليب التجسس على حركات العدو وهمساته والإلمام بنياته الحربية وعناصر جيوشه والمواضع التي يحل فيها أو يرتحل عنها ، أنهم كانوا مؤهلين لقتال هذا العدو وفق الشروط التي يرونها أكثر ملاءمة لجندهم من جميع الوجوه .

ب ـ الاستشارة وطلب الرأي :

كان القادة يتوّجون ، في أغلب الأحيان ، موضوع بيان الوضع الحربي في جبهاتهم ، بموضوع متمم له هو استشارة الخليفة فيما يقدمون عليه وطلب رأيه فيما يصنعون على أرض العمليات الحربية ، ليستعينوا بهذا الرأي ويتقووا به ويقدموا على عدوهم بالتالي وهم مطمئنون إلى صواب ما يفعلون بعد أن يجمع رأيهم جميعاً على خطة أو تدبير . وأكثر ما كان هذا الموضوع يلح على القادة حينما يكونون مقبلين على معارك حاسمة . ومن ذلك أن أبا عبيدة ختم كتابه إلى أبي بكر بعد بيانه حقيقة الوضع الحربي بقوله : « وقد رأيت أن أعلمك ذلك فترى فيه رأيك »[2] . وكتب إليه في آخر يقول : « وأحببت إعلامك ذلك لترى فيه رأيك إن شاء الله »[3] . وجاء في كتاب يزيد إلى أبي بكر قوله : « فمرنا بأمرك ،

---

(١) م.س ، ١٥١/١

(٢) م.س ، ١٤٦/١

(٣) م.س ، ١٥١/١

وعجل علينا في ذلك برأيك ، نتبعه إن شاء الله »[1] . وكانت توجيهات الخليفة عصارة مااستقر عليه من قناعة بعد استشارة ذوي الرأي من صحابة النبي ﷺ ، وبعد تقليب الرأي على شتى الوجوه في الأمر المطروح عليه .

جـ ـ طلب النجدة والمدد :

كان القادة يحتاجون دائماً إلى تعزيز قواتهم بالجنود الجدد لزيادة عدد أفراد الجيش من جهة ، ولتعويض من استشهد منهم في ساحات القتال من جهة أخرى . ولذلك كانوا يستمدون الخليفة باستمرار . وكان الخليفة بدوره يستنفر الناس دوماً ويحضهم على الجهاد ويجمعهم في المدينة وغيرها ثم يسيرهم إلى الوجه الذي يحتاج إليهم أكثر من غيره ، وكان يَعِد قادته بالمدد تلو المدد فقد كتب في كتاب إلى يزيد بن أبي سفيان يقول : « وأنا مع ذلك ممدك بالرجال في إثر الرجال حتى تكتفوا ولا تحتاجوا إلى زيادة إنسان إن شاء الله »[2] ، وكتب بمثل ذلك أيضاً إلى أبي عبيدة[3] ، وهكذا كان طلب المدد وسرعة الإجابة إليه من العناصر الأساسية في تحقيق النصر المبين في حروب الفتح ، لأن المدد أو الوعد به مما يطمئن النفوس ويشجع القلوب .

د ـ التبشير بالنصر والفتح والإخبار بالصلح :

كان هذا الموضوع من الموضوعات المهمة والبارزة دائماً في أزمنة الحروب ، وكان الإخبار بالصلح أيضاً ذا قيمة لدى الخليفة والرعية على حدّ سواء ، ولا يتصور المرء مدى لهفتهم على تتبع أخبار الحروب أو تحرقهم لمعرفة نتائج المعارك التي كانت تدور آنذاك في أنحاء الجزيرة مع المرتدين ، ثم بعد ذلك في

---

(١) م.س ، ١٤٧/١

(٢) م.س ، ١٤٨/١

(٣) م.س ، ١٤٧/١ و ١٥٠

جبهات الفتح بالشام والعراق ، نظراً لطبيعة الاتصال آنذاك ، فكان القادة لذلك يعجلون بالبشرى إن تمَّ لهم نصر أو فتح أو صلح ليطمئنوا تلك النفوس المتشوفة القلقة ، وليحظوا بشرف الفخر وذيوع الصيت بين الناس ، ومن ذلك أن العلاء بن الحضرمي كتب إلى أبي بكر يخبره بما فتح الله تعالى عليه في حرب عبد القيس وبكر بن وائل وجماعات من الفرس في البحرين ، فقال : « إن الله تبارك اسمه سلب عدونا عقولهم ، وأذهب ريحهم بشراب أصابوه من النهار ، فاقتحمنا عليهم خندقهم ، فوجدناهم سكارى ، فقتلناهم إلا الشريد ، وقد قتل الله الْحُطَم »[1] . وكتب إليه خالد بن الوليد بمصالحته أهل اليمامة حين طلبوا منه ذلك[2] ، وكتب إليه خالد أيضاً بعد تمكنه من جموع بني أسد وطيئ وغطفان عامة ، وبني عامر خاصة ، فقال : « إن بني عامر أقبلت بعد إعراض ، ودخلت في الإسلام بعد تربص ، وإني لم أقبل من أحد قاتلني أو سالمني شيئاً حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين ، فقتلتهم كل قتلة »[3] ، وكتب خالد فيما بعد عن نصر المسلمين بالشام على الروم في وقعة أجنادين فقال مبشراً : « خرجنا إليهم واثقين بالله ، متوكلين على الله ، فطاعناهم بالرماح ، ثم صرنا إلى السيوف فقارعناهم بها ، ثم إن الله أنزل نصره ، وأنجز وعده ، وهزم الكافرين ، فقاتلناهم في كل فج وشعب وغائط »[4] .

٤ ـ دعوة العجم إلى الإسلام (أو الخِيارات الثلاثة) :

رأينا فيما تقدم أن النبي ﷺ قد وجه رسله بكتب الدعوة إلى كبار ملوك

---

(١) م.س ، ١٢٢/١ والْحُطَم هنا هو الْحُطَم بن ضُبَيْعَة قائدهم .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٢٩٧

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ١١٩/١ ونرجح أن الإشارة هنا كانت إلى أصحاب بئر معونة من المسلمين الذين قتلوا سنة ٤ هـ غدراً على أيدي رجال من بني عامر .

(٤) م.س ، ١٥٤/١ ـ ١٥٥

العجم مُنْصَرَفَهُ من الحديبية ، وقد جرت على إثر ذلك وقعة مؤتة بين المسلمين وبين الروم وحلفائهم بعد مقتل أحد رسله ﷺ إلى بعض أمراء الشام ، ثأراً له وجرأة على الروم لإزالة هيبتهم المسيطرة آنذاك على نفوس العرب في أنحاء جزيرتهم ، وإشارة في الوقت نفسه إلى الأهداف المستقبلية التي يجب أن تتم في هذا الوجه ، وتأكّد ذلك في غزوة تبوك التي خرج فيها النبي بنفسه ، ثم بحشد جيش أسامة أثناء مرضه الأخير وإصراره على تسييره مهما حدث حتى يطأ أرض الروم ، وكأنما كان هذا الإصرار وصية النبي الأخيرة للصحابة وعامة المسلمين بموالاة دعوته والخروج من جزيرة العرب إلى مايحيط بها من أراض ودول وشعوب لدعوة الناس كافة وفتح بلادهم أمام دين الله ، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى في تلك البلدان . وبالفعل سير أبو بكر بعد فراغه من المرتدين خالد بن الوليد بجيش إلى العراق من اليمامة مباشرة ليلحق بالمثنى بن حارثة الشيباني وقومه الذين يناوشون الفرس على أطراف السواد العراقي ، وسير عِياض بن غَنْم ليأتي العراق من أعلاه من جهة دُومَة الجندل ، ثم سير في الوقت نفسه أربعة جيوش إلى الشام : فوجه أبا عبيدة إلى حمص ، وشرحبيل بن حسنة إلى الأردن ، ويزيد بن أبي سفيان إلى البلقاء ، وعمرو بن العاص إلى فلسطين ، حتى يدخلوا الشام من هذه المداخل دفعة واحدة فيشتتوا جيوش الروم ما بينهم ويربكوها .

ولم يكن الخليفة هذه المرة هو الذي يدعو الناس ملوكاً وأمراء وقادة ورعية في الشام والعراق مباشرة إلى الإسلام ، كما فعل النبي ﷺ من قبل ، وإنما ترك هذا الأمر لقادة جيوش الفتح أنفسهم ، فكانوا يوجهون كتب الدعوة إليهم ، وكانت موضوعات هذه الكتب تتمثل في ثلاث قضايا أساسية هي الخِيارات الثلاثة المعروفة :

أ ـ الإسلام :

كتب خالد بن الوليد إلى هُرْمُزَ صاحب ثغر فارس يقول : « أسلم تسلم »[1] ، ولما غلب على جانب السواد الجنوبي كتب إلى رؤساء أهل فارس بالمدائن وقد مات ملكهم أردشير ، واختلفوا فيما بينهم : « ادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوز إلى غيركم »[2] ، وكتب إليهم كتاباً آخر يقول فيه : « اعلموا أن من صلى صلاتنا ، وتحرَّف قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا ، وشهد شهادتنا ، وآمن بنبينا عليه السلام ، فنحن منه وهو منا ، وهو المسلم الذي له مالنا وعليه ما علينا »[3] ، ورُوِي أنه وجه هذا الكتاب إلى رُسْتُمَ ومِهْرانَ وملأ فارس : « إني أعرض عليكم الإسلام ، فإن أقررتما به ، فلكم ما لأهل الإسلام وعليكما ما على أهل الإسلام »[4] ، وكتب أيضاً إلى مَرازِبة فارس يقول : « أسلموا تسلموا »[5] . وتلاحظ في هذه الكتب لهجة الحزم بادية بوضوح ، ثم إن خالداً بَيَّن لهؤلاء المدعوين ما يمكن أن يتمتعوا به من المساواة التامة في المكانة مع المسلمين إن هم دخلوا في دينهم ، ليكونوا على جلية من أمرهم .

ب ـ الجزية :

لم يكن الدخول في الإسلام قسرياً مادام هنالك خِياران آخران هما : الجزية أو الحرب . فكان بإمكان المدعوين أن يبقوا على دينهم محافظين إن سَلَّموا بالدخول في طاعة المسلمين وأداء هذه الجزية التي تدل على هذه الطاعة ، والتي تعطيهم في المقابل الحق الكامل في ممارسة عباداتهم وشعائر دينهم ، وتضمن لهم

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣١٥

(٢) م.س ، ص ٣١٩ ـ ٣٢٠

(٣) م.س ، ص ٣٢١

(٤) م.س ، ص ٣٢٢

(٥) جمهرة رسائل العرب ، ١٤١/١

حماية المسلمين من أي عدوان خارجي أو اعتداء داخلي من المسلمين على نفوسهم ودمائهم وأعراضهم وأموالهم ومقدساتهم ، وتعفيهم كذلك من الحشر في جيوش الفتح والخدمة فيها . ولم يكن هؤلاء المدعوون ليقبلوا بمثل هذه الجزية ، بطبيعة الحال ، ما داموا يستشعرون في أنفسهم القدرة على دفع المسلمين ومنعهم أو هزيمتهم . فإذن كانت الدعوة إلى أداء الجزية للتمتع بالحقوق المذكورة آنفاً هي الخِيار الثاني دائماً بعد رفض الدخول في الإسلام ، وقد جاءت صريحة في كتب خالد بن الوليد إلى أهل فارس ، فهو يقول في كتابه إلى هرمز : « أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية »[1] ، وفي كتابه إلى رُسْتُمَ ومِهْرانَ : « فإن أبيتما فإني أعرض عليكما الجزية ، فإن أقررتما بالجزية فلكم ما لأهل الجزية وعليكما ما على أهل الجزية »[2] .

جـ ـ الحرب :

لم تكن حلقة الدعوة التي كان قادة جيوش الفتح يوجهونها إلى أهل حربهم لتكتمل إلا بإظهار مدى القوة التي أتوهم بها ، وعمق الإصرار على تحقيق غاياتهم من الدعوة ، فكانوا لذلك يرسمون لهم صورة مشرقة ومرعبة لشدة إيمان جندهم ومدى استعدادهم للإقبال على الموت برضى واطمئنان عند اللقاء ، فكتب خالد إلى هُرْمُزَ مثلاً : « وإلا فلا تَلُومَنَّ إلا نفسك ، فقد جئت بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة »[3] ، وإلى رُسْتُمَ ومِهْرانَ وملأ فارس : « فإن لم تفعلوا ، فوالله الذي لا إله إلا هو لأَسيْرَنَّ إليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة »[4] ، وفي رواية أخرى : « وإن أبيتما فإن عندي رجالاً تحب القتال كما تحب فارس الخمر »[5] ، وتبقى

(١) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣١٥

(٢) م.س ، ص ٣٢٢

(٣) م.س ، ص ٣١٥

(٤) م.س ، ص ٣٢٠ وقريب من ذلك في ص ٣٢١ وقد ختم بقوله : « وَقَدْ أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ » .

(٥) م.س ، ص ٣٢٢

المقابلة بين حب الموت وحب الحياة أصدق تصويراً وأدق تعبيراً عن واقع حال المسلمين المعنوية في حروب الفتح من المقابلة بين حب القتال وحب الخمر في هذا الكتاب ، ويصح لنا أن نسمي هذه المقابلة بالمعادلة المتناقضة ، فالمعادلة هنا تتمثل في أن المسلمين وأعداءهم يحبون ، والتناقض يقع فيما يحبون : الموت والحياة ، إذ إن حب كل منهما يقف على طرف نقيض من الآخر ، وشتان بين ما يبعثه حب الموت من شجاعة وإقدام وتضحية ، وما يبعثه حب الحياة من جبن وإحجام . ولا شك في أن هذه الصورة كانت تقع على المدعوين وقع الصاعقة ، فتثبط من عزائمهم وتنذرهم بالهزيمة المنكرة ، وتيسر لكثير منهم الميل إلى الصلح والمسالمة توفيراً للدماء وحفظاً للأنفس والأموال والذراري على خير وجه بدلاً من تبديدها أو هدرها فيما لا طائل تحته .

الفصل الثالث

في خلافة عمر وعثمان : الفتح وبوادر الفتنة

يمكن القول إن موضوعات الترسل في هذه الفترة كانت تمثل تمثيلاً دقيقاً التطورات التي جرت على ساحة الواقع بكل جوانبها وأبعادها ، فكانت مسايرة بحق لحركة التاريخ ، فقد نمت بوادر الفتح الأولى التي بدأ ظهورها في أواخر خلافة أبي بكر ، واشتدت واستوت على سوقها وازدهرت ازدهاراً واسعاً بانتشار جيوش الفتح في الشام والعراق ومصر وفارس ، فعبرت الرسائل في هذه الفترة تعبيراً كاملاً عن الشؤون الحربية المتعلقة بها . وقد كانت هذه البلدان الواسعة المفتوحة بحاجة إلى إدارة وضبط وتنظيم فكانت الرسائل أهم وسائل الاتصال بهذا الشأن ، وهي تشتمل على جانب كبير من الأسس التي وضعت لإدارة هذه البلدان ، إذ تحول قادة الفتح الأوائل إلى ولاة لهذه البلدان المفتوحة ، وظهر قادة جدد لمواصلة أعمال الفتح ، وتطلبت الحاجة وجود عدد من المناصب الإدارية المختلفة ، نذكر منها في حالة الحرب ما رواه الطبري عن التعبئة للقادسية إذ يقول : « بعث عمر (الأطِبَّة) ، وجعل على (قضاء) الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ذا النور ، وجعل إليه (الأقباض) و (قسمة الفيء) ، وجعل (داعيتهم) و (رائدهم) سلمان الفارسي .. و (التُّرْجُمانَ) هلالٌ الهجري ، و (الكاتب) زياد بن أبي سفيان »[1] ، ومنها مناصب في زمن السلم والاستقرار ، وسنرى هذا التطور واضحاً كل الوضوح في موضوعات الترسل الإدارية وقد برزت إلى جانب هذين الموضوعين الأساسيين موضوعات أخرى تتعلق بشؤون دينية أو اجتماعية عامة . ومن المعلوم أن استقرار جماعات قبلية

---

(١) تاريخ الطبري ، ٤٨٩/٣

كبيرة من العرب ، الذين شاركوا بأعمال الفتح ، في الأمصار الجديدة التي أسست لهم والهدوء النسبي لرياح هذا الفتح في أواخر عهد عثمان خاصة ، جعل العامل النفسي ، الذي قمعته حروب الردة من قبل ، ثم شغلته حروب الفتح زمناً طويلاً وحالت دون عمله بين العرب ، يعود إلى الظهور مرة أخرى في الساحة الداخلية ، فكانت بوادر الفتنة الكبرى ومقتل عثمان ، وفُتِح الباب واسعاً على مصراعيه للنزاع والشقاق بين المسلمين منذ ذلك الزمان على المستويين الفكري والعملي . وهذا تحليل لجملة هذه الموضوعات التي عبر عنها الترسل في تلك الفترة :

١ ـ كتب الخليفة إلى القادة والعمال :

أ ـ في الشؤون الحربية :

وقد تناول الخليفة في هذا الجانب كل ما يتعلق بالتعليمات والأوامر المتعلقة بالقادة والجند وسير عمليات الفتح على أرض الواقع للوصول إلى أفضل نتيجة يمكن التوصل إليها على ضوء ذلك . وأبرز موضوعاته :

١ ـ التعبئة النفسية للقادة والجند :

لما كان القائد هو محرك الجند وصانع الأحداث من الناحية النظرية ، فقد كان لابدَّ من غرس أسس هذا التحريك وذلك الصنع في نفسه ، حتى تكون هذه الأسس متناسبة مع طبيعة الأهداف المنشودة من العمل الكلي للقادة والجنود ، ولينطلقوا جميعاً من مبدأ مركزي واحد يضمن لهم الصلاح والظفر والفائدة .

وكانت صفة الإيمان الصادق بالله من أهم ما كان الخليفة يوصي به قادته وجندهم ، تليها الدعوة إلى تقوى الله[1] ، والوفاء[2] ، والتوكل على الله[3] ،

(١) جمهرة رسائل العرب ، ١٥٦/١ و ١٦٠ و ١٩٩ و ٢٣٣ و ٢٤٥ و ٢٤٧

(٢) م.س ، ٢٤٧/١ ومجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ١٨٤/١ ومجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٣٠

والصبر[١] ، وخوفِ الله ورجائه[٢] ، والاستعانة بـه[٣] ، والاحتراس من المعـاصي[٤] والكِبْر[٥] .

وكان عمر يوصي القادة بالرفق بجنودهم على شـاكلـة قولـه في كتـاب منـه إلى النعمان بن مُقَرِّن : « فإذا أتاك كتابي هـذا ، فسر بـأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معـك من المسلمين : ولا تـوطئهم وَعْراً فتـؤذيهم ، ولا تمنعهم حقّـاً فتكفرهم ، ولا تدخلهم غيضة ، فـإن رجلاً من المسلمين أحبُّ إليَّ من مئـة ألف دينـار »[٦] . وقد أكد عمر قيمة الفرد هذه ومكانته عنده في رسائل شتى إلى قادته[٧] .

وكان تزهيد القادة بـالـدنيـا عنصراً هـامـاً في بنـاء هـذه المواعـظ والوصـايـا لتعبئتهم تعبئة نفسية عميقـة وقويـة[٨] ، وكان الخليفـة يبسـط الأمل لجنـده بنصر الله ، كقـول عمر لسعـد في كتـاب : « إني قـد أُلْقِيَ في رُوْعِيَ أنكم إذا لقيتم العـدو هزمتموه »[٩] ، فإذا تمَّ لهم ذلك شكر الله تعالى على هذا النصر[١٠] ، وكان يبيِّن لهم أن النصر لا يكون بـالجمع الكثير وحـده[١١] ، وأنهم منصورون بـالرعب[١٢] ، وكان

---

(١) جمهرة رسائل العرب ، ١٦٧/١ و ١٨٤ و ١٩٩ ومجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٣١

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٣٢

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ١٦٨/١ و ١٨٤ و ١٩١ و ٢٣٤ و ٢٣٨

(٤) م.س ، ٢٣٣/١

(٥) م.س ، ٢٤٥/١

(٦) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٥٨ وانظر وصيته أبا عبيدة بالجنـد في : جمهرة رسـائل العرب ، ١٥٧/١ ووصيته لسعد بهم في ٢٣٤/١

(٧) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٨٤ وجمهرة رسائل العرب ، ٢٦٧/١

(٨) جمهرة رسائل العرب ، ١٥٧/١

(٩) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٢٨ والرُّوْع : القلب والعقل والنفس والْخَلَد والبال والذهن .

(١٠) جمهرة رسائل العرب ، ١٧٥/١ و ١٨٨

(١١) م.س ، ١٧٧/١ و ١٨٣

(١٢) م.س ، ١٨٢/١

يذكّرهم بوعد الله لهم بنيل إحدى الحسنيين أو أحد الثوابين : ثواب الدنيا بالغنيمة والفتح ، وثواب الآخرة بالمغفرة والجنة ، أو بنيلها معاً ، ويبين لهم مكانة الشهداء عند ربهم[1] ، ويحضهم على الثبات في قتال العدو .

٢ ـ طلب وصف قوة العدو والمنازل والبلدان والبحر :

كان الخليفة حريصاً على تتبع حركة جيوش الفتح على الأرض ، فكان يعير طبيعة الأرض اهتماماً كبيراً ، ولذلك كان يكتب باستمرار إلى قادته ليصفوا له مواقعهم عليها حتى يتمكن هو بدوره من توجيه خطاهم وتزويدهم بالخطط التي تنفعهم في قتال عدوهم ، وقد كتب عمر مرة إلى سعد قبيل القادسية يقول : « واكتب إلي أين بلغك جمعهم ، ومَنْ رأسُهُمُ الذي يَلي مصادمتكم ، فإنه قد منعني من بعض ماأردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه ، والذي استقر عليه أمر عدوكم : فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر إليها ، واجعلني من أمركم على الْجَلِيَّة »[2] ، وكان يأمره بمثل قوله : « واكتب إلي في كل يوم »[3] ، ليظل على اطلاع مستمر على ما يجري على أرض الواقع . ولم يقتصر على هذه الناحية بل دعا القادة والجند إلى تعرف طبيعة الأرض التي يقاتلون عليها تعرفاً دقيقاً كأهلها ، وأن يعرفوا قوة عدوهم ويطلعوا على مَقاتله وعوراته[4] ، حتى يصلوا باطمئنان إلى تحقيق أهدافهم المنشودة من الحرب . ولما دخل المسلمون مصر كتب عمر إلى عمرو بن العاص : « إن أتاك كتابي فابعث إلي جوابه تصف لي مصر ونيلها وأوضاعها وما هي عليه حتى كأنني حاضرها »[5] .

---

(١) م.س ، ١/١٨٣ و ١٨٤

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٢٢ وجمهرة رسائل العرب ، ١/٢٣٦

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ١/٢٣٨

(٤) م.س ، ١/٢٣٥

(٥) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٨٤

ولما استأذن معاوية عمر في غزو البحر ، بعث عمر إلى عمرو أيضاً يسأله أن يصف له البحر[1] ، ليعلم حقيقة الحرب عليه ، فلا يقذف بجنده في لُجَّة خطر غير مأمون السبيل ولا محمود العاقبة .

٣ ـ تزويد القادة بالتوجيهات والخطط الحربية :

لم تكن إدارة الحرب وقفاً على قادة الجند في الجبهات المختلفة ، وإنما كان للخليفة النصيب الأوفى في توجيه دفتها ، فكان يصدر باستمرار أوامره إلى القادة ويرسم لهم الخطط الحربية ويزودهم بالتوجيهات التي تخدم في النهاية الهدف الأعلى من هذه الحرب . وتدلنا جملة التوجيهات والخطط التي اطلعنا عليها فيما وصل إلينا من رسائل لعمر بن الخطاب أنه كان واحداً من كبار المفكرين العسكريين في التاريخ بلا جدال ، فهو يحرص قبل كل شيء ، على راحة الجند وسلامتهم وأمنهم لأنهم أعظم كنز لديه ، فقد كتب في إحدى رسائله إلى بعض قادته يقول : « والله لرجل من المسلمين أحبُّ إلي من الروم وما حوت »[٢] ، ولذا فقد نهى عن غارات الشتاء لأن رجلاً من المسلمين ساخ في الثلج فهلك[٣] ، ونهى عن غزو البحر لما أصيب المسلمون الذين ركبوا السفن من البحرين إلى فارس مع العلاء بن الحضرمي من غير إذنه[٤] ، وأصر على ذلك لما سأله معاوية الإذن بحرب البحر ، لأنه كان شديد الاحتياط لجند المسلمين . وكان يأمر بتفضيل الشجعان وأهل البلاء في العطاء والنَّفَل[٥] . وكان ينهى عن افتراق الجند ، أو أن يحول بينه وبينهم ماء في صيف أو شتاء ليتمكن من مدهم إن تعرضوا

---

(١) جمهرة رسائل العرب ، ٢١٣/١

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٨٤

(٣) م.س ، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤ وساخ فيه : دخل وغاب لانخسافه به .

(٤) جمهرة رسائل العرب ، ٢٤٦/١

(٥) م.س ، ٢٣٩/١ فقد فَضَّل قاتِلَ الجالينوس في القادسية بخمسمئة درهم .

لغزو العدو[1] ، فإن أبوا عليه ذلك كان يـأمرهم ببنـاء حصن مكين يلجؤون إليـه عنـد الخطر[2] ، وكان يـأمر المسلمين بتعليم غلمـانهم العـوم[3] ، حتى لا يتكرر غرق الجنـد الـذي جرى في وقعـة الجسر . وكان يحسن اختيـار المكان الـذي ينبغي أن تدور فيه الحرب ليكون ملائماً للمسلمين ملاءمـة تـامـة ، وقـد كتب إلى سعـد عن موقع القـادسيـة يقول : « وهـو منزل رغيب خصيب حصين دونـه قنـاطر وأنهـار ممتنعة ، فتكون مَسالِحك على أنقـابهـا ، ويكون النـاس بين الحجر والْمَـدَر ، على حـافـات الحجر وحـافـات الْمَـدَر »[4] ، ويرجو لهم النصر في هـذا المـوقـع المختـار ويقول : « وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم ، فانصرفتم من أدنى مَـدَرَة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم ، وكانوا عنهـا أجبن وبهـا أجهل »[5] . ولمـا رأى أن العرب في العراق تغيرت لحومهم وألـوانهم وهَـزَلُـوا كتب إلى سعد بأن يرتاد لهم منزلاً على مشـارف الصحراء العربيـة وإزاء السواد في العراق ، ثم قال : « إنه لاتصلُح العرب إلا حيث يصلُح البعير والشـاة في منـابت العشب ، فـانظر فـلاة في جنب البحر فَـارْتَـدْ للمسلمين بهـا منزلاً »[6] ، وذلـك حفاظاً على صحتهم وسلامتهم . وكان يأمر قـادتـه بحشر من كانوا قـد ارتَـدُّوا عن الإسـلام ثم تـابـوا من غير تـوليتهم أي منصب قيـادي تـأديبـاً لهم وتقريعـاً على مـا سلف منهم ، وكان يطلب إليهم أن يستشيروا أهل الرأي منهم ليستعينوا برأيهم

---

(1) فكتب إلى سعد مثلاً : « ولا تجعل بيني وبين المسلمين بحراً » ، انظر : م.س ، ٢١٦/١

(2) كما فعل بهمدان ومن معهـا حين استحبت اختطـاط الجيزة بـالجهـة الغربيـة من النيـل وجمـاعـة المسلمين مع عمرو بالفُسْطاط بالجهة الشرقية ، انظر : م.ن .

(3) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٧٩

(4) م.س ، ص ٣٣١ والأنقاب : جمع نَقْب (بضم النون وفتحها) ، وهو الطريق .

(5) م.ن .

(6) م.س ، ص ٣٣٤ وقريب من ذلك في : جمهرة رسائل العرب ، ٢٥٩/١ وكتب إلى أبي عبيدة مرة أن يترك الأردن إلى الجابية لأنها أرض نَزِهَة ، انظر : م.س ، ٢٠١/١

من غير أن يكـون لهم في القيــادة الفعليــة نصيب[1] ، ولم يكن أبــو بكر قبلــه يستعين بأحد منهم على الأعـاجم البتـة[2] ، فجـاء إجراء عمر خطوة جريئـة لرفع المعاناة النفسية من حرمانهم شرف الجهاد ومـا يـدر عليهم من الأموال . وكان عمر يبعث الكتب إلى قـادتـه مبينـاً لهم كيف يقبلـون (النزول على الحكم) من أهـل الحصون والمحاصرين من العدو[3] ، وكان ينهاهم عن منح العدو (ذمة الله) ويـأمر بإعطائهم (ذمة المسلمين) عند صلحهم ، وكان يبين لهم كـذلـك سبل (الأمـان) التي قد تتم بكلمة أو إشارة تعني عند هذا العدو شيئاً من الأمان ، ويأمرهم بإنفـاذ الأمان بلا تردد[4] . وكان يؤمن بـأهميـة الهجوم في الحروب التي تقوم على الحركـة والمصادمة ، كما يؤمن بـأهميـة الحصـار لإسقـاط الحصون أو المـدن الْمُسَوَّرَة ، وكان يأمر قادته وجنده أن يبـدؤوا هم بهـذا الهجوم ، وقـد كتب مثلاً إلى سعـد يقول : « وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فـابـدؤوهم الشـدّ والضرب »[5] ، ومبـدأ الحركيـة الرشيقة كان مبدأ حربياً عامـاً اتبعتـه جيوش الفتح في حروبهـا مع العجم ، فكان الجيش المنتشر سرعان ما يضم أجنحته ويجتمع قبضـة واحـدة قويـة[6] ، أو ينفصل جزء منه ليسد بعض الثغور أو يقطع الإمداد عن العـدو أو يشـاغلـه ، أو يلاحق فلوله وفـارَّتـه فيوقع بهم القتل الـذريع ويـدب الرعب في قلوبهم ، وكثيراً مـا كان عمر يأمر بسد الثغور[7] ، وملاحقة الفـارّة[8] ، وإمـداد بعض الجيوش لبعض ليتم

(١) ومنهم عمرو بن معـديكرب وطُلَيْحَـة بن خُـوَيْلِـد ، انظر : الأخبـار الطـوال لأبي حنيفـة الدينوري ، ص ١٣٥ وجمهرة رسائل العرب ، ٢٦٩/١

(٢) تاريخ الطبري ، ٤٨٩/٣

(٣) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٢٩

(٤) م.ن . وانظر : جمهرة رسائل العرب ، ٢٦٥/١

(٥) جمهرة رسائل العرب ، ٢٣٢/١

(٦) م.س ، ٢٣٥/١

(٧) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٢٩

(٨) كتب إلى سعـد في القـادسيـة : « فَـإنْ مَنَحَـكَ الله أدبـارهم فـلا تَنْـزِعْ عنهم حتى تَقْحَم عليهم المدائن » ، انظر : م.س ، ص ٣٣٢

التعاون والتنسيق بينها في كل الجبهات على أحسن حال[١] . وكان يأمر بتعبئة الجيش[٢] على أساس هرمي من جهة[٣] ، وعلى أساس الموقع والتسليح والاختصاص من جهة ثانية[٤] ، وتدل تقسيماته وترتيباته للجيش على فكر عسكري أصيل عنده . وكان يدرك أيضاً أهمية تجسس أخبار العدو فقد كتب إلى سعد بن أبي وقاص يقول : « وإذا وطئت أرض العدو فَأَذْكِ العيونَ بينك وبينهم ولا يَخْفَ عليك أمرُهم »[٥] ، وكان يقدّر كذلك أهمية الطلائع والسرايا : « وليكن عند دنوك من أرض العدو أنْ تُكْثِرَ الطلائع وتبثّ السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم »[٦] ، وكان يأمر - كما مرَّ بنا - بمعرفة أرض العدو كلها (كمعرفة أهلها)[٧] ، وكان يأمر بالحراسة مخافة أنْ يُبَيِّتَ العدوُّ عَسْكَرَهُ ، فقد كتب إلى سعد : « ثم أَذْكِ أحراسك على عسكرك وتيقظ من البَيات جهدك »[٨] ، وليدب الرعب في قلوب العدو أثناء تعبئة الجيش كان يأمر ألا يؤتى بأسيرٍ منهم له عهد مع المسلمين إلا ضربت عنقه حتى يردع أهل العهد في سواد العراق عن الانحياز إلى الفرس على المسلمين[٩] .

---

(١) والكتب كثيرة في ذلك ، انظر : جمهرة رسائل العرب ، ٢٤٦/١ و ٢٥٩ و ٢٦٠ و ٢٦١

(٢) التعبئة : ترتيب الجيش في مواضعه وتهيئته للقتال وتوزيع المهات على أقسامه .

(٣) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٣٠

(٤) م.ن .

(٥) جمهرة رسائل العرب ، ٢٣٤/١

(٦) م.س ، ٢٣٤/١ - ٢٣٥

(٧) م.س ، ٢٣٥/١

(٨) م.ن .

(٩) م.ن .

٤ ـ الإمداد وتسيير الجيوش :

كان الخليفة يتتبع خطا الجيوش الفاتحة في كل الجبهات وينسق بينها وكان يأمر بأن يمدّ بعضها بعضاً ، وكان هو يمدها بأمداد جديدة من قبائل العرب في جزيرتهم ، إذ كان يدعو إلى حشر الناس باستمرار ، ثم يندبهم إلى الجهة التي تحتاج إليهم على جناح السرعة ، فقد كتب عمر مثلاً في مطلع خلافته إلى عماله في جزيرة العرب يقول : « لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه ، ثم وجهتموه إلي ، والعَجَلَ العَجَلَ »[١] ، ولما مُصِّرَتِ الكوفة أصبحت أكبر تجمع حربي للجند ، إذ كان يلحق بها كل من أحب من عرب الجزيرة الاشتراك في حروب الفتح ، فكان عمر يأمر أهلها أن يمدوا من يحتاج إلى عونهم كأهل الشام[٢] ، وقد وجه من المدينة إمداداً إلى مصر[٣] ، وأمر عُتْبَة بن غزوان بالبصرة بمد العلاء بن الحضرمي على ساحل فارس[٤] . وكان إلى جانب ذلك يأمر بتسيير الجيوش إلى مواقع جديدة يرى أن المصلحة تقتضي ضمها أو فتحها أو مواجهة جيوش العدو فيها ، فمن ذلك أنه أمر باستحواذ السواد إلى حد الجبل[٥] ، وبالمسير إلى جلولاء[٦] ، وأمر بالتعبئة إلى تكريت[٧] ، وبالمسير إلى الأهواز[٨] ، وإلى ابن الْهُرْمُزان[٩] ، وإلى الْهُرْمُزان بالأهواز في جيش كثيف يضم جند أهل

---

(١) م.س ، ٢٣٠/١

(٢) م.س ، ٢٥٩/١ ـ ٢٦٠ و ٢٦٠ و ٢٦١ وفعل عثمان مثل ذلك ، انظر : م.س ، ٣٩٢/١ ـ ٢٩٣

(٣) م.س ، ٢٠٧/١

(٤) م.س ، ٢٤٦/١

(٥) م.س ، ٢٥٥/١

(٦) م.ن .

(٧) م.س ، ٢٥٧/١

(٨) م.س ، ٢٦٣/١

(٩) م.س ، ٢٥٨/١

الكوفة والبصرة[1] ، وقد أمر بتوجيه معاوية في الشام إلى قِيسارِيَة[2] ، ثم توجيه يزيد أخيه إليها أيضاً[3] ، ولما بلغت جيوش الفتح النهر وراء خراسان أمرها بالتوقف دونه[4] ، ونهى عن متابعة الفتح بإفريقية وراء مصر وكتب إلى عمرو بقوله : « إنَّها مُفَرِّقَةٌ ولا يغزوها أحد مابقيتُ »[5] ، وكأن عمر كان يحسّ بصدق أن الجند الحاليين في تلك البلدان المفتوحة لا يستطيعون تغطية فتحهم لها وأن أي فتح جديد سيزيد من انتشارهم على الأرض ويضعف ارتباطهم بالمركز الذي يمدهم عند الحاجة ، وبذا تنقطع مادتهم ويضلون في تلك البلدان ، وكان يرغب أولاً في ترسيخ أقدامهم فيها وتعرفها تعرفاً جيداً وتكاثرهم وإقبال أهلها على الإسلام ليكونوا عوناً لهم على متابعة هذا الفتح .

٥ ـ الأمر بدعوة أهل الحرب إلى الإسلام :

لما كانت هذه الدعوة جزءاً أساسياً من مهمات جيوش الفتح فقد كان الخليفة يأمر قادته بها قبل نشوب أي قتال ، وكانت هذه الدعوة تستعمل في بعض الأحيان لتوهين معنويات العدو ، فقد كتب عمر إلى سعد بشأن رُسْتُم يقول : « وابعث إليه رجالاً من أهل المنظرة والرأي والْجَلَد يدعونه ، فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفَلَجاً عليهم »[6] ، وقد كتب إلى عُتْبَة بن غزوان في جبهة البصرة يقول : « وادع إلى الله ، فمن أجابك فاقبل منه ، ومن أبى فالجزية عن صغار وذلة ، وإلا فالسيف في غير هوادة »[7] ، وكتب إلى سعد يقول : « وقد

(١) م.س ، ٢٦٤/١

(٢) م.س ، ١٩١/١

(٣) م.س ، ٢٠٣/١

(٤) م.س ، ٢٨٠/١

(٥) تاريخ اليعقوبي ، ١٥٦/٢

(٦) جمهرة رسائل العرب ، ٢٣٨/١

(٧) م.س ، ٢٤٥/١

كنت أمرتك أن تدعو من لقيت إلى الإسلام قبل القتال ، فمن أجاب إلى ذلك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له مالهم وعليه ماعليهم وله سهم في الإسلام ، ومن أجاب بعد القتال ، وبعد الهزيمة ، فهو رجل من المسلمين ، وماله لأهل الإسلام ، لأنهم قد أحرزوه قبل إسلامه »[1] ، وكتب إلى عمرو بمصر بالخِيارات الثلاثة[2] .

٦ ـ لوم القادة وتقريعهم :

كان الخليفة يلجأ إلى هذا اللون من الخطاب في رسائله تقويماً للخطأ ودعوة إلى التمسك بالصلاح وقوام الأمر ، وليصحح باستمرار سلوك قادته ويحذرهم من الاغترار بأنفسهم أو التغرير بجندهم ، ومن ذلك أنه كتب إلى أبي عبيدة يقول : « بلغني توجهكم من أرض حمص إلى أرض دمشق وترككم بلاداً قد فتحها الله عليكم وخليتموها لعدوكم وخرجتم منها طائعين ، فكرهت هذا من رأيكم وفعلكم »[3] ، ثم عبر عن ارتياحه لهذا التنحي حين علم إجماع رأي المسلمين عليه للكيد بالعدو . ولما استبطأ عمر عمرو بن العاص فتح الإسكندرية كتب إليه يقول : « قد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر ، إنكم تقاتلون منذ سنتين وما ذاك إلا لما أحدثتم ، وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وإن الله تعالى لا ينصرُ قوماً إلا بصدق نياتهم ، .. »[4] . وبلغ عمر أن خالداً أجاز الأشعث بن قيس بعشرة آلاف درهم بعد فتح قِنَّسْرِيْنَ ، فكتب إلى أبي عبيدة أن يقيمه للناس معقولاً بعمامته حتى يتبين أصل المال الذي أعطاه الأشعث[5] .

---

(١) م.س ، ٢٤٣/١

(٢) م.س ، ٢١٠/١

(٣) م.س ، ١٧٦/١ ـ ١٧٧

(٤) م.س ، ٢٠٨/١ ـ ٢٠٩

(٥) م.س ، ١٩٥/١ ـ ١٩٦

٧ ـ تولية القادة وعزلهم :

كان الخليفة هو الذي يسمي قادة الجيوش الفاتحة في كل جهة ويوليهم ، وكان بالتالي هو الذي يعزلهم ، أو يولي بعضهم على بعض بحسب ما يرى ذلك ملائماً لمصلحة المسلمين العليا . فكان من أول ما كتب به عمر بعد توليه الخلافة كتاب وجهه إلى أبي عبيدة في الشام ينعى له فيه أبا بكر ويعزل خالداً عن قيادة جيوش المسلمين في الشام ويوليه مكانه[١] ، فتولى خالد قيادة بعض فصائل الجيش ، حتى أمر عمر بعزله وضمّ عمله إلى أبي عبيدة بعد إجازة خالد الأشعث لإسرافه في المال[٢] . وكان عمر يأمر بعض القادة أحياناً بأن يكونوا أمراء على القادة الذين يمرون بمنطقة قيادتهم وسلطتهم[٣] ، أو يولي بعضهم على بعض كما فعل حين ولى يزيد بن أبي سفيان على أجناد الشام بعد وفاة أبي عبيدة ومُعاذ بن جبل ، وكتب إليه يقول : « قد وليتك على أجناد الشام كله ، وكتبت إليهم أن يسمعوا إليك ويطيعوا »[٤] ، وكتب إلى أمراء الأجناد بذلك[٥] . وربما ألحق بعض القادة ببعض من باب العقوبة لهم ، كما فعل بالعلاء بن الحضرمي بعد غزوه فارس بحراً من غير إذنه فأضرَّ بالمسلمين ، إذ كتب إليه عمر يعزله ويأمره أن يلحق بسعد في العراق ، وكان ذلك عليه شديداً[٦] . وكان عمر يأمر سعداً أحياناً بتولية قادة يسميهم له ليتابعوا عمليات الفتح في العراق وفارس[٧] ، أو ليكونوا قادة الأمداد إلى أهل الشام[٨] . وكان يولي أحياناً ثلاثة من القادة على

(١) م٠س ، ١٥٦/١ ـ ١٥٧ و ١٥٧ ـ ١٥٨

(٢) م٠س ، ١٩٦/١

(٣) م٠س ، ١٦٢/١

(٤) م٠س ، ٢٠٣/١

(٥) م٠ن .

(٦) م٠س ، ٢٤٧/١

(٧) م٠س ، ٢٥٥/١ و ٢٥٧ و ٢٥٨ و ٢٦٤ و ٢٦٧ و ٢٧٥

(٨) م٠س ، ٢٥٨/١ و ٢٦٠ و ٢٦١

التوالي حين يقبل الجيش على موقعة حاسمة ، حتى إذا استشهد أحدهم قام التالي مقامه ، كما فعل في وقعة نهاوند ، إذ كتب إلى النعمان بن مُقَرِّن : « إنْ حدث بك حدث فعلى الناس حُذَيْفَة بن اليمان ، فإن حدث بحُذَيْفَة حدث فعلى الناس نُعَيْم بن مُقَرِّن »[1] ، ويذكرنا هذا بما فعل النبي ﷺ حين ولّى على أهل مؤتة . وكان عمر يولّي أحياناً قائداً للجند حتى ينتهي إلى قائد آخر فتنتهي قيادته إليه[2] . وربما نهى عمر قادته عن تولية شخص بعينه يسميه لهم ، فقد نهى عن تولية البَراء بن مالك ، أخي أنس بن مالك الأنصاري ، على جيش من جيوش المسلمين ، لأنه كان (مَهْلَكَة من المهالك)[3] .

وخلاصة القول أن موضوعات الترسل في خلافة عمر شملت جميع الشؤون المتعلقة بسير حركة الفتح في البلدان المختلفة ، ولم تكد تترك زيادة لمستزيد ، وقد عبرت الرسائل عن طبيعة المرحلة التاريخية في تلك الفترة وعما تتميز به من حركة وتغيير وصراع ، تعبيراً دقيقاً ، ويمكن أن نحكم على موضوعات الترسل الحربية في خلافة عثمان بمثل ذلك ، إلا أن ظهور بوادر (الفتنة) في أواخر عهده غطت على رواية رسائل (الفتح) وحجبتها ، فلم يصل إلينا منها غير الشذ اليسير الذي لا يكاد يذكر ، في حين أن موضوعات الرسائل التي وصلت إلينا من عهده ـ على قلتها أيضاً ـ كانت ترتبط ارتباطاً مباشراً بأسباب الفتنة التي نبتت كما سنرى لاحقاً .

ب ـ في الشؤون الإدارية :

تميزت هذه المرحلة التاريخية بالميل إلى تنظيم الأوضاع في البلدان المفتوحة

---

(١) م.س ، ٢٦٨/١
(٢) م.ن .
(٣) الاستيعاب ، ص ١٥٤

التي استوعب العرب فتحها واحتووا فيها كل مقاومة أو معارضة حربية ، وبدأ عهد جديد يتميز بالاستقرار والبناء والتعايش بين العرب وأهل الذمة ، وقد رتبت الأمور والأوضاع في هذه المناطق الجديدة لخدمة هذه الغايات . واستمرت في الوقت نفسه سمات المرحلة السابقة المتعلقة بالشؤون الحربية قائمة على الجبهات الملتهبة في الأطراف . وقد تحول القادة الأوائل ـ كما ذكرنا من قبل ـ إلى عمال وولاة إداريين يشرفون بالنيابة عن الخليفة مباشرة وبتوجيهاته وأوامره على تنفيذ سياسة الخلافة في هذه البلدان ، مع إشرافهم أيضاً على شؤون الجيوش الفاتحة في الأطراف التي تليهم بكل ماتحتاج إليه من قادة وأمداد وتوجيهات ، وقد برزت إلى الوجود الحاجة إلى استحداث عدد من المناصب والوظائف الإدارية للقيام بأعباء الإدارة في المناطق المستقرة : فكان الوالي على رأس المصر الذي يتولاه ، وكان القاضي ، وصاحب الشرطة ، وعامل الخراج ، وعمال الكور في المنطقة التابعة للمصر ، وغيرهم ، ويمكن فيما يلي تعرف أبرز الموضوعات التي كانت تشغل النثر الترسلي عند الخليفة في هذه الفترة :

١ ـ المواعظ والوصايا في أخلاق العمال وسياستهم الرعية :

كانت هنالك رسائل كثيرة من الخليفة إلى العمال تصب في هذا الموضوع لما له من أهمية بالغة في إدارة البلاد وسياسة الملك وصلاح العباد ، وكانت تنطلق كلها من جوهر واحد هو رسم قواعد وأصول لسلوك الوالي أو العامل على وجه العموم تكون بمنزلة دستور أخلاقي يتبع ويسار في ضوئه من أجل تحقيق غاية سامية هي بلوغ العدل وصنع المجتمع الأفضل بقدر الإمكان ، لتكون الرعية فيه سيدة نفسها ومتساوية كل التساوي في جميع الميادين ، ويمكن أن نتلمس أبرز ما في هذا الدستور في الرسائل التي وجه بها عمر بن الخطاب إلى أبرز عماله في الأمصار ، إذ كان حريصاً كل الحرص على تحقيق العدل في الرعية ، ومن ذلك أنه كتب إلى أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري وهو عامله على الكوفة يقول : « أقم الحدود

ولو ساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا فـآثر نصيبـك من الله ، فإن الدنيـا تنفـد والآخرة تبقى ، وأخيفوا الفُسّـاق واجعلوهم يـداً يـداً ورِجْلاً رِجْلاً ، وعُدْ مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم ، وافتح لهم بابـك ، وبـاشر أمورهم بنفسك ، فـإنمـا أنت رجل منهم ، غير أن الله جعلـك أثقلهم حِمْلاً . وقـد بلغني أنه قد فشا لـك ولأهل بيتـك هيئـة في لبـاسـك ومطعمـك ومركبـك ليس للمسلمين مثلها ، فإياك ياعبد الله أن تكون بمنزلـة البهيمـة التي مرت بِوادٍ خصيب فلم يكن لها هَمٌّ إلا السِّمَن ، وإنما حتفها في السِّمَن ، واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته ، وأشقى الناس من شقي به الناس »[1] ، وكتب إليه في هذا الموضوع كتباً أخرى أيضاً[2] . وكانت هذه القواعد تركز على الحديث عن ثلاث نقاط أساسية : الأولى حقوق الله تعالى ودِيْنه على العامل . والثانية حقوق الناس عليه . والثالثـة صفات العامل القوي الناجح وواجباته .

وقد أثرت من عهد عثمان جملة من الرسـائل التي يبين الخليفـة منهـا لعمالـه ، على اختلاف مستوياتهم في إدارة شؤون الأمصار ، أن رسالتهم الأولى هي الرعايـة لاالجباية ، ويـأمرهم بـالعـدل في السيرة بـالمسلمين وأهل الـذمـة بـأخـذ مـاعليهم وإعطائهم مالهم من الحق ، ويحضهم على الوفاء والأمـانـة ، وينهـاهم عن ظلم أهل الذمة واليتامى وعن الخروج على الجماعة[3] .

٢ ـ تمصير الأمصار :

حين تـوغـل العرب بـالفتـح بعيـداً عن ديـارهم في جـزيرة العرب كانـوا يعسكرون في مطلع الأمر في ضواحي المدن المفتوحة القريبة من مشـارف جزيرة العرب ، وأحياناً كانوا يقيمون داخل هذه المدن مع أهلهـا ، إلا أن ألوانهم ولحومهم

(١) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٥٦ وانظر : جمهرة رسائل العرب ، ٢٤٨/١ ـ ٢٤٩

(٢) جمهرة رسائل العرب ، ٢٥٠/١ و ٢٥١

(٣) م . س ، ٢٨٩/١ ـ ٢٩٠ و ٢٩١ و ٢٩٢ و ٢٩٣

تغيرت من هذه الإقامة لأنها لم تكن ملائمة لما تعودوا عليه من أجواء صحراوية في جزيرتهم ، فاحتاجوا إلى منازل جديدة يتخذونها للإقامة والتجمع ، وربما كانت الغاية من ذلك حربية أيضاً لعزل الجند عن أهل البلدان المفتوحة وإبقائهم دوماً على أهبة الاستعداد للقتال ، يدلنا على ذلك تردد الخليفة عمر في السماح لهم أن يبنوا بيوتاً من القصب أو غيره من المواد التي قد تُحَوِّل هذا المعسكر الذي يتطلب الاستعداد والحركة باستمرار إلى مدينة كغيره من المدن . وفي الواقع كان تخطيط هذه المعسكرات في العراق ومصر وغيرهما بداية عصر جديد من الاستقرار وبناء المدن ، وكان بداية لظهور الحاجة إلى وجود ولاة عليها يديرون شؤونها المختلفة ، وقاد ذلك إلى وضع الأسس الإدارية فيها .

وقد كتب عمر إلى قادة الجند بارتياد منازل للجند راعى فيها أمرين أساسيين : **الأول** أن يكون مناخها ملائماً لما كانوا قد تعودوا عليه في بيئتهم حتى لا يتعرضوا للأمراض التي تنتج عن تغيير البيئة ، وهذا شرط صحي إذ « لا تصلح العرب إلا حيث يصلح البعير والشاة »[1] . **والثاني** ألا يفصل بين الموقع وجزيرة العرب فاصل مائي من نهر أو بحر في صيف ولا شتاء ، وهذا شرط أمني حربي ، إذ كتب إلى سعد مثلاً بعد القادسية : « اتخذ دار هجرة للمسلمين ومنزل جهاد ، ولا تجعل بيني وبين المسلمين بحراً »[2] ، فإذا لم يكن بد من وجود فاصل مائي كان يأمرهم باتخاذ الحصون[3] التي تسمح لهم بتجاوز الشرط الأمني المذكور . وكانت أبرز الأمصار الجديدة في هذه الفترة : البصرة ، والكوفة ، والفُسْطاط .

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٣٤ وفي رواية : « إنَّ العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان » ، انظر : جمهرة رسائل العرب ، ٢٥٩/١

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٣٤ وانظر : جمهرة رسائل العرب ، ٢١٠/١ و ٢١٦ وفي رواية لليعقوبي أنه كتب إلى عمرو بن العاص : « لا تجعل بيني وبينك ماء ، وانزل موضعاً متى أردت أن أركب راحلتي وأصير إليكم فعلت » ، انظر : تاريخه ، ١٥٦/٢

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ٢١٦/١

٣ ـ تنظيم القضاء :

يعدّ هذا القضاء الوسيلة المثلى في المجتمعات البشرية لفرض الحدود أو فضّ النزاع بين الناس في مختلف الشؤون التي تعرض بينهم ، ولذا فقد كتب عمر إلى عماله يبين لهم منهج هذا القضاء ويرسي أسسه وينظم حدوده باجتهاده ، ويأمرهم باتباع سبل الحق والموضوعية للوصول إلى العدل في الأحكام قدر الإمكان من غير أن يألوا جهداً في ذلك . وقد ركز في رسائله على بيان أهم الصفات الشخصية التي يجب أن يتحلى بها القاضي والشروط العلمية التي يجب أن يتزود بها ، والإجراءات العملية التي ينبغي له اتباعها بين المتخاصمين .

وقد كتب إلى أبي موسى الأشعري يقول : « ولا تَسْتَقْضِيَنَّ إلا ذا مال وذا حسب ، فإنَّ ذا المال لا يرغب في أموال الناس ، وإنَّ ذا الحسب لا يخشى العواقب بين الناس »[١] ، وكتب إليه أيضاً رسالته الشهيرة في القضاء يأمره فيها بمجموعة لا يستغنى عنها من أسس القضاء العادل ، هي : أن يفهم ما يدلي به الخصمان ، وأن يساوي بينهما في المعاملة ، وأن يسأل البَيِّنَة ممن ادعى واليمين ممن أنكر ، وأن يحكم بما في القرآن والسُّنة ، وأن يقيس الأمور بأشباهها ، ثم يبين له أصول الشهادة ، ويحضه على مراجعة الأحكام بظهور بيِّنات جديدة ، ويأمره أن يوفق بالصلح إن لم يجد سبيلاً واضحة للفصل في القضاء ، ويحذره من القلق والضجر والتأذي بالخصوم في مواطن الحق ، ويبيِّن للقاضي ماله عند الله من أجر وثواب على كل ذلك إن أخلص نيَّته فيه لله تعالى وحده[٢] ، وتعدّ هذه الرسالة دستوراً في أصول القضاء عند المسلمين ، ومن هنا اكتسبت أهمية خاصة في دراسات الباحثين في شؤون القضاء من المؤرخين والفقهاء والقانونيين[٣] . وقد

(١) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٥٧

(٢) م . س ، ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧ وجمهرة رسائل العرب ، ٢٥٢/١ ـ ٢٥٣

(٣) انظر التخريج الواسع لهذه الرسالة مع جملة البحوث التي كانت موضوعاً لها في : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٥

أثرت لعمر أيضاً رسالتان أخريان كتب بإحداهما إلى معاوية[1] ، وبالأخرى إلى شُرَيْح القاضي[2] ، وهما قصيرتان تدوران حول المعاني الآنف ذكرها وتؤكدها ، ويتضح من ذلك كله مدى اهتمام الخليفة العادل بتنظيم جهاز القضاء الذي يكفل لكل ذي حق حقه حتى يسود العدل بين أبناء المجتمع الواحد وتنتشر الطمأنينة على الحقوق الأساسية للإنسان فيه .

٤ ـ تنظيم العلاقة مع أهل الذمة :

واجه المسلمون عند فتحهم البلدان المختلفة مشكلة أساسية كان لا بد من وضع تنظيم واضح خاص بها ، وهي : مشكلة السكان . إذ إن بعضهم صالح المسلمين وبقي على هذا الصلح أو نقضه مرغماً حيناً وطائعاً حيناً آخر ، وبعضهم أُخِذَتْ أرضه عَنْوَة بعد التغلب عليه وهو على أرضه ، وبعضهم فرّ منهزماً عن أرضه قبل وقوع أي قتال أو بعد حصول هزيمة ، ثم لم يجد كثير منهم بدّاً من العودة إلى هذه الأرض تحت حكم المسلمين . وقد جرت مكاتبات كثيرة بين الخليفة وقادة جنده ثم عماله في تلك البلدان عن حكم هؤلاء الناس[3] . وكانت توجيهات الخليفة عمر بهذا الشأن ملبية للمصلحة العليا لعمليات الفتح من جهة ولطمأنينة هؤلاء الناس في عيشهم من جهة ثانية ، إذ إنه مال ، على وجه العموم ، إلى عدهم أهل صلح ينالون ذمة المسلمين وعهدهم مقابل أدائهم جزية معلومة عن رؤوسهم وخراجاً معيناً عن أرضهم مرة كل عام ، يستثنى من ذلك بطبيعة الحال كل من أخذ أسيراً بعد أن كان مقاتلاً للمسلمين وأخذت معه نساؤه وذراريه ، وقد ضرب عليهم الرّق وقسموا بين المسلمين ضمن الغنائم الحربية ، وكانت أعداد هؤلاء أقل بكثير من

---

(١) البيان للجاحظ ، ١٥٠/٢ وقريب من ذلك في : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٥٧

(٢) البيان للجاحظ ، ١٥٠/٢

(٣) انظر حكم أهل السواد مثلاً في الرسائل الواردة في مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٦ و٣٣٦ و ٣٣٨ و ٣٣٩ ـ ٣٤٠ وحكم أهل الشام في ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧

أولئـك الـذين لم يُجْلِبُوا على المسلمين في حرب أو أجْلَبُوا ولم يقعوا مبـاشرة في أيـديهم إلا بعـد أن وضعت الحرب أوزارهـا ، وقـد كان حكم عمر هـذا خير إجراء يتخـذ ، إذ لم يكن من المعقـول أن يـؤخـذ النـاس جميعـاً عبيـداً للمسلمين وتترك الأرض بلا إصلاح ولا استثمار فيتخرب عامرها وتعدم ثمارها .

وكان المسلمون في أول عهدهم بالفتح يأخذون جزية عامـة مقـدرة عن قريـة أو مجموعـة قرى أو منطقـة معينـة من غير النظر إلى مـا يخص الفرد الـواحـد من أهلهـا ، ومن غير أن يفرقـوا بين الأرض وأهلهـا ، بـل كانت الجـزيـة تنصرف في أغلب دلالاتهـا على مـا يؤخـذ عن رقـاب النـاس ، فلمـا استقر الفتح نظَّم عمر بن الخطاب القضايا المالية في الدولة ، وكتب بـذلـك إلى العمال يـأمرهم بتنفيـذهـا ، وكانت الخطوة الأولى لمثل هـذا التنظيم تقـوم على إحصـاء عـدد السكان من أهـل الذمة لتحديد ما يصيب الواحـد منهم من المـال ، ففرض عمر « على الموسر ثمـانيـة وأربعين درهمـاً ، وعلى من دون ذلـك أربعـة وعشرين درهمـاً ، وعلى من لم يجـد شيئاً اثني عشر درهماً »[١] ، واستثنى من الجزية النساء والصبيان[٢] .

وأما الخطوة الثانية فكانت أمر عثمان بن حُنَيْف أن يقـدم إلى السواد فيمسحـه ويميز أراضيه وزروعه ومصادر ريّها ووسائلـه بعضهـا من بعض ، وجرت بين عمر وابن حُنَيْف مراسلات عدة حول ذلك ، ويدلنا هـذا المسح على رغبـة الخليفـة في ضبط الأراضي وحساب مواردها والتـدقيق في وضع الخراج عليهـا تحقيقاً لغـايتـه المنشودة : العـدل . فقـد كتب إلى عثمان مرة ألا يمسح تـلاً ولا أجَمَـة ولا سَبَخَـة ولا مستنقع ماء ولا ما لا تبلغه الميـاه[٣] ، ولمـا فرغ عثمان من مسحـه كتب إلى عمر

---

(١) من كتاب إلى عثمان بن حُنَيْف في : م . س ، ص ٣٤٢

(٢) من كتاب لعمر في : م . س ، ص ٣٩١

(٣) م . س ، ص ٣٤١ والسَّبَخة : الأرض المالحـة التي تسوخ فيهـا الأقـدام ولا تكاد تنبت غير بعض الشجر .

بالمساحة التي وجدها صالحة للزراعة [١] ، فكتب إليه عمر بمقدار خراج كل أرض وزرع [٢] .

وكان عمر يكتب إلى عماله باستمرار يوصيهم بحسن السيرة في أهل الذمة ويأمرهم بأداء حقوقهم المترتبة عليهم ، فكتب إلى أبي عبيدة بالشام مثلاً يقول : « فاضرب عليهم الجزية ، وكفّ عنهم السّبي ، وامنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحلّها ، وفِ لهم بشرطهم الذي شرطت لهم في جميع ماأعطيتهم » [٣] ، وكتب إلى سعد بالعراق يقول : « ونَحِّ منازل المسلمين عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يَرْزَأْ أحداً من أهلها شيئاً ، فإنّ لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيراً ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح » [٤] ، وكتب إلى عمرو بمصر يقول : « واعلم أن معك أهل ذمة وعهد ، وقد أوصى رسول الله ﷺ بهم وأوصى بالقبط فقال : (اسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْراً فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِماً) ، ورحمهم أن أم إسماعيل منهم ، وقد قال ﷺ : (مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِداً أو كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ فَأَنا خَصْمُهُ يَوْمَ القِيامَةِ) ، احذر ياعمرو أن يكون رسول الله ﷺ لك خصماً ، فإنّ من خاصمه خَصَمَه » [٥] ، وكتب بشأن المجوس من أهل الذّمة يقول : « اعرضوا على مَنْ قبلكم من المجوس أن يَدَعُوا نكاح أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم ، وأن يأكلوا جميعاً كيما نلحقُهم بأهل الكتاب » [٦] . ويلاحظ

---

(١) م . ن .

(٢) م . س ، ص ٣٢١ ـ ٣٤٢

(٣) م . س ، ص ٣٧٧

(٤) جمهرة رسائل العرب ، ٢٣٤/١

(٥) م . س ، ٢١٨/١

(٦) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٩٢ وجاء في كتاب آخر : « فرقوا بين ذي محرم من المجوس وانهَوْهُمْ عن الزَّمْزَمَة » ، انظر : م . ن .

من كل ذلك حرص الخليفة في كتبه على قضية العدالة والتعايش وحسن المعاملة والسيرة بين المسلمين وغيرهم من طوائف أهل الذّمة جميعاً .

٥ ـ محاسبة العمال وتقريعهم :

كان عمر بن الخطاب شديداً على عماله ، وربما كتب يستقدمهم في بعض المواسم ، ويقيمهم للناس ليواجهوا بمظالمهم ويُقِيدُوهُمْ من أنفسهم[١] ، وكان لا يسكت لهم عن خطأ علمه أو تقصير لمسه ، فكان يكتب إلى عماله يلومهم على نقص الخراج أو يقرعهم على الإبطاء في حمله إليه ، وكان يتتبع مصادر أموال عماله ، فإذا شكّ في شيء منها سألهم عنه فإن لم يرض الجواب أو يقتنع به أمر بمشاطرتهم هذه الأموال وقرعهم غاية التقريع ، ومن أبرز ماأثر في هذا المجال مجموعة كتب وجه بها إلى عمرو بمصر تعدّ من أقسى ما كتب به إلى عماله[٢] ، غير أننا سنرى فيما بعد عدداً من دواعي الشك فيها وفي ردود عمرو عليها ، إلا أننا لا نستبعد أن يكون هذا الموضوع من المواضيع البارزة في ترسل عمر بن الخطاب لما عرف عنه من محاسبة العمال على كل شاردة وواردة في أعمالهم الخاصة والعامة .

٦ ـ تولية العمال وعزلهم :

كان عمر يكتب بمثل هذا الأمر إلى عماله ، فقد كتب إلى المغيرة بن شعبة عامله على البصرة ، لما رمي بالزنى ، يعزله ويولي أبا موسى الأشعري مكانه : « أما بعد ، فإنه بلغني نبأ عظيم ، فبعثت أبا موسى أميراً ، فسلِّمْ ما في يدك والعَجَل »[٣] . ولما مات يزيد بن أبي سفيان وهو عامله في الشام كتب إلى

---

(١) م . س ، ص ٣٢٨

(٢) ونصوصها في : جمهرة رسائل العرب ، ٢١٩/١ ـ ٢٢٠ و ٢٢٢ و ٢٢٣ و ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٢٧ ـ ٢٢٨

(٣) م . س ، ٢٤٨/١

معاوية يقره على عمل أخيه[1] . وكان عمر قد ولّى النعمان بن عدي العدوي على مَيْسان ، ولم يولِّ عدوياً من قومه غيره ، وأبت امرأته الخروج معه إلى عمله ، فلما صار إليه كتب إليها شعراً قال في آخره[2] :

لَعَلَّ أمِيْرَ الْمُؤمِنِيْنَ يَسُوؤهُ   تَنادُمُنا فِي الْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

فبلغ ذلك عمر فكتب إليه يقول : « وَايْمُ اللهِ لقد ساءني ذلك »[3] ، وعزله . وربما سأل أحد العمال الخليفة أن يعزله من عمله لغرض ما فيأمر بعزله أو يأمر من كان مسؤولاً عن عمله بإنفاذ هذا العزل ، كما جرى مع النعمان بن مُقَرِّن عامله على كَسْكَر ، فكتب عمر إلى سعد يقول : « إنَّ النعمان كتب إليَّ يذكر أنك استعملته على جباية الخراج ، وأنه قد كره ذلك ورغب في الجهاد ، فابعث به إلى أهم وجوهك : إلى نهاوند »[4] ، فكان قائد هذه الوقعة الحاسمة مع الفرس . ويلاحظ أن العزل كان يتم إما لذنب يقترفه العامل أو يُرْمى به ، وإما بسبب طلب العامل نفسه اعتزال العمل .

٧ ـ موضوعات إدارية أخرى :

وكانت هنالك طائفة من الرسائل تدور حول موضوعات إدارية أخرى كالْمُكُوس المفروضة على تجارة أهل الحرب التي تدخل ديار المسلمين أو على تجارة أهل الذّمة[5] ، وكالصوافي[6] ، وحماية الأودية[7] ، وترتيب عطاء المسلمين[8] ،

---

(١) الاستيعاب ، ص ١٤١٧

(٢) م . س ، ص ١٥٠٢ والجوسق : الحصن أو القصر .

(٣) م . ن . وانظر : جمهرة رسائل العرب ، ٢٨٢/١

(٤) جمهرة رسائل العرب ، ٢٢٦/١

(٥) م . س ، ٢٨٥/١

(٦) م . س ، ٢٥٦/١

(٧) م . س ، ٢٨٦/١

(٨) م . س ، ٢١٧/١ ـ ٢١٨

وطلب المدد من الطعام لأهل المدينة[١] ، وغير ذلك من هذه الموضوعات .

جـ ـ في الشؤون الدينية :

كان الخليفة حريصاً كل الحرص على تطبيق الأحكام والتعاليم الواردة في الكتاب والسُّنة ، ولذا فقد كان يراقب تصرفات الرعية وسلوكها ويأمر بتقويم اعوجاجها ، ويردها إلى جادة الصواب كلما بدا منها ميل عن القصد . وقد انصبت جملة من رسائل الخليفة عمر بن الخطاب على بعض الموضوعات التي لها صلة مباشرة بالدين ، أبرزها : إقامة الحدود على نفر شربوا الخمرة وادَّعوا أنها حلال[٢] ، وتوريث الخال[٣] ، وقبول الخيل والرقيق في الصدقة[٤] ، وقتل الخنازير في شتى الأمصار[٥] ، وقتل السحرة والكهنة[٦] ، والأمر باستعانة المسلمين في شرابهم بعصير الطِّلاء المطبوخ[٧] ، وحكم مال المرأة الذي تعطيه زوجها رغبة أو رهبة[٨] ، والنهي عن لُبْس الحرير[٩] ، وقيام شهر رمضان[١٠] ، والنهي عن تقديم القِبْطِ جاريةً بِكْراً قُرْباناً للنيل كل سنة وقطع هذه العادة لتعارضها مع العقل ومفاهيم الإسلام العلمية عن ظواهر الطبيعة المختلفة بما فيها جريان الأنهار[١١]

---

(١) م . س ، ٢١٥/١
(٢) م . س ، ١٩٧/١ والاستيعاب ، ص ١٦٢٢ ـ ١٦٢٣
(٣) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٧٩
(٤) م . ن .
(٥) م . س ، ص ٣٩٢
(٦) م . ن .
(٧) جمهرة رسائل العرب ، ١٩٤/١
(٨) م . س ، ٢٨٨/١
(٩) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٦٤
(١٠) تاريخ اليعقوبي ، ١٤٠/٢
(١١) جمهرة رسائل العرب ، ٢١٤/١

د ـ في الشؤون الاجتماعية العامة :

كانت لدى الخليفة اهتمامات اجتماعية عامة تتناول عدداً من الموضوعات التي تهم المجتمع والناس على وجه العموم ، وقد برزت هذه الموضوعات فيما كتب الخليفة إلى قادته وعماله من تعليمات بشأنها ، ومنها : الأمر بتعليم العوم والرمي[١] ، أو بإعطاء الناس على تعلم القرآن[٢] ، أو بالعقوبة على اللحن في الكتابة[٣] ، وتشجيع تربية الخيل[٤] ، والأمر بردّ بعض المقاتلة إلى آبائهم من الشيوخ[٥] ، والنهي عن الزواج من نساء الأعاجم[٦] ، واللوم على إعطاء الشعراء على المديح[٧] ، والسؤال عن الإنتاج الشعري المعاصر[٨] ، وطلب الزواج من بعض النساء[٩] .

ولعل أهم موضوع اجتماعي عام احتل مكان الصدارة في الرسائل ، التي بين أيدينا من زمن خلافة عثمان بن عفان ، موضوع (الفتنة) ، إذ يلمس المرء منذ الرسائل الأولى التي كتب بها هذا الخليفة إلى عماله أو إلى رعيته بعض الإشارات التي تنذر بالشر أو توحي بوجود فتنة ، أو بوادر فتنة مشتعلة تحت الرماد ، فقد كتب إلى عماله كتاباً يقول لهم فيه : « لَيُوشِكَنَّ أَئِمَّتُكُمْ أَنْ يصيروا جُبَاة ولا يكونوا رُعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء »[١٠] ، وكتب

(١) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٧٩

(٢) م . س ، ص ٣٩٢

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ٢٨٨/١

(٤) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦

(٥) الإصابة ، ٧٨/١ و ٧٩

(٦) جمهرة رسائل العرب ، ٢٧٢/١

(٧) الأغاني (دار) ، ١٧٦/٢

(٨) م . س . (الهيئة) ، ٣٠/٢١

(٩) جمهرة رسائل العرب ، ٢٩٥/١

(١٠) م.س ، ٢٨٩/١ ـ ٢٩٠

إلى عمال الخراج يقول : « والأمانةَ الأمانةَ قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يُسْلَبُها »[1] ، وكتب إلى أمراء الأجناد يقول : « ولا يَبْلُغَنّي عن أحد منكم تغيير ، ولا تبديل فيغير الله مابكم »[2] ، وكتب إلى العمال ثانية : « وارضوا من الشر بأيسره ، فإن قليل الشر كثير ، واعلموا أن الذي ألف بين القلوب هو الذي يفرقها ، ويباعد بعضها من بعض »[3] ، وكتب إلى عماله يقول : « إن الله ألف بين قلوب المسلمين على طاعته ... ، وهو مفرقها على معصيته ... ، من كفر داويناه بدوائه ، ومن تولى عن الجماعة أنصفناه وأعطيناه حتى نقطع حجته وعذره »[4] .

وتظهر بوادر الفتنة هذه عملياً متمثلة في أربع قضايا أساسية كان لها صدى واضح في رسائل عثمان :

الأولى ـ **قضية أبي ذر الغِفاريّ** : وكان من أوائل المسلمين بمكة ، وهاجر إلى الشام بعد فتحها ، فلما كان زمن عثمان رأى التمايز الكبير بين الرعية في الغنى والأموال ، وعرف تصرف معاوية في الشام بأموال المسلمين على هواه ، فراح يدعو إلى إنفاق الأموال وعدم اكتنازها ، فتعلق به الفقراء وتابعوه في مقالته ، فكتب معاوية إلى عثمان بذلك ، فكتب إليه عثمان يقول : « إنَّ الفتنة قد أخرجت خَطْمَها وعينيها ، فلم يبق إلا أن تثب فلا تَنْكَأ القرح ، وجَهِّزْ أبا ذر إلَيَّ وابعث معه دليلاً وزوده ، وارفُقْ به ، وكَفْكِفِ الناس ونفسَك ما استطعت ، فإنما تُمْسِكُ ما استمسكت »[5] .

---

(1) م.س ، ٢٩٠/١

(2) م.ن .

(3) م.س ، ٢٩١/١

(4) م.س ، ٢٩٢/١

(5) م.س ، ٢٩٦/١ ـ ٢٩٧ والْخَطْم : من كل دابة مُقَدَّم أنفها وفمها .

والثانية ـ **قضية رهط أهل الكوفة** : وهم قرابة عشرة من وجوه أهل الكوفة وسادتها ، كانوا يسمرون عند عامل الكوفة لعثمان سعيد بن العاص ، فقال لهم مرة : « إنما هذا السواد بستان لقريش »[1] ، فردَّ عليه مالك الأشتر مغضباً : « أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ، والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا »[2] ، وخرج وخرج معه القوم مغضبين ، وانقطعوا عن مجلس العامل وأكثروا القول فيه وفي عثمان ، فكتب سعيد إلى عثمان يشكوهم ، فردَّ عليه عثمان بكتاب يأمره فيه أن يسيرهم إلى معاوية بالشام ، وكتب إلى معاوية يقول : « إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً خلقوا للفتنة ، فراعِهم وقم عليهم ، فإن آنست منهم رشداً فاقبل منهم ، وإن أعيوك فارددهم عليهم »[3] ، فلما جاؤوا معاوية حاورهم وحاوروه ثم وثبوا عليه وأخذوا برأسه ولحيته ، فكتب معاوية إلى عثمان بأمرهم ، فكتب إليه بردهم إلى الكوفة[4] ، ففعل . فلما رجعوا إلى الكوفة عادوا إلى سيرتهم الأولى ، فكتب عثمان إلى سعيد يقول : « سيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد »[5] ، وكان أميراً على حمص ، وكتب إليهم في الوقت نفسه يقول : « إني قد سيرتكم إلى حمص ، فإذا أتاكم كتابي هذا فاخرجوا إليها ، فإنكم لستم تألون الإسلام وأهله شراً »[6] ، فخرجوا وأنزلوا بساحل حمص . وقد كان هؤلاء النفر هم الذين أوقدوا نار الفتنة في أهل الكوفة .

---

(١) م.س ، ٣٠٣/١

(٢) م.ن .

(٣) م.ن .

(٤) م.س ، ٣٠٥/١

(٥) م.ن .

(٦) م.ن .

والثالثة ـ **قضية أهل مصر :** قدم النـاس في موسم الحج من سنـة ٣٥ هـ من مصر على عثمان فوافوا أهل العراق من الكوفة والبصرة مجتمعين فتـذاكروا أمر عثمان وعمـالـه وهموا بحصـار عثمان ، غير أن عثمان سـأل عليـاً أن يخرج إليهم ويمنعهم من ذلك ويضمن لهم عليه أن يحقق كل ما يبتغون منه ، فسكنوا ، وعـاد جمـاعـة أهل مصر إلى بلـدهم ، فلمـا كانوا في بعض الطريق مرَّ بهم غـلام لعثمـان على بعير وهـو جادٌّ في المسير كأنـه هـارب أو طـالب ، فـأوقفوه وسـألوه وفتشوه ، فوجـدوا معـه كتاباً من عثمان إلى واليه عبد الله بن سعد يأمره فيه بإنزال شتى العقوبـات بـأفراد الجماعـة[1] ، وكان ختم عثمان على الكتـاب ، فـا كان منهم إلا أن حزموا أمرهم على عزل عثمان عن الخلافة أو قتله .

والرابعة ـ **قضية طلب عثمان المدد والنجدة من عماله على الأمصار :** وذلـك لأن أكثر المسلمين انصرفوا إلى مكة لأداء الحج ، ولم يبق في المـدينـة غير الثوار وهم يحاصرون دار عثمان ، وقد منعوا عنه الماء والمؤن ، ولم يكن لأهل المـدينـة المتبقين فيها حَوْلٌ أمـام قوتهم ، فكتب عثمان إلى معـاويـة يقول : « إنَّ أهل المـدينـة قـد كفروا وأخلفوا الطاعـة ونكثوا البيعـة ، فـابعث إلَيَّ مَنْ قبلـك من مقـاتلـة أهل الشـام على كل صعب وذلـول »[2] ، وكتب إلى يـزيـد بنْ أسـد بن كُرْز وأهـل الشـام : « فـإنْ كان عنـدكم غيـاث فـالعَجَلَ العَجَلَ ، فـإن القوم مُعـاجِلِيَّ »[3] ، وكتب إلى عبد الله بن عامر عاملـه على البصرة : « انْـدُبْ إلَيَّ أهل البصرة »[4] . فلما علم الثوار بما يُبَيِّتُ لهم عثمان واقترب موعد انصراف الحجيج من مكـة اقتحموا عليه الدار وقتلوه قبل أن يصل إليه أي مدد .

---

(١) انظر روايات الكتاب في : م.س ، ٣٠٩/١

(٢) م.س ، ٣١٤/١ وانظر رواية أكثر حرارة في ٣١٥/١

(٣) م.س ، ٣١٤/١

(٤) م.ن .

ومما تقدم يمكن القول إن موضوعات الترسل التي كان الخليفة عمر أو الخليفة عثمان يكتب بها إلى القادة والعمال قد انصبت على أمور تتعلق بالفتح من جهة ، وبوادر الفتنة التي انتهت بمقتل الخليفة الثالث من جهة أخرى ، وكانت هذه الموضوعات في رأينا تمثل أصدق التمثيل تلك المرحلة التاريخية ، وتعطي صورة واضحة للعصر بكل ما فيه من حلو ومر ، وبكل ما كان فيه من شؤون الحرب والإدارة والدين والمجتمع ، وهي شاهد رائع على تلك الانطلاقة القوية التي جعلت العرب يبرزون بقوة على مسرح التاريخ والحضارة الإنسانية ، وجعلتهم ينتشرون هذا الانتشار السريع على رقعة واسعة جداً من العالم القديم .

٢ ـ كتب الخليفة إلى الرعية :

كان الخليفة يتوجه بهذه الكتب إلى أفراد أو جماعات من رعيته في موضوعات شتى تهم المصلحة العامة ، وأبرزها :

أ ـ التعليمات والمواعظ :

لما شاع أمر الرهط الذين شربوا الخمرة بالشام وأقيم عليهم الحد ، كتب عمر إلى الناس هناك يقول : « عليكم أنفسكم ، ومن استوجب التغيير فغيروا عليه ، ولا تُعَيِّروا أحداً فيفشو فيكم البلاء »[1] ، وكتب مرة إلى ابنه عبد الله بن عمر يعظه ويقول : « إنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكر له زاده ، ومن أقرضه جزاه ، فاجعل التقوى عماد قلبك وجلاء بصرك ، فإنه لا عمل لمن لا نية له ، ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا مال لمن لا رفق له ، ولا جديد لمن لا خَلَق له »[2] . وكتب عثمان إلى عامة الرعية في الأمصار حين ولي الخلافة يقول : « إِنَّكُمْ إِنَّما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع ، فلا تَلْفِتَنَّكُمُ الدنيا عن

---

(١) م.س ، ١٩٨/١

(٢) م.س ، ٢٨١/١

أمركم ، فإنَّ أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن »[1] ، يتضح من هذه الرسالة عمق شعور عثمان بالمتغيرات الاجتماعية الجديدة ومدى تقديره للتطورات التي يمكن أن تقع نتيجة لذلك ، وهذه نُذُر أكيدة بظهور بوادر الفتنة الكبرى في أواخر عهده . وكتب عثمان أيضاً إلى أهل الأمصار يقول : « ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه ، فإني مع الضعيف على القوي مادام مظلوماً إن شاء الله »[2] . وكتب إليهم كذلك عن سياسته في عماله وفي الرعية وطلب من كل من كان له حق عنده أو عند عماله أن يوافيه إلى الموسم ليأخذ له بحقه[3] . وكتب إلى رهط الكوفة بالمسير إلى حمص[4] .

ب ـ التولية عليهم والعزل :

كتب عمر إلى أهل الكوفة حين ولّى عليهم يقول : « إني بعثت عليكم عمار بن ياسر أميراً وجعلت عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً ، ووليت حُذَيْفَة بن اليمان ما سقت دجلة ، ووليت عثمان بن حُنَيْف الفرات وما سقى »[5] . وكتب إلى أهل الكوفة حين ولى أبا موسى يقول : « إني قد بعثت أبا موسى أميراً عليكم ، ليأخذ لضعيفكم من قويكم ، وليقاتل بكم عدوكم ، وليدفع عن ذمتكم ، وليحصي لكم فيئكم ، ثم ليقسمه بينكم ولينقي لكم طرقكم »[6] ، ونرى في هذا الكتاب جملة من المهمات الملقاة على عاتق العامل يجب أن يؤديها

(١) م.س ، ٢٩١/١

(٢) م.س ، ٢٩٣/١

(٣) م.س ، ٣٠٦/١ ـ ٣٠٧

(٤) م.س ، ٣٠٥/١

(٥) م.س ، ٢٧١/١ وانظر قريباً من ذلك في : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٣٤

(٦) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٤٢

للرعية ، يرسمها الخليفة ، ويعلم بها رعيته ليكونوا عليها شهداء ، وليكون العامل عليها أميناً .

وقد يلجأ الخليفة إلى عزل بعض العمال أو القادة ويكتب إلى الأمصار في تفسير السبب الحقيقي للعزل كما فعل حين كتب إلى أهل الأمصار يفسر عزله خالد بن الوليد وتولية أبي عبيدة : « إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وأن لا يكونوا بعَرَض فتنة »[1] . وكتب عثمان إلى أهل الكوفة بعزل الوليد بن عقبة حين طعنوا فيه واتهموه بشرب الخمر ، وتولية سعيد بن العاص مكانه فقال : « إني كنت قد وليتكم الوليد بن عقبة غلاماً حين ذهب شرهه وثاب حلمه ، وأوصيته بكم ولم أوصكم به ، فلما أعيتكم عِلانيته طعنتم في سريرته ، وقد وليتكم سعيد بن العاص ، وهو خير عشيرته ، وأوصيكم به خيراً ، فاستوصوا به خيراً »[2] ، فلما كرهوا ولاية سعيد وسألوه تولية أبي موسى عليهم أجابهم إلى ذلك في كتاب يقول فيه : « قد أمرت عليكم من اخترتم ، وأعفيتكم من سعيد .. فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يُعْصى الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئاً كرهتموه لا يُعْصى الله فيه إلا استعفيتم منه »[3] ، وكتب بمثل ذلك إلى أهل الأمصار الأخرى .

جـ ـ الاستغاثة وطلب المدد :

لما حوصر عثمان في داره وقد أجلب إليه أهل الأمصار المختلفة ، كتب جملة من الكتب إلى رعيته يستغيث بهم ويستمدهم على الثائرين به في المدينة ، فكتب إلى علي كتاباً يستعجله فيه القدوم عليه من يَنْبُع بعد أن كان قد أمره بالخروج إلى

(١) جمهرة رسائل العرب ، ١٥٧/١

(٢) م.س ، ٢٩٤/١

(٣) م.س ، ٣٠٦/١

مال له هناك[1] . وكتب إلى أهل الأمصار يبين لهم الوضع في المدينة وموقفه من الأحداث ، وكتب في آخر الكتاب يقول لهم : « فَمَنْ قَدَرَ على اللّحاق بنا فليلحق »[2] ، وكتب إلى أهل الشام يستمدهم : « فإنْ كان عندكم غياث فالعَجَلَ العَجَلَ ، فإن القوم مُعاجِليَّ »[3] ، وكتب إلى أهل البصرة بمثل ذلك[4] ، وكتب إلى أهل الموسم بمكة كتاباً طويلاً جداً يستغيثهم فيه[5] ، وكتاباً آخر موجزاً يقول في آخره : « فأَنْشُد اللهَ رجلاً من المسلمين بلغه كتابي إلا قدم علي فاخذ الحق فِيَّ ، ومنعني من الظلم والباطل »[6] ، إلا أن كل هذه الكتب إلى الرعية ذهبت صرخة في وادٍ ، إذ عاجله المحاصرون بالقتل وإراقة الدماء .

٣ ـ كتب القادة والعمّال إلى الخليفة :

كانت هذه الكتب تتطرق ، في أكثر الأحوال ، إلى الموضوعات نفسها التي سبق لنا أن تعرفناها في الكتب الحربية من القادة إلى الخليفة زمن أبي بكر ، وهي : بيان الوضع الحربي[7] ، والاستشارة وطلب الرأي[8] ، وطلب النجدة والمدد[9] ، والتبشير بالنصر والفتح أو الإخبار بعقد الصلح[10] . غير أن استقراء

(١) م.س ، ٣١٣/١

(٢) م.س ، ٣١١/١

(٣) م.س ، ٣١٤/١

(٤) م.ن .

(٥) م.س ، ٣١٥/١ ـ ٣٢٢

(٦) م.س ، ٣٢٢/١

(٧) م.س ، ١٦٦/١ ـ ١٦٧ و ١٧٦ و ١٨١ ـ ١٨٢ و ١٩٠ و ٢٣٦ ـ ٢٣٧ و ٢٣٨ و ٢٣٩ و ٢٤٠ ـ ٢٤١ و ٢٥٤

(٨) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٣٥ و ٣٢٨ ـ ٣٢٩ وجمهرة رسائل العرب ، ١٦١/١ و ١٦٩ و ١٧١ و ١٧٦ و ٢٤١ و ٢٥٤ و ٢٥٦ و ٢٨٦

(٩) انظر مثلاً : جمهرة رسائل العرب ، ١٨١/١ ـ ١٨٢ و ٢٠٦ ـ ٢٠٧ والاستيعاب ، ص ٤١٨

(١٠) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٣٣ و ٣٢٧ و ٣٨٨ وجمهرة رسائل العرب ، ١٦٨/١ ـ ١٦٩ و ١٦٩ و ١٧١ و ١٧٤ و ١٨٧ ـ ١٨٨ و ١٨٩ ـ ١٩٠ و ٢٢٨ و ٢٤٠ ـ ٢٤١

نصوص الرسائل من زمن خلافة عمر وعثمان هدتنا إلى موضوعات جديدة ظهر بعضها نتيجة لبعض التطورات الإدارية أو الظروف المستجدة ، وأبرزها :

أ ـ الوعظ والاعتذار :

كتب أبو عبيدة ومُعاذ بن جبل إلى عمر لما ولي الخلافة رسالة يعظانه فيها ، ويذكّرانه بحساب يوم القيامة « يوم تُبْلى فيه السرائر ، وتُكْشَف فيه العورات ، وتَظْهَر فيه المخبآت ، وتعنو فيه الوجوه لملك قاهر »[1] . وكتب أبو عبيدة مرة إلى عمر يعظه بآية قرآنية[2] . ولما أصيب الناس في عَمْواس بالطاعون كتب عمر إلى أبي عبيدة يستقدمه ، وهو يريد استنقاذه من الطاعون ، فردَّ أبو عبيدة عليه معتذراً : « يا أمير المؤمنين ، إني قد عرفت حاجتك إلي ، وإني في جند من المسلمين لاأجد بنفسي رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فِيَّ وفيهم أمره وقضاءه ، فَحَلِّلْني من عَزْمَتِكَ يا أمير المؤمنين ، ودعني في جندي »[3] ، فلم يلبث أن نُعِي إلى الخليفة .

ب ـ نعي بعض القادة :

كان القادة يكتبون إلى الخليفة بمن يموت أو يقتل من وجوه المسلمين في حروب الفتح والأمصار ، وقد كتب مُعاذ بن جبل إلى عمر كتاباً ينعى له فيه أبا عبيدة ، وكان قد استخلفه على المسلمين ، ويعزيه بهذا المصاب[4] ، ثم مات مُعاذ بالطاعون ، وقد استخلف عمرو بن العاص على الناس ، فكتب عمرو إلى عمر ينعاه له ويعزيه فيه[5] .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ، ١٥٩/١

(٢) م.س ، ١٩٩/١ ـ ٢٠٠

(٣) م.س ، ٢٠١/١

(٤) م.س ، ٢٠١/١ ـ ٢٠٢

(٥) م.س ، ٢٠٢/١

جـ ـ الاستعفاء من العمل :

كان بعض العمال يكتب إلى الخليفة يستعفيه من العمل الإداري ليلحق بصفوف المجاهدين في ثغور الفتح ، كما فعل النعمان بن مُقَرِّن ، وكان عاملاً لسعد على خراج كَسْكَر ، إذ كتب إلى عمر يقول : « يا أمير المؤمنين ، إنَّ مَثَلِي ومَثَلَ كَسْكَر ، كَمَثَلِ رجل شاب إلى جنبه مومسة تَلَوَّنُ له وتَعَطَّرُ ، فأَنْشُدُكَ اللهَ لَمَا عزلتني عن كَسْكَر ، وبعثتني إلى جيش من جيوش المسلمين »[1] ، فأمر عمر سعداً أن يلحقه بنهاوند أميراً على الجيش .

د ـ وصف المنازل والبلدان والبحر :

كان القادة يلبون بذلك طلب الخليفة ليكون على علم بالمواطن التي ينزلونها أو البيئات الجديدة التي يَقْدَمُون إليها أو يحاربون فيها ثم يستقرون ، وأبرز هذه الكتب ثلاثة : الأول من سعد إلى عمر في وصف منازل العرب بالقادسية قبيل المعركة[2] . والثاني من عمرو إلى عمر في وصف مصر[3] . والثالث من عمرو إلى عمر أيضاً في وصف البحر[4] .

هـ ـ الاستئذان في بعض الشؤون :

كان القادة والعمال يكتبون إلى الخليفة قبل الإقدام على أي عمل مهم يستأذنونه فيه ، وكانت هذه الأعمال كثيرة ومتنوعة ، منها مثلاً استئذان معاوية عمر بغزو البحر[5] ، واستئذان عمرو عمر في غزو إفريقية[6] ، واستئذان المغيرة بن

---

(١) م.س ، ٢٦٥/١ ـ ٢٦٦

(٢) م.س ، ٢٣٦/١ ـ ٢٣٧

(٣) م.س ، ٢١١/١ ـ ٢١٣ ومجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥

(٤) جمهرة رسائل العرب ، ٢١٣/١

(٥) م.ن .

(٦) تاريخ اليعقوبي ، ١٥٦/٢

شعبة عمر أن يبعث إلى المدينة غلامه أبا لؤلؤة ليفيد أهل المدينة من مواهبه الحِرَفِيَّة المتعددة[1] .

و ـ العتاب والدفاع عن النفس :

حين لام عمر عمرو بن العاص على نقص الخراج والإبطاء فيه ، وقَرَّعَه على امتلاك الأموال وفُشُوِّها ، واتهمه بالاختلاس من أموال المسلمين ، وسأله أن يبين له أصل هذه الأموال ، كتب إليه عمرو يعاتبه على ذلك ويبين له علة نقص الخراج والإبطاء فيه ، ويذكر له أصل أمواله ، ويدفع عن نفسه الشبهات في خَطْبٍ طويل جرى بينهما[2] ، على أننا نشك في هذه الحدة في الخطاب بينهما كما نشك في صحة الرسائل المتبادلة بينهما في هذا الشأن كما سنرى في موضع لاحق من البحث .

ز ـ الإخبار بأحوال الناس العامة :

كان الخليفة يرغب دائماً في معرفة أحوال رعيته في أقصى الأرض وأدناها ، حتى إن عمر كتب إلى عمرو بمصر يقول : « والله إني لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً أن أُسْأَلَ عنه »[3] ، لأنه كان دائم القلق على أحوال الرعية ، لقول النبي ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » ، وليحقق في نفسه الطمأنينة بأداء أمانته في الحكم على خير وجه . وكان القادة والعمال يُعِينُون الخليفة على ذلك بالكتابة إليه فيما يعرض لهم من شؤون الرعية في منطقة عملهم من أقل الأمور شأناً إلى أعظمها خطراً . ويكفي أن نشير هنا إلى قضية تغير لحوم العرب وهُزالهم بعد دخولهم سواد العراق وتأثرهم بوخومة المدن القديمة التي نزلوا فيها ، فقد كتب

---

(١) جمهرة رسائل العرب ، ٢٨٩/١

(٢) م.س ، ٢٢٠/١ ـ ٢٢١ و ٢٢٢ ـ ٢٢٣ و ٢٢٣ ـ ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٢٦ و ٢٢٧

(٣) م.س ، ٢١٩/١

حُذَيْفَة بن اليمان[1] وسعد بن أبي وقاص[2] إلى عمر بذلك ، وكتب أبو موسى إلى عمر يخبره بتعشير أهل الحرب تجارة المسلمين الذين يدخلون إلى ديارهم بها[3] ، وكتب إليه عمرو بن العاص بشأن عروس النيل السنوية[4] ، وكتب إليه أبو عبيدة بشأن الرهط الذين شربوا الخمرة واحتجوا لها[5] ، وكتب إليه أبو موسى أيضاً في تأريخ الكتب ليعرف المتقدم والمتأخر من التعليمات والأوامر ، ولتضبط الأوقات وتحفظ الحقوق بين الناس عند حلولها[6] . وفي زمن عثمان كتب بعض العمال إلى الخليفة في الشكوى من بعض أفراد الرعية الذين يتطاولون عليهم بالقول والتحريض ، فكتب معاوية من الشام يشكو إليه أبا ذر الغفاري وما يذيع في الناس من مقالة[7] ، وكتب سعيد بن العاص عامل عثمان على الكوفة يشكو إليه رهطاً من أهل الكوفة يعيبون عليه وعلى الخليفة ، ويعبر له عن اضطراب أمر أهل الكوفة وتغلبهم على أهل الشرف والبيوتات والسابقة والقُدْمَة[8] ، حتى إذا سيرهم عثمان إلى معاوية كتب معاوية يشكوهم إليه وينصح له بردهم إلى كوفتهم[9] ، فلما عادوا إليها كتب سعيد إلى عثمان بأنهم قد زادوا فتنة وجرأة وهم يؤلبون الناس عليه وعلى الخليفة[10] ، وهذه كلها رسائل في رصد بوادر الفتنة التي اندلعت في أواخر خلافة عثمان على وجه الخصوص ، وانتهت في

(١) م.س ، ٢٥٨/١
(٢) م.س ، ٢٥٩/١
(٣) م.س ، ٢٨٥/١
(٤) م.س ، ٢١٤/١
(٥) الاستيعاب ، ص ١٦٢٢ - ١٦٢٣
(٦) صبح الأعشى ، ٢٤١/٦
(٧) جمهرة رسائل العرب ، ٢٩٦/١
(٨) م.س ، ٢٩٤/١ والقُدْمَة : سابق الخير والأثر الحسن .
(٩) م.س ، ٣٠٤/١ - ٣٠٥
(١٠) م.س ، ٣٠٥/١

آخر المطاف بإراقة دمه ، وفتحت باب الصراع بين المسلمين على مصراعيه في خلافة علي .

٤ ـ الكتب بين القادة الكبار والقادة الصغار :

كانت هذه الكتب على غرار كتب الخليفة إلى قادة جيوشه وكتبهم إليه ، أي كانت تنصب على قضايا حربية في المرتبة الأولى من شرح لخطة الحرب[١] ، إلى أمر بالتقدم أو التوقف والعودة[٢] ، إلى توفير التعاون والتنسيق بين القائد وقادة جنده بإصدار الأوامر والتوجيهات المطلوبة[٣] . وكان هؤلاء القادة الصغار بدورهم يكتبون إلى قائدهم بكل ما يَجِدُّ عندهم من تطورات حربية ، كما كتب عمرو بن العاص مرة إلى أبي عبيدة يخبره بانتقاض أهل الأردن على المسلمين ومناظرتهم[٤] ، وربما كتب بعضهم يطلب عزله من العمل للّحاق بجيوش الفتح كما فعل سعيد بن زيد عامل دمشق لأبي عبيدة[٥] ، إلى غير ذلك مما يعرض لهم من أمور شتى .

٥ ـ كتب الرعية إلى الخليفة والعمال :

كانت الرعية توجه كتبها إلى الخليفة أو أحد عماله في أمور تهم مصلحتها ، وتتعلق بمصيرها ، فقد كان عمر سَيَّر نصر بن الحجاج من المدينة إلى البصرة لافتتان النساء بجماله ، فلما صار إلى البصرة أضرت الإقامة بنفسه وأحواله ، فكتب إلى عمر رسالة شعرية بعد العنوان يستعطفه فيها على نفسه ويستأذنه في

---

(١) م.س ، ١٧٩/١

(٢) م.س ، ١٧٥/١ و ١٨٦

(٣) م.س ، ٢٠٤/١

(٤) م.س ، ١٧٨/١

(٥) م.س ، ١٨٩/١

الأوبة إلى المدينة[1] . وفي خلافة عثمان كتب أهل الكوفة إليه بعد أن منعوا عامله سعيد بن العاص من دخول مصرهم يقولون : « إنا والله مامنعنا عاملك الدخول لنفسد عليك عملك ، ولكن لسوء سيرته فينا وشدة عذابه ، فابعث إلى عملك من أحببت »[2] ، وكتب أهل مصر إلى عثمان كتاباً يستتيبونه فيه عما يقترف بحقهم ، يقولون في بعضه : « واعلم أنّا والله لله نغضب ، وفي الله نرضى ، وأنّا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مُصَرِّحَة ، أو ضلالة مُجَلِّحَة »[3] ، فلما قتل عثمان كتبت زوجه نائلة بنت الفُرافِصَة إلى معاوية عامله على الشام كتاباً طويلاً تبين له فيه تفاصيل مقتله ، وأرفقته بقميص عثمان الممزق المدمّى طالبة منه ومن أهل الشام الثأر لدم الخليفة المظلوم[4] .

٦ ـ كتب الرعية فيما بينهم :

وتعالج هذه الكتب عادة هموم أفراد المجتمع وقضاياهم التي تعرض لهم أو تلح عليهم ، سواء أكانت هذه الهموم والقضايا فردية أم اجتماعية عامة ، وهي تمثل الرسائل الشخصية في هذه الفترة خير تمثيل ، ومن ذلك مثلاً ما كتب به غلام لعبد الله بن عمر إلى عبد الله يستشيره في أمر فيقول : « قد أُعْطِيْتُ بفضل مائي ثلاثين ألفاً بعدما أَرْوَيْتُ زرعي ونخلي وأصلي ، فإن رأيت أن أبيعه وأشتري به رقيقاً أستعين بهم في عملك فعلت »[5] ، فكتب ابن عمر إلى غلامه هذا يقول : « قد جاءني كتابك وفهمت ما كتبت به إلي ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (مَنْ مَنَعَ فَضْلَ ماءٍ لِيَمْنَعَ بِهِ فَضْلَ كَلأ مَنَعَهُ اللهُ فَضْلَهُ يَوْمَ القِيامَةِ) ،

---

(١) م.س ، ٢٨٣/١ ـ ٢٨٤

(٢) مروج الذهب للمسعودي ، ٣٤٧/٢

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ٣١١/١ ـ ٣١٢ ومُجَلِّحَة : مكشوفة ظاهرة .

(٤) م.س ، ٣٢٥/١ ـ ٣٢٨

(٥) م.س ، ٢٨٧/١

فإذا جاءك كتابي فاسق نخلك وزرعك وأصلك ، وما فَضَل فَاسْقِ جيرانَكَ الأقربَ فالأقربَ »[1] . وكتب أبو الدرداء ، وقد استوطن الشام ، إلى سلمان الفارسي بالعراق يقول : « إنّ الله رزقني بعدك مالاً وولداً ، ونزلت الأرض المقدسة »[2] ، فردَّ عليه سلمان بكتاب يقول فيه : « إنَّكَ كتبت إلي أن الله رزقك مالاً وولداً ، فاعلم أن الخير ليس بكثرة المال والولد ، ولكن الخير أن يكثر حلمك ، وأن ينفعك علمك ، وكتبت إلي أنك نزلت الأرض المقدسة ، وإن الأرض لاتعمل لأحد ، اعمل كأنك ترى ، واعدد نفسك من الموتى »[3] ، ويلاحظ أن هذا الردّ مليء بالموعظة المؤثرة ، والعبرة المذكِّرة ، وكتب سلمان إلى أبي الدرداء أيضاً كتاباً آخر يذكره ويعظه بقوله : « إنك لن تنال ماتريد إلا بترك ماتشتهي ، ولن تنال ماتأمُل إلا بالصبر على ماتكره ، فليكن كلامك ذكراً ، وصمتك فكراً ، ونظرك عبراً ، فإن الدنيا تتقلب ، وبهجتها تتغير ، فلا تغتر بها ، وليكن بيتك المسجد »[4] ، فردَّ عليه أبو الدرداء بكتاب يقول فيه : « إني أوصيك بتقوى الله وأن تأخذ من صحتك لسُقْمِكَ ، ومن شبابك لِهَرَمِكَ ، ومن فراغك لشغلك ، ومن حياتك لموتك ، ومن جفائك لمودتك ، واذكر حياة لا موت فيها في إحدى المنزلتين : إما في الجنة وإما في النار ، فإنك لاتدري إلى أيها تصير »[5] .

وكان أهل المدينة من أصحاب النبي ﷺ قد كتبوا إلى الصحابة الذين تفرقوا في الأمصار والثغور كتاباً واحداً يحرضونهم فيه على عثمان بمثل قولهم :

---

(١) م.س ، ٢٨٨/١

(٢) م.س ، ٣٢٤/١

(٣) م.ن .

(٤) م.س ، ٣٢٤/١ ـ ٣٢٥

(٥) م.س ، ٣٢٥/١

« إنكم إنما خرجتم أن تجاهدوا في سبيل الله عز وجل تطلبون دين محمد ﷺ ، فإن دين محمد قد أفسد من خلفكم وترك ، فهلموا فأقيموا دين محمد ﷺ »[1] ، وكتب الصحابة والتابعون من أهل المدينة إلى أهل مصر من الصحابة والتابعين أيضاً كتاباً يحرضونهم فيه على الإقبال إلى المدينة لتدارك الخلافة وإقامة الحق قالوا في آخره : « غُلِبْنا على حقنا ، واسْتُولِيَ على فيئنا ، وحِيلَ بيننا وبين أمرنا ، وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة ، وهي اليوم ملك عضوض من غَلَبَ على شيء أكله »[2] ، فثارت ثائرة الناس في كل مكان وأقبلوا مع من أقبل في موسم الحج سنة ٣٥ هـ حتى حصروا عثمان وخيروه بين العزل والقتل ، فطاولهم وماطلهم حتى عَلَوْا عليه أسوار داره وقتلوه .

---

(١) م.س ، ٣٠٧/١

(٢) م.س ، ٣٠٨/١

الفصل الرابع

في خلافة علي : الفتنة

توقفت حركة الفتح تماماً بعد مقتل عثمان ، واندلعت نيران الخلاف بين المسلمين حول هذه القضية ، وأصبح الموضوع الأساسي الذي يطغى على موضوعات هذه الفترة هو موضوع (الفتنة) التي امتدت واتسعت على الصعيد النظري بما ثار من جدل حاد بين الأطراف المتصارعة تارة ، وعلى الصعيد العملي بما أريق من دماء في ساحات المواجهة والقتال تارة أخرى ، ويمكن القول إن رسائل هذه الفترة أخذت منحى عقلياً جديداً بما احتوت عليه من آثار هذا الجدل ، ويمكن أن نعدها من الوجهة التاريخية نتيجة مباشرة للصراع بين أنصار الدين وأنصار الدنيا ، أو بين تيارين : أحدهما أخلاقي مثالي ، والآخر سياسي واقعي . ويمكن أن نستنبط بحق أن هذا الجدل الذي نراه في رسائل هذه الفترة قد هزّ العقلية العربية هزاً عنيفاً ووضع القاعدة الصلبة لنشأة الحركة العلمية والعقلية من جهة ، ووضع الأسس الفكرية والمذهبية للفرق والطوائف من جهة ثانية . وكلها نابعة في الأصل من نقعة دم عثمان الذي أراقه بعض المسلمين في يوم النحر العظيم سنة ٣٥ هـ : فما أصداء هذه الفتنة (الكبرى) في رسائل هذه الفترة وموضوعاتها ؟

القسم الأول ـ كتب الخليفة

كان العبء الأكبر من رسائل الفترة يقع على عاتق الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ ، نظراً للمسؤولية العظيمة التي اضطر إلى التصدي لحملها في مجتمع دبت فيه نوازع الخلاف واخْتَلَّتْ فيه المعايير والموازين التي وضعها

الإسلام طوال نصف قرن من الزمان بعد البعثة النبوية ، فقد انقرض الجم الغفير من ذوي الرأي والمشورة الخالصة من الصحابة ، ونبت فيه قادة جدد للرأي مختلفون تماماً ، لم يعيروا تلك المعايير والموازين كبير اهتمام ، ولم يكنوا لها عميق احترام ، حتى هجر علياً في أخريات حياته أقربُ أقاربه إليه : أخوه عقيل وابن عمه عبد الله بن عباس ، إذ لحق الأول بمعاوية ، واحتمل الثاني بيت مال البصرة وفرّ به إلى مكة . وقد خاطب علي في رسائله عدة مستويات من الناس فكانت موجهة :

١ ـ إلى القوى المعارضة :

واجهت علياً في خلافته ثلاثُ قوى كبيرة كانت تعترض على هذه الخلافة بحجة طلب الثأر بدم عثمان ، أو بسبب التحكيم الذي عقد في صفين بينه وبين معاوية ، وقد اصطدمت به هذه القوى في ثلاث وقعات حربية هي : وقعة الجمل ، ووقعة صفين ، ووقعة النهروان . وتتمثل هذه القوى المعارضة في :

أ ـ زمرة طلحة والزبير وعائشة (وقعة الجمل سنة ٣٦ هـ) :

كان طلحة بن عبيد الله التَّيْمِيّ والزبير بن العوام الأسدي في المدينة حين قتل عثمان في داره ، وهما من الستة الذين سماهم عمر للشورى ، وقد بايعا علياً فيمن بايعه من الثوار والمهاجرين والأنصار وعامة الناس بالمدينة ، وكان أهل المدينة هؤلاء عادة هم أصحاب البيعة التي لا يختلف عليها أحد من أهل الأمصار ولا حقّ له في ردها ، وعلى ذلك جرت سنة الخلفاء الثلاثة قبل علي . أما عائشة زوج النبي ﷺ فكانت بمكة حاجّة حين قتل عثمان ، ولم يلبث طلحة والزبير أن لحقا بها في مكة ، وتشاور الثلاثة في دم عثمان ، واجتمع رأيهم على الخروج إلى البصرة للطلب بدمه من قاتليه ، واتهموا علياً بالتواطؤ في هذا الدم ، فبعث علي إلى طلحة والزبير كتاباً يُعْذِر إليهما فيه قبل قتالهما ، ويركّز على ثلاث نقاط أساسية دار الجدل حولها هي :

١ ـ البيعة :

بَيَّن عليّ في رسالته أن الناس هم الذين حملوه على قبول البيعة بالخلافة من غير أن يطلبها ويسعى إليها ، وأن هؤلاء الناس لم يبايعوه خوفاً من قوة وسلطان ولا طمعاً في مال ، لأنه عند البيعة لم يكن يملك منها شيئاً ، وأنهما قد بايعاه فيمن بايع ، ثم قال لإثبات حجته عليهم : « فإن كنتما بايعتماني طائعين فارجعا وتوبا إلى الله من قريب ، وإن كنتما بايعتماني كارهين ، فقد جعلتما لي عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية .. ، وإنَّ دَفْعَكُما هذا الأمر من قبل أن تدخلا فيه كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد إقراركما به »[1] ، وهكذا يضع علي بقوته الجدلية التي عرف بها ، طلحة والزبير أمام الحجة الدامغة التي لا مدفع لها ، وأبان لهما السبيل واضحة ، ووضع أمامهما الخِيار الذي لا لَبْس فيه ، فأفقدهما بذلك الجزء الأعظم من الثقة بموقفهما حتى إن طلحة راودته نفسه في أول القتال في وقعة الجمل بالرجوع وتردد في القتال ، حتى رماه مروان بن الحكم ـ كما يقال ـ بسهم أصاب ركبته فنزف حتى مات . أما الزبير فإنه ترك الجيش والقتال وأخذ سبيله مفرداً إلى المدينة فلحق به ابن جُرْموز السعدي فقتله غيلة وهو يصلي .

٢ ـ قتل عثمان :

وجه طلحة والزبير التهمة في قتل عثمان إلى علي ، واتهماه أيضاً بإيواء قتلته فردَّ عليهما في كتابه يقول في التهمة الأولى : « بيني وبينكما من تَخَلَّف عني وعنكما من أهل المدينة ، ثم يلزم كل امرئ بقدر ما احتمل »[2] ، لأنه كان يعلم إجلاب طلحة والزبير على عثمان قبل مقتله بالكلام . ويرد على التهمة الثانية بقوله :

---

(١) جمهرة رسائل العرب ، ٣٧٧/١ ـ ٣٧٨

(٢) م.س ، ٣٧٨/١

« هؤلاء بنو عثمان فليدخلوا في طاعتي ، ثم يخاصموا إلي قتلة أبيهم ، وما أنتما وعثمان إن كان قتل ظالماً أو مظلوماً ؟ »[1] ، وهو بذلك يدمغهما بحجّة شرعية قوية ، إذ إن ورثة الرجل من عَصَبَته هم أولى الناس بطلب دمه من قَتَلَتِه ، وطلب الدم لا يكون في الإسلام بعادة الثأر المعروفة عند العرب الجاهليين على المستوى الفردي ، وإنما تتم عبر القضاء الشرعي الذي وضعه الإسلام ، ويكون ذلك على يد الهيئة الاجتماعية لا الأفراد .

٣ ـ إخراج عائشة أم المؤمنين :

يُحَمِّل علي طلحة والزبير إثم إخراج عائشة من بيتها الذي أمرها الله تعالى ورسوله ﷺ أن تقرّ فيه ولا تتركه إلا إلى القبر[2] . وهو يلوم عائشة على هذا الخروج في كتاب بعث به إليها فيقول : « إنك خرجت غاضبة لله ولرسوله ، تطلبين أمراً كان عنك موضوعاً ، ما بال النساء والحرب والإصلاح بين الناس ؟ تطلبين بدم عثمان ، ولعمري لَمَنْ عَرَّضَكِ للبلاء وحملك على المعصية أعظم إليك ذنباً من قتلة عثمان ، فاتقي الله وارجعي إلى بيتك »[3] .

ب ـ زمرة معاوية (وقعة صفين سنة ٣٧ هـ) :

حين ولي علي الخلافة تقدم بعزل جميع عمال عثمان على الأمصار من بني أمية ، وبعث إليها ولاة من قبله ، فامتثلوا جميعاً لأمره إلا معاوية فإنه أبى واستمسك وردّ الوالي ورفض البيعة لعلي ، متخذاً من دم عثمان والطلب به ذريعة سياسية وتغطية شرعية لدعم موقفه . وقد غضّ علي الطرف عنه بادئ الأمر لشغله بزمرة طلحة والزبير بالبصرة ، حتى إذا قضى على معارضتهم بموقعة الجمل ،

---

(١) م٠ن .
(٢) م٠ن .
(٣) م٠ن .

سار إلى الكوفة لتكون قاعدة الخلافة الجديدة للمواجهة ، نظراً لانتقال الثقل البشري والمالي من جزيرة العرب إلى الأمصار ، ويبدو أن الرسالة التي بعث بها علي إلى معاوية مع جرير بن عبد الله البَجَلِيّ بعد وقعة الجمل مباشرة كانت ثاني رسائله إليه ، وقد مكث جرير عند معاوية ينتظر الرد قرابة ثلاثة شهور ، كان معاوية يماطل خلالها في الرد ليسبر نفوس الناس بالشام ويعرف بِمَ يرد على كتاب علي بطلب البيعة ، وهو واثق مما يعمل ، وكان يهيئ الأجواء في الوقت نفسه ليخرج بالشام طعمة له مدى الحياة أو ليفوز بالخلافة بعد علي وما أشبه ذلك من طموحات تراوده ويتطلع إلى تحقيقها ، فلما علم معاوية أن مركزه بالشام قويّ رَدَّ على الكتاب يراوغ ويماطل ويساوم ويتهدد بالحرب ويقدم رجلاً ويؤخر أخرى ليعلم ماعند علي من قدرة عليه ، ولعله يأخذ منه سلماً ما لا يرام إلا بحرب . وتتابعت مجموعة رسائل بين الطرفين مدة ثلاثة شهور قبل اللقاء بصفين ، ويبدو أن مجموعة أخرى من الرسائل تبودلت عن قريب خلال ثلاثة شهور أخرى في صفين كانت هي مدة الحرب بين الطرفين ، وكان بعدها كتاب التحكيم ، ثم لقاء الحكمين ، وانشغال علي بالخوارج عن معاوية وأهل الشام ، وقد كتب علي رسالة واحدة إلى معاوية بعد وقعة النهروان مباشرة ، ثم دخل الطرفان في صمت عميق ، وانقطعت الرسائل بينهما حتى قتل علي غيلة بالكوفة على يد أحد المتطرفين من الخوارج في أواخر رمضان سنة ٤٠ للهجرة .

وقد كانت هذه الرسائل بين الطرفين تدور على موضوع أساسي هو دم عثمان وموضوعات أخرى متفرعة منه ، وكان الطابع المشترك بينها هو روح الجدل والاحتجاج ، ونتناول أبرز هذه الموضوعات التي دار حولها هذا الجدل من وجهة نظر علي ، وهي :

١ ـ البيعة :

كتب علي بعد توليه الخلافة أول رسالة إلى معاوية يقول فيها : « بايع مَنْ

قبلك وأقبل إلي في وفد من أصحابك »[1] ، ذلك لأن البيعة أول ما يفكر فيه المرء لضبط الأمور ، لأنها رأس الأمر . وكتب له في إحدى رسائله بعد وقعة الجمل يقول : « فادخل فيما دخل الناس فيه »[2] ، وكتب في رسالته إليه مع جرير البجلي محتجاً على معاوية بصحة بيعته فيقول : « إن بيعتي لزمتك وأنت بالشام ، لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضى ، وإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج عنه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً »[3] ، وهذا النص يشمل الأسس التي احتج بها على معاوية في سائر كتبه إليه على وجه الإجمال[4] .

٢ ـ التبرؤ من دم عثمان :

ركز علي في جميع كتبه على أنه لم يكن له أي ضلع في مقتل عثمان لا بقول ولا عمل ، بل إنه كان ممن دفع عنه ما وسعه الدفع حتى غُلِب فيه على أمره أمام قوى الثائرين به ، فقد كتب إلى معاوية يقول : « إن الناس قتلوا عثمان عن غير مشورة مني ، وبايعوني عن مشورة منهم واجتماع »[5] . وفي كتابه مع جرير قال : « ولعمري يا معاوية ، لئن نظرت بعقلك دون هواك لَتَجِدَنّي أبرأ الناس من دم عثمان ، ولَتَعْلَمَنَّ أني كنت في عزلة عنه ، إلا أن تتجنى »[6] . وكتب في

(١) م.س ، ٣٨٤/١ وانظر له رواية أخرى في : م.ن . ونظن الروايتين موضوعتين لخلوهما مما يشير إلى العزل .

(٢) م.س ، ٣٨٥/١

(٣) م.س ، ٣٨٦/١

(٤) انظر مثلاً : م.س ، ٤٠١/١ و ٤٧٥

(٥) م.س ، ٣٨٤/١

(٦) م.س ، ٣٨٧/١ وانظر قريباً من ذلك في ٤٤٢/١ ـ ٤٤٣

أحد كتبه إليه يقول : « زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتي خَفْري بعثمان ، ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين أوردت كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا »[1] . بل إن علياً اتهم معاوية بالتواطؤ على قتله بخذلانه لما استنصره فقال من كتاب إليه : « أينا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله : أَمَنْ بذل له نصرته فاستقعده واستكفه أم مَنِ استنصره فتراخى عنه ؟ .. وما كنت لأعتذر من أني كنت أنقم عليه أحداثاً ، فإن كان الذنب إليه إرشادي وهدايتي له ، فرب ملوم لا ذنب له »[2] . وكتب إليه أيضاً يقول : « وقد أسهبت في ذكر عثمان ، ولعمري ماقتله غيرك ، ولا خذله سواك ، ولقد تربصت به الدوائر ، وتمنيت له الأماني طمعاً فيما ظهر منك ، ودلَّ عليه فعلك »[3] ، وكتب أيضاً يقول : « أما إكثارك الحجاج في عثمان وقتلته ، فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك ، وخذلته حيث كان النصر له »[4] . ويمضي احتجاج علي على معاوية على هذا المنوال في عامة كتبه إليه .

٣ ـ محاكمة قتلة عثمان :

كان معاوية يصر في رسائله إلى علي على أن يسلمه قتلة عثمان ليقتلهم به ، إلا أن علياً كان يرى في هذا الطلب خروجاً على قواعد الشريعة الإسلامية ، لأن أقرب الناس عصبة إلى المقتول ، وهم أولاد عثمان أولى بهذا الطلب ، فإذا سلم لمعاوية بذلك لأنه أقوى أقارب عثمان على هذا الطلب فلا بدَّ من البيعة والطاعة أولاً ليكون له عليه حق تسليم القتلة إليه ، ثم إن الحكم على المذنبين لا يكون إلا بعد دعوى محاكمة أو مقاضاة ترفع إليه للنظر فيها[5] ، وعلى ضوء ذلك يتم إصدار

(١) م.س ، ٤٠٠/١

(٢) م.س ، ٤٥٤/١ ـ ٤٥٥

(٣) م.س ، ٤٢٥/١

(٤) م.س ، ٤٧٢/١

(٥) م.س ، ٤٠٠/١

الأحكام وعقاب المذنبين بما هم أهل له وينفذ الحكم على يد أولي الأمر وليس على يد أولي الدم ، أما تجاوز هذه الأمور جميعاً فإنه أمر لا يجوز ، وإنما هو ذريعة لتسويغ المنافسة وطلب الملك وكسب ضعاف العقول وذوي الأهواء بها ، فقد كتب علي إلى معاوية مع جرير يقول : « وقد أكثرت في قتلة عثمان ، فإن أنت رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكمت القوم إليَّ حملتك وإياهم على كتاب الله ، وأما تلك التي تريدها فهي خُدْعَة الصبي عن اللبن »[1] ، ويلاحظ أن هذه الحجج دامغة لأنها منطقية في طرحها القضية ومناقشة جوانبها .

٤ ـ رفض إقرار معاوية على شيء من أمور المسلمين :

حاول معاوية جاهداً أن يحصل على مكاسب من علي للكف ، من غير أن يكون له في عنقه أي التزام نحوه ، فلم يفلح في ذلك من قريب ولا بعيد ، وقد كان موقف علي جلياً صريحاً في هذا الموضوع ، فقد كتب إليه مرة ، حين كتب إليه معاوية أن يقرّه على الشام ، فقال : « أما سؤالك المتاركة والإقرار لك بالشام ، فلو كنت فاعلاً ذلك اليوم لفعلته أمس ، وأما قولك إن عمر وَلاكَهُ فقد عزل مَنْ كان ولاه صاحبه ، وعزل عثمان من كان عمر ولاه »[2] ، ذلك لأن حق التولية أو العزل من حقوق الخليفة وحده ، ولا يجوز لأحد أن يفرض عليه ولايته بترغيب ولا ترهيب كما يفعل معاوية . وكتب إليه أيام صفين يقول : « وأما طلبك إلي الشام ، فإني لم أكن لأعطيك اليوم مامنعتك أمس »[3] .

٥ ـ معايير تولي الخلافة :

علم علي أن أهل الشام قد بايعوا معاوية على الإمرة ، ثم عادوا فبايعوه عليهم

(١) م.س ، ٣٨٧/١ وانظر مثل ذلك أيضاً في ٤٠٠/١ و ٤٢٠

(٢) م . س ، ٤٧٢/١

(٣) م . س ، ٤٧٨/١ ـ ٤٧٩ ويصر على هذا الموقف بعد صفين أيضاً ، انظر : ٥٠٦/١

خليفة ، وذلك قبل المضي إلى صفين ، فكتب إلى معاوية في هذا الموضوع يبين له أنه ليس أهلاً لتولي الخلافة ، وأنها ليست تحل لـه ، ويـذكّره بأصحاب الحق في البيعة بالخلافة وهم أصحاب الشورى من الأنصار والمهاجرين[1] ، وقال في رسالته إليه مع جرير : « واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحلّ لهم الخلافة ، ولا تُعْقَد معهم الإمامة ، ولا يدخلون في الشورى »[2] ، وقد نفى عنه وعن أصحابه أن يكونوا من المهاجرين فقال في كتاب إليه : « وزعمت أنك زائري في المهاجرين ، وقد انقطعت الهجرة حين أُسِر أخوك »[3] . وهذا يعني أن بيعة أهل الشام له بالخلافة باطلة من وجهة نظر المعايير القديمة التي قام على أساسها اختيار الخلفاء الراشدين الثلاثة قبله ، ويذكر له في كتاب أن من شروط الخلافة (القِدَم) في الإسلام و (الشرف)[4] . وقد أراد علي ، باختصار ، أن يفهم معاوية أن معايير تولي أمر الخلافة لا تتوفر فيه ، زد على ذلك أن ثلاثة من المقدمين للخلافة بتعيين عمر لا زالوا على قيد الحياة ، وهو أفضلهم وأجمعهم لهذه المعايير ، ويذكّره بمعيار القرابة الذي احتج به المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة فغلبوهم في الحجة ، وأنه أدنى قرابة إلى النّبي ﷺ منه[5] ، وفي ذلك وضوح تام فيما ينبغي توفره من شروط لمن يتولى أمر الخلافة ويقوم بأعبائه ، ليعلم بها الجاهل ويعمل بها العالم لصلاح الرعية وخير الأمة .

---

(١) وهذا أحد المعايير القديمة التي سار عليها الخلفاء الراشدون الأربعة .

(٢) م . س ، ٣٨٧/١

(٣) م . س ، ٤١٤/١ يلمح إلى قول النّبي ﷺ : « لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ » ، وأخو معاوية هنا هو يزيد الذي أُسِرَ يوم الفتح فاستخلصه أبو سفيان وأدخله داره فأمن ، و (الهجرة) من المعايير القديمة المؤهّلة لتولي الخلافة والدخول في الشورى .

(٤) م . س ، ٤٣٠/١ والقَدَم (بفتحتين) : السابقة في الأمر وما تقدّم من الخير والعمل الصالح والأثر الحسن ، والقِدَم (بكسر وفتح) : نقيض الحدوث ، والمراد به قِدَم الإيمان والدخول المبكّر في الإسلام ، و (الشرف) هنا تابع لمعيار القدم بمعنييه الآنف ذكرهما .

(٥) م . س ، ٤٥٣/١

٦ ـ المفاضلة بينه وبين معاوية :

توضحت المعارضة عن وجود شخصين قويين في الدولة : أحدهما الخليفة الشرعي ، وهو علي ، والثاني خصمه المنافس له في أمر الخلافة ، وهو معاوية ، ولذا فقد شغل موضوع المفاضلة بينهما في المزايا والصفات والفضل حيّزاً واسعاً من الرسائل التي كتب بها أهل الفترة ، وقد كانت رسائل علي تركز على هذه المفاضلة وتبرزها بقوة للعيان ، ولم تقف هذه المفاضلة عند حدّ المزايا الشخصية لكل منهما ، بل تعدته إلى الجذور النَّسَبِيَّة حتى هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وتطرقت إلى موقف كل منهما من الإسلام وما كان لهما من مزايا فيه . وهكذا فإن هذه المفاضلة شملت الحاضر والماضي معاً ، وقد وظفت هذه المفاضلة أصلاً لكسب الرأي العام للناس آنذاك ، ولكننا نرجح أن تكون أكثر الرسائل الحاوية على هذه المفاضلات موضوعة في زمن متأخر لما فيها من دواعٍ للشّكّ سنقف عندها فيما بعد ، غير أن لهذه المفاضلات أصولاً واقعية في تلك الفترة لا يمكن إنكارها ، إلا أننا لانتوقع دخولها في الرسائل بهذا العمق والاتساع : فما أبرز نقاط المفاضلة من وجهة نظر علي ؟

كانت معظم هذه النقاط تقوم على أسس إسلامية ، إذ كان علي يركز على تذكير معاوية دائماً بأنه من الطلقاء الذين أسلموا يوم الفتح طائعين أو كارهين[١] ، فكان إسلامهم متأخراً بعد عداوة طويلة للنَّبي ﷺ ودينه . وهو يذكّره بسبب التفرق بين بني عبد مناف بعد أن كانوا جامعة واحدة فيقول : « فرق بيننا وبينكم أن الله بعث رسوله منا فآمنا به وكفرتم »[٢] ، ويُعَدُّ هذا المعيار من أبرز المعايير التي كان بنو هاشم يفاضلون بها بني أمية دائماً . ويَرْبط

(١) م . س ، ٣٨٧/١ و ٤٤٨

(٢) م . س ، ٤١٤/١

ذلك الماضي بالحاضر فيقول في كتاب إلى معاوية : « فرق بيننا وبينكم أمس أنّا آمنا وكفرتم ، واليوم أنّا استقمنا وفتنتم ، وما أسلم مسلمكم إلا كرهاً وبعد أن كان أنفَ الإسلام كله لرسول الله ﷺ حرباً »[١] . وهو يذكّره أيضاً بقدمه وسابقته[٢] ، وبمعيار القرابة للنبي ﷺ مُحْتَجّاً بقوله تعالى : ﴿ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ ﴾[٣] ، ويعلق على ذلك قوله : « فنحن مرة أولى بالقرابة ، وتارة أولى بالطاعة »[٤] . ويسوق إلى جانب ذلك جملة من المعايير الأخرى التي لا غنى عنها لمن يتولى أمر الأمة ، وهي : السبق إلى الإسلام ، والهجرة ، والعلم بكتاب الله ، والفقه بالدين ، والجهاد في سبيل الله ، والقدرة على تحمل الأمر[٥] ، وأكثر هذه المزايا غير متوفر في معاوية من قريب أو بعيد ، وأما علي فيحوزها جميعاً بلا منازع .

ويلخص علي في كتبه الأخيرة إلى معاوية فضائله ونقائص معاوية رابطاً الماضي بالحاضر فيقول : « وأما قولك إنا بنو عبد مناف [و][٦] ليس لبعضنا على بعض فضل ، فلعمري إنا بنو أب واحد ، ولكن ليس أمية كهاشم[٧] ، ولا حرب كعبد المطلب[٨] ، ولا أبو سفيان كأبي طالب ، ولا المهاجر كالطليق[٩] ،

(١) م . س ، ٤١٨/١ ـ ٤١٩ وانظر مثل ذلك في ٤٣٨/١

(٢) م . س ، ٤٤٢/١

(٣) القرآن ، ٨/ من الآية ٧٥

(٤) جمهرة رسائل العرب ، ٤٥٣/١

(٥) م . س ، ٤٦٤/١

(٦) الواو هنا زيادة منا لدفع النصب على الاختصاص لقوله : « إنا بنو عبد مناف ليس .. » لوروده كذلك في الأصل .

(٧) مذكّراً بحسد أمية لعمه هاشم في شرفه وبقضية المنافرة المعروفة بينهما ، انظر : تاريخ الطبري ، ١٨٠/٢

(٨) يذكّره بقتل حربٍ جاراً لعبد المطلب ، وأكلِ ماله ، والمنافرةِ فيه ، انظر : تاريخ الطبري ، ١٨٠/٢

(٩) يعني نفسه ومعاوية .

ولا الصريح كاللصيق[1] ، ولا الحق كالمبطل ، ولا المؤمن كالْمُدْغِل[2] ، ولبئس الخلف خلف يتبع سلفاً هوى في نار جهنم »[3] . وهكذا يتبين بجلاء أن معاوية لا يقوم بفضائل علي القديمة والحديثة في شيء ، وبالتالي فإنَّ كِفَّة علي من هذه الناحية راجحة وكِفَّة معاوية لامحالة شائلة ، وقد ذهب بعض الباحثين المحدثين نتيجة ذلك إلى القول : « وضع علي أدب الموازنة بين البيتين الهاشمي والأموي ، كما وضع عَمَد الْحِجاج الشيعي لخطباء الشيعة وشعرائهم ، فكانت كتبه وخطبه المنبع الذي يمتحون منه جميعاً »[4] ، مما يدل على توسيعه فيما بعد واستغلاله استغلالاً حزبياً مذهبياً .

٧ ـ اتّهام معاوية باتِّباع الهوى ووعظه :

لما كان علي متيقناً أن معاوية يهدف لغاية بعيدة ويحاول الوصول إليها بشتى الوسائل ، فقد عمد إلى تنبيهه على خطأ موقفه مذكِّراً إياه بالتقوى والموت والآخرة وما فيها من حساب ، واعظاً إياه بكل ما يجعله يكف عن شق عصا المسلمين ويثوب إلى رشده ، عله يصلح نفسه بذلك ، فيقول في كتاب إليه : « إن الدنيا دار تجارة ، وربحها أو خسرها الآخرة ، فالسعيد من كانت بضاعته فيها الأعمال الصالحة ، ومن رأى الدنيا بعينها وقدَّرها بقدرها ، فَاتَّقِ الله ولا تكن ممن لا يرجون لله وقاراً ، ومن حقت عليه كلمة العذاب فإن الله بالمرصاد ، وإن دنياك ستدبر عنك ، وستعود حسرة عليك ، فأقلع عما أنت عليه من الغي والضلال على كِبَر سنك ، وفَناء عمرك ، فإن حالك اليوم كحال الثوب المهلهل الذي لا يصلح من جانب إلا فسد من آخر .. فَاتَّقِ الله يامعاوية في نفسك ،

---

(١) يعني الخالص المحض في الإسلام والدخيل الذي أكره عليه .

(٢) الْمُدْغِل : المفسد .

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ٤٧٩/١ ـ ٤٨٠

(٤) أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري لعبد الحسيب طه حميدة ، ص ١٣٩

وجـاذب الشيطـان قيـادك ، فـإن الـدنيـا منقطعـة عنـك ، والآخرة قريبـة منك »[1] ، ويفعل مثل ذلك في عدد آخر من كتبه إليه[2] .

٨ ـ تخذيل الناس عن معاوية :

في حدود ما بين أيدينا من الكتب لم يبعث علي إلى من كان يؤازر معـاويـة بالرأي أو بالسيف ، من قـادة الرأي الملتمين حولـه ، أيَّ كتـاب فيما عـدا عمرو بن العاص الذي كان مستشـار معـاويـة الأول فيما يقـدم عليـه أو يحجم عنـه في إدارة الصراع الحربي والنفسي بينه وبين علي ، في حين أن معاويـة لم يـدع أحـداً بـارزاً وذا رأي أو قوة من أتباع علي وأنصاره إلا كاتبه واستماله وأمَّلَه ووعده ليُخَذِّلَهم عن عليّ ، ويُعَدّ تقصير علي في هذه النقطة بالذات موضع حيرة كبيرة لـدينـا ، لأنهـا من الأسلحة البديهية التي يمكن أن يشهرها على خصمه . وقد ركَّز علي ، فيما كتب به إلى عمرو ، على تقريعه وتعنيفه على اتِّباع الهوى ونصر معاويـة ومتـابعتـه ببيع دينه بدنياه ، وآخرته بأولاه ، وذكَّره بالله تعالى وَوَعَظَـه بمـا هو صـائر إليـه من ثوابه أو عقابه ، وذمّ له الدنيا التي هو مقبل عليها ، لأنها لا تغني عن الآخرة شيئـاً بغير العمل الصالح[3] .

٩ ـ التهديد والوعيد بالحرب :

بما أن الحرب (امتداد للسياسة) كما يقول أصحاب فن الحرب من المحـدثين ، فقد كان علي في كتبه إلى معاوية قبل صفين يحـاول إقنـاع معـاويـة بـالحجـاج ، إلا أنه كان يلوح لـه في آخر كتـاب تقريبـاً بـالحرب : يحـذِّره منهـا ، ويتوعَّـده بها[4] ، على أنها الخِيار الأخير الذي لن يستعمله لحسم الأمور إلا بعـد نفـاد جميع

(١) جمهرة رسائل العرب ، ٤٢٠/١ ـ ٤٢١

(٢) م . س ، ٤٢٩/١ ـ ٤٣٠ و ٤٣١ ـ ٤٣٢ و ٤٣٤ ـ ٤٣٥ و ٤٣٥ ـ ٤٣٦ و ٤٧١ ـ ٤٧٢ و ٤٨٢

(٣) م . س ، ٤٨٤/١ و ٤٨٥ و ٤٨٦ و ٤٨٦ ـ ٤٨٨

(٤) م . س ، ٤٨٦/١ و ٤١٩ و ٤٢٦ ـ ٤٢٧ و ٤٢٨

الوسائل الأخرى تماماً . وقد نفذ هذا التهديد عملياً في وقعة صفين ، غير أن علياً لم يجن من هذه الوقعة النتائج السياسية التي كان ينتظرها منها ، إذ تمّ لمعاوية ، الذي أشرف أصحابه على حافة اليأس ، جني النتائج ، التي كاد علي يحصدها : بحيلة رفع المصاحف والدعوة إلى تحكيم كتاب الله فيما شَجَر بين المسلمين ، بل انقلبت نتائج هذه الحرب على الصعيدين الحربي والسياسي وَبالاً على علي ، ولم يؤثر عن علي من صفين إلى وقعة النهروان غير كتاب واحد يهدّد فيه بالحرب وكَتَبَه بعد النهروان[1] .

جـ ـ زمرة الخوارج (وقعة النهروان سنة ٣٨ هـ) :

وهؤلاء الخوارج كان أكثرهم من القُرّاء في جيش علي بصفين ، فلما كُتِب عهد التحكيم في صفين إلى رمضان التالي بلقاء الحكمين اعتزلوا جيش علي منحازين إلى قرية حَرُوراء قرب الكوفة ، ومتقولين في أمر هذا التحكيم كلاماً كثيراً ، حتى إذا علموا بما جرى في دُومة الجندل في الموعد المضروب بين الحكمين حزموا أمرهم على تكفير علي ومعاوية ورؤوس الفتنة وعامة المسلمين ممن لا يرى رأيهم ، وقالوا : (لا حكم إلا لله) ، وولوا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي أميراً للمؤمنين ، فكتب إليهم علي لما عمدوا إلى الخلاف يبرأ إليهم مما فعل الْحَكَمان ويدعوهم إلى الإقبال عليه للمسير إلى معاوية وأهل الشام وقتالهم[2] .

٢ ـ إلى القادة والعمال :

وقد شغلت موضوعات الرسائل إليهم حيّزاً كبيراً من إنتاج علي ، ومن أبرزها :

أ ـ المواعظ والوصايا في سيرة القادة والعمال :

كان علي حريصاً كل الحرص على حسن سيرة قادته وعماله في الإدارة والرعية

(١) م . س ، ٥٠٦/١

(٢) م . س ، ٥٠٣/١ ـ ٥٠٤

على حدّ سواء ، ولذا كان يكتب إليهم بما يكون قاعدة أو دستوراً لهم في السلوك الشخصي أو التصرف مع الناس حتى يؤدوا واجبهم على خير وجه ممكن ، ولم يكن يبخل عليهم بالوصايا والمواعظ الخلقية التي تنفعهم في دنياهم وتُعِدّ لهم العدّة لاستقبال أخراهم . فقد كتب مرة إلى عثمان بن حنيف الأنصاري عامله على البصرة قبل وقعة الجمل يدعوه إلى أن يقتدي به في الزهد بالمال والمأكل والملبس[1] ، ويبين له في الوقت نفسه أن زهده هذا مختارٌ طوعاً ، فهو زُهْدُ مُقْتَدِرٍ على أطايب كل شيء لو شاءه[2] ، وكتب مرة إلى ابن عباس يقول : « ما نالك من دنياك فلا تُكْثِرْ به فرحاً ، وما فاتك منها فلا تأسَ عليه جزعاً ، وليكن سرورك بما نلت من آخرتك ، وليكن أسفك على ما فاتك منها »[3] . وكتب إلى محمد بن أبي بكر عامله على مصر يوصيه بالتزام سبع خصال دعاها (جوامع الإسلام) فقال : « اِخْشَ الله ولا تَخْشَ الناس في الله ، وخير القول ما صدّقه العمل ، ولا تَقْضِ في أمر واحد بقضاءين مختلفين فيتناقض أمرك وتزيغ عن الحق ، وأحِبَّ لعامة رعيّتك ما تحب لنفسك ، واكْرَهْ لهم ما تكره لنفسك ، وأصلح أحوال رعيّتك ، وخُضِ الغمرات إلى الحق ولا تخف لومة لائم ، وانْصَحْ لمن استشارك ، واجْعَلْ نفسك أسوة لقريب المسلمين وبعيدهم »[4] ، وكتب إلى أمراء جنده يوصيهم فيقول : « أعْزِبُوا الناس عن الظلم والعدوان ، وخذوا على أيدي سفهائكم ، واحترسوا أن تعملوا أعمالاً لا يرضى الله بها عنا .. فلا تألوا أنفسكم خيراً ، ولا الجند حسن سيرة ولا الرعية معونة ، ولا دين الله قوة »[5] ، وكتب إلى ابن عباس وهو عامله على البصرة يبين له السياسة التي يجب أن يتبعها مع

---

(١) م . س ، ٣٢٩/١

(٢) م . س ، ٣٣٠/١ ـ ٣٣١

(٣) م . س ، ٥٨٦/١

(٤) م . س ، ٥٤١/١

(٥) م . س ، ٤٦٢/١

رعيّته فقال : « هم بين مقيم لرغبة يرجوها أو خائف من عقوبة يخشاها ، فأرْغِبْ راغبهم بالعدل عليه والإنصاف له والإحسان إليه ، واحلل عقدة الخوف من قلوبهم »[1] . وكتب إلى بعض عماله في سياسة الرعية أيضاً فقال : « ارْفُقْ ما كان الرِّفْق أرْفَقَ ، واعْتَزِمِ الشِّدَّة حين لا يغني عنك إلا الشِّدة ، واخْفِضْ للرَّعية جناحك ، وألِنْ لهم جانبك ، وآسِ بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والتحية ، حتى لا يطمع العظماء في حيفك ، ولا يَيْأسِ الضعفاء من عدلك »[2] ، وكان يكتب إلى عماله بكل ما فيه صلاحهم وصلاح رعيَّتهم ليفوزوا بخير الدارين .

ب ـ التعليمات الحربية والسياسية :

كتب عليّ إلى زياد بن النضر وشُرَيْح بن هانئ وقد سيَّرهما مقدمة له إلى صفين في اثني عشر ألفاً من الناس ، يأمرهما بأن يقدّما الطلائع ليكونوا لهما عيوناً على العدو ، وأن يفتشا كل مكان يمكن أن يكمن فيه هذا العدو كالشجر والشعاب ، وأن يسيرا بالناس على تعبئة ، ويأمرهما إذا لقيا العدو بأن يجعلا ظهر الجيش إلى مانع طبيعي كنهر أو جبل ليقاتل من جهة واحدة ، وبأن يتخذا الرقباء في المرتفعات المشرفة ، وينهاهما عن التفرق ، وأن يحفا عسكرهما ليلاً بالرماح والترسة والحرس ، وأن يكتبا إليه كل يوم بخبرهما[3] ، ولما كتب معاوية إلى زياد بن أبيه يرغبه ويرهبه كتب علي إلى زياد يحذره من حبائل معاوية ويقول : « إن معاوية كالشيطان الرجيم يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، فاحذره ثم احذره »[4] ، ومثل هذه التوجيهات كثير[5] .

---

(١) م . س ، ٤٥٨/١

(٢) م . س ، ٦٠٤/١

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ٤٦٠/١ ـ ٤٦٢

(٤) م . س ، ٥٨٥/١

(٥) م . س ، ٥٠٧/١ و ٥٠٩ و ٥١٠ و ٥١١ و ٥١٤ و ٥٣١ و ٥٥٣ و ٥٥٨ و ٥٧٨

جـ ـ بيان الوضع الحربي والسياسي وخطة العمل :

كان علي يكتب إلى عماله مبيّناً الوضع الحربي والسياسي ، وكان يطلعهم على ما ينوي فعله في المستقبل ، ومن ذلك أنه كتب إلى عامله على الكوفة يخبره بنتيجة وقعة الجمل[1] ، وكتب إلى جرير البجلي عامله على هَمَذان يخبره بما جرى له من مسيره إلى البصرة إلى خلاف طلحة والزبير له وحشده لهما ، إلى وقعة الجمل واستعماله ابن عباس على البصرة ، إلى مسيره بمن معه إلى الكوفة[2] ، ومثل هذا الأسلوب كان يعدّ ضعفاً خطيراً في السياسة لم يكن علي مضطراً إليه بأي حال ، إذ كان يضع نفسه في موقف ضعف ، أو في موقف من يقدم الحساب لعماله أو يرفع إليهم تقريراً بما يفعل ، وهذا أمر غير سليم البتة ولا هو مطلوب منه ، وقد تكرر مثل ذلك في عدة رسائل أخرى[3] .

د ـ اللوم والتقريع والمحاسبة :

لم يكن علي يسكت عن خطأ عماله وانحرافهم إن علم منهم ذلك ، وكان يسرع إلى لومهم وعتابهم إن كان ذنبهم مغتفراً ، وإلا فإنه كان يقرعهم تقريعاً عنيفاً ، ولسوء الحظ لم يكن أكثر عماله يحتمل مثل هذا التقريع فكان يفارقه إلى عدوه معاوية أو يعتزل بعيداً عنه . وقد كان علي يبث على عماله العيون بين الرعية ليعرف كيف يسيرون فيهم ، ومن ذلك أنه كتب إلى كعب بن مالك من عماله يقول : « استخلف على عملك ، واخرج في طائفة من أصحابك حتى تمرّ بأرض السواد كُورَةً كُورَةً فتسألهم عن عمالهم ، وتنظر في سيرتهم حتى تمرّ بمن كان

---

(١) م . س ، ٣٧٩/١

(٢) م . س ، ٣٨١/١ ـ ٣٨٢

(٣) انظر كتابه إلى الأشعث بن قيس في : م . س ، ٣٨٢/١ ـ ٣٨٣ ، وإلى مِخْنَف بن سُلَيْم (٤٥٧/١ ـ ٤٥٨) ، وإلى ابن عباس (٤٥٩/١) ، وإلى الأشتر النَّخَعِيّ (٥٤٧/١) ، وإلى ابن عباس أيضاً (٥٦٠/١ ـ ٥٦١) .

منهم فيما بين دجلة والفرات »[1] ، ولا شك في أن هذا النوع من الرقابة كان مفيداً في كبح جماح العمال عن الخروج على الجادة . وكتب إلى عثمان بن حُنَيْف عامله على البصرة يلومه على إجابته دعوة أحد فتيانها على طعام فيقول : « وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مَجْفُوّ ، وغنيهم مَدْعُوّ .. فاتّقِ الله يابن حُنَيْف ، ولْتَكْفِكَ أقراصُكَ ، ليكون من النار خلاصُكَ »[2] . وكتب إلى أبي موسى عامله على الكوفة يُقَرِّعه لتثبيط الناس عن إمداده بالبصرة تقريعاً عنيفاً[3] . وكتب إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني لما أبطأ في حمل ثمن بني ناجية يلومه[4] ، وكان قد كتب إليه من قبل يقرعه على تقسيمه مال فيء المسلمين على من اعتامه من أعراب قومه[5] . واستعمل علي المنذر بن الجارود العبدي على بعض النواحي فخان الأمانة فكتب إليه : « إن صلاح أبيك غرَّني منك وظننت أنك تتبع هديه وتسلك سبيله ، فإذا أنت فيما رُقِّيَ إليَّ عنك لا تدع لهواك انقياداً ، ولا تبقي لآخرتك عتاداً ، تَعْمُر دنياك بخراب آخرتك ، وتصل عشيرتك بقطيعة دينك »[6] . وكتب إلى ابن عباس يقول : « إنه قد بلغني عنك أمر إن كنتَ فعلتَه فقد أسخطتَ ربك ، وعصيتَ إمامك ، وأخزيتَ أمانتك ، وخُنْتَ المسلمين .. فارفع إلي حسابك ، واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس »[7] ، فلم يزل علي به حتى احتمل بيت مال البصرة مغضباً وفرّ به إلى مكة ، فكتب إليه علي يعاتبه ويقول : « فلما رأيتَ الزمان على ابن عمك قد

---

(١) م . س ، ٦٠٣/١

(٢) م . س ، ٣٢٩/١ و ٣٣٣

(٣) م . س ، ٣٧٣/١

(٤) م . س ، ٥١٨/١

(٥) نهج البلاغة ، ٦٨/٣ واعتامه : اختاره (مادة : عيم) .

(٦) م . س ، ١٣٢/٣ ـ ١٣٣

(٧) جمهرة رسائل العرب ، ٥٨٨/١ ـ ٥٨٩

كَلِب ، والعـدوُّ قـد حَرِب .. قلبتَ لابن عمـك ظهر الْمِجَنّ ، ففـارقتَـه مـع المفارقين ، وخذلتَه مع الخاذلين ، وخنتَه مع الخائنين »[1] ، وذكّر بأكله « من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفـاء الله عليهم هـذه الأموال »[2] ، ثم توعده بالعقوبة إن هو تمكن منه[3] ، وألح عليه[4] .

هـ ـ التولية والعزل :

بَيَّن علي لمعاوية ، حين عزلـه عن الشـام فـأبى واعترض ، أن التوليـة والعزل من حق الخليفة الذي لا ينازعه فيه منازع بأي حـال ، واحتج على ذلـك بمـا كان من تولية وعزل على أيدي الخلفاء الثلاثة قبله[5] . وفيما عدا معـاويـة كان أمر علي بـالعزل والتوليـة يسري من غير أي عـائـق ، وكان أول عـامـل عـزلـه أبـا مـوسى الأشعري حين بلغه تثبيطه الناس عنه[6] ، وكان يأمر أحيانـاً بعزل عـامل ليوليـه عملاً آخر كما فعل مـع الأشتر[7] ، أو ليضمـه إليـه ويستعين بـه كما فعـل مـع عمر بن أبي سَلَمَة المخزومي[8] . ولما اختلف قائـدا مقـدمتـه إلى الشـام كتب إليهما يقول : « إن انتهى جمعكما إلى بـأس فزيـاد بن النضر على النـاس كلهم ، وإن افترقتما فكل واحد منكما أمير الطائفـة التي وليـنـاه أمرهـا »[9] ، وكتب إلى ابن عبـاس أن يمـدّ مَعْقِل بن قيس في قتاله بني ناجيـة بمـدد عليـه رجل يكون « أمير أصحـابـه حتى

---

(1) نهج البلاغة ، ٦٥/٣ وكَلِب : اشتدّ وضَرِي . وحَرِب : اشتدّ غضبه . والْمِجَنّ : التُّرْس لأنـه يستر صاحبه .

(2) م . س ، ٦٦/٣

(3) م . س ، ٦٦/٣ ـ ٦٧

(4) جمهرة رسائل العرب ، ٥٩٣/١ ـ ٥٩٤

(5) م.س ، ٤٧٢/١

(6) م.س ، ٤٧٣/١ ـ ٤٧٤

(7) م.س ، ٥٤٧/١

(8) نهج البلاغة ، ٦٧/٣

(9) جمهرة رسائل العرب ، ٤٦٠/١

يلقى مَعْقِلاً ، فإذا لقي مَعْقِلاً فَمَعْقِلٌ أمير الفريقين ، وليسمع من مَعْقِلٍ وَلْيُطِعْهُ ولا يُخالِفْهُ »[1] .

٣ ـ إلى الرعية :

كان علي يكتب إلى الرعية في شتى الأمور التي تعرض له ، ليظل قريباً منهم متصلاً بهم ، فكان يخاطب الجند ، ويخاطب المجتمعات في الأمصار ، ويخاطب بعض أفراد الرعية ، ويمكن القول إن كتبه إليهم على وجه العموم صورت لنا حقيقة ما كان يجري في عصره من أحداث ، وما وقع فيه من فوضى وشقاق وخلاف ، ومن تصارع الأفكار والحجج . وأبرز هذه الموضوعات :

أ ـ المواعظ والوصايا :

كتب علي إلى جنده مرة يقول : « إنكم وَزَعَة الله في الأرض ، فكونوا له أعواناً ، ولدينه أنصاراً ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، إن الله لا يحب المفسدين »[2] ، وكتب إلى أهل مصر يوصيهم بتقوى الله تعالى ، ويذكرهم مسؤولية كل فرد عما تجني يداه ، وما ينتظرهم من سؤال يوم الحساب عن كل صغيرة وكبيرة في دنياهم ، ويبدئ لهم في التقوى ويعيد لأنها « تَجْمَع من الخير ما لا يجمع غيرها ، ويُدْرَك بها من الخير ما لا يُدْرَك بغيرها : خير الدنيا وخير الآخرة »[3] ، ويذكرهم الموت فيقول : « الموت ليس منه فوت ، فاحذروه وأعدوا له عدته ، فإنكم طرداء الموت : إن أقمتم أخذكم ، وإن هربتم أدرككم ، وهو ألزم لكم من ظلكم »[4] .

---

(١) م.س ، ٥١٠/١

(٢) م.س ، ٤٦٣/١

(٣) م.س ، ٥٣٦/١

(٤) م.س ، ٥٣٧/١

ب ـ التولية عليهم :

لما ولّى علي على أهل مصر قيس بن سعد أميراً كتب إليهم معه يقول : « فوازروه وكانفوه وأعينوه على الحق ، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم ، والشدة على مريبكم ، والرفق بعوامكم وخواصكم ، وهو ممن أرضى هديه ، وأرجو صلاحه ونصيحته »[1] ، ولما ولّى الأشتر وُجِدَ في كتابه إليهم : « فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابق الحق .. فإنه لا يقدم ولا يحجم ، ولا يؤخر ولا يقدم إلا عن أمري »[2] .

جـ ـ بيان حقوقهم وواجباتهم :

كان علي يكتب إلى الرعية أحياناً في هذا الموضوع حتى يعرفوا حدود ما لهم عند ولاة أمرهم وما عليهم لهم ، ليدخل الاطمئنان إلى نفوسهم ، وقد كتب مرة إلى جنده يقول : « إن الله جعلكم في الحق جميعاً سواء : أسودكم وأحمركم ، وجعلكم من الوالي منكم بمنزلة الولد من الوالد ، والوالد من الولد ، فحقكم عليه إنصافكم والتعديل بينكم والكف عن فيئكم ، فإذا فعل ذلك وجبت عليكم طاعته فيما وافق الحق ، ونصرته والدفع عن سلطان الله »[3] ، وكتب إلى أهل مصر مع قيس بن سعد يقول : « ألا وإنّ لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ والقيام عليكم بحقه ، والتنفيذ لسنته والنصح لكم بالغيب »[4] .

د ـ بيان الوضع السياسي والحربي :

كان علي يَعْمِد إلى إعلام رعيته في الأمصار بحقيقة الوضع الراهن ، ويعود بهم أحياناً إلى الوراء ليعطيهم لمحة تاريخية عن أصول الأحداث القائمة ، حتى

---

(١) م.س ، ٥٢٣/١

(٢) نهج البلاغة ، ٦٣/٣

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ٤٦٣/١

(٤) م.س ، ٥٢٣/١

يربط في أذهانهم بين الحاضر والماضي نظراً للعلاقة السببية التي تربط أحدهما بالآخر ، فقد كتب إلى أهل مصر مثلاً حين ولى عليهم قيس بن سعد يذكرهم ببعث الله تعالى النبي ﷺ إلى العرب وتعليمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنة ليهتدوا بها بعد ضلالهم ، ويذكرهم باستخلاف أبي بكر وعمر بعده ، ثم بما كان في خلافة عثمان من أحداث انتهت به إلى مقتله ، وما كان من بيعة الناس له[1] .

وكتب إلى أهل الكوفة حين سار من المدينة إلى البصرة يخبرهم بأمر عثمان وطلحة والزبير وعائشة يقول : « إني أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعه كعيانه : إن الناس طعنوا عليه ، فكنت رجلاً من المهاجرين أكثر استعتابه وأقل عتابه ، وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوجيف ، وأرفق حُدائهما العنيف ، وكان من عائشة فلتة غضب ، فأتيح له قوم فقتلوه ، وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين ، بل طائعين مخيرين »[2] . ولما عاد من صفين كتب إلى الأمصار نسخة واحدة يعلمهم بما جرى في هذه الوقعة من حجاج وقتال وتحكيم[3] .

وكتب إلى أخيه عَقِيل بمكة عن حقيقة غارات أهل الشام على تخوم العراق فقال : « وأما ماذكرت من غارة الضحاك بن قيس على أهل الحيرة ، فهو أقل وأذل من أن يلم بها فضلاً عن الغارة »[4] . وفي أواخر خلافته كتب نسخة واحدة إلى أهل العراق تشبه البيان السياسي الشامل ذكر فيه كل الأحداث التي مرَّ بها الغرب من لدن البعثة النبوية إلى أن تولى هو الخلافة وما كان فيها من أمر أهل الجمل ، ثم أمر أهل الشام ووقعة صفين ، والتحكيم ، ولقاء الحكمين ، وأمر الخوارج ووقعة النهروان ، ومعاودته المحاولة لقتال أهل الشام ومعاوية وتقاعس الناس عنه[5] .

---

(١) م.س ، ٥٢٢/١ ـ ٥٢٣

(٢) نهج البلاغة ، ٢/٣ ـ ٣ والحداء (بضم الحاء وكسرها) : الزَّجْر .

(٣) م.س ، ١١٤/٣ ـ ١١٥

(٤) جمهرة رسائل العرب ، ٥٩٨/١

(٥) م.س ، ٥٦٢/١ ـ ٥٦٩

هـ ـ طلب المدد :

كتب علي إلى أهل الكوفة يصفهم بأنهم « جبهة الأنصار وسنام العرب » ويقول : « فأسرعوا إلى أميركم وبادروا جهاد عدوكم »[1] ، وذلك أثناء مسيره إلى أهل الجمل بالبصرة ، ثم أكد هذا الكتاب بآخر قال فيه : « إني خرجت من حيي هذا إما ظالماً أو مظلوماً ، وإما باغياً أو مَبْغِيّاً عليَّ ، وإني أُذَكِّر الله من بلغه كتابي هذا لَمَا نفر إليَّ ، فإن كنت محسناً أعانني ، وإن كنت مسيئاً استعتبني »[2] . فلما أمدوه وفتح الله عليه كتب إليهم يثني على إجابتهم وطاعتهم[3] .

و ـ الطعن في معاوية وأصحابه والحض على جهادهم :

كان علي يصف أهل الشام بأنهم « أعراب وأحزاب وأهل طمع جفاة طغاة ، تجمعوا من كل أوب ، ممن ينبغي أن يُؤَدَّب وأن يُوَلَّى عليه ، ويُؤْخَذ على يديه ، ليسوا من الأنصار ولا المهاجرين والتابعين بإحسان »[4] ، وذكر لأنصاره أنهم إنما يقاتلون « الطلقاء وأبناء الطلقاء ، وأولي الجفاء ، ومن أسلم كرهاً ، وكان لرسول الله ﷺ أَنْفَ الإسلام كلَّه حرباً »[5] ، و « إن منهم لَمَنْ قد شرب الخمر ، وجُلِد حداً في الإسلام ، يُعْرَف بالفساد في الدين والفعل السيِّئ ، وإنّ فيهم مَنْ لم يسلم حتى رُضِحَ له على الإسلام رَضِيخَة »[6] . ولا شك في أن علياً كان يتخذ القيم الإسلامية معايير للطعن في هذه المعارضة من كل جانب ، لأنها تضع معاوية وأصحابه على طرف نقيض مع علي وأصحابه ، وقد عقد علي مثل هذه المقارنة

---

(١) نهج البلاغة ، ٣/٢ و ٣

(٢) م.س ، ٣/١١٤

(٣) م.س ، ٣/٣

(٤) جمهرة رسائل العرب ، ١/٥٦٦ ـ ٥٦٧

(٥) م.س ، ١/٥٦٩

(٦) م.س ، ١/٥٧٠ والرضيخة : العطية ، يَلَمّح بذلك إلى المؤلَّفة قلوبهم ومنهم أبو سفيان .

فكتب إلى أتباعه يقول : « لأنتم على ما فيكم من تخاذل وتواكل خير منهم وأهدى سبيلاً ، فيكم الحكماء والعلماء والفقهاء والنجباء وحملة القرآن والمتهجِّدون في الأسحار والعُبّاد والزهّاد في الدنيا وعمّار المساجد بتلاوة القرآن »[1] ، ثم يحرضهم على قتالهم وجهادهم فيقول : « أيقظوا رحمكم الله نائمكم ، وأجمعوا على حقكم ، وتجردوا لحرب عدوكم »[2] « أما ترون إلى أطرافكم قد انتقصت ، وإلى مصركم قد افتتحت ، وإلى شيعتي بها قد قتلت ، وإلى مسالحكم تُعْرى ، وإلى بلادكم تغزى ، وأنتم ذوو عدد كثير وشوكة وبأس شديد ؟ فما بالكم ؟ »[3] « فاسمعوا قولي إذا قلت ، وأطيعوا أمري إذا أمرت »[4] ، ثم يأمرهم بالقيام إلى الحرب فيقول : « أنا نافر بكم إن شاء الله فانفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون ، ولا تثاقلوا إلى الأرض فتقروا بالْخَسْف وتبوؤوا بالذل »[5] .

ز ـ التهديد والوعيد :

حاول معاوية أن ينقض البصرة على علي ويفسد أهلها ، فلما علم علي بذلك كتب إلى أهل البصرة يرغبهم ويرهبهم ، فبين لهم في البداية فضله عليهم بعد وقعة الجمل فقال : « عفوت عن مجرمكم ، ورفعت السيف عن مدبركم ، وقبلت من مقبلكم ، وأخذت بيعتكم ، فإن تفوا ببيعتي وتقبلوا نصيحتي وتستقيموا على طاعتي أعمل فيكم بالكتاب والسنة وقصد الحق وأقيم فيكم سبيل الهدى »[6] ، ثم اشتد في خطابهم متوعداً فقال : « وإن خَطَتْ بكم الأقوال الْمُرْدِيَة ، وسَفَهُ الآراء

---

(1) م.ن .
(2) م.س ، ٥٦٩/١
(3) م.ن .
(4) م.س ، ٥٧٠/١
(5) م.س ، ٥٧١/١
(6) م.س ، ٥٨٠/١

الجائرة ، إلى منابذتي ، تريدون خلافي ، فها أنذا قد قرَّبْتُ جيادي ورَحَلْتُ ركابي ، وَآيْمُ اللهِ لئن ألجأتموني إلى المسير إليكم لأُوقِعَنَّ بكم وقعة لا يكون يوم الجمل إليها إلا كلعقة لاعق »[١] ، ثم يعود إلى الترغيب والملاينة من جديد بفتح باب الأمل واسعاً أمامهم للعودة إلى الطاعة والاستقامة ، فيقول : « مع أني عارف لذي الطاعة منكم فضله ، ولذي النصيحة حقه ، غير متجاوز متهماً إلى بريء ، ولا ناكثاً إلى وفيّ »[٢] ، فأفلح كتابه في ردهم .

ح ـ الشكوى من عقوق قريش وخذلان الناس له :

كتب علي إلى أخيه عَقِيل كتاباً ينضح بالألم والحسرة من عقوق قريش له ومعاضدتهم معاوية في باطله فقال : « إن قريشاً قد أجمعت على حرب أخيك اليوم إجماعها على حرب رسول الله ﷺ قبل اليوم ، فأصبحوا قد جهلوا حقه ، وجَحَدُوا فضله ، وكادوه بالعداوة ، ونصبوا له الحرب ، وجَهَدُوا عليه كل الجهد ، وجَرُّوا إليه جيش الأحزاب ، وجَدُّوا في إطفاء نور الله ، اللهم فاجزِ عني قريشاً الجوازي ، فقد قطعت رحمي ، وتظاهرت علي ، ودفعتني عن حقي ، وسلبتني سلطان ابن أمي »[٣] . وبعد سقوط مصر بيد عمرو بن العاص ومقتل محمد بن أبي بكر كتب إلى ابن عباس يشكو إليه تقاعس الناس وخذلانهم له فيقول متبرماً بهم : « وقد كنت حثثت الناس على لحاقه ، وأمرتهم بغياثه قبل الوقعة ، ودعوتهم سراً وجهراً ، وعوداً وبدءاً ، فمنهم الآتي كارهاً ، ومنهم المعتلّ كاذباً ، ومنهم القاعد خاذلاً ، أسأل الله أن يجعل لي منهم فرجاً عاجلاً »[٤] .

---

(١) م.ن . ورَحَلْتُ ركابي : شددته .

(٢) م.ن .

(٣) م.س ، ٥٩٧/١ ـ ٥٨٠ وجحدوا فضله : أنكروه مع علمهم به . وجهدوا : جدُّوا واجتهدوا .

(٤) نهج البلاغة ، ٦٠/٣ وانظر : جمهرة رسائل العرب ، ٥٦٨/١ و ٥٦٩ و ٥٧١

القسم الثاني ـ كتب القادة والعمال

١ ـ إلى الخليفة :

أ ـ بيان الوضع وطلب المدد :

كان كل عامل أو قائد يكتب إلى الخليفة بآخر تطورات الوضع من ناحية عمله ليطلع عليها ويصدر أوامره وتوجيهاته فيها ، فقد كتب قيس بن سعد أول عهده بعمله على مصر يخبر علياً بجماعة يُعْظِمون قتل عثمان ويأبون الدخول في البيعة وهم مع ذلك كافُّون(١) ، فأمره علي بقتالهم ، فكتب قيس إلى علي أن الأفضل تركهم(٢) ، فعزله علي وولى محمد بن أبي بكر ، فلما وصل إليها كتب إلى علي يخبر خروجه إلى هؤلاء العصاة(٣) ، وكتب إليه بعد ذلك يخبره أن عمرو بن العاص قد نزل بجيش من أهل الشام بأدنى مصر ، وطلب منه أن يخرج بدمه منها ، وأن الناس قد اجتمعوا إليه ، وبين له مافيه من الضعف وخذلان أنصاره ، وسأله المدد السريع بالأموال والرجال قبل فوات الأوان(٤) . وكتب قَرَظَة بن كعب أحد عماله بمرور الخوارج بناحيته وقتلهم المسلمين وتركهم أهل الذمة(٥) ، وبعد أن واقعهم زياد بن خَصَفَة في الْمَذار كتب إلى علي بهربهم إلى الأهواز في الظلام وبتعريجه إلى البصرة بمن معه لعلاج الجرحى وانتظار أوامره(٦) ، وكتب زياد بن أبيه ، خليفة ابن عباس على البصرة ، إلى علي بأحداث العصيان التي دبرها معاوية في البصرة(٧) .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ، ٥٣٠/١ ـ ٥٣١

(٢) م.س ، ٥٣١/١

(٣) م.س ، ٥٥٣/١

(٤) م.س ، ٥٥٧/١

(٥) م.س ، ٥٠٧/١ ـ ٥٠٨

(٦) م.س ، ٥٠٩/١ ـ ٥١٠

(٧) م.س ، ٥٧٩/١

ب ـ التبشير بالنصر والتعزية بالمصاب :

كان القـادة والعمال يزفون إلى علي البشرى بـالنصر ، كما كانـوا يكتبـون إليـه معزين إذا وقع المصاب ، فقد كتب زياد بن خَصَفَة إلى علي بـالإيقـاع في الْمَـذار ببعض الخـوارج وفرار بعضهم الآخر نحـو الأهـواز[1] ، وبشّره مَعْقِـل بن قيس بـالنصر عليهم في الأهـواز[2] ، وبتصفيتهم تمـامـاً وقتـل قـائـدهم في وقعـة ثـانيـة بفارس[3] ، وكتب إليه زيـاد بن أبيـه يبشره بمقتل ابن عـامر الحضرمي بـالبصرة وقمع فتنته فيها[4] ، وحين سقطت مصر وقتل محمد بن أبي بكر ، كتب ابن عباس إلى علي يعزيه بهذين المصابين العظيمين فيقول : « فالله المستعـان على كل حـال ، ورحم الله محمد بن أبي بكر ، وآجرك يا أمير المؤمنين »[5] .

جـ ـ الاتهام أو الدفاع عن النفس :

كان بعض القادة يختلف مع بعض فيكتب كل منهم إلى الخليفـة متهماً خصمـه بما يراه محرضاً عليه ، فقد كتب زيـاد بن النضر إلى علي يشكو شُرَيْح بن هـانئ ـ وكان علي أمَّرهما على مقدمته إلى الشام ـ فقال : « إنك وليتني أمر الناس ، وإن شُرَيْحاً لا يرى لي عليه طاعـة ولا حقـاً ، وذلـك من فعلـه بي استخفـاف بـأمرك وترك لعهدك »[6] ، وكتب شُرَيْح يقول : « إن زيـاد بن النضر حين أشركتـه في أمرك ووليتـه جنـداً من جنـدك ، طغى واستكبر ، ومـال بـه العُجْب والْخُيَـلاء والزَّهْو إلى مـا لا يرضى الله تعـالى بـه من القول والفعل ، فـإن رأى أمير المـؤمنين

(١) م.س ، ٥٠٩/١ ـ ٥١٠
(٢) م.س ، ٥١٣/١
(٣) م.س ، ٥١٦/١ ـ ٥١٧
(٤) م.س ، ٥٨١/١
(٥) م.س ، ٥٦٢/١
(٦) م.س ، ٤٥٩/١

عليـه السلام أن يعزلـه عنـا ويبعث مكانـه من يحب فليفعـل »[١] . غير أن علياً نفسـه كان يوجـه التهمـة إلى بعض عمـالـه ولا سيا فيا يتعلق بـالأمـوال التي تحت أيديهم ، فكانوا يكتبون إليه محـاولين دفع التهم عنهم ، فكتب ابن عبـاس إلى علي مثلاً : « إن كل الذي بلغك باطل ، وإني لما تحت يدي ضابـط قـائم لـه ، وعليـه حافظ ، فلا تصدق علي الضنين »[٢] . وكتب زياد بن أبيه إلى علي في وشاة رجل به : « أمّا ماذكَر من الإسراف واتخاذ الألوان من الطعام والنعم ، فإن كان صادقـاً فأثابه الله ثواب الصالحين ، وإن كان كاذباً فوقاه الله أشد عقوبة الكاذبين .. وأمـا قوله إني أصف العـدل وأخـالفـه إلى غيره فـإني إذن من الأخسرين .. فـإن أتـاك بشاهدَيْ عدلٍ وإلا تبيَّن لك كذبه وظلمه »[٣] .

٢ ـ إلى القوى المعارضة :

ركَّز معاوية ومعه عمرو بن العاص جهودهما على محاولـة كسب عمـال علي أو إفسـاد الشخصيـات المحيطـة بـه عليـه ، بقصـد نزع الثقـة بين الطرفين أو تثبيـط عزائمهم ، وقد كان أسلوبها المفضل هو الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى ، وكان هؤلاء العمال يردون على كتبهما ويتنـاولون موضـوعـات معينـة فيهـا ، وأبرزهم : قيس بن سعـد ، ومحمـد بن أبي بكر ، وعبـد الله بن عبـاس . وقـد كانت روح الاحتجـاج واضحـة تمـامـاً في ردودهم على كتب هـذه المعـارضـة ، وأبرز هـذه الموضوعات :

أ ـ التبرؤ من دم عثمان :

كتب قيس بن سعد وهو على مصر إلى معاوية حين اتهمه واتهم قومه الأنصار

---

(١) م.س ، ٤٦٠/١

(٢) م.س ، ٥٨٩/١

(٣) م.س ، ٥٨٣/١

بدم عثمان فقال : « ذلك أمر لم أقارفه ولم أطِف به ، وذكرتَ أن صاحبي هو الذي أغرى الناس بعثمان ، ودسهم إليه حتى قتلوه ، وهذا ما لم أطّلع عليه ، وذكرتَ أن عُظْم عشيرتي لم تَسْلَم من دم عثمان ، فلعمري إنّ أول الناس كان فيه قياماً عشيرتي »[1] .

ب ـ المقارنة بين علي ومعاوية وأنصارهما :

كتب ابن عباس عن حرب صفين إلى عمرو بن العاص رداً على كتاب منه فقال : « بدأها علي بالحق وانتهى فيها إلى العذر ، وبدأها معاوية بالبغي وانتهى فيها إلى السَّرَف ، وليس أهل الشام فيها كأهل العراق : بايع أهل العراق علياً وهو خير منهم ، وبايع أهل الشام معاوية وهم خير منه »[2] . وكتب ابن عباس إلى معاوية رداً على كتاب منه فقال : « وما أنت وذكر الخلافة يا معاوية ، وإنما أنت طليق وابن طليق ، والخلافة للمهاجرين الأولين ، وليس الطلقاء منها في شيء »[3] ، ولما كتب معاوية إلى قيس بن سعد يغريه بولاية العراقين إنْ تابعه في مقالته ، ردَّ عليه بقوله : « أتَسُومُنِي الخروج عن طاعة أوْلى الناس بالإمرة ، وأقربهم للخلافة ، وأقولهم للحق ، وأهداهم سبيلاً ، وأقربهم من رسول الله ﷺ وسيلة ، وأوفرهم فضيلة .. وتأمرني بالدخول في طاعتك طاعة أبعد الناس من هذا الأمر ، وأقولهم للزور ، وأضلّهم سبيلاً ، وأبعدهم من الله عز وجل ورسوله ﷺ وسيلة ، ولد ضالَّيْنِ مُضِلَّيْنِ ، طاغوتٍ من طواغيت إبليس »[4] . وكتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية رداً على كتاب منه فقال : « وقد رأيتك

(١) م.س ، ٥٢٥/١ ـ ٥٢٦

(٢) م.س ، ٤٦٨/١

(٣) م.س ، ٤٧١/١

(٤) م.س ، ٥٢٧/١ والطاغوت : الصنم والشيطان وكل رأس في الضلال (وزنه فَلَعُوت ، وهو منقلب عن فَعَلُوت ، لأن أصله طَغَيُوت ، فقدّمت الياء قبل الغين ، وهي مفتوحة وقبلها فتحة ، فقُلِبَتْ ألفاً ، وتاؤه زائدة) .

تساميه وأنتَ أنتَ وهو هو السابق المبرِّز في كل خير .. »[1] ، في مقارنة طويلة .

جـ ـ توجيه الاتهامات إلى القوى المعارضة ودفع التهم المقابلة :

كان عمال علي يَعْمِدون إلى تحميل معاوية تَبِعَة تقصيره المقصود في نصرة عثمان حين استنصره ، لتوظيف النتيجة المتوقعة ، وهي قتل عثمان ، في خدمة مآربه ، وكانوا يتهمون في الوقت نفسه كلاً من طلحة والزبير بالتحريض على عثمان وتغيير نفوس الناس عليه حتى أصابه ماأصابه ، ثم إنهما بايعا علياً طائعين ثم نكثا هذه البيعة بالخروج عليه ، وهذا ماكتب به ابن عباس في ردّ له على كتاب منه[2] .

د ـ التقريع والاستهزاء والوعيد :

كان عمال علي يردون على كتب معاوية وأتباعه يقرعونهم أو يستهزئون بهم أو يتوعدونهم بالحرب ، فمن ذلك ماكتب به ابن عباس إلى عمرو بن العاص إذ يقول : « إني لاأعلم أحداً من العرب أقل حياء منك ، إنك مال بك الهوى إلى معاوية ، فبعته دينك بالثمن الأوكس ، ثم خبطت الناس في عشواءَ طمعاً في الدنيا .. فإن كنت تريد الله فارجع إلى بيتك ، ودع الطمع في مصر والركون إلى الدنيا الفانية »[3] ، وكتب قيس بن سعد إلى معاوية كتاباً فيه تقريع شديد ثم قال في آخره متوعّداً : « والله إن لم أَشْغَلْكَ بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك ، إنك لَذُو جَدٍّ »[4] . وكتب محمد بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص لما نزل بأدنى أرض مصر رداً على كتاب منه فقال : « وتأمرني بالتنحي عنك ، كأنك لي

---

(١) م.س ، ٥٤٣/١

(٢) م.س ، ٤٧٠/١ ـ ٤٧١

(٣) م.س ، ٤٦٨/١

(٤) م.س ، ٥٢٧/١

ناصح ، وتخوفني الْمُثْلَة كأنك علي شفيق ، وأنا أرجو أن تكون لي الدائرة عليكم فأجتاحكم في الوقعة »[1] .

٣ - كتب القادة والعمال فيما بينهم :

كان هذا النوع من الكتب قليلاً نادراً لارتباط القادة والعمال عادة بالخليفة مباشرة ، إلا إذا كانت المراسلة بين الأنداد لسبب ما ، كما كتب جرير بن عبد الله البَجَلِيّ ، الذي كان عاملاً على همذان من عهد عثمان فأقره علي ، إلى الأشعث بن قيس ، الذي كان على أذربيجان زمن عثمان ، يشير عليه بالبيعة[2] . وربما كتب بعض العمال إلى من هم أعلى منهم لأنهم تابعون لعملهم ، فقد كتب زياد بن أبيه إلى ابن عباس ، وكان خليفة له على البصرة ، يخبره بنزول ابن عامر الحضرمي البصرة لدعوة أهلها لمعاوية ونقضها على علي ، وختم كلامه فقال : « فارفع ذلك إلى أمير المؤمنين ليرى فيه رأيه ، وَاعْجَلْ إلي بالذي ترى أن يكون منه فيه »[3] ، وهذا يدل على أهمية التسلسل في الخطاب عن طريق المراتب وإن لم يكن قاعدة عامة ، لأن خطاب العامل الأدنى قد يتجاوز في كثير من الأحيان العامل الأعلى إلى الخليفة مباشرة إذا اقتضت الظروف ذلك . ولما طلب علي من ابن عباس أن يمد مَعْقِل بن قيس على الخوارج بألفي رجل من البصرة ، كتب ابن عباس إلى مَعْقِل يأمره بالمكوث حيث هو حتى يصل إليه المدد[4] . ويلاحظ أن هذه الكتب الثلاثة تتعلق بالبيعة ، وبيان الوضع ، والأوامر الحربية .

---

(١) م.س ، ٥٥٩/١ وانظر رواية أخرى في : م.ن .

(٢) م.س ، ٣٨٣/١

(٣) م.س ، ٥٧٧/١

(٤) م.س ، ٥١٢/١

القسم الثالث ـ كتب القوى المعارضة

كانت نقطة الارتكاز الأساسية لهـذه المعـارضـة هي الاعتراض على بيعـة علي خليفة وعدم الإقرار له بذلك ، مستنـدة في ذلـك على عـدد من الحجج التي كانت تعرضها في كتبها ، وكانت موضوعات هذه الكتب تتلون بحسب الشخص المخاطَب بكل منها أو الغاية المنشودة منه ، وأكثر هذه الكتب كانت موجهة

١ ـ إلى علي :

كانت الغالبية المطلقة من الكتب التي وصلت إلينا نصوصها موجهـة إلى علي من معاوية بوصفه قائد هذه المعارضة والمنظِّر لها ، ولم يكن معاوية في كتبـه لين العريكة ، بل كان يحاجج ويقارع بالمنطق ، وكان عليه لدعم موقفـه الطـامح إلى الخلافة أن يتخذ الحجج ليتسلح هو بها أولاً ويقنع الناس بهـذا الموقف ، ثم ليسلح بها أصحابه وأنصاره من أهل الشام وغيرهم ليقـارع كلٌّ منهم بهـا من هو في مستواه من الناس . وكان العدد الأقل من هذه الكتب من زمرة طلحـة والزبير وعـائشـة وزمرة الخوارج . وهذا عرض لكتب قوى المعارضة ، باختلاف انتماءاتها ، وبحسب تسلسل ظهورها ، ولما في تلك الكتب من موضوعات :

أ ـ من زمرة طلحة والزبير وعائشة :

كتب طلحة والزبير إلى علي يردّان على دعوته لهما بالطاعة والكف قـائلين : « أما أنت فلست راضياً دون دخولنا في طـاعتـك ، ولسنـا بـداخلين فيهـا أبـداً ، فاقضِ ماأنت قاضٍ »[1] ، وردَّت عـائشـة تقول : « جَلَّ الأمر عن العتـاب »[2] ، وواضح أنهم بذلك يَأْذَنون عليّاً بالحرب فقط من غير أي مُحاجَّة له في شيء .

---

(١) م.س ، ٤٧٩/١

(٢) م.ن .

ب ـ من زمرة معاوية :

١ ـ قضية دم عثمان :

ألح معاوية في كتبه إلى علي على نقطتين أساسيتين : الأولى اتهامه بأن له ضلعاً في قتل عثمان[١] ، وذلك عن طريق التحريض والتأليب عليه من جهة[٢] ، أو عن طريق خذلانه وعدم مدّ يد العون له حين استنصره من جهة أخرى[٣] . والثانية مطالبته بتسليم قتلة عثمان إليه لقتلهم به ، فقد كتب له مرة : « بلغني أنك تنتفي من دمه ، فإن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلته نقتلهم به »[٤] ، وهو يعلم تمام العلم أن دمه قد تفرق في القبائل والأمصار ويصعب على علي ـ من الوجهة السياسية ـ أن يتخذ ضدّهم أي إجراء ، فكانت هذه المطالبة عملياً هي أساس كل مراهنات معاوية السياسية التي أقدم عليها ، لأنه اتخذ من امتناع علي من تنفيذ هذه النقطة بالذات ، وبالطريقة التي يراها هو ، لا التي يراها علي والشريعة الإسلامية استناداً على أسس القضاء المعمول به في مثل هذه القضايا أو المواقف ، حَجَرَ الزاوية في موقفه السياسي كله وفي الحجج التي أخذ يعرضها للناس لكسب تأييدهم له ، وأول هذه الحجج أن امتناع علي عن تسليمه قتلة عثمان ، بوصفه أقوى أوليائه على الطلب بدمه ، دليل أكيد على اشتراكه أو تورطه في هذا الدم ، ثم يتهمه بإيواء هؤلاء القتلة[٥] ، واتخاذهم بطانة له[٦] . ويفسر معاوية إقدام علي على الخطوة الأولى بحسده لعثمان وسلطان بني أمية[٧] ،

---

(١) م.س ، ٣٩٨/١ و ٤١٣

(٢) م.س ، ٣٩٨/١ و ٤١٥ و ٤٣٧ و ٤٤٤ ـ ٤٤٦

(٣) م.ن .

(٤) م.س ، ٤٣٨/١ وانظر أيضاً ٣٩٨/١ و ٤١٧ و ٤٤٦

(٥) م.س ، ٤٣٨/١

(٦) م.س ، ٤١٧/١ و ٤٣٨ و ٤٤٦

(٧) م.س ، ٤١٥/١ و ٤٣٣ و ٤٣٧

وبطمعه في الخلافة[١] ، مع أن عثمان أقرب إليه نسباً من أبي بكر وعمر اللذين ينتميان إلى تيم وعدي من قريش ، في حين أن عبد مناف يجمع عثمان بعلي عن قريب ، فسكت عن الأَوَّلَيْنِ كارهاً وحرَّض على قريبه عثمان طائعاً .

٢ ـ قضية البيعة لعلي :

لما علم معاوية بأمر علي بعزله عن ولاية الشام ، لم يكن أمامه بدٌّ ، وهو ذو المركز القوي في الشام ، من أن يعترض على ذلك ، لأنه كان كفئاً لضبط ولايته وإدارتها مع حبّ الناس له ، فاستغل ملابسات مقتل عثمان ووظَّفها لصالحه محاولاً مساومة علي في البداية ، وابتزازه هذه الولاية بعد ذلك ، والتطاول إلى الخلافة نفسها أخيراً ، ومن هنا نجد موقفه من البيعة لعلي يتردد بين عدة مستويات يبدو أنها تمثل المراحل التي مرَّت بها معارضته قوةً وضعفاً ، فنرى من خلال كتبه إلى علي أنه يتدرج من طلب إقراره على ولاية الشام من غير بيعة ولا طاعة[٢] ، إلى إقراره على ولايتي الشام ومصر[٣] ، إلى اشتراط تسليمه قتلة عثمان ليقتلهم به مقابل البيعة له[٤] ، إلى المطالبة بتسليمه هؤلاء القتلة وترك أمر الخلافة شورى بين المسلمين يختارون من يشاؤون له[٥] ، إلى دعوته إلى التحكيم ، ثم أخيراً إلى الرفض المطلق لبيعة علي أو طاعته بأي حال . وكان معاوية يحاول ، لتحقيق مآربه ودعم مواقفه ، أن يشكك في صحة بيعة الأنصار والمهاجرين لعلي بالخلافة ، فراح يحتج على أن بيعة الأنصار والمهاجرين له باطلة لأنهم كانوا على الحق ففارقوه وبدلوا حين حرَّضوا على قتل عثمان ثم خذلوه[٦] ، وأن بيعتهم لعلي

---

(١) م٠س ، ٤١٥/١
(٢) م٠س ، ٤٧٨/١
(٣) م٠س ، ٣٩٠/١
(٤) م٠س ، ٤٣٨/١
(٥) م٠س ، ٣٩٨/١
(٦) م٠ن .

لا تُلْزِمُهُمْ ، وهم بالشام ، بالطاعة كما كانت بيعات الخلفاء قبله لأنهم بايعوه وهو من دم عثمان غير بريء[1] ، وأنه أكْرَه أعيان المسلمين على البيعة[2] ، ثم يرى أخيراً أن أهل الشام هم الحكّام على الناس بعد أن كان أهل الحجاز هم الحكّام حتى مقتل عثمان بينهم مظلوماً[3] . أي أن معاوية كان في جملة كتبه إلى علي يطعن في صحة خلافته ، ويحاول أن يدخل الريب في نفسه باستخدام هذه الحجج المختلفة التي بنيت على مقدمات سلبية أو خاطئة ، والتي كان الكيد السياسي وراء كل كلمة فيها .

٣ ـ التذكير بسيرة النبي ﷺ والخلفاء الثلاثة بعده :

افتتح معاوية جملة من كتبه إلى علي بالكلام على أُلفَة بني عبد مناف حتى جاء علي ففرَّقهم بحسده لعثمان والتحريض عليه[4] ، وذكَّره بسيرة النبي ﷺ وخلفائه الثلاثة من بعده[5] ، وأن الله تعالى اصطفى محمداً ﷺ لحمل رسالته « فأنقذ به من العَماية ، وهدى به من الغَواية »[6] ، ثم كان الخليفة الأول الذي « جمع الكلمة ولمَّ الدعوة وقاتل أهل الردة ، ثم الخليفة الثاني الذي فتح الفتوح ومصر الأمصار وأذل رقاب المشركين ، ثم الخليفة الثالث المظلوم الذي نشر الملة وطبَّق الآفاق بالكلمة الحنيفية »[7] ، ثم يأخذ في الطعن على علي .

٤ ـ فضائل علي :

كان هذا الموضوع يُكَوِّن نقطة قوة في شخصية علي ونقطة ضعف شديد في

(١) م.ن .
(٢) م.س ، ٤١٥/١
(٣) م.س ، ٣٩٨/١
(٤) م.س ، ٤١٥/١
(٥) م.س ، ٤٣٧/١
(٦) م.س ، ٤٤٤/١ والعَماية : الضلال واللجاجة في الباطل . والغَواية : الضلال والخيبة .
(٧) م.ن .

شخصية معاوية أمام المسلمين الأتقياء خاصة ، والأنصار والمهاجرين وفي عيون جمهور المسلمين على وجه العموم ، فحاول معاوية في بداية أمره التسليم بها كغيره ، إذ كتب إلى علي مرة يقول : « أما شرفك في الإسلام ، وقرابتك من رسول الله ﷺ ، وموضعك من قريش فلست أدفعه »[1] ، إلا أنه حين أحس بأن هذه النقطة المرجِّحة تهدد مركزه في الصراع لأنها تمثل المعايير الإسلامية الموروثة لتقويم الرجال خلال حياة النبي ﷺ وخلفائه الثلاثة الأوائل ، راح يعمل على تطويقها ، وإفسادها ، وطمسها ، وإفراغها من مضمونها القديم ، وإدخال مقاييس جديدة لتقويم الرجال والحكم على منازلهم ، ولتحقيق ذلك لجأ مرة إلى إعادة النظر في فضائله بأن كتب إليه أثناء وقعة صفين يقول : « فدع الحسد ، فإنك طالما لم تنتفع به ، ولا تفسد سابقة جهادك بشِرَّة نخوتك ، فإن الأعمال بخواتيمها ، ولا تمحِّص سابقتك بقتال من لا حقَّ لك في حقه ، فإنك إن تفعل لاتَضُرّ بذلك إلا نفسك ، ولا تَمْحَق إلا عملك ، ولا تُبْطِل إلا حجتك ، ولعمري إن مامضى لك من السابقات لشبيه أن يكون ممحوقاً لِما اجترأت عليه من سفك الدماء وخلاف أهل الحق »[2] . وحاول مرة أخرى أن يلغي هذه المعايير الإسلامية جملة وتفصيلاً وأن يستبدل بها المعايير القبلية القديمة فيرتفع بنفسه إلى درجة المعادلة والمساواة لعلي في الفضل ، فكتب إليه : « إنّا بني عبد مناف لم نزل من قَلِيب واحد ، ونجري في حلبة واحدة ، ليس لبعضنا على بعض فضل ، ولا لقائمنا على قاعدنا فخر ، كلمتنا مؤتلفة ، وأُلْفَتنا جامعة ، ودارنا واحدة ، يجمعنا كرم العرق ، ويحوينا شرف النجار »[3] ، وكتب إليه في صفين يقول :

---

(١) م.س ، ٣٩٨/١

(٢) م.س ، ٤٣٣/١ وفي كتاب آخر في صفين وقد اكتوى بنار الحرب كتب إلى علي يقول : « إني أحذرك أن تحبط عملك وسابقتك بشق عصا هذه الأمة وتفريق جماعتها » ، انظر : م.س ، ٤٧٤/١

(٣) م.س ، ٤١٥/١

« قد والله رقّت الأجناد وذهبت الرجال ، ونحن بنو عبد مناف ، [و]ليس لبعضنا على بعض فضل »[1] . فلما لم تُجْدِ هذه المحاولات نفعاً لإسقاط فضائل علي التي كان يكثر من الاحتجاج بها عليه ، حاول أن يبطلها بالاحتجاج بآية قرآنية وكتب إليه يقول : « فأما مالا تزال تمن به من سابقتك وجهادك ، فإني وجدت الله سبحانه يقول : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاتَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾[2] ، ولو نظرت في حال نفسك لوجدتها أشد الأنفس امتناناً على الله بعملها ، وإذا كان الامتنان على السائل يبطل أجر الصدقة ، فالامتنان على الله يبطل أجر الجهاد »[3] . وحين آنس معاوية في نفسه قوة وفي علي ضعفاً ، راح يكيل الطعن على علي كيلاً ويتهمه بأسوأ الأعمال ويلصق به أحطّ الصفات ، وكأنه رجل من سفلة الناس وشرارهم ، فقد كتب إلى علي يتهمه بقتل طلحة والزبير[4] ، وتشريد عائشة[5] ، والسرور بمقتل عمر[6] ، والعيب على الخلفاء قبله[7] ، والضلال والغي[8] ، والفتنة[9] ، والجبن[10] ، والتقول على لسان النبي ﷺ[11] ، وسفك الدماء[12] ،

---

(١) م.س ، ٤٧٨/١ والواو بين القوسين القائمين زيادة منا لدفع النصب على الاختصاص لما قبلها .

(٢) القرآن ، ١٧/٤٩

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ٤٤٦/١ ـ ٤٤٧

(٤) م.س ، ٤١٣/١ و ٤١٦

(٥) م.ن .

(٦) م.س ، ٤٤٥/١

(٧) م.س ، ٤١٧/١

(٨) م.س ، ٤٢٢/١ و ٤٢٣

(٩) م.س ، ٤٢٢/١

(١٠) م.س ، ٤٢٣/١

(١١) م.س ، ٤٢٤/١

(١٢) م.س ، ٤٧٤/١

وخداع أصحابه[1] ، وتفريق الأمة وشق عصا الجماعة[2] . وقد احتج عليه حين ترك المدينة واتخذ الكوفة قاعدة له بحديث نسبه إلى النبي ﷺ يقول فيه : « إنَّ الْمَدِينَةَ تَنْفي خَبَثَها كما يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ »[3] ، زيادة على ما اتهمه به آنفاً من دم عثمان ، والطمع في الخلافة ، وحسد الخلفاء قبله . وكان قصد معاوية من كل هذه الجلبة أن ينتزع منه ما يتحلّى به من فضائل الإسلام حتى يقلب المعايير الإسلامية القديمة في تقويم الرجال ويغيرها تماماً .

٥ ـ التهديد والوعيد بالحرب :

يروى أن معاوية أجاب علياً لَمّا طلب منه البيعة بكتاب فقال : « من معاوية إلى علي . أما بعد ، فإنه :

لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ قَيْسٍ عِتَابٌ غَيْرُ طَعْنِ الكُلى وَضَرْبِ الرِّقَابِ »[4]

معلناً بذلك الحرب على علي ، ورُوِي أنه كتب إليه يقول : « من معاوية إلى علي : بسم الله الرحمن الرحيم »[5] ، فعرف علي أنه ينوي الحرب ويهدِّد بها . وقد كثر تهديد معاوية لعلي وأصحابه بالحرب في كتبه إليه ، فكتب إليه مرة يقول : « وها أنا سائر إليك في جمع من المهاجرين والأنصار تحفُّهم سيوف شامية ورماح قحطانية حتى يحاكموك إلى الله »[6] .

٦ ـ الشكوى من الحرب والدعوة إلى الصلح والتحكيم :

---

(١) م.س ، ٤٢٤/١

(٢) م.س ، ٤٧٤/١

(٣) م.س ، ٤١٦/١

(٤) م.س ، ٣٨٥/١ و ٤٦٥

(٥) م.س ، ٣٨٦/١

(٦) م.س ، ٤١٧/١ وانظر كذلك ٤١٣/١ و ٤٤٦

لما رأى معاوية أن الحرب قد أكلت من أهل الشام ضعف ماأكلت من أهل العراق فكر بتغيير مجراها ووقفها بطريقة ما ، وراح يكتب إلى علي يشكو له مرارة هذه الحرب ، ومن ذلك قوله في كتاب : « أغمد سيفك عن الناس ، فقد والله أكَلَتْهُمُ الحرب فلم يبقَ منهم إلا كالثَّمْدِ في قرارة الغدير »[1] ، وفي غيره : « إنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك مابلغت لم يجنها بعضنا على بعض ، ولئن كنا غُلِبْنا على عقولنا لقد بقي لنا منها ماننـدم به على مامضى ، ونصلح به مابقي »[2] ، ويبين له في كتاب ثالث عدم جدوى الحرب في حسم الخلاف ويدعوه إلى التحكيم فيقول : « إن هذا الأمر قد طال بيننا وبينك ، وكل واحد منا يرى أنه على الحق فيما يطلب من صاحبه ، ولن يعطي واحد منا الطاعة للآخر ، وقد قتل فيما بيننا بشر كثير ، وأنا أتخوف أن يكون مابقي أشدّ مما مضى ، وإنّا سوف نُسْأل عن هذه المواطن ، ولا يُحاسَب غيري وغيرك ، وقد دعوتك إلى أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة وصلاح للأمة ، وحقن للدماء ، وألفة للدين ، وذهاب للضغائن والفتن : أن نُحَكِّم بيني وبينك حكمين مرضيين ، أحدهما من أصحابي ، والآخر من أصحابك ، فيحكمان بيننا بما أنزل الله ، فهو خير لي ولك ، وأقطع لهذه الفتن ، فَاتَّقِ الله فيما دُعِيتَ إليه ، وارضَ بحُكْمِ القرآن إن كنتَ من أهله »[3] ، ثم أمر معاوية أصحابه برفع المصاحف والدعوة إلى تحكيم كتاب الله في محاولة علنية للضغط على علي ، فتمَّ له ماأراد من حيلة ، وما كان التحكيم ، في حقيقته ، إلا تخلّصاً سياسياً من مأزق الحرب الطاحنة التي تورّط فيها ، ومحاولة لتفتيت صفوف علي ، وهذا ما كان بالفعل .

---

(١) م.س ، ٤٧٤/١ والثَّمْد : الماء القليل .

(٢) م.س ، ٤٧٨/١

(٣) م.س ، ٤٨٢/١ ويحثه في كتاب آخر بأسلوبٍ لَيِّن على الإجابة إلى التحكيم ، انظر : م.س ، ٤٨٣/١ ـ ٤٨٤

جـ ـ من زمرة الخوارج :

وصل إلينا كتاب واحد فقط من هؤلاء الخوارج إلى علي يردُّون فيه على كتاب منه في شرح موقفه من الحكمين ودعوتهم إلى المسير إلى أهل الشام معه ، وقد ركزوا في كتابهم على نقطتين أساسيتين : الأولى الإقرار بالكفر والتوبة ، إذ يقولون : « إنك لم تغضب لربك ، إنما غضبتَ لنفسك ، فإن شهدتَ على نفسك بالكفر ، واستقبلتَ التوبة ، نظرنا فيما بيننا وبينك »[1] . والثانية التهديد بالحرب ، إذ أضافوا إلى ماسبق قائلين : « وإلا فقد نابذناك على سواء ، إن الله لايحب الخائنين »[2] .

٢ ـ إلى عمال علي :

كان جُلّ اهتمام معاوية منصباً قبل صفين وبعدها على ولاية مصر لأنها أخطر ولاية بعد الشام والعراق وذات أهمية لقربها منه وبعدها عن علي ، ولذا فقد كتب إلى واليها الأول بعد تولي علي الخلافة وهو قيس بن سعد الأنصاري ، ثم إلى محمد بن أبي بكر الصديق الذي وليها بعده ، محاولاً كسبها بالترغيب والترهيب . فقد كتب إلى قيس في أول كتاب منه إليه يتهم قومه الأنصار بدم عثمان ، ويذكر له أن ماأخذوه عليه من مآخذ لا يُحِلُّ لهم دمه ، ويتّهم عليّاً بإغراء الناس بعثمان ، ثم يدعو قيساً إلى التوبة من قتل عثمان لأن الدم الذي أراقه قومه يشمله ، ثم يدعوه بعد التوبة إلى أن يعمل معه على الطلب بدم عثمان ، ويغريه أخيراً ، إذا وافقه على ذلك ، بأن يملّكه العراقين : الكوفة والبصرة ، وأن يولي الحجاز لمن شاء من أهله ، مابقي على قيد الحياة[3] ، وقد أحب أن يطعمه

---

(١) م.س ، ٥٠٤/١
(٢) م.ن .
(٣) م.س ، ٥٢٤/١ ـ ٥٢٥

ويستكفي مؤونة حربه بمصر وهو مشغول عنه بأهل العراق ليوفر إراقة الدماء ، ويخذِّل عن علي أوثق الناس عنده ، وبذا تكون هذه الخطوة هي الثانية له في مجال الإغراء بالولاية مدى الحياة طُعْمَة بعد خطوته الأولى مع عمرو بن العاص الذي كان معتزلاً حتى أغراه بمصر طُعْمَة مدى الحياة وضَمَّه إليه .

وفي كتاب معاوية الثاني إلى قيس نجده يلومه على تمويهه في الجواب عن كتابه الأول ويتهدَّده بالحرب إن لم يحدِّد له موقفه النهائي من العرض[1] ، فلما حدد له موقفه برفض هذا العرض وبقائه إلى جانب علي ، كتب إليه معاوية بالكتاب الثالث الذي يشتمه فيه ويقرِّعه ، ثم يسخر منه إذ يذكِّره بمآله إلى العزل إن غَلَب علي ، وإلى القتل إن غَلَب هو[2] .

ولما جاء معاويةَ كتابُ محمد بن أبي بكر حين وَلِيَ مصر ، كتب إليه برد يسخر فيه منه ويحتج عليه ، لأنه أولاً يفخر بفضائل غيره لا بفضائله هو ، ولأنه ثانياً نسي أن أباه كان أول من انتزع حق علي منه ، وأنه هو الذي أصَّل له ذلك ، فإن كان مصيباً فهو مثله على صواب ، وإن كان مخطئاً فهو مثله على الخطأ ، لأنه يعدّ نفسه مقتدياً بفعل أبي بكر ، ولولا ذلك ما فعل ما يفعل الآن مع علي ، ثم إن معاوية يتهم محمداً بالتأليب على عثمان مع علي حتى قتل ، ويهدِّده أخيراً بالقتل ويتوعده[3] . ويمكن أن يستنبط المرء من هذه الرسالة قوة الاحتجاج التي كان معاوية يوظِّفها في السخرية من محمد بن أبي بكر . وقد كتب عمرو بن العاص لما نزل بأدنى أرض مصر إلى محمد كتاباً يأمره بالتنحي عنه بدمه ، ويبيِّن له أنه لا يحبّ أن يصيبه أي أذى منه ، وأن أهل هذه البلاد ندموا على اتباعه وأجمعوا على خلافه وهم له خاذلون ومسلِّمون عند اللقاء ، ويأمره بالخروج من مصر[4] .

---

(١) م.س ، ٥٢٦/١ ـ ٥٢٧

(٢) م.س ، ٥٢٨/١

(٣) م.س ، ٥٤٥/١ ـ ٥٤٦ وانظر ٥٥٦/١

(٤) م.س ، ٥٥٦/١

وبعد أن سقطت مصر التفت معاوية إلى البصرة وما وراءها خلف علي ، وحاول إفسادها عليه ، إلا أنه أخفق في البصرة ، وكان من جملة محاولاته المطردة في ذلك كتابه إلى زياد بن أبيه ، وكان علي قد ولاه فارس ، يخوِّفه الحرب ويتهدَّده ، ويغريه في الوقت نفسه بإلحاقه بنسبه ويذكِّره بمقالة أبي سفيان في ادِّعائه له زمن عمر[1] .

وفي حرب صفين كان عبد الله بن عباس الذراع الايمن لعلي في الرأي والعمل ، فحاول معاوية أن يوقع بينه وبين علي لإضعافه ، فكتب إليه يذكر إجلاب سادة بني هاشم على عثمان وأنصاره حتى قتل ، ومنافستهم بني أمية في السلطان من غير أن ينافسوا من قبل تيماً وعَدِيّاً ، ثم يشكو إليه آثار الحرب في صفين على الطرفين ، ويدعو إلى اكتفاء كلّ طرف بما في يديه : الشام له ، والعراق لعلي ، وإلى الكف عن الحرب إبقاء على الناس[2] ، وذكر له في آخر رسالته قوله يغريه بالخلافة : « وأنت رأس هذا الجمع ، ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنا إليك أسرع منا إلى علي »[3] . وكتب إليه عمرو بن العاص في الموقف نفسه كتاباً يذكِّره بما جنت الحرب على الطرفين ، وبأن الظفر فيها مقرون بالهلاك ، ويبين له كراهة الحرب[4] .

ويستنبط من جملة هذه الرسائل إلى عمال علي وقادته أن معاوية كان يعمد إلى اتهام علي وأصحابه والأنصار بدم عثمان ، ثم يحاول أن يغري هؤلاء العمال بالانضمام إليه وخذلان علي مقابل الولايات والأموال ، فإن لم يفلح في ذلك انقلب عليهم باللوم والتقريع والسخرية والاستهزاء ، ثم عمد إلى التهديد بالحرب

---

(١) م.س ، ٥٨٤/١

(٢) م.س ، ٤٧٠/١ - ٤٧١

(٣) م.س ، ٤٧١/١

(٤) م.س ، ٤٤٦/١ - ٤٤٧

والوعيد بالقتل ، حتى إذا مسته الحرب بنارها وكوته بميسمها راح يضغو من حرّها ويدعو إلى الكف والتتارك وعقد الصلح والتحكيم ، وكانت هذه هي الموضوعات الأساسيةَ في كتبه إلى عمال علي .

٣ - إلى الرعية :

أ - من زمرة طلحة والزبير وعائشة :

ركّزت كتب هذه الزمرة إلى الرعية على اتهام أعدائهم - وقتلة عثمان خاصة - بإشعال نار الفتنة والدعوة إلى الفرقة ومخالفة الأئمة والسعي إلى قتل الخليفة عثمان ظلماً وعدواناً[(١)] ، وتطرقت إلى التهديد بنقمة الله منهم لذلك[(٢)] ، وحرّضت مجموعةً من شخصيات المجتمع وسادته المعروفين آنذاك على الغضب لقتل عثمان ودمه والعمل على الثأر له من القتلة[(٣)] ، وطلبت إليهم النصرة في مسعاهم للأخذ بدم عثمان وتخذيل الناس عن علي ، فقد كتبت عائشة إلى زيد بن صُوحان مثلاً : « إذا أتاك كتابي هذا فاقدم فانصرنا على أمرنا هذا ، فإن لم تفعل فثبّط الناس عن علي »[(٤)] ، وكتبت هذه الزمرة أيضاً إلى أهل الأمصار في الشام والكوفة والمدينة واليمامة وإلى أشخاص بأعيانهم تبين لهم الوضع في البصرة وما حدث بينهم وبين الناس المعارضين لدعواهم تلك ، وكيف حسموا الموقف لصالحهم واستولوا على البصرة وقتلوا فيها قتلة عثمان وطردوا منها عامل علي عثمان بن حُنَيْف الأنصاري ، وسألوهم أن يفعلوا في أمصارهم مثل مافعلوا هم في البصرة[(٥)] ، وقد

---

(١) انظر مثلاً كتاب عائشة إلى الأشتر في : م.س ، ٣٥٨/١

(٢) م.ن .

(٣) وانظر كتب طلحة والزبير إلى رؤساء أهل البصرة : كعب بن سور ، والأحنف بن قيس ، والمنذر بن ربيعة في : م.س ، ٣٥٩/١ - ٣٦٠

(٤) م.س ، ٣٦٦/١

(٥) م.س ، ٣٦٦/١ - ٣٦٧ و ٣٦٧ - ٣٦٨ و ٣٦٨ - ٣٦٩

بيّنوا لهم غايتهم من ذلك بقولهم : « إنا خرجنا لوضع الحرب ، وإقامة كتاب الله عز وجل بإقامة حدوده في الشريف والوضيع والكثير والقليل »[1] . وكتبت عائشة إلى حفصة زوج النبي ﷺ تصف لها موقف علي بذي قار وتقول : « أقام بها مرعوباً خائفاً لما بلغه من عدتنا وجماعتنا ، فهو بمنزلة الأشقر إن تقدَّم نُحِر ، وإن تأخَّر عُقِر »[2] .

ب ـ من زمرة معاوية :

كتب معاوية قبل صفين إلى أهل المدينة كتاباً يتهم فيه علياً بدم عثمان وإيواء قتلته ، ويطلب تسليمه هؤلاء القتلة ، ثم طرح أمر الخلافة شورى بين المسلمين ليختاروا من أحبوا من الرجال لهذه الخلافة ، وحرص في الوقت نفسه على أن يظهر زهده في هذه الخلافة ، وطلب من أهل المدينة أن يمدوا له يد العون بالنصرة في مسعاه[3] . أما بعد صفين وسقوط مصر بيده فقد عمل على إفساد البصرة على علي ، فكتب إلى أهلها مع عبد الله بن عامر الحضرمي الذي تولى هذا الأمر ، يبيّن لهم عظم ذنب سفك الدماء ، ويذكّرهم بمقتل عثمان مظلوماً ، ويحرّضهم على العمل معاً للطلب بدمه ، ثم يغريهم أخيراً بأن يسير فيهم إن ظفر بكتاب الله تعالى ، وأن يعطيهم في السنة عطاءين ، وأن يبقي فيهم فيئهم لا يحمل منه شيئاً[4] ، ونلاحظ في هذين الكتابين تكريراً للموضوعات الأساسية التي كان يعتمدها معاوية في كتبه لكسب نصرة الناس له في مقالته التي يدعو إليها .

---

(١) م.س ، ٣٦٦/١

(٢) م.س ، ٣٧٧/١

(٣) م.س ، ٤٠٢/١

(٤) م.س ، ٥٧٤/١ ـ ٥٧٥

٤ ـ كتب المعارضين فيما بينهم :

أ ـ كتب معاوية :

كان معاوية يعمل ، منذ أن علم بتولّي عليّ الخلافة ، على تأليب الناس عليه وتوسيع نطاق المعارضة له في صفوف الناس من أعلاهم مكانة وشأناً إلى أقلهم خطراً ، وجعل هذا الهم سياسة ثابتة له طوال فترة الصراع مع علي ، واتبع لذلك جميع السبل الممكنة أو المتاحة له آنذاك . وقد وجه كتبه بذلك :

١ ـ إلى طلحة والزبير :

كتب معاوية إلى كل منهما كتاباً منفرداً يذكر فيه فضائل الرجل ومحاسن أخلاقه وشمائله ، ومكانَتَه الرفيعة بين الناس ، ثم يبيّن له ما أصاب الرعية من تفرق ، وما هي مقبلة عليه من سفك دماء وفوضى ، ثم يدعوه إلى لَمِّ الشمل وجمع الكلمة ، ويرشّحه للخلافة هو أو صاحبه على أن يكون الأمر للآخر من بعده ، ويخبره أنه أحكم الأمر لهما على ذلك قبله ، ثم يدعو لهما[1] ، ويروى أنه كتب قبل هذين الكتابين كتاباً إلى الزبير يبايعه فيه بالخلافة وإحكام الأمر له عند أهل الشام على أن يسبق علياً إلى البصرة والكوفة[2] .

٢ ـ إلى عمال عثمان السابقين من بني أمية :

اهتم معاوية باستقطاب رهطه من بني أمية حوله ، ولا سيما أولئك الذين كانوا عمالاً سابقين لعثمان ، فكتب إلى مروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ، والوليد بن عقبة ، ويَعلى بن أمية . وقد دارت كتبه إليهم حول ثلاثة موضوعات أساسية : **الأول** تحريضهم على الطلب بدم عثمان[3] .

---

(١) انظر كتابه إلى الزبير في : م . س ، ٣٣٩/١ ـ ٤٤٠ وإلى طلحة في ٣٣٨/١ ـ ٣٣٩

(٢) م . س ، ٣٣٤/١

(٣) م . س ، ٣٤٢/١ و ٣٤٥ ـ ٣٤٦

والثاني تخويفهم من المستقبل المظلم لبني أمية[1] ، وقد أحسن معاوية توظيف أسلوب التخويف كما أحسن توظيف أسلوب الإغراء من أجل تحريك الهمم واستقطاب الأنصار ، فقد كتب إلى أعلام بني أمية من هؤلاء العمال يذكّرهم بما سيؤول إليه أمر بني أمية من مستقبل مظلم مليء بمنغصات العيش كالفقر والتفرق والذل والتبعية للآخرين والبؤس بعد أن كانت الدنيا في عهد عثمان في أيديهم والناس نبعاً لهم ، وبعد أن كانوا أعزة لا يرقى إلى سلطانهم راقٍ حتى فُتِح عليهم باب النكد بمقتل عثمان . والثالث حضهم على العمل وتحديد أدوارهم فيه[2] ، وقد احتج عليهم بأن عثمان لم يقتل إلا لأنه ولاهم الولايات وأعلى شأنهم ، ولذا فإن دمه أريق بسببهم ، وهم أقرب الناس إليه عصبة وعليهم يقع عبء العمل للطلب بدمه ، وقد زوّدهم معاوية في كتبه بالخطط التي يلتزمونها ، وأهمها : التنسيق مع طلحة والزبير ، وتجسُّس الأخبار ، والعمل في الخفاء بالمكر والحيلة والدهاء . وكان معاوية يؤكد في هذه الكتب على اتخاذ طلحة والزبير واجهة لمعارضة خلافة علي في الحجاز أولاً ، ثم في العراق لإحكام طوق الحصار على قاعدة الخلافة هناك ، ليرتّب الأوضاع كما يشاء خدمة لطموحه إلى الملك .

٣ ـ إلى عموم أنصاره :

لما وفد جرير بن عبد الله بكتاب علي إلى معاوية طالباً البيعة استراثه حتى يرى رأيه ، ثم كتب إلى عمرو بن العاص ليقدم عليه ويذاكره في أمور الوضع الراهن[3] ، ويقصد من ذلك التقوّي بخبرة عمرو بالناس وبمعرفته بواطن الأمور وعواقب الأحداث ، مهما كلفه ذلك من وعود وإغراءات ، لأن مقتل طلحة والزبير وانهيار معارضتهما بهذه السرعة جعله مباشرة في مواجهة علي ، وكان يعلم

---

(١) م . س ، ١/٣٤٢ و ٣٤٣ و ٣٤٤

(٢) م . س ، ١/٣٤١ و ٣٤٢ و ٣٤٣ و ٣٤٣ ـ ٣٤٤ و ٣٤٤ و ٣٤٦

(٣) م . س ، ١/٣٨٨ ـ ٣٨٩

أن سيطرة علي على العراق وما وراءه وعلى الحجاز وعلى مصر في الوقت نفسه تعطيه قوة بشرية ومالية وعمقاً قد لا تستطيع قوته في الشام أن تتصدى لها من الناحية الواقعية ، فكان لابد من اللجوء إلى المكر والحيلة والرأي لترميم هذا التوازن المختل ، فكان إغراء عمرو بمصر طُعْمَة له مدى الحياة يرفع عنه عبئاً ثقيلاً في هذه المواجهة إذ يجعله بمنزلة الشريك والأنيس له في العمل ، وقد عمدا بعد صفين إلى تغذية المعارضة داخل مصر بقوة ، فكتب معاوية مثلاً إلى مَسْلَمَة بن مَخْلَد الأنصاري ومعاوية بن حُدَيْج الكندي ، اللذين كانا قد اعتزلا بمصر للطلب بدم عثمان ، كتاباً يثني فيه على عملها ، ويعدهما بالمثوبة عليه ، ويدعوهما إلى الاستمرار فيه ، ويبشرهما بالمدد الوشيك لدعم موقفهما الراهن[1] . وبعد أن سقطت مصر بيد عمرو كتب عباس بن صُحار العبدي إلى معاوية من البصرة بسروره وسرور أهل البصرة بهذا الفتح ويسأل الله أن يفتح عليه البصرة بأن يبعث إليها أميراً للطَّلَب بدم عثمان ، فكتب معاوية إلى عمرو بمصر يستشيره في ذلك ويبين أثره في علي وأصحابه فيقول : « ومتى يؤتوا من خلفهم وأمامهم يَضِلّ سعيهم ، ويَبْطُلْ كيدهم ، فهذا رأيي ، فما رأيك ؟ »[2] ، وكتب إلى العبدي يقول : « كأنك بالرجل الذي سألت قد أتاك ، وكأنك بالجيش قد أطل عليك فسررت به وحَيِيْتَ »[3] ، وواضح تركيز هذه الكتب على موضوعات : الاستشارة وطلب الرأي ، والمدح ، والثناء ، والإغراء ، والوعد بالمدد ، وتأكيد الطلب بدم عثمان .

ب ـ كتب قواعد المعارضة إلى معاوية :

١ ـ من عمال عثمان السابقين من بني أمية :

---

(١) م . س ، ٥٥٤/١

(٢) م . س ، ٥٧٣/١

(٣) م . س ، ٥٧٦/١

أظهر هؤلاء العمال السابقون ميلاً قوياً إلى مقالة معاوية ومعارضة علي ، لأنهم كانوا أول من تضرر بمقتل عثمان وعزل علي لهم من أعمالهم ، وقد كتبوا إلى معاوية كتباً دارت حول موضوعات محددة : منها طلب النجدة لعثمان ، حين كان محاصراً في داره[١] . ومنها بيان الأوضاع[٢] : كمقتل عثمان وما تلاه من ظروف . ومنها التحريض على الطلب بدم عثمان[٣] . ومنها تقديم معاوية زعيماً للطلب بدم عثمان والتعبير عن امتثالهم لطاعته والعمل بأوامره وتعليماته[٤] . ومنها الطعن في علي[٥] .

٢ ـ من عموم قواعد المعارضة :

بين أيدينا ثلاثة كتب من عامة أنصار معاوية في معارضته تعبّر تعبيراً واضحاً عن توجهات قواعد المعارضة هذه : **الأول** من شُرَحْبِيْلَ بن السِّمْط الكندي سيد أهل الشام بحمص يلوم فيه معاوية على طلب البيعة من الناس بإمرة الشام فحسب ، ويبايعه على الخلافة[٦] ، **والثاني** من مسلمة بن مَخْلَد الأنصاري ومعاوية بن حُدَيْج الكندي المعتزلين بمصر للطلب بدم عثمان ، إذ كتبا إلى معاوية يذكُران قيامها بذلك لوجه الله تعالى وليس طمعاً في سلطان أو جاه ، ويطلبان منه المدد[٧] . **والثالث** من عباس بن صُحار العبدي أحد أعيان البصرة يبدي فيه لمعاوية سروره بسقوط مصر بيده ، ثم يحثّه على بعث أمير من قبله إلى البصرة للبيعة له فيها[٨] .

---

(١) م . س ، ١/٣٣٥ ـ ٣٣٦

(٢) م . س ، ١/٣٣٦ ـ ٣٣٨ و ٣٤٨

(٣) م . س ، ١/٣٣٨ و ٣٤٦ ـ ٣٤٨ و ٣٤٩ ـ ٣٥٠ و ٣٥١

(٤) م . س ، ١/٣٣٨ و ٣٤٧ و ٣٤٨ و ٣٤٨ ـ ٣٤٩ و ٣٤٩ ـ ٣٥٠ و ٣٥١ و ٣٥٢ ـ ٣٥٣

(٥) م . س ، ١/٣٣٨

(٦) م . س ، ١/٤١٢

(٧) م . س ، ١/٥٥٤ ـ ٥٥٥

(٨) م . س ، ١/٥٧٥ ـ ٥٧٦

القسم الرابع ـ كتب القوى المعتزلة

كانت هذه القوى تمثل غالباً في شخصيات اجتماعية بارزة من وجوه الصحابة على وجه الخصوص ، وكانت كتبهم إلى غيرهم على وجه الإجمال ردوداً على ما يصل من القوى المختلفة ، ولا سيما المعارضة منها . وقد ركّزت كتب هؤلاء المعتزلين المحايدين على عدد من الموضوعات : منها تبرئة الأنصار من دم عثمان واتهام معاوية به لخذلانه لما استنصره[(١)] . ومنها لوم طلحة والزبير وعائشة على خروجهم على علي[(٢)] . ومنها بيان فضائل علي ومزاياه ونفي معاوية كلية من الخلافة[(٣)] . ومنها رفض متابعة معاوية على مقالته وبيان موقفهم المحايد[(٤)] . ومنها التبرؤ من التحكيم[(٥)] . ومنها اللوم والتقريع[(٦)] . ومنها الاعتذار[(٧)] .

القسم الخامس ـ كتب الرعية

١ ـ إلى الخليفة :

كانت هذه الكتب غالباً تركز على الإخبار بأحوال الناس والعمال ، فمن ذلك أن أم سَلَمة زوج النّبي ﷺ كتبت إلى علي تخبره بخروج طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة وبمقالتهم التي اتفقوا عليها إذ « يذكرون أن عثمان قتل مظلوماً ، وأنهم يطلبون بدمه »[(٨)] ، وعلقت على ذلك قولها : « ولولا ما نهانا الله عنه من

---

(١) م . س ، ١/٤٠٨ و ٤١٠

(٢) م . س ، ١/٤٠٦

(٣) م . س ، ١/٤٠٥ و ٤٠٦

(٤) م . س ، ١/٤٠٥ و ٤٠٧ ـ ٤٠٨ و ٥٠١ و ٥٠٢

م . س ، ١/٥٠١

(٦) م . س ، ١/٤٩٩

(٧) م . س ، ١/٤٩٩ ـ ٥٠٠ و ٥٠١ ـ ٥٠٢

(٨) م . س ، ١/٣٥٧

الخروج ، وأمرنا به من لزوم البيوت ، لم أدع الخروج إليك ، والنصرة لك ، ولكنني باعثة نحوك ابني ، عِدْل نفسي ، عمر بن أبي سلمة ، فاستوصِ به ياأمير المؤمنين خيراً »[1] . وكتب هاشم بن عُتْبَة من الكوفة إلى علي يخبره بتثبيط أبي موسى الناس عن نصرته[2] . وكتب أبو الأسود الدُّؤلي إلى علي يخبره بأن ابن عباس قد أكل ما تحت يديه من أموال بغير علمه[3] . وكتب عَقِيْل بن أبي طالب إلى علي يخبره بخروج نفر من بني أمية إلى الشام وعلى رأسهم عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، وبما يتحدث به أهل مكة من أخباره بالعراق[4] .

٢ ـ إلى القوى المعارضة :

وكانت تدور غالباً حول النهي عن التورُّط في الفتن التي لا يعلم عواقبها إلا الله ، وأهم موضوعاتها :

أ ـ الوعظ والتثبيط والنهي عن الفتن :

سعت كتب وجوه الناس إلى رؤوس المعارضة إلى تذكيرهم بالله وبعاقبة المضي في الفتنة بين المسلمين ، فكتبت أم سَلَمَة زوج النَّبي ﷺ إلى عائشة تذكرها بمكانتها بين النَّبي وأمته ، وبما أمرها الله من الحجاب والقرار في بيتها ، وقالت : « لوعلم رسول الله ﷺ أن النِّساء يحتملن الجهاد عهد إليك .. إن عمود الدين لا يُثاب بالنساء إن مال ، ولا يُرأب بهنّ إن صَدع »[5] . وكتب الأشتر إليها : « إنك ظعينة رسول الله ﷺ وقد أمرك أن تَقرّي في بيتك ، فإن فعلت فهو خير

(١) م . ن .

(٢) م . س ، ٣٧٣/١

(٣) م . س ، ٥٨٨/١

(٤) م . س ، ٥٩٥/١ ـ ٥٩٦

(٥) م . س ، ٣٥٣/١ ـ ٣٥٦

لك ، وإن أبيت قاتلتك حتى أردك إلى بيتك والموضع الذي يرضاه لك ربك »[1] . وكتب كعب بن سُوْر من أعيان أهل البصرة إلى طلحة والزبير حين دعواه إلى نصرتها فقال : « إن يكن عثمان قتل ظالماً فمالكما وله ، وإن كان قتل مظلوماً فغيركما أولى به ، وإن كان أمره أشكل على من يشهده فهو على من غاب عنه أشكل »[2] ، وهذا الرّد يعني من طرف خفي أن سعيهما في أمر عثمان باطل من كل الوجوه ، وأنه يأبى نصرتها في أمر لا وجه له . وكتب إليهما الأحنف بن قيس يقول : « إنه لم يأتنا من قبلكم أمر نشك فيه إلا قتل عثمان »[3] ، وهذا التشكيك في صحة دعوتها كان يثبط من عزمهما في الأمر ، وكتب إليهما المنذر بن ربيعة يقول في عثمان : « قد كان بين أظهركم فخذلتموه ، فمتى استنبطتم هذا العلم ، وبدا لكم هذا الرأي ؟ »[4] ، ويعد هذا السؤال التشكيكي ، كما نرى ، رداً عليهما برفض الضلوع في أمرهما . وكتب زيد بن صُوحان إلى عائشة رداً على كتاب منها فقال إن الله « أمرك أن تَقَرّي في بيتك ، وأمرنا أن نقاتل الناس حتى لا تكون فتنة ، فتركت ماأُمِرْتِ به ، وكتبت تنهيننا عما أُمِرْنا به ، فأمرك غير مُطاع ، وكتابك غير مُجاب »[5] ، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق عزّ وجلّ .

ب ـ التقريع والاتهام :

ردَّ الْمِسْوَر بن مَخْرَمة عن أهل المدينة على كتاب جاءهم من معاوية يطلب فيه معونتهم في الطلب بدم عثمان ، فقال : « إنك أخطأت خطأً عظيماً ، وأخطأت مواضع النصرة ، وتناولتها من مكان بعيد ، وما أنت والخلافة

(١) م . س ، ٣٥٨/١

(٢) م . س ، ٣٦٠/١

(٣) م . ن .

(٤) م . س ، ٣٦١/١

(٥) م . س ، ٣٦٢/١

يامعاوية ، وأنت طليق وأبوك من الأحزاب ؟ فكفّ عنا فليس لك قبلنا وليّ ولا نصير »[1] ، وهذا الرّد يبين لنا اعتقاد أهل المدينة بمعاوية مدعَّماً بالحجة ، وهو دعم قوي لموقف علي منهم ، لأن لرأي أهل المدينة من المهاجرين والأنصار وتابعيهم ثقلاً مرجحاً في تقويم منازل الرجال في المجتمع ، ولا سيا الذين يتصدون منهم للمسؤولية الأولى فيه .

جـ ـ الدعوة إلى الرجوع عن معاوية :

لما عجز مصقلة بن هبيرة الشيباني عن دفع الثمن الكامل لرقيق بني ناجية إلى علي ، لحق بمعاوية خوفاً من العقاب ، فكتب إليه قومه يدعونه إلى الرجوع إلى علي ومفارقة معاوية ويقولون : « قد علمنا أنك لم تلحق بمعاوية رضى بدينه ، ولا رغبة في دنياه . وإن أقرب ماتكون مع الله أبعدُ ماتكون مع معاوية ، فارجع إلى مصرك ، فقد اغتفر لك أمير المؤمنين الذنب واحتمل الثقل »[2] ، ونتوقع أن تكون هذه الدعوة أحد الموضوعات الشائعة في رسائل تلك الفترة نظراً لانتقال كثير من الأفراد من طرف إلى آخر ، وخصوصاً من صفوف علي إلى صفوف معاوية ، لسبب أو لآخر .

وخلاصة القول في موضوعات الترسل في خلافة علي أنها صورة دقيقة جداً لحياة العصر السياسية والإدارية والحربية والاجتماعية والفكرية بما كان فيها من فتن وانقسامات في الرأي والقول والعمل ، وهي تصوِّر لنا بكل أمانة أهواء الناس وعواطفهم وطرق تفكيرهم في مجريات الأحداث من حولهم ، ولا سيا أولئك الذين كانوا يُعَدُّون من قادة الرأي وصُنّاع الأحداث في فترتهم . ولا شك في أن هذه الرسائل ـ من جانب آخر ـ تُعَدّ وثائق تاريخية هامة لا غنى لمؤرخ تلك الفترة عن الاستشهاد بها والرجوع إليها لتحليل حقائق الأمور وأسرار الأحداث ،

---

(١) م . س ، ٤٠٢/١

(٢) م . س ، ٥٢٠/١ ـ ٥٢١

ومن هنا تتبين لنا قيمتها التاريخية ، إلا أن لهذه الرسائل أيضاً قيمة أدبية لا تقل أهمية عن القيمة الأولى ، لأن نصوص هذه الرسائل تُعَدّ الوثائق الأدق تصويراً والأكثر تمثيلاً للمستوى الذي كان عليه النثر الفني في تلك الفترة أيضاً . وإن تحليل هذه النصوص ليكشف لنا أساليب قادة الرأي آنذاك في كتابتهم وطريقة تعبيرهم عن أفكارهم وآرائهم ، وهذا كله يعطينا فكرة أكثر أمانة عن حقيقة النثر وعن إمكانياته التي كان يتحلّى بها ، ويكشف لنا هذا التحليل أيضاً عن جذور الظواهر الفنية التي ستزدهر فيا بعد على أيدي الكُتّاب المتخصصين بفن الكتابة النثرية في العصر الأموي عامة ، وفي الثلث الأول من القرن الثاني للهجرة خاصة . وإن معرفة هذه الجذور وتلك الأساليب قد تغيِّر كثيراً من الآراء الشائعة بين الباحثين عن حقيقة النثر الفني وتطوره في الفترة الممتدة من الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي .



الباب الثالث

الخصائص الفنية للترسُّل في صدر الإسلام



الفصل الأول

في المنهج

يعدّ هذا المنهج العلامة المميزة للنصوص النثرية الداخلة في باب أدب الترسُّل ، وهو بهذا يضع حدوداً فاصلة وواضحة لهذا النوع الأدبي النثري ، ويتيح له أن يكتسب شخصية ذاتية مستقلة في ميدان النثر الفني ، وهو في الوقت نفسه يبين لنا الفارق التطوري للشكلين النثريين الآخرين اللذين انبثقا منه وتطورا عنه في الأصل ، وهما : (التوقيعات) و (الرسائل الأدبية) .

وينبغي أن نشير هنا إلى أن دراستنا لهذا المنهج تتناول الصورة المثالية أو النموذجية التي أخذها في فترة صدر الإسلام ، أو التي كُتِب لها أن تتطور وتتنامى وتَنْضَج في صيغتها النهائية في تلك الفترة ، مع العلم أن هذا المنهج قد استمد بعض تقاليده مما كان في العصر الجاهلي من رسائل نثرية مكتوبة لم يصل إلينا منها إلا بقايا ذكريات ، أو مما كان الشعر الجاهلي قد أصَّلَه في صيغ الرسائل الشعرية التي وقفنا عليها وتحدثنا عن منهجها في بحث آخر[1] .

وأول مانلاحظ من تطور في منهج الرسالة في صدر الإسلام ذلك الطابع الإسلامي الذي اقتضته ظروف الدين الجديد ودخوله في آفاق التفكير العربي دخولاً عميقاً حتى أثَّر في جميع مجالات القول تَبَعاً لقابلية كلٍّ منها لمثل هذا التأثير . ولا شك في أن صورة المنهج المثالية لم تكن تتبع بحذافيرها دائماً ، فكان هذا العنصر أو ذاك ينقص أحياناً ، أو تُطَوَّر صيغته ، أو يُقَدَّم ويؤخَّر ، بحسب

(١) انظر كتابنا : مدخل إلى أدب الترسل عند العرب ، ص ٢٣٤ ـ ٢٤٩

مُقْتَضى الحال أو محتوى الرسالـة أو الموقف بين المتراسلين ، وحـالاتُ التغيير هـذه طبيعية جـداً ، إلا أن التوجُّـه العـام في رسـائل الفترة كان يحـاول دائمـاً الاقتـداء بالصورة المثالية الراسخة لمنهج الرسالة .

وقـد ذهب د . حسين نصـار إلى أن مـاتبعــه النَّبي ﷺ من نُظَم في أوائـل الرسائل وخواتيمها « إنْ هِيَ إلا أمور اقتضتهـا الـدعوة التي يبشِّر بهـا ، فلمـا جـاء خلفاؤه ساروا على منوالـه ولم يُخِلُّوا بِنُظُمِـه ، وهنـا نستطيع أن نقول : إنَّ هـذه النُّظُم أصبحت تقاليد مرعية .. إذ إنّ الخلفاء كانوا يتّبعونها اتّباعاً دينياً لاأدبيـاً ، فهم يعتبرونها سُنَّة من الرَّسول ﷺ »[1] ، ثم يؤكـد ثـانيـة أنهـا « تقـاليـد دينيـة لاتقاليد أدبية يمكن أن نعتبرها تقاليد فنية »[2] ، ولا شك في أن هـذا الرأي يعـدّ تأكيداً على أن الإسلام قد صبغ منهج الرسائل منذ البداية بطـابعـه الخـاص ، غير أن هـذا لا يعني أن تقـاليـد هـذا المنهج كانت دينيـة محضـة وذات حرمـة لا يجـوز المساس بهـا كما ذكر د . نصـار ، لأنهـا سرعـان مـا تحولت إلى تقـاليـد أدبيـة فنيـة أصـابتهـا عبر العصـور الأدبيـة التـاليــة تطـورات زادت فيهـا أو أنقصت منهـا أو غيَّرتها ، مع الاحتفاظ دائماً ببنية أساسية جوهرية من هذه التقاليـد ، وهكـذا يتضح لنا أن هذه التقاليد ـ التي اسْتُمِدَّت أصولها من تقـاليـد الرسـالـة النثريـة عامة ، والشعرية على وجه الخصوص في الجـاهليـة ، ثم طورتهـا وأضـافت إليهـا ـ خضعت للأمر نفســه في العصـور التي تلت صـدر الإسـلام بـلا ريب ، ولـذا قـال ابن عبد الغفور في الاستفتاح مثلاً : « وَجَدْتُـه يختلف بـاختلاف الأزمـان »[3] ، وقد أكّـد فكرة التغيير هـذه ابن سنـان حين قـال : « إنَّ الـذي يُسْتَعْمَل اليوم في الكتب غيرُ ما كان يُسْتَعْمَل في زمن أبي إسحاق الصـابئ ، مع قرب زمـانـه منـا ،

---

(١) انظر كتابه : نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ، ص ٥٩

(٢) م . ن .

(٣) انظر كتابه : إحكام صنعة الكلام ، ص ٥٥

وإذا كان الأمر على هذا جارياً فليس يصحّ لنا أن نضع رسوماً نوجب اقتفاءها ، لأنّا نحن في هذا الزمان قد غيَّرنا الرسم المتقدم لمن قبلنا ، وكذلك ربما جرى الأمر فيا بعدنا »[1] ، وكان تَتَبُّع أصول منهج الترسل وتطوره حتى أوائل القرن التاسع الهجري قد شَغَل حيِّزاً هاماً من جهود القلقشندي (م ٨٢١ هـ) في كتابه « صبح الأعشى » .

١ ـ عناصر المنهج :

أ ـ البسملة :

كان الجاهليون يفتتحون كتبهم بصيغة البسملة الجاهلية المعروفة وهي « باسمك اللهم »[2] ، ويروى أن أمية بن أبي الصلت كان أول من كتب بها[3] ، ولها عنده قصة أقرب إلى الخيال[4] ، ونرجح أن تكون هذه البسملة جاهلية قديمة لاصلة لأمية باختراعها ، لأنها تمثل في حقيقة الأمر ماتبقى من آثار الحنيفية في جزيرة العرب ، وقد سار النّبي ﷺ بعد البعثة زمناً في مراسلاته على هذه الصيغة القديمة[5] ، يكتبها في أول كتبه كما كانت قريش تفعل[6] ، ثم إنه تدرج في كتابتها كما يروي القدماء بحسب ما كان الوحي ينزل عليه به من صيغ البسملة : فكتب مثلاً صيغة « بسم الله »[7] ، لما نزل عليه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا

(١) انظر كتابه : سرّ الفصاحة ، ص ٣٠٢

(٢) إحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور ، ص ٥٥

(٣) صبح الأعشى ، ٤٢٢/١

(٤) م . س ، ٢١٧/٦ ـ ٢١٩

(٥) الوزراء والكُتّاب للجهشياري ، ص ١٤ وكتاب الكُتّاب لابن درستويه ، ص ١٢٩ وصبح الأعشى ، ٤٢٢/١

(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٢٦٣/١ وإحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور ، ص ٥٥ وصبح الأعشى ، ٤٢٢/١ و ٢١٩/٦

(٧) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٢٦٤/١ والوزراء والكُتّاب للجهشياري ، ص ١٤ وإحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور ، ص ٥٥ وصبح الأعشى ، ٢١٩/٦

فِيْها بِسْمِ اللهِ مَجْراها وَمُرْسَاها ﴾[١] ، ثم كتب صيغة « بسم الله الرحمن »[٢] ، لما نزل عليه قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللهَ أوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ ﴾[٣] ، ثم كتب صيغة « بسم الله الرحمن الرحيم »[٤] كاملة ، لما نزل عليه قوله تعالى : ﴿ إنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيْمِ ﴾[٥] ، فكان النَّبي سليمان أول من كتب بها من الناحية التاريخية بحسب نص هذه الآية[٦] ، وكان النَّبي ﷺ ثاني من جدَّدها وكتب بها في كتبه[٧] . وقد ظل المشركون يُصِرُّون على كتابة البسملة بالصيغة الجاهلية حتى عام الفتح ودخولهم في الإسلام ، ففي وقعة الخندق كتب أبو سفيان إلى النَّبي ﷺ كتاباً مفتتحاً بها يتهدده فيه[٨] ، وفي صلح الحديبية أبى سُهَيْل بن عمرو أن يكتب في أول العقد « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فكتب له النَّبي ﷺ « باسمك اللهم »[٩] . وروي عن النَّبي ﷺ بعض الأحاديث التي تبيِّن بركة الاستفتاح بالبسملة ، كقوله : (كُلُّ أمْرٍ ذِي بالٍ لا يُبْدأُ فِيْهِ بِـ« بِسْمِ اللهِ

---

(١) القرآن ، ١١/من الآية ٤١

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٢٦٤/١ والوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٤ وكتاب الكتاب لابن درستويه ، ص ١٢٩ وإحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور ، ص ٥٥ وصبح الأعشى ، ٢١٩/٦

(٣) القرآن ، ١٧/من الآية ١١٠

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٢٦٤/١ والوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٤ وكتاب الكتاب لابن درستويه ، ص ١٢٩ وإحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور ، ص ٥٥ وصبح الأعشى ، ٢١٩/٦

(٥) القرآن ، ٣٠/٢٧

(٦) كتاب الكتاب لابن درستويه ، ص ١٢٩ وصبح الأعشى ، ٤٢٢/١ وكان الكتاب موجهاً إلى بلقيس ملكة سبأ ، وكان الهُدْهُد هو البريد إليها .

(٧) صبح الأعشى ، ٤٢٢/١

(٨) النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم للمقريزي ، ص ٢٨

(٩) السيرة النبوية لابن هشام ، ٣١٧/٢ وتاريخ اليعقوبي ، ٥٤/٢ وصبح الأعشى ، ٤/١٤ ـ ٥

الرَّحْمنِ الرَّحِيْم » فَهْوَ أَقْطَعُ)[1] ، حتى إنه نُسِب إلى أبي هريرة أن النَّبي ﷺ نهى أن يُكْتَب في سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » غيرها[2] ، مع أن صور نسخ كتب النَّبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى والمقوقس والنجاشي ، التي ذُكِر أنها وصلت إلينا ، تُظْهِر بوضوح الكتابة إلى جانبها في السطر نفسه[3] ، ونُسِب إلى النَّبي ﷺ أيضاً قوله : (« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيْم » تِيْجانُ الكُتُبِ)[4] . وقد ذكر ابن درستويه (م ٣٤٧ هـ) أن الأمر قد استقر على « افتتاح الكتب بها إلى اليوم »[5] ، غير أن الصولي (م ٣٣٥ هـ) المعاصر له تقريباً كتب يقول : « وكانوا يكتبون في العنوان (بسم الله الرحمن الرحيم) .. ثم تُرِك »[6] ، ويبدو أن بعض الكُتّاب كان على مذهب الأول وبعضهم على مذهب الثاني في القرن الرابع ، أو أن بعض الموضوعات لم تكن تُسْتَفْتَح بالبسملة لما فيها من معنى الرحمة الذي قد يُناقِض ما يُكْتَب فيها أحياناً من شدة ، ونرجح أن يكون ترك البسملة لهذا السبب متّبعاً حتى في فترة صدر الإسلام التي نتحدث عنها هنا ، إلا أن القاعدة الثابتة كانت الاستفتاح بها . ومن الواضح أن أول ما يُبْدأ به في الكتاب من داخله ـ إذا استثنينا ماقد يُكْتَب عليه من الخارج من عنوان ـ هذه البسملة ، وإنْ ذَكَر ابن شيث القرشي (من القرن السادس الهجري) أن مكان الترجمة ، يعني العنوان ، قبل البسملة[7] ، اقتداء بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ

---

(١) صبح الأعشى ، ٢٢٠/٦

(٢) م . س ، ٢٢٤/٦ وقد اعتاد المتأخرون على وضع الأحاديث في فضائل الكتابة وأدواتها وما أشبه ذلك .

(٣) انظر : مصوّر الخط العربي لناجي زين الدين ، ص ٣١٨ (الأشكال ٩٦ و ٩٧ و ٩٨) .

(٤) كتاب الكتاب لابن درستويه ، ص ١٢٩

(٥) م . ن .

(٦) انظر كتابه : أدب الكتاب ، ص ١٤٤

(٧) انظر كتابه : معالم الكتابة ومغانم الإصابة ، ص ٣٢

اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيْمِ ﴾[1] ، إلا أن بعض المفسرين يرى أن قوله تعالى : ﴿ إنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ ﴾ إنما هو حكاية على لسان بلقيس ، أو أنه - كما يبدو لنا - قراءتها العنوان على ظاهر الكتاب .

ب - العنوان :

العنوان في اللغة هو (العلامة)[2] ، وقد أطلق على ما يبين الكتاب « ممن هو وإلى من هو »[3] ، وهو باختصار ذكر اسم الْمُرْسِل واسم الْمُرْسَل إليه في مطلع الرسالة بعد البسملة من الداخل ، وإن كانت الرسالة مما يغلق ويختم أثبت هذا العنوان أيضاً من الخارج لئلا تختلط الرسائل ، وقد ذكر ابن عبد الغفور أن العنوان « يختلف باختلاف الأزمان »[4] ، ويهمنا هنا أن نستعرض فقط ما كان عليه هذا العنوان في الجاهلية ، ثم ما دخل عليه من تطور في صدر الإسلام .

يروى أن أول أمر العنوان كان بذكر اسم الْمُرْسِل وحده ، وقد استدلوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ إنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ﴾[5] ، وتكون صيغته (من فلان) ، غير أنه لا يمكننا الأخذ بهذا الرأي ، لأنه تعالى أشار في الآيات السابقات إلى من كتبت إليه الرسالة ، فكان من الفضول القول : إلى ملكة سبأ ، وذُكِر اسم الْمُرْسِل قراءة على لسان بلقيس ليعلم قومها ممن الكتاب ، وهي وهم يعلمون أنه إليها فلم يكن هناك داعٍ لذكر اسم الْمُرْسَل إليه ، وهكذا لا يستقيم هذا الاستدلال المذكور

---

(١) القرآن ، ٢٧/٣٠

(٢) أدب الكتاب للصولي ، ص ١٤٣ وذكر ابن عبد الغفور في كتابه : إحكام صنعة الكلام ، ص ٥١ أن أصل العنوان « ما دلّ على الشيء » .

(٣) أدب الكتاب للصولي ، ص ١٤٣ وانظر كذلك : إحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور ، ص ٥٢ و ٥٣

(٤) انظر كتابه : إحكام صنعة الكلام ، ص ٥٣

(٥) القرآن ، ٢٧/من الآية ٣٠

آنفاً . ولما كان العرب قد شغلوا حيِّزاً من تفكيرهم بقضية الأوائل في كل مجال ، فقد ذكر أبو هلال العسكري أن أول من كتب « من فلان إلى فلان » قُسّ بن ساعدة الإيادي ، وأقرّه النَّبي ﷺ في مكاتباته[1] . وهذه أبسط صيغة قويمة للعنوان ، وحتى الملوك كانوا يكتبون بها في الجاهلية ، فكان عنوان رسالة عمرو بن هند ملك الحيرة إلى عامله بالبحرين مع الْمُتَلَمِّس كالتالي : « باسمك اللهم . من عمرو بن هند إلى الْمُكَعْبَر »[2] ، وواضح أن صيغة العنوان هذه تركز على أن يكون الطرف الْمُرْسِل والطرف الْمُرْسَل إليه مَعْرُوفَيْنِ بكل وضوح فيه لئلا يقع أي لَبْس ، وأكثر ما كان ذلك يتم بذكر اسم المرسِل واسم أبيه ، وذكر اسم المرسَل إليه واسم أبيه ، ويمكن أن يَحُلّ مَحَلّ كلٍّ منهما أي صيغة أخرى للاسم تكون واضحة في دلالتها على الطرفين .

وكان الوضع الطبيعي في صيغة العنوان أن يبدأ الكاتب أو المرسِل باسمه ثم يثنّي بكتابة اسم المرسَل إليه ، ويبدو أن ذلك كان هو التقليد الغالب في الجاهلية ، لأن (مِنْ) تدلّ عادة على ابتداء الغايات ، و (إلى) تدل على انتهائها ، ولأن العرب لم يكونوا يأبهون لأي عظيم ولا يعرفون أساليب التفخيم والتبجيل التي كانت معروفة عند الأمم الأخرى ، وقد صرح بذلك ابن شيث إذ يقول إن الناس آنذاك كانوا « لا يعرفون التصنع في المكاتبات ، ولا التملق في المخاطبات ، بل يتخاطبون أكفاء في المخاطبة »[3] ، على مقتضى البساطة بينهم والمساواة في الخطاب . إلا أن ظهور الكتب بين النَّبي ﷺ وأصحابه واطِّرادها دفع بمعظم الصحابة الذين يكتبون إلى النَّبي ﷺ إلى أن يبدؤوا باسمه ﷺ ولقبه تعظيماً له وتأدباً معه في الخطاب ، ويبدأ اسم المقدَّم في هذه الحالة باللام ، كما جاء

---

(١) انظر كتابه : الأوائل ، ٨٨/١ وانظر : صبح الأعشى ، ٤٢٢/١ و ٣٢٧/٦

(٢) جمهرة رسائل العرب ، ٥/١

(٣) انظر كتابه : معالم الكتابة ومغانم الإصابة ، ص ٣٢

في كتاب خالد بن الوليد إلى النَّبي ﷺ : « لمحمد النَّبي رسول الله من خالد بن الوليد »[١] ، وقد جرى ذلك فيما بعد مجرى التقليد[٢] . وقد نقل الصولي عن بعض الكُتّاب قوله : « (اللام) لمخاطبة الجليل ، و (إلى) لمخاطبة الأدنى ، فالأجل يكتب : من فلان بن فلان إلى فلان بن فلان ، والنظراء ومن دون(ـهم)[٣] يكتبون : لأبي فلان من فلان »[٤] ، وحقيقة (اللام) أنها مقامة مقام (إلى) بسبب التقديم[٥] . أما كتب النَّبي ﷺ إلى أصحابه وإلى الملوك والأمراء فكانت تبدأ باسمه ، وكان ﷺ يكتب مع اسمه لقبه دائماً ، وأحياناً يقرنه بصفة العبودية لله ، وكان يذكر لقب المرسَل إليه أو صفته في قومه ، ومن ذلك قوله : « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله إلى الْمُنْذِرِ بْن ساوى »[٦] ، و « مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إلى الْمُقَوْقِسِ عَظِيْمِ القِبْطِ »[٧] ، و « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إلى النَّجاشِيِّ عَظِيْمِ الْحَبَشَةِ »[٨] ، و « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله إلى كِسْرَى أَبْرَوِيْزَ عَظِيْمِ فارِسَ »[٩] .

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٣١ وانظر : صبح الأعشى ، ٤٦٥/٦

(٢) قال القلقشندي في كتابه : صبح الأعشى ، ٤٦٤/٦ « كانت أمراء سراياه ﷺ ومن أسلم من الملوك تفتتح المكاتبة إليه ﷺ باسمه ﷺ ، ويثنون بأنفسهم » .

(٣) زدنا الضمير هنا لإقامة الكلام .

(٤) انظر كتابه : أدب الكتاب ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦

(٥) م . س ، ص ١٤٥ وقد تُثْبَت (إلى) كما هي مع هذا التقديم ، وقد وقف القلقشندي عند قضية التقديم والتأخير وقفة حاول فيها تفسير السُّنّة الطبيعية للعنوان ، ثم ما اصْطُلِح عليه فيه من هذا التقديم والتأخير للتفريق بين رتب المتكاتبين إعظاماً وإجلالاً ، انظر كتابه : صبح الأعشى ، ٣٥٠/٦ ومثل ذلك في : كتاب الكُتّاب لابن درستويه ، ص ١٥٩

(٦) مصوَّر الخط العربي لناجي زين الدين ، ص ٣١٨ (الشكل ٩٦) .

(٧) م . ن . (الشكل ٩٧) .

(٨) م . ن . (الشكل ٩٨) .

(٩) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، ص ١٦١ وصبح الأعشى ، ٢٩٦/٦

وكان أبو بكر يُتْبِع اسمه بصفة الخلافة لرسول الله ﷺ ، فيكتب : « من عبد الله بن عثمان خليفة رسول الله ﷺ إلى فلان .. »[1] وأحياناً كان يكتب بلقب الخلافة وحدها : « من خليفة رسول الله ﷺ إلى فلان »[2] ، وذلك لدلالته المجردة في زمنه عليه وحده دون غيره عند الإطلاق .

فلما تولى عمر الخلافة كان يكتب : « من عمر بن الخطاب خليفة خليفة رسول الله ﷺ إلى فلان .. »[3] ، ثم أضاف قبل اسمه صفة العبودية لله تعالى فكتب : « من عبد الله عمر .. » ، فكان أول من كتب بها من الخلفاء[4] ، ثم استبدل لقب إمرة المؤمنين بلقب (خليفة خليفة رسول الله) دفعاً للطول والاستثقال ، فكان أول من كتب : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى فلان .. »[5] ، وكانت الكتب ترد إليه في الغالب بصيغة : « لعبد الله عمر أمير المؤمنين من فلان .. »[6] ، إذ أصبح هذا التقديم لاسم الخليفة ، من الرعية وممن هم أدنى مرتبة منه ، واجباً مرعياً يدل على التعظيم ، وعلى ذلك جرت عناوين الكتب بعده .

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣١٣ وانظر : صبح الأعشى ، ٢٨٣/١

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٢٥

(٣) صبح الأعشى ، ٣٢٨/٦ و ٢٨٦

(٤) أدب الكُتّاب للصولي ، ص ١٤٤

(٥) انظر : م.س ، ٣٢٨/٦ و ٣٤٩ ـ ٣٥٠ و ٢٨٦ . وتُروى حول نشأة هذا اللقب عدة قِصص ، انظر مثلاً : أدب الكُتّاب للصولي ، ص ١٤٤ وتاريخ اليعقوبي ، ١٥٠/٢ (يعيد بدء استعماله إلى سنة ١٨ هـ ، وهذا مستبعد جداً) . والاستيعاب ، ص ١١٥٠ « ذكر أن عمر تنبه على ثقل لقب (خليفة خليفة رسول الله) في الاستعمال ، حتى ذَكَر له المغيرة بن شعبة لقب (أمير المؤمنين) وفسَّره له » ، وانظر أيضاً : الاستيعاب ، ص ١١٥١ ومروج الذهب للمسعودي ، ٣١٣/٢ . غير أن بعض المصادر تثبت صيغة العنوان هذه كاملة في كتابه الأول بعد توليه إلى أبي عبيدة يخبره بوفاة أبي بكر (انظر : جمهرة رسائل العرب ، ١٥٧/١) وهذا أمر مستبعد في هذا الوقت المبكر .

(٦) صبح الأعشى ، ٤٧٧/٦

جـ ـ السلام (أو التحية) :

كان استفتاح الكلام في الرسائل بالسلام بمنزلة الاستفتاح به عند اللقاء ، لأنه أول ما يُبْدأ به من كلام عند المخاطبة بين الناس عادة . وقد رُوِي عن النبي ﷺ قوله في بعض حديثه : « أيُّها النّاسُ ، أفْشُوا السَّلامَ ، وأطْعِمُوا الطَّعامَ .. »[1] ، وأمر الله تعالى برد التحية فقال : ﴿ وَإذا حُيِّيْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أوْ رُدُّوها ﴾[2] ، وفسر القلقشندي استعمال السلام بقوله : « لأنه تحية الإسلام المطلوبة لتأليف القلوب »[3] ، ويرى أنه كما يفتتح به الكلام لذلك تفتتح به أيضاً المكاتبات[4] ، والموضع الطبيعي لهذه التحية في الرسائل يأتي عند الفراغ من العنوان وبدء التوجه إلى المكتوب إليه بالخطاب . وصيغته المألوفة في رسائل هذه الفترة هي : « سلام عليك » للمفرد ، و « سلام عليكم » للجمع . وقد يرد بصيغة : « سلام الله عليك » ، وقد تدخل لام التعريف على الكلمة فيقال : « السلام عليك » . وقد رَوى ابن منظور أنه « كانت العرب في الجاهلية يُحَيُّون بأن يقول أحدهم لصاحبه : (أنْعِمْ صباحاً ، وأبيتَ اللعن) ، ويقولون : (سلام عليكم) ، فكأنه علامة المسالمة وأنه لا حرب هنالك ، ثم جاء الله بالإسلام فقَصِروا على السلام وأمروا بإفشائه »[5] . ومعنى السلام : السلامة من جميع الآفات[6] ، أو هو دعاء للإنسان بأن يسلم من الآفات في دينه ونفسه أو يتخلص منها[7] .

ولما كان السلام يَحْمِل إلى المكتوب إليه معنى السلامة ، والأمن من الحرب ،

---

(١) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، ص ٢٦٧

(٢) القرآن ، ٤ / من الآية ٨٦

(٣) انظر كتابه : صبح الأعشى ، ٢٢٩/٦

(٤) م.ن .

(٥) لسان العرب : مادة (سلم) ، ٢٨٩/١٢

(٦) م.س ، ٢٩٠/١٢

(٧) م.س ، ٢٩١/١٢

والعافية ، فقد دخل في باب الرحمة ، ولـذا فقـد كانت كتب النبي ﷺ والمسلمين إلى أهل الحرب أو إلى من يدعونهم إلى الإسلام ، أو إلى مخالفيهم والخارجين عليهم من أصحـاب العقـائـد والمـذاهب ، أو إلى من يتوقعـون منـه الخـلاف أو إلى غير المسلمين عامة ، خالية من الصيغة المتقدمة التي كانت مألوفة بين المسلمين وحـدهم ، ولذلك استعملت صيغة أخرى في خطاب أولئك فيها نوع من الشرط لوقوع هـذا السلام ، وهو اتبـاع الهـدى ، أي الإسلام والحق المبين ، ونص هـذه الصيغـة هو : « سلام على من اتبع الهدى » ، وقـد وردت هـذه الصيغـة في كتب النبي ﷺ إلى كل من النجاشي وهرقل والمقوقس وكسرى[1] ، وكتب بها إلى الحـارث بن أبي شَمِر الغسـاني والمنـذر بن سـاوى ومسيلمـة الكـذاب وجَيْفَرٍ وعَبْدٍ ابني الْجُلَنْـدى[2] ، وكتب بهـا خـالـد بن الوليـد ، مثلاً ، أثنـاء عمليـات الفتح في العراق إلى رؤسـاء الفرس آنذاك[3] ، وهذه الصيغة مستمـدة في الأصل من القول الـذي أمر الله تعـالى موسى وهارون بأن يقولاه لفرعون ، وهو ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِـآيَـةٍ مِنْ رَبِّـكَ والسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى ﴾[4] . ومثل هذه التحية فيها شيء من الخشونـة والشـدة التي تُتَوَخَّى مع أهل الحرب أو المخالفين ، وهذا ما ذهب إليه ابن عبد الغفور حين قـال في هـؤلاء إن من الـواجب « أن يُتْرَكَ تبجيلهم ، ويُتَجَنَّب ترفيعهم وتـأهيلهم ، وأن يُنْظَروا بعين الاحتقار ، ويُعْتَمَدوا بالذلة والصَّغار »[5] .

د ـ التحميد :

وحمد الله تعالى نوع من أنواع الشكر لـه على مـا أنعم بـه على النـاس من نعم

---

(١) انظر هذه الكتب على التوالي في : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٧٧ و ٨١ و ١٠٦ و ١١٠

(٢) انظر هذه الكتب أيضاً على التوالي في : م.س ، ٩٧ و ١١٣ و ١٢٨ و ٢٥٧

(٣) م.س ، ص ٣٢٠

(٤) القرآن ، ٢٠ / من الآية ٤٧

(٥) انظر كتابه : إحكام صنعة الكلام ، ص ٨٤ ـ ٨٥

لاتحصى ولا تعد[1] ، وبه اسْتُهِلَّتْ فاتحة الكتاب ، وذلك لأنه يُعَدّ من أقل واجبات المرء تجاه خالقه لدوام هذه النعم عليه وزيادتها لقوله تعالى في خطاب المؤمنين : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[2] . وقد وردت صيغة التحميد[3] في كتب النبي ﷺ بعد السلام : « فَإِنِّي أَحْمَدُ اللهَ إِلَيْكَ الَّذِي لاإِلهَ غَيْرُهُ »[4] أو « فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الّذي لاإِلهَ إلا هُوَ »[5] . وعلى هذه الصيغة درج الخلفاء الراشدون وأهل العصر على وجه الإجمال في كتبهم[6] . ونقل ابن منظور عن الخليل قوله : « معنى قولهم في الكتب : أحمد إليك الله ، أي أحمد معك الله »[7] ، وذلك بإقامة (إلى) مقام (مع)[8] ، ولما كان هذا الحمد فيه شيء من الرحمة والرفق واللين في الخطاب فقد كان يكتب به غالباً إلى الأتباع وذوي الود .

هـ ـ التخلص (أو فصل الخطاب) :

بعد الفراغ من المقدمات أو المدخل إلى الرسالة كان لابدّ من وسيلة للتخلص منها إلى المضمون ، وقد استعمل العرب لذلك صيغة تخلص تفصل بين هذا المدخل

---

(1) ورد في : لسان العرب ـ مادة (حمد) ، ١٥٥/٣ أن الحمد أعمّ من الشكر ، لأن الشكر يكون عن يَدٍ ، والحمد يكون عن غير يَدٍ . ورُوِيَ فيه أيضاً عن النبي ﷺ قوله : « الْحَمْدُ رَأْسُ الشُّكْرِ » .

(2) القرآن ، ١٤ / من الآية ٧ وتأذّن : تقدّم إليكم وأعلمكم .

(3) والتحميد : كثرة حمد الله تعالى .

(4) انظر كتابه إلى المنذر بن ساوى في : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١١٤ وفي خطاب الجماعة (إليكم) .

(5) انظر كتاباً آخر إلى المنذر في : م.س ، ١١٥

(6) وذكر الصولي في كتابه : أدب الكُتّاب ، ص ٤٠ أن تصدير الكتب كان ينتهي عند التحميد حتى أمر هارون الرشيد في خلافته أن يُزاد بعده الصلاة على النبي ﷺ .

(7) لسان العرب : مادة (حمد) ، ١٥٦/٣

(8) م.س ، ١٥٧/٣

والمضمون الذي هو غاية الكاتب من كتابه ، وهي قولهم : « أما بعد » . ورُوِي أن أول من قالها في كلامه قُسّ بن ساعدة الإيادي[1] . وقد فسَّر الشعبي قوله تعالى في داود : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطابِ ﴾[2] بقوله : إن فصل الخطاب هنا هو (أما بعد)[3] ، وهذا هو الظاهر ، إلا أن هنالك تفسيرات أقوى وأعمق من هذا التفسير لمعنى (فصل الخطاب)[4] . وذكر الصولي هذا الفصل فقال : إنه « يكون بعد حمد الله ، أو بعد الدعاء ، أو بعد قولهم : من فلان بن فلان إلى فلان . فيفصل بها بين الخطاب المتقدم وبين الخطاب الذي يجيء بعد ، ولا تقع إلا بعد ماذكرناه »[5] . و (بعد) في صيغة هذا الفصل ظرف منقطع عن الإضافة ، وأصل الكلام : « أما بعدَ قولنا : بسم الله الرحمن الرحيم .. فقد كان كذا وكذا » وربما أضيفت (بعد) في بعض الكتب فقيل : « أما بعدَ ذلك »[6] أو « أما بعدَ ذلكم »[7] . وقال الصولي : « ولا بدّ من مجيء (الفاء) بعد (أمّا) ، لأن (أمّا) لا عمل لها إلا اقتضاء (الفاء) واكتسابها ، فإن (الفاء) تصل بعض الكلام ببعض وصلاً لا انفصال بينه ولا مهلة فيه . ولما كانت (أمّا) فاصلة أُتِي بـ (الفاء) لتردّ الكلام على أوله »[8] .

---

(١) تاريخ الطبري ، ١٧٩/٦ والأوائل لأبي هلال العسكري ، ٨٥/١ وذُكِر في : صبح الأعشى ، ٢٣١/٦ أن أول من قالها كعب بن لؤي .

(٢) القرآن ، ٣٨ / من الآية ٢٠

(٣) أدب الكُتّاب للصولي ، ص ٣٧ ونسب الطبري هذا التفسير إلى أبي موسى الأشعري ، انظر : تاريخه ، ١٧٩/٦ وانظر كذلك : كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، ص ١٦٥ وصبح الأعشى ، ٤٣٣/١

(٤) أدب الكُتّاب للصولي ، ص ٣٩ فقد ذُكِر أنه : فصل الحُكْم أو العلم بالقضاء أو الشهود والأيمان .

(٥) م.س ، ص ٣٨

(٦) من كتاب للنبي ﷺ في : تاريخ اليعقوبي ، ٨١/٢

(٧) من كتاب آخر للنبي ﷺ في : م.ن .

(٨) أدب الكتاب للصولي ، ص ٣٨

و ـ المضمون :

وهو غرض الكاتب من الرسالة وغايته التي يسعى إليها ، وهو لبّ الخطاب ، ويصعب على المرء ضبط موضوعات هذا المضمون لأنها غنية غنى عظيماً ومتنوعة تنوعاً واسعاً ، لأنها تشمل كل ما يمكن أن يقال أو يبلغ بدءاً من أقصى العاطفة والشعور وانتهاء بأقصى العقل والتفكير ، غير أن هذه الموضوعات تتوزع على مستويين من حيث طبيعتها : الأول مستوى الموضوعات المتعلقة بشؤون الدولة والمجتمع أو السياسة والإدارة . والثاني مستوى الموضوعات الشخصية الخاصة التي تعبر عن هموم أفراد المجتمع ومشاغلهم . وقد تبين لنا من خلال الباب السابق أن كتب المصادر حفظت لنا عدداً كبيراً من رسائل المستوى الأول ، في حين أنها لم تكد تروي لنا بضع رسائل من الثاني من فترة صدر الإسلام .

ز ـ الختام :

كانت الرسائل تُخْتَتَم ، بعد الفراغ من المضمون ، بأشكال متعددة من التعابير ، وكان أتمها صيغة السلام الختامية : « والسلام عليك ورحمة الله وبركاته »[1] ، إلا أنها قد تُخْتَصَر إلى : « والسلام عليك »[2] ، أو « والسلام » وهذه الأخيرة هي الغالبة على الاستعمال نظراً لاختصارها وإفادتها الدلالة نفسها للصيغة الأولى ضمناً . وإذا كتب المسلمون إلى غيرهم ، أو إلى مخالفيهم ومن انشق عليهم ختموا بصيغة : « والسلام على من اتبع الهدى »[3] ، وهي نفسها صيغة السلام التي تُذْكَر في التصدير ، ذلك لأن في هذه الصيغة نوعاً من الجفاء يناسب مضمون الكتاب مع وجود شرط الهدى ، في حين أن الصيغة الأولى تحمل في معانيها عاطفة الرحمة والدعاء المباشر المخلص بالسلامة لمن كُتِب بها إليه .

(١) صبح الأعشى ، ٣٦٦/٦
(٢) م.س ، ٢٢٩/٦
(٣) م.س ، ٣٤٤/٦

ح ـ التذييل :

عنـد الفراغ من كتـابـة الرسـالـة بهـذه الصورة كانت تُـذَيَّل عـادة بـأمرين هامين : الأول هو التاريخ الذي كتبت فيه ، وقد سبق لنا أن تحـدثنـا في البـاب الأول عن هذا التاريخ وأهميته ونشأتـه[1] . والثـاني اسم كاتب الرسـالـة سواء أكان هو منشئها أم كان مجرد مُدَوِّن لما يُملى عليه ، وقد تحـدثنـا عن أهميـة هـذا العنصر أيضاً في موضعه من الباب الأول كذلك[2] . وأمـا الختم فقـد كان عنصراً ثـالثـاً في تـذييل الكتب ، إلا أنـه كان مقصوراً على كتب النبي ﷺ بعـد سنـة ٦ هـ وعلى كتب الخلفاء الراشدين على وجه العموم ، أمـا رسـائل من هم أدنى مرتبـة منهم أو رسـائـل أفراد الرعيـة فكانت تصـدر من غير هـذا الختم ، وربمـا أُهْمِـل اسم كاتب الرسالة في كثير من الأحيان ، وخصوصاً إذا كان الْمُرْسِل نفسه هو كاتبها .

٢ ـ تقويم هذا المنهج :

لا شك في أن لكل قاعدة استثناء يخرج عادة عن حدود هذه القاعدة قليلاً أو كثيراً . وهذا ينطبق على عناصر هذا المنهج الذي رأيناه آنفـاً ، وقـد سبق لنـا أن سلَّمْنا بالطابع الإسلامي الواضح في تكوُّن هذه العناصر وصيغها المختلفة ، ويبقى علينا ، هنا ، أن نقرر أن الهيكل العـام لهـذا المنهج بقي مرعيـاً في جمهور رسـائل فترة صدر الإسلام ، غير أن هنالك أموراً قد تطرأ عليه ، وتتمثل في عـدة نقـاط ، هي :

أ ـ الإسقاط :

وقـد كان أيّ عنصر من عنـاصر التصـدير والختـام معرضـاً لأن يسقــط من حساب الكاتب لسبب من الأسبـاب التي لا نستطيع أن نخمِّن أكثرهـا ، وإن كنـا

---

(١) انظر ص ٢٤٣ ـ ٢٤٦ من هذا البحث .

(٢) انظر ص ٢٤٦ من هذا البحث .

قد رأينا شيئاً منها آنفاً كمخاطبة غير المسلمين ، أو الخارجين على الطاعة ، أو الخصوم أو الأعداء ، إذ إن موقف العداوة قد يدفع إلى إسقاط عدد من هذه العناصر ، لأن الخطاب بها غير مناسب للمقام ومقتضى الحال ، ولأن الحزم فيه يقتضي إسقاطها ، وبذا يمكن أن تسقط البسملة ، والسلام ، والتحميد ، والختام . ويجد المرء أكثر الكتب المروية في كتب التراث من صدر الإسلام تبدأ مباشرة بصيغة الفصل (أما بعد) مباشرة بعد العنوان ، أو أنها تدخل في (المضمون) بلا فصل ، وقد يكون هذا دليلاً أكيداً على إسقاط عناصر المنهج من قبل الرواة الذين يدركون أن المرء ليس بحاجة إلى أن يعرف التصدير مفصلاً بقدر حاجته إلى معرفة المضمون ، لأن ذلك التصدير ذو صيغة ثابتة معروفة عند الناس ، ولذا فإن بعض القدماء وَهِم حين ذكر أن رسائل صدر الإسلام كانت تُفْتَتَح أحياناً بصيغة « أما بعد » مباشرة[1] ، ذلك لأن هذا العنصر هو المميز البارز لنص الرسالة ، فأُبقِي قصداً لإبراز معالمه .

ب ـ الزيادة :

ويلاحظ أحياناً دخول عنصر أو أكثر في الخطاب ، مثل : النداء ، والدعاء ، وغيرهما . وإن كان ذلك ليس قاعدة عامة لمنهج كتابة الرسالة في العصر . فقد ورد مثلاً في كتاب خالد بن الوليد إلى النبي ﷺ اعتراض النداء بعد السلام ، إذ يقول : « السلام عليك يا رسول الله .. »[2] ، وبعد صيغة التخلص إذ يقول : « أما بعد يا رسول الله .. »[3] ، وبعد الختام إذ يقول : « والسلام عليك يا رسول الله »[4] . وورد اعتراض الدعاء بعد صيغة التخلص في كتاب من

---

(١) ومنهم القلقشندي في كتابه : صبح الأعشى ، ٢٣١/٦ و ٣٦٥

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٣١

(٣) م.ن .

(٤) م.ن .

معاوية إلى علي يقول فيه : « أما بعد ـ عافانا الله وإياك من السوء ـ فإني .. »[1] ، وقد ورد كذلك في كتاب علي إلى أخيه عَقِيل : « أما بعد ـ كَلأنا الله وإياك كَلاءة من يخشاه بالغيب إنه حميد مجيد ـ فقد قدم .. »[2] ، وقد جعل أبو بكر في بعض كتبه إلى المهاجر بن أبي أمية باليمن هذا الدعاء ختاماً إذ يقول : « عَصَمَنا الله وإياك بالتقوى وجعل الآخرة خيراً لنا ولك من الأولى »[3] ، وورد مثل هذا الدعاء أحياناً في أواخر بعض الكتب في صدر الإسلام قبل السلام الختامي مباشرة . وقد اختلف القدماء في جواز هذا الدعاء ، فرأى أكثرهم أنه جائز مالم يكن دعاء بطول البقاء لأن الأعمار ثابتة مقدرة من الله تعالى لا تزيد ولا تنقص بدعاء أو غيره ، وذهب قلة منهم إلى جوازه مطلقاً[4] . وإضافة إلى اعتراض النداء والدعاء بين عناصر المنهج عثرنا على اعتراض الصلاة على النبي ﷺ في رسالة واحدة فقط كتب بها علي إلى أهل مصر مع عامله قيس بن سعد ، وكان الاعتراض فيها بين التحميد والتخلص إذ يقول : « سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وأصلي على رسوله ﷺ ، أما بعد .. »[5] ، ويبدو لنا أن ورود الصلاة هنا كان شذوذاً نادراً جداً في رسائل صدر الإسلام ، لأن أخبار المصادر القديمة تكاد تُجْمِع على أن الصلاة على النبي ﷺ إنما أُدْخِلَتْ في عناصر المنهج بعد التحميد بأمر هارون الرشيد فكانت من أبرز حسناته أيام خلافته .

---

(١) أدب الكتاب للصولي ، ص ١٥١ وانظر : وقعة صفين لنصر بن مزاحم ، ص ٣٨٦ وصبح الأعشى ، ٣٣٤/٦

(٢) جمهرة رسائل العرب ، ٥٩٧/١

(٣) المُحَبَّر لابن حبيب ، ص ١٨٨

(٤) انظر الجدل حول ذلك في : أدب الكاتب للصولي ، ص ١٥١ و ١٥٥ وإحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور ، ص ٧٥ وصبح الأعشى ، ٤٣٣/١ و ٢٩١/٦ و ٣٣٤ ـ ٣٣٧

(٥) جمهرة رسائل العرب ، ٥٢٢/١ فإذا صحت رواية الصلاة على النبي ﷺ في هذا الكتاب لم يكن هارون الرشيد أول من كتب بها بعد التحميد ، ويكون فضله أنه أول من جعل هذه الصلاة سُنّة في هذا الموضع من التمهيدات لموضوع الرسالة .

جـ ـ التغيير :

كان عنصر السلام لا يَرِد أحياناً بالصيغة التي مرت بنا آنفاً ، بل بصيغة أخرى هي : « سِلْم أنت » للمفرد ، و « سِلْم أنتم » للجماعة ، وهي بمعنى : أنت سالم أو مسالم وأنتم سالمون أو مسالمون[1] . وقد رأينا كذلك اختلاف صيغة السلام الموجه إلى القادة والأتباع من المسلمين بعضهم إلى بعض عن صيغته إلى أهل حربهم وأعدائهم أو المارقين عن الملة . وهناك شواهد من كُتِب النبي ﷺ أنه ابتدأ بعد البسملة بقوله في العنوان : « هـذا كِتابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إلى أهْلِ اليَمَنِ »[2] ، و « هـذا كِتابٌ مِنْ مُحَمَّد رَسولِ اللهِ إلى عُمَيْرٍ ذي مَرّانَ وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ هَمْدانَ »[3] ، وفي مثل هذا العنوان اختلاف واضح عن العنوان الذي سبق لنا أن رأيناه آنفاً ، ففيه زيادة : « هذا كتاب » .

د ـ التقديم والتأخير :

كان هذا التقديم والتأخير يصيب ، على وجه الخصوص ، التحميد وصيغة التخلص ، فإذا كان الغالب على الرسائل أن تتقدم صيغةُ التحميد صيغةَ التخلص ، فإن صيغة التخلص هذه تتقدم في بعض الأحيان صيغة التحميد ، فتصبح : « أمّا بَعْدُ ، فَإنّي أَحْمَدُ إلَيْكَ اللهَ الّذي لاإلهَ إلاّ هُوَ »[4] .

---

(١) لسان العرب : مادة (سلم) ، ٢٩٣/١٢

(٢) تاريخ اليعقوبي ، ٨٠/٢

(٣) م.س ، ٨١/٢

(٤) من كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي في : مصوَّر الخط العربي لناجي زين الدين ، ص ٣١٨ (الشكل ٩٨) .

الفصل الثاني

في الأسلوب

من الصعب علينا أن نقف ، في صدر الإسلام ، على أسلوب كل كاتب من كتاب الرسائل على حدة ، لأننا نفتقر افتقاراً شديداً إلى معرفة صحة نسبة إنشاء نص الرسالة إلى منشئها الحقيقي أو الفعلي ، ومجرد وضع احتمال من هذا النوع ، ولو كان جزئياً ، يفقدنا القدرة على اعتماد مجموعة من الرسائل منسوبة إلى شخص معين في دراسة أسلوب هذا الشخص ، لأن الثقة في كونه هو منشئ نصوص رسائل هذه المجموعة مزعزعة ، وبالتالي فإن جهود العمل في هذا النطاق سوف تذهب سدى ، وذلك لأنْ بواعث الشك في منشئ الرسالة الحقيقي كثيرة ، منها على سبيل المثال وجود كُتّاب كانوا يكتبون للخلفاء الراشدين على الرغم من معرفتهم الكتابة معرفة جيدة ، وكان هؤلاء الكتاب يلازمونهم دائماً ويُعْرَفُون بهم ، ولسنا نقطع قطع اليقين بأن جميع الكتب الصادرة عن هؤلاء الخلفاء كانت من إنشائهم هم وليست من إنشاء كُتّابهم ، إذ لسنا نستبعد أن يكون كثير منها قد أنشأه هؤلاء الكتاب بناء على اقتراحهم بعد أن يفهموهم الموضوع وما يراد منهم أن يكتبوا فيه من أفكار أساسية ، ثم يتركون لهم حرية التعبير المتئد بأساليبهم الخاصة ، ولو افترضنا أن مثل هذا الإنشاء لم يكن وقفاً على هؤلاء الكتاب ، بل كانوا مجرد مدونين لما يُمْلى عليهم من الخلفاء ، فإننا لا نستبعد بأي حال من الأحوال ، تدخلهم الواسع أثناء هذا الإملاء في صياغة الأسلوب أو التأثير فيه ، وهذا أمر مسلم به تماماً ، إذ لم يكن الكاتب آنذاك مجرد آلة كاتبة تكتب ما يضرب عليها من غير مراجعة ولا اقتراح تعديل أو وقفة عند هذا التعبير أو ذاك لبسط

يـد التغيير أو التعـديـل فيـه ، وقـد رُوِي لنـا خبر حـول ذلـك يفيـد أن عمر بن الخطاب كان يملي كلاماً على كاتب له ، غير أن هذا الكاتب كان يكتب غير ما كان يُمْلى عليه حرفياً[1] . وهـذه النقطـة وحـدهـا كافيـة للبحث عن بـديل يملأ هـذا الفراغ ، ويقوم مقام الأساليب الفردية في هذه الفترة .

وتخلُّصاً من هذا المأزق نرى أنه يصح لنا أن نتحدث هنا عمـا يمكن أن يسمى « أسلـوب أهـل العصر » أو « الأسلـوب العـام في العصر » أو اختصـاراً « أسلـوب العصر » ، ونعني بـه جملـة الخصـائص التي تتميز بهـا الكتـابـة في هــذه الفترة نظراً لكونها عوامل مشتركـة بين أهلهـا ، ولهم فيهـا نصيب معين يقل أو يكثر ، إلا أن هذا النصيب الفردي إذا انـدمج في غيره من الأسـاليب الفرديـة الأخرى أعطـانـا لوحة جماعيـة تبرز فيهـا معـالم الأسلوب العـام للعصر . ويـدفعنـا إلى اتخـاذ هـذا البديل ، هنا ، موضوعاً لدراسة الأسلوب في هذه الفترة ، تلـك الحقيقـة المعروفـة أو المسلَّم بها لدى علمـاء الأسلوب وهي أن لكل عصر من العصور طـابعـاً أسلوبيـاً عاماً يتميز به ويجعل أساليب الأفراد في العصر الواحد متقاربة جداً أو متشابهـة في خصـائصهـا وسماتهـا الأسـاسيـة ، مع احتفـاظ كل فرد بطـابع خـاص يميزه ببعض السمات التي لاتكون في غيره بالقدر نفسه .

وقد تنبه د . شكري فيصل على وجود مثل هـذا الأسلوب العـام للعصر حين ذكر تحت عنوان (تشابه النتـاج النثري) قولـه : « لقـد كانت الأوتـار التي أنشـد عليهـا أصحـاب الآثـار النثريـة في الصـدر الأول هي هي عنـد كل واحـد منهم ، وتوشـك أن تكون أسـاليبهم في استخـدام هـذه الأوتـار قريبـة متشـابهـة ، ولكن تشابهها مع ذلـك لا يُخْفي عنصرهـا الشخصي ، غير أن القَـدْر المشترك بينهـا كثيراً ما يطغى على هذا العنصر الشخصي ويطويه ، ولقد رَدَّدَتْ هـذه الأوتـار أنغـامهم

---

(١) الوزراء والكُتّاب للجهشياري ، ص ١٩

وأصواتهم ، وكان تشابههم في الموضوعات التي طرقوها ـ وهي كلها مما يتصل بسياسة الحكم وإدارة المجتمع وصلة ما بين الولاة والخلفاء والمسلمين ـ كان تشابههم في هذا سبباً في أن تتشابه بعدُ الأصداء والأصوات التي انبعثت عنهم »[1] .

وإذا كنا نسلّم ، هنا ، بضعف وسائلنا إلى معرفة الملامح الفردية لأسلوب الكُتّاب في صدر الإسلام ، فإننا لا نجد بُدّاً من الاقتصار على دراسة تلك الملامح الأسلوبية العامة التي تحمل في أثنائها حتماً الملامح الفردية المشتركة بين جميع هؤلاء الكُتّاب في تلك الفترة . وتتمثل هذه الملامح عادة في مجموعة من المظاهر ، أو لنقل : الخصائص أو الطرائق التعبيرية التي تكون سبيلاً إلى الإبلاغ عامة ، والتفنُّن على وجه الخصوص . وسننظر إليها من مستويين هما : الجوانب البلاغية للأسلوب ، والأسس البنائية أو التكوينية لهذا الأسلوب .

وقبل أن ندخل في تحليل هذين المستويين ينبغي لنا أن نمهد هنا بتعريف بعض المصطلحات ، التي ستكون أدوات مساعدة في هذا التحليل ، وبتعريف بعضها الآخر في سياق هذا التحليل ، ليكون حديثنا واضحاً ودقيقاً بقدر الإمكان : لدينا مثلاً مصطلح (القرينة) ، وجمعها (القرائن) وهي تُطْلَق في النثر على الجملة أو القطعة التي تنتهي بسجع أو غيره ، ويوقف عنده ، ثم تبدأ بعدها جملة أو قطعة أخرى تنتهي بمثل ذلك ، وهي أشبه ما تكون بالبيت الواحد من الشعر ، فكما تقوم القصيدة على مجموعة تقلّ أو تكثر من أبيات الشعر ، فكذلك الرسالة النثرية تقوم على عدد يقلّ أو يكثر من هذه القرائن . وتسمى الكلمة الأخيرة من كل قرينة (فاصلة) ، وجمعها (فواصل) ، لأنها تفصل بين قرينتها والقرينة التالية ، وسميت القرينة قرينة لأنها تقترن في الكلام بقرينة أو أكثر ليتم بها معناها ويستقيم بها الكلام ، وقد تطلق على القرينة تسميات أخرى

---

(١) انظر كتابه : المجتمعات الإسلامية ، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥

كالجزء[١] ، والفقرة[٢] ، والقضية[٣] ، والفصل[٤] ، والقطعة[٥] ، إلا أننا آثرنا اسم القرينة لوضوحه ودقة دلالته ، ودفعاً للالتباس الدلالي في الكلمات الأخيرة .

١ ـ الجوانب البلاغية للأسلوب :

لم يكن العرب في صدر الإسلام يعرفون شيئاً من مصطلحات الفنون البلاغية التي وضعها المتأخرون لها واصطلحوا عليها للدلالة على الجوانب الجمالية والفنية المختلفة التي ترتفع بالكلام من المستوى العادي إلى المستوى الفني الرفيع ، فيما عدا السجع الذي كان شائعاً ومعروفاً عند الجاهليين ثم عند المسلمين في صدر الإسلام ، وكانوا يعونه وعياً تاماً ويعرفون ماله من تأثير استثنائي في نفوس السامعين أو القارئين ، ثم ظلّ بعد ذلك معروفاً بالمصطلح نفسه ، مع تفريعه وتقييده وبيان أنواعه . وقد بهر بعض المتأخرين بهذا الكشف فاغتر بنفسه غروراً عظيماً لبلوغه مرتبة رفيعة من البلاغة والتفنن في ضروب الكلام ، غير أن ابن المعتز (م ٢٩٦ هـ) ردَّ هؤلاء إلى صوابهم حين وضع (كتاب البديع) ليبين لهم أن هذه الفنون التي ظنوا أنهم مبدعوها إنما هي قديمة جداً في كلام العرب ، إلا أن الفارق بين القدماء والمحدثين هو أن القدماء استعملوا هذه الفنون حيث اقتضت الحاجة استعمالها ، أما المحدثون فأكثروا من استعمالها في الضروري والنفل من كلامهم إكثار إسراف حتى زاد على حد الاعتدال الذي كان القدماء يذهبون إليه في كلامهم ، إذ كان الشاعر يقول « من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ،

(١) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، ص ٢٦٨ و ٢٦٩ و ٢٧٠

(٢) التعريفات للجرجاني ، ص ١٨٢ وأسس النقد الأدبي عند العرب لأحمد بدوي ، ص ٦٠٠ و ٦٠١ و ٦٠٢

(٣) لسان العرب : مادة (زوج) ، ٢٩٣/٢

(٤) المثل السائر لابن الأثير ، ٢٣٣/١ و ٣٣٥

(٥) أمراء البيان لمحمد كرد علي ، ص ١٣

وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل »[1] ، وقد عمد ابن المعتز لإثبات ذلك إلى تصفح الكلام العربي وتتبعه في « القرآن ، واللغة ، وأحاديث رسول الله ﷺ ، وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم ، وأشعار المتقدمين »[2] ، غير أنه اكتفى بالتمثيل والاستشهاد دون الاستقصاء ، لأن غايته ، كما ذكر ، هي إثبات سبق القدماء إلى هذه الأنواع البديعية ، وكان من جملة ما استشهد به من المنثور قطع من رسائل بعض المتقدمين حتى وقته[3] .

ونتيجة استقرائنا نصوص رسائل فترة صدر الإسلام التي بين أيدينا استقراء دقيقاً تأكدت لنا نظرية (الاعتدال) في استخدام الفنون البديعية التي قال بها ابن المعتز كما رأينا آنفاً ، فهم لم يكونوا يعرفون مصطلحات المتأخرين على هذه الفنون ليستعملوها استعمال تصنع لها وولع بها ، وإنما كانوا يدخلونها في كلامهم إدخالاً عفوياً على مقتضى ما يسوقه ذوقهم الفطري الذي كان يهديهم إلى ما فيها من جمال فني أو بلاغة رفيعة ، إذ كان إحساسهم بأثر هذه الفنون في خدمة المعنى ، وفي تحبير الكلام ، وفي بلوغ أكبر تأثير ممكن في القارئ أو السامع ، وفي جعل هذا الكلام أقوى تعبيراً ، وأوزن موسيقى في الأذن ، إحساساً عفوياً لا تكلف فيه ولا تصنع . ويمكن القول إن استعمال كُتّاب هذه الفترة ومنشئيها هذه الفنون في رسائلهم إنما كان تعبيراً دقيقاً عن الجمال الفطري والعفوي الذي كان مختلفاً تماماً عن الجمال الصناعي المبتكر والمقصود إليه قصداً في القرون المتأخرة بعد كشف النقاب عن ظاهرة البديع ووعي قيمتها الفنية في تحبير الكلام ، غير أن كثرة الحلي والأصباغ كثيراً ما تكون القبح بعينه ، ولذا فإننا نرى أن أسلوب

---

(١) انظر كتابه : البديع ، ص ١

(٢) م.ن .

(٣) وقد سار على نهجه هذا في الاستشهاد بشيء من النثر الترسلي معظم البلاغيين الذين جاؤوا بعده .

العصر في فترة صدر الإسلام لم يكن فيه شيء من التكلف أو التصنع في الأسلوب التحبيري ، وإن كان لا يخلو من الصنعة التي تتلاءم كلياً مع الطبع السليم ، فلم يكن كُتّاب الرسائل من الخلفاء والعمال والقادة والكُتّاب ، على مكانتهم من الفصاحة والبلاغة آنذاك ، متفرغين للكتابة ليسعوا إلى التكلف والتصنع في إخراج رسائلهم ، وإذا كان مثل هذا الأسلوب يغلب عليه الميل إلى الإبلاغ ، فإنه لم يكن ليخلو تماماً من الهمّ الفني الذي يصدر عفوياً ، للتعبير عن الفكرة بأكمل لفظ وأجمل حلة ، بغية التأثير في عواطف المرء وفي اعتقاده وعقله .

وبناء على استقراء نصوص رسائل صدر الإسلام يمكننا أن ندفع الأحكام القاطعة التي ذهب إليها بعض الباحثين المحدثين في النثر العربي في الفترة نفسها ، لأنهم قصدوا بها إلى تجريد كتابة الرسائل من كل تحبير فني أو تزيين أو تنميق ، مع أن هذه النواحي جميعاً كانت ملموسة في كل رسالة من رسائل هذه الفترة على وجه الإجمال ، مع موافقتنا على كونها عفوية فطرية ، والبلاغة إنما هي في الأصل عفوية فطرية ، لأنها تعبير عن (قوة النفس) ، وقد كان الجمهور الأعظم من كُتّاب الرسائل في صدر الإسلام من أصحاب هذه القوة . ومن تلك الأحكام مثلاً قول د . شوقي ضيف إن النبي ﷺ لم يكن في كتبه يُعْنى « بتحبير فني »[1] ولم يكن يَعْمِد إلى « تزويق ، إنما يَعْمِد إلى فكرته وتبليغ دعوته ورسالته في غير إسهاب ، وفي غير صنعة أو تكلف »[2] ، ويرى أن الخلفاء الراشدين كانوا « لا يقصدون إلى تنميق ، إنما يقصدون إلى إبلاغ أفكارهم في عبارات واضحة الدلالة »[3] ، وكأن هنالك تعارضاً بين إبلاغ الأفكار بعبارات واضحة الدلالة وبين ذلك التنميق أو التزويق أو التحبير الفني ، ثم يذهب إلى أن هؤلاء الخلفاء

---

(١) انظر كتابه : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص ٩٧

(٢) م.س ، ص ٩٨

(٣) م.ن .

وولاتَهم وقـــادتَهم « لم يقصـــدوا في كتـــابتهم إلى أي ضرب من ضروب التزيين والتنميق ، فقد كان حسبهم أن يـؤدوا أغراضهم في لغـة جـزلـة متينـة »[1] . وقـد ذهب د . حسين نصـار إلى مثل ذلـك وإن كان حكمـه الأخير على رسـائل صـدر الإسلام أكثر إنصافاً من حكم د . شوقي ضيف آنفـاً ، إذ يقول د . حسين نصـار : « وآخر القول أن هذه الكتابة لم تكن فنية بالمعنى المصطلح عليـه ، ولكنهـا كانت تسير نحو الفن بخطا حثيثة »[2] . ودليلنا على وجود الصنعة الطبعية الفطريـة في كتابة تلـك الفترة هـذه المجموعـة من الفنون البلاغيـة التي كانت توشي بمحـاسنهـا نصوص الرسائل وتضفي عليها رونقاً وجمالاً طبيعيين بعيدين عن أصبـاغ التصنع والتكلف الصناعيين ، وقـد كانت هـذه الفنون منتشرة في تلـك الرسـائل انتشـاراً معتدلاً طبقاً لأسلوب العصر العام آنذاك ، وتعدّ هذه الفنون بنية أساسيـة في هـذا الأسلوب لأنها تمثل طرائق للتعبير الجميل ، وهي في الوقت نفسـه داخلـة في صلب العملية الفنية المنشودة . وإذا طبقنا نظريتنا في توازن استعمال الفنون البـديعيـة أو التوازي في المستوى البلاغي أو التساوي في مقدار التحبير الفني بين الشعر والنثر في العصر الأدبي الواحد ، ثم أخذنا برأي ابن المعتز في مقـدار استعمال فنون البـديع في الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام ، وهو الرأي الذي مرَّ بنا قبل قليل ، فـإننـا نستطيع القول ، مستعملين بناءه اللفظي نفسه ، إن الكاتب في صدر الإسلام على وجه التحديـد كان يكتب « من هـذا الفن (القرينـة) و (القرينتين) ، وربمـا قرئت من (ترسل) أحدهم (رسائل) من غير أن توجد فيهـا (قرينـة) بـديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نـادراً » ، وقـد أكـد ابن المعتز نفسـه استحسـان هـذا الفن في النثر استحسـانـاً أكبر منـه في الشعر بقـولـه : « ويـزداد حظـوة بين الكلام المرسل »[3]

(١) م.ن .

(٢) انظر كتابه : نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ، ص ٦٠

(٣) انظر كتابه : البديع ، ص ١

وسنضطر ، هنا ، إلى استعمال مصطلحات المتأخرين في البحث عن نواحي الجمال في أساليب المتقدمين في صدر الإسلام ، وقد هدانا الاستقراء الدقيق لما بين أيدينا من رسائل إلى طائفة منها بلغت خمسة عشر فناً أساسياً ، تبرهن جميعاً على أن رسائل صدر الإسلام كانت تحمل في طياتها هماً فنياً واضحاً ، وأنها لم تكن تطلق على عواهنها أو ترتجل ارتجالاً محضاً أو تُملى بلا فكر ولا روية . مما يدفع كثيراً من آراء الباحثين التي رأينا بعضها آنفاً ، علماً أن وجودها في رسائل تلك الفترة لا يعني أن الكُتّاب كانوا يتكلفون فيها ويتصنعون تصنع الكتاب المنشئين في القرون المتأخرة التي جاوز فيها طلب الصنعة والتفنن كل حدّ . وفيما يلي عرض لهذه الفنون يتوخى التعريف والتحليل والاستشهاد :

أ ـ الطباق :

حَدُّ الطباق أنه استعمال كلمتين في معنيين متضادين ، ولذا يعرف أيضاً بـ (التضاد) ، ويطلق عليه كذلك اسم (المطابقة) ، وهو يتعلق بالمعاني دون الألفاظ . ويختلف هذا الطباق عن المقابلة في أن المقابلة تعرض للتضاد في الكلام بين معنيين ومعنيين آخرين أو أكثر كما سنرى عما قليل ، في حين أن الطباق يكون بين لفظين متضادين في المعنى . وللطباق قيمة معنوية كبيرة ، إذ يقوم بإجراء تضخيم للمعنى واستجلاء له ، فلا يبقى فيه أي لبس ، ممّا يعطي عمقاً لهذا المعنى ، إذ يحس القارئ أو السامع بصدمة قوية تدهشه أمام هذا التضاد ، أو لنقل : التناقض المعروض على مسامعه ، وقد اعتمد البلغاء في صدر الإسلام وفي العصور اللاحقة عليه كثيراً في جلاء المعنى ، وآية ذلك أن العرب قالت في مأثورها : « وبضدها تتمايز الأشياء » وقد ورد هذا الطباق لذلك في كثير من كلام العرب في رسائلهم التي دونوها في صدر الإسلام ، وقد اصطبغ في كثير من هذه الرسائل بصبغة دينية إسلامية واضحة ، وننتقي من كل ذلك نماذج مختارة على سبيل المثال لا الحصر ، إذ إن المجال لا يتسع هنا لمثل هذا الحصر : فقد ورد في

كتـاب النبي ﷺ إلى هرقل ، وهو يـدعوه إلى الإسـلام ، قـولـه : « يُـؤْتِـكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَـإِنْ تَوَلَّيْتَ فَـإِنَّما عَلَيْـكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّيْنَ »[1] ، فقـد وقع الطبـاق بين كلمتي : الأجر والإثم ، وهمـا ذواتـا معنى اصطـلاحي إسـلامي كما نرى لم يكن للعرب بها عهد من قبل بهذا المعنى الديني . وورد في بعض الرسـائل : « فمنهم من أحبَّ الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه »[2] ، وجاء في كتاب الدعوة إلى أهل فارس : « فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحيـاة »[3] . وجـاء في بعض الرسائل : « وَأَوْمُرْهُمْ أن ينفروا خفافاً وثقالاً »[4] ، ومنـه : « فَـأَحْمَـدُ اللهَ على إعزاز دينه وإذلال عـدوه »[5] ، و « أوصيتـك بتقوى الله الـذي يبقى ويفنى مـا سـواه »[6] و « يقعـد بين يـديـك الصـديـق والعـدو ، والشريف والـوضيـع ، والشديد والضعيف »[7] ، و « لم تكن شدة إلا وجعل بعدها فرجاً »[8] ، و « فيها وَهْنُكم وقوة عدوكم ، وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم »[9] ، والعدل « لا رخصـة فيـه في قريب ولا بعيـد ، ولا في شـدة ولا في رخـاء »[10] ، و « خـذوا الحق وأعطوا الحق »[11] ، و « إن النساء يعطين على الرغبة والرهبـة »[12] ، و « إن قليل الشر

---

(1) جمهرة رسائل العرب ، ٣٣/١ وتكرر في كتب أخرى للدعوة ، انظر مثلاً ٣٨/١

(2) م٠س ، ٤٢/١ ومثله في ٣١٠/١

(3) م٠س ، ١٣٢/١ وتكرر هذا الطباق في ١٤٠/١ و ١٤١ و ١٤٦ و ١٨٧

(4) م٠س ، ١٤٢/١

(5) م٠س ، ١٥٥/١ وورد مثل ذلك في ١٧٠/١ و ١٧٥ و ١٧٩ و ٢٤٥

(6) م٠س ، ١٥٦/١

(7) م٠س ، ١٥٩/١

(8) م٠س ، ١٩٩/١

(9) م٠س ، ٢٣٧/١ ـ ٢٣٨

(10) م٠س ، ٢٤٢/١

(11) م٠س ، ٢٩٠/١

(12) م٠س ، ٢٨٨/١ ومثله في ٤٨١/١

كثير »[1] ، و « لما أَعْيَتْكُمْ علانيته طعنتم في سريرته »[2] ، و « لله نغضب ، وفي الله نرضى »[3] ، و « إنْ تقدّم نُحِر ، وإنْ تـأخّر عُقِر »[4] ، و « خَيِّرَةً بين حرب مُجْلِية أو سلم مُخْزِيَة »[5] ، و « يواسي غنيُّنا فقيرَنا »[6] ، و « فَرَّق بيننا وبينكم أمسِ أنّا آمنا وكفرتم »[7] ، و « ربحها وخُسْرها الآخرة »[8] ، و « أَلّبَ عالِمُكم جاهلَكم ، وقائِمُكم قاعدَكم »[9] ، و « إلا أن آجالهم عُجِّلَتْ ومنيته أُجِّلَتْ »[10] ، و « أَسْلَمَتْ له هذه الأمة طوعاً وكرهاً »[11] ، و « نُحْيِي ماأحيا القرآن ، ونميت ماأمات القرآن »[12] ، و « حسبهم خروجهم من الهدى إلى الضلال »[13] ، إلى عشرات أخرى غير هذه النماذج من الطباق في رسائل صدر الإسلام .

ويمكن للمرء أن يرى في هذا الطباق صورة صادقة للصراع الذي كان دائراً في حياة النبي ﷺ وفترة الخلفاء الراشدين بين شتى الفئات : بين المسلمين والمشركين في حياة النبي ﷺ ، وبين المسلمين والمرتدين في زمن أبي بكر ، وبين

(١) م٠س ، ٢٩١/١ ومثله في ٢٩٣/١
(٢) م٠س ، ٢٩٤/١
(٣) م٠س ، ٣١١/١
(٤) م٠س ، ٣٧١/١
(٥) م٠س ، ٣٩٤/١
(٦) م٠س ، ٤١٥/١
(٧) م٠س ، ٤١٨/١
(٨) م٠س ، ٤٢٠/١
(٩) م٠س ، ٤٣٦/١
(١٠) م٠س ، ٤٤٢/١
(١١) م٠س ، ٤٨١/١
(١٢) م٠س ، ٤٨٤/١
(١٣) م٠س ، ٥١١/١

المسلمين والعجم في زمن عمر وعثان ، وبين أنصار علي وأنصار معاوية في زمن علي ، وذلك لأن الطباق أنسب الأنواع البلاغية للتعبير عن هذه الحالة الخارجية للصراع المادي ، ولتلك الحالة الداخلية للصراع الفكري . ولا شكَّ في أنه كان هناك صدى واضح في رسائل صدر الإسلام لتلك المستويات المختلفة من أنواع الصراع في فترة لم تتجاوز الأربعين سنة من عمر الزمان ، مما يؤكد لنا الترابط الأكيد والمتين بين النشاط الحيوي والفكري للمجتمع وبين وسائل التعبير الفني في ذلك المجتمع .

والطباق لا يعبر عن طبيعة الحياة في فترة زمنية محددة ليحلل عناصر الصراع فيها فحسب ، بل إنه يعد وسيلة للتعبير عن أي تناقض أو أي تعارض بين مفهومين أو وضعين أو شعورين في حياة المجتمعات البشرية عامة ، كما في حياة الأفراد خاصة ، وإذا كانت طبيعة التناقض أو الصراع في فترة من فترات تاريخ المجتمع تترك آثارها وبصماتها على وسائل التعبير فيها ، فإن هذا الصراع والتناقض يبدو جلياً في وسيلة التعبير الفردية عن العواطف والمشاعر الخاصة ، إذ إن الصراع النفسي داخل الفرد يترك آثاره وبصماته أيضاً على وسائل تعبيره الخاصة ، مما يجعل الطباق ، في نهاية المطاف ، مرآة صادقة تعكس ما يختلج في عقل المجتمع وروحه من جهة وما يعتلج في نفس الفرد وفكره من جهة أخرى .

ب ـ المقابلة :

وحَدُّها استعمال كلمتين أو أكثر في معنى ثم مقابلة ذلك بكلمتين أو أكثر في معنى مضاد ، وقد أدخلها بعض البلاغيين لذلك في باب الطباق ، غير أن الأولى لها والأنسب عندنا أن تظل مستقلة بنفسها نظراً لكونها مركبة وليست بسيطة كالطباق ، وهي باختصار (طباق مركّب) . وهذه المقابلة داخلة في الكلام على المعاني دون الألفاظ ، ووظيفتها توضيح المعنى وتعميقه ، وهي أدخل في حياة الفترة التاريخية تعبيراً عن فكرها وعن طبيعة الصراع فيها ، مع كونها في الوقت

نفسه صالحة للتعبير عن هذا الصراع في كل زمان ، زد على ذلك أنها وسيلة للتعبير عن الصراع الفكري العام والصراع النفسي الخاص أيضاً .

وقد وردت هذه المقابلة في رسائل صدر الإسلام كثيراً ، ونحن ذاكرون نماذج منها تعبر عن روح تلك الفترة تعبيراً دقيقاً . فقد بعث النبي ﷺ إلى المقوقس يدعوه إلى الإسلام واختتم رسالته بقوله : « فَإِنْ فَعَلْتَ سَعِدْتَ ، وَإِنْ أَبَيْتَ شَقِيتَ »[1] ، فقد قابل النبي ﷺ بين القبول والإباء ثم بين السعادة والشقاء وخيَّره بينهما . وورد في رسالة من أبي عبيدة إلى عمر بن الخطاب : « رجال يكونون : إخوان العلانية ، أعداء السريرة »[2] . وورد في بعض الرسائل : « بلغني كتابك تذكر : إعزاز الله أهل دينه ، وخذلان أهل عداوته »[3] ، و « لربما خذل الله الجموع الكثيرة فوَهَنَتْ وفُلَّتْ وفشلت ولم تغنِ عنهم فئتهم شيئاً ، ولربما نصر الله العصابة القليل عددها على الكثير عددها من أعداء الله »[4] ، و « قد علمتَ أن إقامة المقيم لا تقرِّبه من أجله ، وأن هرب الهارب منه لا يباعده من أجله »[5] ، و « آثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا : فإن الدنيا تنفَد ، والآخرة تبقى »[6] ، و « آسِ بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك : حتى لا يطمع شريف في حَيْفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك »[7] ، و « الصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحاً : أحلّ حراماً ، أو حرّم حلالاً »[8] ،

---

(١) م.س ، ٣٩/١

(٢) م.س ، ١٥٩/١

(٣) م.س ، ١٧٠/١

(٤) م.س ، ١٧٥/١

(٥) م.س ، ٢٠٢/١

(٦) م.س ، ٢٤٩/١

(٧) م.س ، ٢٥٢/١ ومثله أيضاً في ٦٠٤/١

(٨) م.س ، ٢٥٢/١

و « لا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه »[1] ، و « والله للموت في طلب العز أحسن من الحياة في الذِّلّة »[2] ، و « لئن كنتَ نصرتَ عثمان ميتاً ، لقد خذلتَه حياً »[3] ، إلى عشرات من نماذج هذه المقابلة في رسائل صدر الإسلام .

جـ ـ الاستعارة :

وحَدُّها عند البلاغيين « استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها »[4] ، وهذا يعني أنها استعمال لفظ كان موضوعاً على الحقيقة استعمالاً مجازياً في غير ما وضع له مع وجود علاقة المشابهة بين المستعار له والمستعار منه . ووظيفة الاستعارة إعطاء المعنى صورة حِسِّيَّة أو عقلية تزيده جمالاً ووضوحاً وتأثيراً في النفس ، وهي لذلك داخلة في باب المعاني لا الألفاظ .

وقد وَصَلْنا ، من خلال استقراء نصوص رسائل صدر الإسلام ، التي بين أيدينا ، إلى أن الاستعارة كانت مستعملة ، ولكن على نطاق غير واسع ، إذ كانت ترد مرة واحدة في كل طائفة من هذه الرسائل ، ومن نماذج هذه الاستعارة قولهم : « وألبسنا الله وإياكم عافيته وعفوه »[5] ، ونلاحظ تشبيه كل من (العافية والعفو) بشيء يلبس كالثوب وغيره ، ثم حُذِف هذا المشبَّه به وأُبْقِي على شيء من لوازمه وهو (ألبس) على سبيل الاستعارة المكنية : فالمستعار منه هو (الثوب) ، والمستعار له هو (العافية والعفو) ، والمستعار هو (ألبس) . وورد

---

(١) م.س ، ٣٠٦/١

(٢) م.س ، ٢٤٨/١

(٣) م.س ، ٤٠٨/١

(٤) البديع لابن المعتز ، ص ٢

(٥) جمهرة رسائل العرب ، ١٧٩/١

أيضاً : « إن الفتنة قد أخرجت خَطْمَها وعينيها ، فلم يبقَ إلا أن تثب »[1] ، فقد شُبِّهَت الفتنة ببعض السباع الضواري التي تثب على فريستها ، فتكون مختبئة فإذا همّت بالوثوب أخرجت خَطْمَها وعينيها ، وحُذِف المشبَّه بـه وأُبقِي على شيء من لوازمه وهو (الوثوب) ، فاستعير للفتنة . ومنه : « ولَمّا يمتطوا الخوف »[2] ، و « وردنا حياض المنايا »[3] ، و « حتى يفجِّر مروان ينابيع الفتن تَأجَّجُ في البلاد »[4] ، و « لكنها الداهية الكبرى : يُرْكَبُ جَمَلُها ويُذَلُّ صَعْبُها »[5] ، و « أراد أن يُرَيِّثك ويُبَطِّئك حتى يذوق أهل الشام »[6] ، و « رأيت سُحُب الموت كيف هطلت عليك بصيِّبها »[7] ، و « أكَلَتْهُمُ الحرب »[8] ، و « انْـزِعْ سِرْبال غَيِّك »[9] ، و « إنَّ الفتنة طالما أَغْدَفَتْ جلابيبها »[10] ، و « إنَّ القوم لَمّا لَبِسَهم الليل خرجوا من تحته متنكِّبين إلى أرض الأهواز »[11] ، و « أمّا الهوى فإليكم طائر »[12] ، و « ضَرَب الْجَوْر سُرادِقه على البَرّ والفاجر »[13] ، و « احْلُلْ عقدة الخوف عن قلوبهم »[14] ، إلى غير ذلك من النماذج الأخرى .

---

(١) م.س ، ٢٩٦/١ والْخَطْم : من كل دابة مقدم أنفها وفمها .

(٢) م.س ، ٣٥٠/١

(٣) م.ن .

(٤) م.س ، ٣٥٣/١

(٥) م.س ، ٣٧٥/١

(٦) م.س ، ٣٩٠/١

(٧) م.س ، ٤٢٦/١

(٨) م.س ، ٤٧٤/١

(٩) م.س ، ٤٧٦/١

(١٠) م.س ، ٥٠٦/١ وأَغْدَفَتْ : أرخت وأرسلت .

(١١) م.س ، ٥١٠/١

(١٢) م.س ، ٥٢١/١

(١٣) م.س ، ٥٤٨/١

(١٤) م.س ، ٥٥٨/١

ويلمس المرء في مجمل هذه الاستعارات أنها نتيجة مباشرة للمعاناة العامة والخاصة ، فجاء أكثرها مادياً حسياً مستمداً من اللباس والحيوان والطير والأكل والشرب ومظاهر الطبيعة المختلفة كالسحاب والينابيع وغيرها ، وقد وُظِّفَتْ هذه الاستعارات ، كما نرى ، في التعبير عن فكر المجتمع في تلك الفترة أو عن بعض الخوالج النفسية للأفراد في ذلك المجتمع .

د ـ الكناية :

وحَدُّها الجامع كما ذكره ابن الأثير أنها « كل لفظة دلَّت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز »[1] ، وهي ضد التصريح ، وتعني في أصل الوضع أن يتكلم المرء بشيء وهو يريد غيره ، أو هي استعمال بعض الألفاظ في معنى لا يقصد لذاته أو لظاهره ، وإنما يقصد به ما يلزم هذا المعنى أو ما يترتب عليه ، مثل قولنا : « بَعِيدَةُ مَهْوَى القُرْطِ » أي : طويلة العنق . وقولنا : « طويل النِّجاد » أي : طويل القامة ، لأنها صفة لازمة لطول النِّجاد الذي هو حِمالَة السيف . وقولنا : « كثير الرماد » أي : كريم ، لأن كثرة الرماد يترتب عليها كثرة النيران ، وكثرة النيران يترتب عليها كثرة الطبخ والقدور ، وكثرة الطبخ والقدور تدل على كثرة الضيوف ، وكثرة الضيوف تدل على الكرم . وتدخل الكناية لذلك في باب المعاني أيضاً لا الألفاظ ، وواضح أنها تدخل ضمن نطاق التعبير بالصورة ، مما يجعلها أكثر وضوحاً وتجسيداً ، وأرفع عن الابتذال الذي يلازم التصريح والقرب عادة . وقد وردت طائفة لا بأس بها من هذه الكنايات في رسائل صدر الإسلام ، غير أنها لم تكن كثيرة جداً ، لأن طبيعة استخدامها في الكلام تقتضي قلتها ، وهذا طرف من هذه الطائفة :

ورد في كتاب للنبي ﷺ في الدعوة إلى الإسلام قوله : « وَاعْلَمْ أَنَّ دِيْنِي

(١) انظر كتابه : المثل السائر ، ٥٢/٣

سَيَظْهَرَ إلى مُنْتَهى الْخُفِّ والحافِرِ »[1] ، كناية عن أبعد الآفاق على وجه الأرض . وورد في بعض كتب صدر الإسلام : « إني امرؤ من بني عِجْلٍ أَحْلاسِ الخيل »[2] ، كناية عن الفروسية والشجاعة وملازمة ظهور الخيل ، و « قد جاؤوا يجرون الشوك والشجر »[3] ، كناية عن كثرة أعدادهم ، و « ذكروا أن الروم قد أقبلت إلى الشام بقَضِّها وقَضيضها »[4] ، كناية عن الكثرة أيضاً ، لأن القَضّ : الحصى الكبار ، والقَضيض : الحصى الصغار ، فكنّى بذلك عن أن القوم جاؤوا بأجمعهم صغاراً وكباراً ، و « اتخذوك كهفاً »[5] ، كناية عن الاستتار به واللجوء إليه والاحتماء به . و « قد عجبت بكتابك إليّ ببُنَيّات الطُّرُق »[6] ، كناية عن التُّرَّهات والأباطيل ، لأن بُنَيّات الطرق هي الطرق الصغار التي تتشعب من الجادة ، ويُكنّى بذلك عمن يترك الأسباب الجوهرية إلى الأسباب الفرعية والهامشية في الجواب عن مسألة ، و « لا تَنْكَأ القَرْح »[7] ، كناية عن عدم إثارة الناس . و « سأجهد أن أطهر الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم الْمَرْكُوس ، حتى تخرج الْمَدَرة من بين حَبّ الْحَصيد »[8] ، كناية عن التنقية والتطهير والفرز ، و « إني خائف إن قُتِل أن تكون ـ أي : الخلافة ـ من بني أمية بمناط الثُّرَيّا »[9] ، كناية عن شدة البعد ، و « حتى أُنْصِب لهم حرباً تضع الحوامل لها أطفالها »[10] ، كناية عن هول هذه الحرب وشدة الفزع فيها ،

(١) جمهرة رسائل العرب ، ١/٤٤ ـ ٤٥

(٢) م.س ، ١/١٢٨

(٣) م.س ، ١/١٤٧

(٤) م.س ، ١/١٧٦

(٥) م.س ، ١/٢٢٠

(٦) م.س ، ١/٢٢٢

(٧) م.س ، ١/٢٩٦

(٨) م.س ، ١/٣٣٢ والْمَرْكوس : المعكوس أو المقلوب .

(٩) م.س ، ١/٣٣٥

(١٠) م.س ، ١/٣٥٠

و « السهم سهمك مالم يَنْبِض به الوتر »[1] ، كناية عن انطلاقه ، و « لن يرُدّ الحالب في الضَّرْع اللَّبن »[2] ، كناية عن استحالة وقوع الأمر ، و « لا تُتْرَك حتى يُخْلَط زُبْدُك بخاثِرك ، وذائبك بجامدك »[3] ، كناية عن إيقاع المرء في الحيرة والتردد ، و « جعلتك شعاري وبطانتي »[4] ، كناية عن شدة القرب والثقة ، إلى غير ذلك .

واستعمال الكناية يكون عادة أوقع في النفس وأشد تأثيراً من التصريح بالمراد مباشرة باستعمال الكلمات على الحقيقة ، ولذا فإنه ليس كل امرئ بقادر على مثل هذا الاستعمال ، لأنها تحتاج إلى قدرة على التجريد والصياغة والإبداع والخيال الخصب وإدراك العلاقة بين المعنى المستخدم في صياغة هذه الكناية وما يلزم عن هذه الصياغة من معنى كُنِّي به عنه . ولذا فإنّ الكناية تعدّ إحدى الوسائل التي ترتفع بالكلام العادي إلى مستوى الكلام الفني الرفيع ، بما تُضْفي عليه من رونق وجمال في التعبير .

هـ ـ التشبيه :

وحَدُّه مقارنة شيء بشيء ، مادي أو معنوي ، نظراً لوجود شَبَه في أبرز الصفات والخصائص الجوهرية أو العرضية ، ونميز بينه وبين التمثيل ، الذي سيرد ذكره بعد قليل ، بأن التشبيه بسيط يكون بين شيء وشيء ، أما التمثيل فإنه (تشبيه مركب) لشيئين فأكثر بشيئين آخرين فأكثر ، أي أنه تشبيه صورة متعدّدة العناصر والجوانب بصورة أخرى فيها عناصر وجوانب مقابلة لها من بعض وجوه الشَّبه الجوهرية أو العرضية . وقد يدهش المرء حينما يرى قلة ورود

(١) م.س ، ٣٥٢/١

(٢) م.ن .

(٣) م.س ، ٣٧٥/١

(٤) م.س ، ٥٩١/١

التشبيه في رسائل صدر الإسلام ، مع أن الشعر الجاهلي الذي كان لا يزال غضّاً طرياً في نفوس العرب في هذه الفترة كان يقوم على هذه الناحية الفنية في أكثر صوره التعبيرية التي تعطي الشعر حياةً وجمالاً وتأثيراً ، بل كان التشبيه من أبرز الفنون في هذا الشعر وأكثرها استيلاء عليه ، حتى كان معرضاً مناسباً لفن هذا الشاعر أو ذاك في الجاهلية ، ولا شك في أن ظلال هذه النزعة قد امتدت إلى شعر فترة صدر الإسلام أيضاً ، وهذا ما حدا بنا إلى استغراب ضعف هذا الجانب التصويري المهم في التعبير الفني للترسل في الفترة نفسها ، غير أننا إذا طبقنا نظريتنا القائلة **بالتعادل في المستوى البلاغي بين الشعر والنثر في العصر الواحد** استطعنا أن نفهم قلة استعمال التشبيه في ترسل صدر الإسلام ، ذلك لأننا إذا تتبعنا استعماله في شعر صدر الإسلام وجدناه يقل إلى حد كبير عما كان عليه في الشعر الجاهلي المحض ، فاستتبع ذلك قلة استعماله في النثر أيضاً على مقتضى التعادل البلاغي المشار إليه آنفاً . ولا شك في أن التشبيه في أغلبه كان يعتمد على المحسوسات البيئية التي يعيش فيها الْمُتَرَسِّل ، فكان يستمد عناصرها ويصوغها صياغة فنية معينة لخدمة المعاني التي يريد التعبير عنها ، ويصوِّر التشبيهُ عادة واقعَ المترسِّل الاجتماعي وهمومه النفسية الخاصة في الوقت نفسه ، كأن يشبِّه الجائع البدر بالرغيف ، ويشبِّهه الشبعان بالدرهم .

ومن جملة التشابيه في ترسُّل صدر الإسلام : « فقد جئتك بقوم يحبّون الموت كما تحبّون الحياة »[1] ، ووصف عمرو بن العاص البحر في كتاب إلى عمر بن الخطاب فقال : « وإنما هم ـ أي : الناس ـ فيه كدود على عود »[2] ، وورد في بعض الكتب : « ولا آخذ منها ـ أي : الدنيا ـ إلا كقوت أتانٍ دَبِرَة »[3] ،

(١) م . س ، ١٣٢/١

(٢) م . س ، ٢١٣/١

(٣) م . س ، ٣٢٩/١

و « الدنيا عنده كيوم حان انسلاخه »[1] ، و « إني خائف ، إن قُتِل ، أن تكون - أي : الخلافة - من بني أمية بمناط الثريا ، إن لم نصر كرصيف الأساس »[2] ، و « نُحِر كما يُنْحَر البعير الكبير »[3] ، و « إن بني أمية في الناس كالشامة الحمراء »[4] ، و « خَرَجْتَ كالثعبانِ المنسلخ »[5] ، و « كن كالفهد لا يصطاد إلا غِيْلَة .. وكالثعلب لا يُفْلِتُ إلا رَوَغاناً ، وأخْفِ نفسك منهم إخفاء القنفذ رأسه عند لمس الأكف .. وابحث عن أمورهم بحث الدجاجة عن حَبِّ الدُّخْن عند فِقاسها »[6] ، و « كأني بكم يابني أمية شَعاريرَ كالأوارِق تقودها الْحُدَاة ، أو كَرَخَم الْخَنْدَمَة تذرف خوف الْعُقاب »[7] ، و « لو قد استتب الأمر لمريده ألفيت كشريد النعام يَفْزَع من ظل الطائر »[8] ، و « كتابي إليك وأنا كحرباء السبسب في الهجير تَرْقُب عين الغزالة ، وكالسَّبُع الْمُفْلِت من الشَّرَك يَفْرَق من صوت نَفَسِه »[9] ، و « لَمّا أقْصَده السهم صرنا كالنعام الشارد »[10] ، و « أنا وأنتم يابني أمية كالحجر ، لا يُبْنى بغير مَدَر ، وكالسيف لا يَقْطَع إلا بضاربه »[11] ، و « إنّ

---

(1) م . س ، ٣٣٢/١

(2) م . س ، ٣٣٥/١

(3) م . س ، ٣٣٧/١

(4) م . س ، ٣٣٥/١

(5) م . س ، ٣٤٠/١

(6) م . س ، ٣٤١/١

(7) م . س ، ٣٤٣/١ وشعارير : متفرقين . والأوارق : جمع أَوْرَق ، وهو من الإبل ما كان في لونه بياض إلى سواد . والرَّخَم : جمع رَخَمَة ، وهي طائر أبقع على شكل النسر خلقة إلا أنه مُبَقَّع بسواد وبياض . والْخَنْدَمة : جبل بمكة .

(8) م . س ، ٣٤٤/١

(9) م . س ، ٣٤٧/١ والسبسب : الصحراء .

(10) م . س ، ٣٤٨/١

(11) م . س ، ٣٥١/١

القضاء السابق ، والقَدَر النافذ ، يَنْزِل من السماء يَقْطُر كالمطر »[1] ، و « أكَلَتْهُمَ الحرب فلم يبقَ منهم إلا كالثَّمْد في قرارة الغدير »[2] ، و « ايْمُ الله لئن ألجأتموني إلى المسير إليكم ، لأُوقِعَنَّ بكم وقعة لا يكون يوم الجمل إليها إلا كلعقة لاعق »[3] ، إلى غير ذلك من النماذج الأخرى .

ويلاحظ أن أبرز ماتتميز به هذه الطائفة من التشابيه أنها مادية مستمدة من الحياة اليومية ومن البيئة الطبيعية والاجتماعية في ذلك العصر ، مع تمثيلها طبيعة الوضع الاجتماعي وما فيه من صراع تمثيلاً دقيقاً ، إذ يجد المرء فيها توظيفاً مباشراً منبثقاً من همّ من هموم المجتمع أو من الهموم الشخصية الخاصة المرتبطة بتلك الهموم آنذاك .

و ـ التمثيل :

وقد رأينا آنفاً أنه يفترق عن التشبيه في كونه مركباً ، أو هو تشبيهُ متعدِّد بمتعدِّد ، أو باختصار صورة بصورة ، وهو متعلق بالمعاني دون الألفاظ . وقد كان هذا النوع من التعبير الفني قليلاً نادراً في رسائل صدر الإسلام . ويمكن أن نسوق على هذا التمثيل بعض النماذج من ترسل هذه الفترة ، ومن أبرزها ما كتب به النعمان بن مُقَرِّن إلى عمر بن الخطاب يستعفيه من عمل الخراج بكَسْكَر ليلحق بجيوش الفتح ويجاهد فيها : « ياأمير المؤمنين ، إنّ مَثَلي ومَثَل كَسْكَرَ ، كَمَثَل رجل شاب إلى جانبه مومسة تَلَوَّن له وتَعَطَّر »[4] ، وما كتب به زياد بن أبيه من كلام علي : « الدعوى بلا بيِّنة كالسهم بلا نَصْل »[5] ، وما كتب به معاوية

---

(١) م . س ، ٣٨٥/١

(٢) م . س ، ٤٧٤/١ ، والثَّمْد : الماء القليل .

(٣) م . س ، ٥٨٤/١

(٤) م . س ، ٢٦٥/١

(٥) م . س ، ٥٨٣/١

إلى زياد بفارس وهو عامل عليها لعلي : « إنه غَرَّتْك قِلاع تأوي إليها ليلاً كما تأوي الطير إلى وكرها »[1] .

ولعل وعورة السبيل إلى عقد مقارنة بين صورة متعدّدة العناصر وصورة أخرى متعدّدة العناصر أيضاً كان سبب قلة ورود التمثيل في النصوص النثرية ، نظراً لأن التروّي فيها لا يأخذ من صاحب الرسالة إلا قدراً ضئيلاً من الوقت ، لأنه كان رهناً بالوقائع الاجتماعية والسياسية الخارجية المحيطة به ، والتي كانت تتلاحق فتضطر أولي الأمر من الخلفاء والعمال إلى الكتابة في زمن محدود لا يتجاوزونه كثيراً ، مما يفقدهم القدرة على التروّي طويلاً فيما يكتبون .

ز ـ صحة التقسيم :

وقد يُدعى هذا الفن من الكلام (التقسيم) مجرداً ، وهو أن يذكر المرء معنى فيستوفي أقسامه أو وجوهه المحتملة له محيطاً بها جميعاً من غير أن تكون هنالك حاجة إلى إضافة المزيد إليها . وقد استعمل هذا التقسيم في ترسل صدر الإسلام ، ولكن على نطاق ضيق ، ومن أبرز نماذجه أن النّبي ﷺ كان يكتب إلى من يدعوهم إلى الإسلام إن كانوا من أهل الكتاب بمثل قوله : (فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَالْجِزْيَةُ ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَقَد آذَنْتُكُمْ بِحَرْبِ الإسْلامِ)[2] ، وواضح أن هنالك ثلاثة خيارات للدعوة هي على التدرج : الإسلام ، والجزية ، والحرب . ولا مزيد على هذه الأقسام يمكن أن يضاف إليها بحسب عقيدة الإسلام ، لأن موقف هؤلاء المدعوين إما أن يكون بالقبول فيصبحون من المسلمين : لهم مالهم وعليهم ما عليهم ، وإما أن يقبلوا بطاعة المسلمين والخضوع لهم في مقابل هذه الجزية ، وإما أن يرفضوا الدعوة والجزية معاً فتقع الحرب ، ويتكرر مثل هذا التقسيم في كثير من كتب

---

(١) م . س ، ٥٨٤/١

(٢) م . س ، ٧٦/١

الدعوة إلى الإسلام على لسان الخلفاء والعمال والقادة . ومن ذلك أيضاً : « إن البحر خلق عظيم يركبه خلق صغير : إنْ رَكَن خَرَّق القلوب ، وإنْ تحرَّك أزاغ العقول »[1] ، و « إنْ يكن عثمان قُتِل ظالماً فمالكما وله ؟ وإنْ قُتِل مظلوماً فغيركما أولى به ، وإنْ كان أمره أشكل على من يَشْهَده فهو على من غاب أشكل »[2] .

وواضح لنا أن هذا التقسيم يمكن أن يشمل كثيراً من أنواع المقابلات التي مرَّت بنا من قبل ، لأنها تكون مقابلة بين ضدين لا ثالث لهما في أغلب الأحوال ، مما يجعلها داخلة في باب هذا الفن من الكلام ، غير أن ظاهر المراد من التقسيم أن يكون قائماً على أكثر من قسمين ، ولذا فإننا نمتنع عن إدخال تلك المقابلات تحت مفهوم التقسيم . ولذلك نجده قليلاً نادراً في ترسل صدر الإسلام ، لأن المقابلة أيسر منه وأقوى على إظهار المعنى ، ولأن التقسيم ليس فيه ذلك التضاد العنيف الذي نجده في المقابلة عادة ، وتبقى للتقسيم قيمة هامة هي التدقيق في أجزاء الفكرة أو المعنى .

ح ـ الاستدارة :

وتُعْرَف أيضاً عند البلاغيين بـ (التنسيق) أو (حُسْن النَّسَق) ، وهي جملة تشتمل على فاتحة وخاتمة ، وبينهما عدد من القرائن ترتبط بإحكام وتساوق في انتظام ، وتحمل كل قرينة منها جزءاً من المعنى ، ولا يتم المراد منها إلا بذكر القرينة الأخيرة التي تكون خاتمة الكلام . وهي لذلك تدخل في باب المعاني ، وكان استعمالها قليلاً نادراً في ترسل صدر الإسلام ، ويبدو لنا جلياً أن هذه الاستدارة تقوم بوظيفة تفصيل المعنى والتدقيق فيه ، ومن نماذجها : « إني أسأل الله الذي أعزنا بالإسلام ، وشرفنا بدينه ، وأكرمنا بنبيه محمد ﷺ ، وفضّلنا

---

(١) م . س ، ٢١٣/١

(٢) م . س ، ٣٦٠/١

بالإيمان ، رحمة من ربنا لنا واسعة ، ونعمة منه سابغة ، أن يتم مابنا وبكم من نعمته »[1] ، وأصل الكلام في هذه الجملة الطويلة : « إني أسأل الله أن يتم .. » ، فلم يخلص إلى غرضه مباشرة وإنما استطرد واستدار حتى وصل إلى مبتغاه . ومنه : « إنّ جهاد من صَدَف عن الحق رغبة عنه ، وهَبَّ في نُعاس العمى والضلال اختياراً له ، فريضة على العارفين أن الله يرضى عمن أرضاه ويَسْخَط على من عصاه »[2] ، والأصل : « إنّ جهاد من صدف عن الحق فريضة » ، إلى غير ذلك من النماذج الأخرى .

ط ـ المساواة :

وهي أن يؤتى بقرينة ثم بقرينة أخرى بعدها تساويها تماماً في المعنى من غير ترادف ، ووظيفة هذا الفن أن يظهر التماثل بين أمرين أو يظهر استواءهما في الحكم ، وخير مثل عليه من ترسل صدر الإسلام ما كتب به معاوية إلى علي أثناء وقعة صفين ، إذ يقول : « اعلم أن الشام لا يُمْلَك إلا بهلاك العراق ، وأن العراق لا يُمْلَك إلا بهلاك الشام ، فما خيرنا بعد إعذارنا فيكم ، وما خيركم بعد إعذاركم فينا ، وإن فينا لَمَنْ يكره اللقاء ، كما أن فيكم مَنْ يكرهه »[3] ، ومثله ما جاء في كتاب آخر من معاوية أيضاً إلى علي حيث يقول : « فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو ، ولا أخاف من القتل إلا ما تخاف »[4] ، ويلاحظ أن هذه المساواة نوع من هندسة المعاني يضفي رونقاً على المعنى ويعطي لمسة من الأناقة في التعبير .

ي ـ الترادف :

وهو الإتيان بقرينة في معنى من المعاني ، ثم إردافها بقرينة أخرى أو أكثر في

(١) م.س ، ١٥٢/١

(٢) م.س ، ٤٥٧/١

(٣) حسن التوسل إلى صناعة الترسل لابن سليمان الحلبي ، ص ٨

(٤) الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ، ص ١٨٧

ذات المعنى والمنحى ، ولكن بكلمات أخرى وبجوانب مقاربة لها أو مشابهة ، وبذا يزداد المعنى توكيداً ووضوحاً بتقليبه على عدد من وجوهه ، من غير أن يُغَيَّر فيه شيء جوهري أو يضاف إليه معنى غيره . وهذا الترادف داخل كما نرى في باب المعاني ، ويختلف عن (التكرار) الذي سنراه في الفقرة التالية في أن الترادف يقع في قرينة كاملة أما التكرار فيقع في لفظ واحد ، ومعنى القرينة مركب ، في حين أن معنى اللفظ المكرر مفرد . وقد استُعْمِل هذا الفن من الكلام استعمالاً واسعاً جداً في ترسل صدر الإسلام حتى إنه لا تكاد رسالة واحدة تخلو منه ، وهذا الولع الشديد بالترادف دليل أكيد على ميل العرب إلى تقليب المعنى على شتى وجوهه حتى يغدو ناضجاً مكتمل الصورة في ذهن القارئ والسامع لئلا يبقى فيه لبس أو غموض . ولن نستطيع هنا أن نحصر نماذج هذا الترادف ولذا نكتفي بعرض شيء منها يكون معبراً عنه ، كقولهم : « وإن عظمت فيه المؤونة ، واشتدت فيه الرزية ، وبعدت فيه الشقة ، وفجعتم في ذلك بالأموال والأنفس »[1] ، ولا « تعصين له أمراً ، ولا تخالفن له رأياً »[2] ، و « الحمد لله الذي حلّ نظامكم ، ووهّن كيدكم ، وفرق كلمتكم »[3] ، و « إنا نذكرك يوماً : تبلى فيه السرائر ، وتكشف فيه العورات ، وتظهر فيه المخبآت ، وتعنو فيه الوجوه »[4] ، و « امنع المسلمين من ظلمهم ، والإضرار بهم ، وأكل أموالهم »[5] ، و « إنكم قد خليتم لهم الأرض ، وخرجتم منها ، وأقبلتم منصرفين عنها »[6] ، و « ليجتمع بعض المسلمين إلى بعض ، ويجتمعوا من أطرافهم ، وينضم إليهم من كان قربهم »[7] ، و « والله

(١) جمهرة رسائل العرب ، ١٢٧/١

(٢) م.س ، ١٢٨/١

(٣) م.س ، ١٤٠/١

(٤) م.س ، ١٥٩/١

(٥) م.س ، ١٧١/١

(٦) م.س ، ١٧٦/١

(٧) م.س ، ١٧٩/١

مـا كنزتُ من دنيـاكم تِبْراً ، ولا ادَّخرتُ من غنـائمها وَفْراً »[1] ، إلى غير ذلـك من النماذج .

ك ـ التكرار :

ويقع في الألفاظ خاصة ، وإذا تكرر اللفـظ مرة أو أكثر فـإنما يكون ذلـك بقصد زيادة الكلام تـأكيـداً ووضوحـاً ، إلا أن ظـاهرة هـذا التكرار في الكلام لم تكن شائعـة ولا منتشرة على نطـاق واسع في ترسل صـدر الإسلام ، بل كانت ترد بين الحين والحين ، ومن نمـاذجـه مثـلاً : « والصَّبْرَ الصَّبْرَ »[2] ، و « الْحَـذَرَ الْحَذَرَ »[3] ، و « الوفاءَ الوفاءَ »[4] ، و « الفَهْمَ الفَهْمَ فيما تلجلج في صـدرك »[5] ، و « الأمانـةَ الأمـانـةَ قوموا عليهـا »[6] ، و « اللهَ اللهَ ثم اللهَ اللهَ »[7] ، وقـد تتكرر كلمة واحدة عدة مرات مقترنة في كل مرة بكلمـة مختلفـة ، ومن ذلـك ورود لفـظ الجلالة في بعض الرسائل على الصورة التالية : « فكتبت إليك حين نهضت إليهم : متوكلاً على الله ، راضياً بقضاء الله ، واثقاً بنصر الله »[8] ، ومثل ذلك : « فقتلهم الله في كل قريـة ، وكل شعب ، وكل واد وجبـل وسهـل »[9] ، و « إن الله خلـق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق ، وأعطوا الحق »[10] .

---

(١) م٠س ، ٣٢٩/١

(٢) م٠س ، ٢٣٥/١

(٣) م٠س ، ٢٣٦/١

(٤) م٠س ، ٢٣٧/١ و ٢٩٠

(٥) م٠س ، ٥٥٢/١

(٦) م٠س ، ٢٩٠/١

(٧) م٠س ، ٣١١/١

(٨) م٠س ، ١٦٧/١

(٩) م٠س ، ١٨٦/١

(١٠) م٠س ، ٢٩٠/١

ل ـ السجع :

ذكر بعض البلاغيين أنـه تواطـؤ فـاصلتين أو أكثر من النثر على التشـابـه في الحرف الأخير ، وهـذا يعني أن يُخْتَتَم آخر كلمـة من إحـدى القرائن بحرف من حروف الهجـاء ، ثم تليهـا قرينـة أو أكثر بعـدهـا تكون فـاصلـة كلّ منهـا مختتمـة بـالحرف نفسـه ، ويُوقَف على هـذا الحرف عـادة بـالسكون على مقتضى الوقف في آخر الكلام أو عنـد القطع والسكوت . وهـذا السجـع داخـل ـ كا نرى ـ في بـاب الألفاظ لا المعاني ، ذلك لأنـه تعبير صوتي يهـدف لتوقيع أواخر القرائن في الكلام توقيعاً موسيقياً فيه أنغام ذات جرس واحـد يطرب الأسماع عنـد الوقوف عليـه ، ويكون التشابه الصوتي في الحرف الأخير سرّ جمـال هـذا الفن . وقـد عرف السجع في كـلام الكهـان في الجـاهليـة ، وقـد ورد في آيـات القرآن الكريم ، وأحـاديث النبي ﷺ ، وكلام الخلفاء الراشـدين على نطـاق واسع ، ونجـده منتشراً في ترسل صدر الإسلام ، حتى إنه لاتكاد رسالة في تلك الفترة تخلو منه ، بل إنها تأخذ منـه بحظ قليل أو كثير . على أن هذا السجع في رسائل تلك الفترة كان يـأتي عفواً على مقتضى الطبع والسليقة ، من غير أن يسعى إليه الكُتّاب سعيـاً حثيثـاً أو يطلبوه طلباً مجهداً ، ولذا كان يبتعـد عن صفـات التكلف والتصنع ، فقـد ذكر أبو هلال العسكري أن ما يلزم الكاتب في تـأليف الرسـائل هو أن يجعلهـا مزدوجـة فقـط ، ولا يلزمه فيها السجع ، فإن جعلها مسجوعة كان أحسن مالم يكن في هـذا السجع « استكراه وتنافر وتعقيـد »[1] ، وذكر أن هـذه العيوب تقع في الغـالب إذا طـال السجع[2] . وقد نبه على هذه القضية ابن وهب الكاتب حين قـال إن من أوصـاف الكلام البليغ « السجع في موضعه ، وعنـد سماحـة القول بـه ، وأن يكون في بعض الكلام لا في جميعه .. فأمـا أن يلزمـه الإنسـان في جميع قولـه ورسـائلـه وخطبـه

(١) انظر : كتاب الصناعتين ، ص ١٦٥

(٢) م.ن .

ومناقلاته ، فذلك جهل من فاعله ، وعِيٌّ من قائله »[1] ، وزاد على ذلك قوله إن السجع إذا أتى بـه المرء « في بعض كـلامـه ومنطقـه ، ولم تكن القـوافي مجتلبـة متكلفة ، ولا مُتَمَحَّلة مستكرهة ، وكان ذلـك على سجيـة الإنسـان وطبعـه ، فهو غير منكر ولا مكروه »[2] ، وذكر ابن سنان قريباً مما ذكراه[3] .

وقـد كان السجع طوال التـاريخ الأدبي القـديم سمـة أسـاسيـة من سمات النثر الفني ، وخصوصـاً في الترسل ، وقلما خلت منـه رسـالـة حتى أوائل عصر النهضـة الحـديثـة ، وهـذا مـا جعلـه ذا سلطـان واسع وتـأثير عميق في الاتجـاهـات الفنيـة للكُتّاب ، وقد بلغ من اصطناعه وتكلّفـه في بعض العصور الأدبيـة المتـأخرة منـذ القرن الرابع الهجري حدّاً بعيداً أصبح فيه حلية لا غنى عنهـا البتـة ، ولا شـكَّ في أن إثقال النثر الترسلي بهذه الحلية يجعله نثراً ممجوجاً مكروهاً تمامـاً كما تنقلب الحلي على المرأة إن أثقلت بهـا والأصبـاغ إن بولغ فيهـا إلى نوع من القبـح غير مريـح . وقد كان هذا السجع مع ذلك مدرسة أسـاسيـة من مـدارس النثر الترسلي العربي في مختلف عصوره .

وقد اختلف النقاد والبلاغيون القـدمـاء في كراهـة السجع وجوازه في الكلام أصلاً ، إلا أن جمهورهم اتفق على أنه جائز في الكلام كأي مذهب وأي حلية أخرى فيه ، واشترطوا له ألا يكون مستكرهاً متكلفـاً وإلا خرج إلى حـد القبح والتنفير والركاكة والضعف ، أما إذا كان عفوياً منسـاقاً مع الطبع نابعـاً منـه فهو من أحلى الحلي في الكـلام ، لمـا يضفي عليـه من الموسيقى والبهـاء ، وقـد أكثر النقـاد والبلاغيون من الكلام على القرينتين المتفقتين في السجع : من حيث التسـاوي أو التفاوت في الطول والقصر ، والتقديم والتأخير بينهما إلى غير ذلـك من الأمور التي

---

(١) انظر كتابه : البرهان في وجوه البيان ، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩

(٢) م.س ، ص ٢٠٩ ومتمحلة : محتالاً عليها .

(٣) انظر كتابه : سر الفصاحة ، ص ٢٠٥

تمس هذه الظاهرة الفنية في درج الكلام وفواصله . وربما اتفقت فاصلتان أو أكثر في حرف السجع فقط ، وهو ما يعرف بـ (السجع الْمُطَرَّف) مثل : (مارق ومنافق) ، وربما اتفقتا في حرف السجع هذا وفي الوزن معاً مثل : (المهالك والمسالك) ، ويعرف بـ (السجع المتوازي) .

وقد وقعنا في رسائل صدر الإسلام على عشرات من نماذج هذا السجع لا يسعنا أن نذكرها هنا بأي حال ، ولذا نكتفي ببعض هذه النماذج ، كقولهم : « عظَّم الله لك الأجر ، وألهمك الصبر ، ورزقنا وإياك الشكر »[١] ، و « إنه سبيل يُعْظِمِ الله فيه الأجر لِمَنْ : حَسُنَتْ فيه نيَّته ، وعَظُمَتْ في الخير رغبته »[٢] ، و « كفانا الله وإياك والمؤمنين : مكيدة كل كائد ، وحسد كل حاسد ،.. وفتح لهم فتحاً يسيراً ، وجعل لهم من لدنه سلطاناً نصيراً »[٣] ، و « الحمد لله حمداً كثيراً : ليس له نفاد ، ولا يحصى له تعداد »[٤] ، وورد في وصف راكب البحر : « إن مال غَرِق ، وإن نجا بَرِق »[٥] ، وورد في بعض الرسائل : « فإنما تأكلون النار ، وتُورِّثُون العار »[٦] ، و « إياك وعمياء مجهولة ، وضغائن محمولة »[٧] ، و « إنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه »[٨] ، و « الخير : أن يكثر حِلْمُك ، وأن ينفعك علمك »[٩] ، و « ليكن كلامك ذكراً ،

---

(١) جمهرة رسائل العرب ، ٦٦/١

(٢) م . س ، ١٢٧/١

(٣) م . س ، ١٦٧/١

(٤) م . س ، ١٧٥/١

(٥) م . س ، ٢١٢/١ وبَرِقَ : دَهِش فلم يُبْصِر أو تحيَّر فلم يَطْرِف .

(٦) م . س ، ٢٢٧/١ ـ ٢٢٨

(٧) م . س ، ٢٤٨/١

(٨) م . س ، ٢٨١/١

(٩) م . س ، ٣٢٤/١

وصمتـك فكراً »[١] ، و « عَلامَ الإفكاك يـابن العـاص ، ولاتَ حينَ مَنـاصٍ »[٢] ، و « معك حسن السياسة ، وأنت موضع الرياسة »[٣] ، و « إنّ من تأخير العطـاء حرماناً ، ومن تأخير النصر خـذلانـاً »[٤] ، و « أقمتَ بين المِصْرَيْن ، وبعـدتَ عن بركـة الحرمين »[٥] ، و « صُرِعُوا مصـارعهم حيث : لم يـدفعوا عظيمـاً ، ولم يحمـوا حريماً »[٦] ، و « لتخسأن : طريداً مـدحوراً ، أو قتيلاً مثبوراً »[٧] ، و « أيْمُ الله لأرْمِيَنَّـكَ بشهـاب :.. إذا وقـع وَقَب ، وإذا مسّ ثَقَب »[٨] ، و « اتَّـقِ الله فيما لـديـك ، وانظر في حقـه عليـك »[٩] ، و « إنّ للطـاعـة أعـلامـاً واضحـة وسبـلاً نيّرة :.. يَرِدها الأكيـاس ، ويخـالفهـا الأنكاس »[١٠] ، و « مع تضييع الحقـائق ، واطِّراح الوثائق »[١١] ، و « هجر لاغطاً ، وضلّ خابطـاً »[١٢] ، و « حتى خـذلـه قـومـه ، وأدركـه يـومـه »[١٣] ، و « لكنـه خلقهم عبيـداً ، وجعـل منهم غَـوِيّـاً ورشيداً ، وشقيّاً وسعيداً »[١٤] ، ومثل ذلك كثير .

---

(١) م . س ، ٣٢٥/١

(٢) م . س ، ٣٤٢/١ والإفكاك : التراخي .

(٣) م . س ، ٣٤٩/١

(٤) م . س ، ٣٨١/١

(٥) م . س ، ٤١٦/١

(٦) م . س ، ٤٢٠/١

(٧) م . س . ٤٢٤/١

(٨) م . س ، ٤٢٨/١ ـ ٤٢٩ ووقب : حفر نقرة وغاب . وثَقَب : أشْعَلَ وأحرق .

(٩) م . س ، ٤٣٤/١

(١٠) م . ن .

(١١) م . س ، ٤٧٢/١

(١٢) م . س ، ٤٧٥/١

(١٣) م . س ، ٥٢٨/١

(١٤) م . س ، ٥٤٣/١

م ـ الموازنة :

وتُعْرَف أيضاً بـ (التوازن) ، وحدُّها أن تكون ألفـاظ قرينـة مـا متسلسلـة وفق أوزان معينة ، ثم تأتي بعدها قرينة أخرى : توازن كل كلمة فيها مـا يقـابلهـا من القرينـة الأولى ، وقـد قصر بعض البـلاغيين[١] هـذه المـوازنـة على تسـاوي الفاصلتين فقط في الوزن دون التقفية ، وهذا هو حدّ (الازدواج) الذي سنراه في الفقرة التالية ، في حين أن هؤلاء البلاغيين أطلقوا على تسـاوي عـدد الكلمـات في قرينتين اسم (المماثلـة) ، ومنهم من أطلـق على هـذا التسـاوي العـددي اسم (الموازنة) ، بغضّ النظر عن أوزان الكلمات المتقابلة ، وهـذا إجحـاف بـالغـايـة البلاغية من الموازنة التي تتحقق من خلال التعريف الأول الذي أخذنا بـه . وعلى أي حال فإن هذه الموازنة تدخل في باب موسيقى الألفاظ والتراكيب ، ووظيفتها بالتالي إيقاعيـة ، إذ تجعل القرينتين منسجمتين وكأنها شطرا بيت من الشعر[٢] ، وتبقى المـوازنـة مـع ذلـك طريقـة من طرائـق نظم الألفـاظ بعضهـا مـع بعض . ولا يُشْتَرَط في فـاصلتي هـاتين القرينتين الاتفـاق في الحرف الأخير منهما ، وإن وقع مثل هذا الاتفاق كان أجمل في هذا الإيقـاع الـذي يلـذّ للأسماع وترتـاح إليـه النفوس .

وقـد وردت هـذه الحليـة الفنيـة في ترسل صـدر الإسـلام بقـدر ، ومن أبرز نماذجها : « آمرهم بما أمرهم الله به ، وأنهاهم عما نهـاهم الله عنـه »[٣] ، و « الحمـد لله الـذي : أعزنـا بـالإسلام ، وأكرمنـا بـالإيمـان »[٤] ، و « أنزل الله : على المـؤمنين

---

(١) كالقزويني في كتابه : التلخيص ، ص ٤٠٤ وانظر : التعريفات للجرجاني ، ص ٢٥٧

(٢) لعل هذه الموازنة ـ كما نتوقع من خلال طبيعتها هذه ـ أصل نشأة الأوزان الشعريـة قبل استعمال السجع أو بعده .

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ٦١/١

(٤) م . س ، ١٤٩/١

نصره ، وعلى المشركين رِجْزَه »[1] ، و « إنَّ الله أنـزل نصره ، وأنجـز وعـده »[2] ، و « إنْ مال غَرِق ، وإن نجا بَرِق »[3] ، و « إياك : أن تسقط سقطة لا شَوى لها ، وتعثر عثرة لا لعاً لها »[4] ، و « إنَّ أسعد الرعاة عنـد الله من سَعِـدَتْ بـه رعيتـه ، وإنَّ أشقى الرعاة من شَقِيَتْ به رعيَّته »[5] ، و « جعلوهم مرمى العَرّ والعَضِيْهَة ، ومَقْذِفَ القَشْب والأفيكة »[6] ، و « مع : صباحة وجهك ، وسماحـة كفـك »[7] ، و « خـانـوا وغـدروا ، وحـافـوا وحشروا »[8] ، و « إذا وقـع وَقَب ، وإذا مسّ ثَقَب »[9] ، و « هجر لاغطاً ، وضلَّ خابطاً »[10] ، و « إنِّي : لا أرجو من البقـاء إلا ماترجو ، ولا أخاف من الفناء إلا ما تخاف »[11] ، و « أصَبْتُ أقواماً : صغَّروا من ذنبي مـا عظَّمتم ، وعظَّمـوا من حقي مـا صغَّرتم »[12] ، و « والله لئن أطعتمـوني لا تَغْوُون ، ولئن عصيتموني لا تَرْشُدُون »[13] .

---

(1) م . ن . والرِّجْز : العذاب .

(2) م . س ، ١٥٤/١

(3) م . س ، ٢١٣/١

(4) م . س ، ٢٤٥/١ ولا شوى لها : أراد لا قيام منها أو لا إبقاء لها أو لا بُرْءَ منها . ولا لعـاً لهـا : لعـاً كلمة يدعى بها للعاثر معناها الارتفاع ، والتعبير هنا دعاء عليه بمعنى لا أقامه الله .

(5) م . س ، ٢٥٠/١

(6) م . س ، ٢٣٢/١ والعَرّ : السـوء والشر . والعضيهـة : الإفـك والبهتـان . والقَشْب : من الكـلام الافتراء ورمي المرء بما ليس فيه . والأفيكة : الكذب .

(7) م . س ، ٢٣٨/١

(8) م . س ، ٣٦٧/١

(9) م . س ، ٤٢٨/١ ـ ٤٢٩

(10) م . س ، ٤٧٥/١

(11) م . س ، ٤٧٨/١

(12) م . س ، ٥٠٢/١

(13) م . س ، ٥٧١/١

ن ـ الازدواج :

وهو أن تتساوى فاصلتا قرينتين متواليتين أو أكثر في الوزن دون السجع ، وعرَّفه بعض البلاغيين القدماء بأنه (السجع العاطل) ، ولذا بطل ماذهب إليه بعضهم الآخر من أنه تساوي الفواصل في الوزن سواء كانت مسجوعة أم لا ، وقد خصَّ الجرجاني تساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية باسم « الموازنة »[1] ، وهو تضييق لمفهوم هذه الموازنة الذي رأيناه آنفاً وخلط له بحد الازدواج الذي ذكرناه ، وقد أخرجنا من هذا الازدواج الفاصلتين المتفقتين في الوزن إن اتفقتا في الحرف الأخير ، لأن ذلك داخل في باب السجع ، وأخرجنا منه أيضاً الفاصلتين المتفقتين في الوزن مسجوعتين كانتا أم عاطلتين إذا وردتا في قرينتين متوازنتين ، لأن ذلك داخل في باب الموازنة ، ولذلك لن نعرض لهذين النوعين من الازدواج لتبعيتهما لغيرهما . إلا أن الملاحظ أن اجتماع الموازنة والازدواج والسجع تكون فيه موسيقى مركزة جداً في القرائن مما يضفي عليهما نغمة صوتية عذبة وانسياباً رقيقاً كانسياب الماء في الجدول أو انسياب بيت الشعر في شطريه . واجتماع هذه العناصر الموسيقية الثلاثة تقرب النثر كثيراً من الشعر في إيقاعاته من غير أن تتفق في الوقت نفسه مع أوزانه المعروفة المحددة ، إذ يكون مجال التصرف في موسيقى النثر أوسع من الشعر بكثير .

وقد ورد الازدواج في ترسل صدر الإسلام على نطاق واسع لانستطيع معه له حصراً في هذا المجال ، ولذا نكتفي ببعض نماذجه ، كقولهم : « إنَّ أنفسنا وأهلينا : نُمَتَّع بها إلى أجل معدود ، وتُقْبَض لوقت معلوم »[2] ، وقد وقع الازدواج كما نرى بين كلمتي : (معدود) و (معلوم) . ومنها : « إني أسأل

---

(١) انظر كتابه : التعريفات ، ص ٢٥٧

(٢) جمهرة رسائل العرب ، ٦٦/١

الله ..، رحمة من ربنا واسعة ، ونعمة منه علينا سابغة »[1] ، و « عَصَمَنا الله وإياكم بالإيمان ، وثبَّتنا وإياكم على الإسلام »[2] ، و « لا يُعْصى أمرك ، ولا يُخالَف رأيك »[3] ، و « قد أبْدَلَنا الله بها بلادَكم بلادَ العيش الرَّفِيْغ ، والسعر الرخيص »[4] ، و « نصر الله أهل دينه نصراً عزيزاً ، وفتح لهم فتحاً يسيراً »[5] ، و « احْتَسِبْ رجلاً كان أميناً ، وكان الله في عينه عظيماً ، وكان علينا وعليك ياأمير المؤمنين عزيزاً »[6] ، و « عليك بالبيِّنة العادلة ، أو اليمين القاطعة »[7] ، و « إنَّكم معشرَ الأمراء أكلتم الأموال ، وأخلدتم إلى الأعذار »[8] ، و « بعد قتال طويل ، وزلزال شديد »[9] ، و « ليس لك عندي إلا السيف حتى تفيء إلى أمر الله صاغراً ، وتدخل في البيعة راغماً »[10] ، و « ها أنذا قد قَرَّبْتُ جيادي ، ورَحَلْتُ رِكابي »[11] .

س ـ الجناس :

ويكون عادة بين لفظين ، وحَدُّه تشابهما في اللفظ : إما بتمام حروفهما وترتيبها وعددها وهيئتها ، وهو ما يعرف بـ (الجناس التام) ، وإما ببعض

(١) م . س ، ١/١٥٢

(٢) م . ن .

(٣) م . س ، ١/١٥٣

(٤) م . س ، ١/١٦٦ والرَّفِيْغ : الْمُتَّسِع الليِّن .

(٥) م . س ، ١/١٦٧

(٦) م . س ، ١/٢٠٢

(٧) م . س ، ١/٢٠٤

(٨) م . س ، ١/٢٢٧

(٩) م . س ، ١/٢٤٠

(١٠) م . س ، ١/٤٧٦

(١١) م . س ، ١/٥٨٠

حروفهما مع الترتيب والشكل أو من غيرهما ، وهو (الجناس الناقص) . وقد أكثر البلاغيون في بيان أنواع الجناس وفروعه إلى حد الإفراط . وهو داخل - كما نرى - في باب الألفاظ لا المعاني ، وغايته تحسين جرس الكلام وإيقاعه الموسيقي . ونلاحظ أنه كان قليل الاستعمال في ترسل صدر الإسلام ، وكان استعماله عفوياً تماماً من غير أي تكلف له أو سعي إليه ، وكان أكثره من الجناس الناقص ، وأبرز نماذجه : « أدعوك بدعاية الإسلام »[1] ، و « أسلم تسلم »[2] ، أو « أسلموا تسلموا »[3] ، و « ألبسنا الله عافيته وعفوه »[4] ، و « بغير قِدَمٍ سابق ، ولا شَرَفٍ باسق »[5] .

وخلاصة القول أن النثر الترسلي في صدر الإسلام كان يتمتع - كما رأينا - بجوانب فنية كان الناس يشعرون بأثرها ويحسون بقيمتها في تحبير كلامهم وتحسينه ، وهذا يمثل لنا بكل جلاء عمق القلق الفني الذي يساور نفوسهم ، ويمثّل لنا هموماً فنية راقية ، غير أن هذا التحبير لم يكن فيه أي تكلف أو تصنع ، بل كان يصدر عن الناس بعفوية وقدر لا إسراف فيه ولا غلو ، ذلك لأنهم كانوا لا يرون في هذا الإسراف جمالاً يُرْتَجى ولا حُسْناً يُبْتَغى ، إذ كان ميلهم إلى الاعتدال في كل شيء يترك أثره في حياتهم العملية ، وفي فنونهم المختلفة ومن جملتها نثرهم الترسلي . فإذن كان كُتّاب الرسائل في صدر الإسلام يحسّون إحساساً عفوياً بما تضيفه هذه الفنون على معانيهم من عمق ووضوح ودقة ، وعلى كلامهم من تنغيم وموسيقى وإيقاع وجمال ، من غير أن يعرفوا لها تلك الأسماء التي اصطلح عليها المتأخرون ليميزوا بعضها من بعض ، ولا يمنع الجهل باسم فن من

---

(١) م . س ، ٣٣/١ و ٣٦ و ٣٨

(٢) م . س ، ٣٣/١ و ٣٦ و ٣٨ و ٤٥ و ١٣٢

(٣) م . س ، ٦١/١

(٤) م . س ، ١٧٩/١

(٥) م . س ، ٤٣٠/١

الفنون أو ظاهرة من ظواهر القول من وجودها أو شعور الناس بحسنها واستعمالها بالتالي في تحبير كلامهم استعمالاً عفوياً وفق الدرجة التي يرتؤونها ، أو المستوى الذي يرتاحون إليه . وهكذا نجد رسائل صدر الإسلام تعجّ بمثل هذه الظواهر الفنية التي ينفي حضورها في المستوى الذي رأيناه كثيراً من الآراء التي أطلقها بعض الباحثين على عواهنها من غير استقراء دقيق للنصوص في هذا المجال ، حين استبعدوا ارتفاع النثر الترسلي آنذاك عن مستوى الكلام العادي أو دخوله في النثر الفني ، ودليلنا على خطأ ذلك تلك النماذج التي اجتزأنا بها آنفاً لتكون صورة مصغّرة لواقع الحال في بطون تلك الرسائل ، مع وقوفنا على أبرز الظواهر الفنية البلاغية ، مهملين في الوقت نفسه كثيراً من التفريعات التي لا طائل تحتها مما فتقه البلاغيون المتأخرون في هذه الفنون نفسها أو في غيرها من الفنون الأخرى الكثيرة التي لا نعدم أمثله لها من ترسل صدر الإسلام تمثلها تمثيلاً دقيقاً ، مؤكدين الرأي الذي بنى عليه ابن المعتز كتابه (البديع) من أن جميع فنون البلاغة قديمة في كلام العرب معروفة في الجاهلية وصدر الإسلام وليست من اختراعات المحدثين في العصر العباسي ، وحتى تلك الفنون البلاغية التي قد لا نجد لها أمثلة من كلام المتقدمين لا تدل بالضرورة على أنها لم تكن معروفة لديهم أو مستعملة ، بل تدل على أن سقوط أكثر كلام هؤلاء المتقدمين هو السبب الذي غيَّب عنا تلك الأمثلة وطمسها فيما غُيِّب أو طُمِس من آثار القرون المتقدمة .

ويلاحظ فيما مرّ بنا من الأمثلة أن بعض القرائن كانت تحتوي على عدد من الفنون البلاغية دفعة واحدة ، كاجتماع الموازنة والازدواج والسجع والترادف معاً مثلاً في : « وإياك أن تسقط سقطة لا شَوى لها ، وتعثر عثرة لا لَعاً لها »[1] ،

---

(١) م . س ، ٢٤٥/١ والشوى : إخطاء المقتل ، يريد أن هذه السقطة لا تخطئ مقتل من أصيب بها . واللعا : معناها الارتفاع ، يعني القيام من العثرة ، ويدعى بها للمرء وعليه إذا عثر ، فيقال : لعاً لك ، ولا لعاً لفلان ، أي لا أقامه الله .

ومثل ذلك كثير في ترسل صدر الإسلام ، وهذه ظاهرة مهمة تدل على تركيز الصفات البلاغية في القرينة الواحدة مما يرتفع بها حتماً عن مستوى الكلام العادي ويدخلها في نطاق الكلام الفني الجميل .

ونخلص من جملة ذلك إلى أن النثر الترسلي في صدر الإسلام كان يتمتع بجميع المزايا التي تؤهله ليكون من أبرز الأعمدة الفنية التي يقوم عليها الأدب في تلك الفترة ، وليؤكد لمن أنكر وجود النثر الفني فيها أنه كان داخلاً في صلب هذا النثر الذي كان في واقعه امتداداً للنثر الجاهلي نفسه ، إلا أن غياب نصوص النثر الفني الجاهلي كان يضعف موقف الباحث ، من الناحية العملية على الأقل ، في قضية الحكم بوجود هذا النثر ، غير أن النثر في صدر الإسلام أكّد وجوده نظرياً بما وصل إلينا من أخباره ، وعملياً بما وصل إلينا من نصوصه التي كان النثر الترسلي أكثرها صحة وأصالة ودقة على وجه الإطلاق بعد كتاب الله تعالى ، نظراً لتلك الميزة الخاصة به وهي كتابته في الصحف منذ الوهلة الأولى لوجود نصوصه بدءاً من الهجرة النبوية إلى المدينة على وجه الخصوص ، مع الاحتفاظ بطائفة صالحة من نصوصه لكونها وثائق تاريخية قيمة عند الناس ، وهذه أمور ثابتة تجعل حالات الشك فيها قليلة ومحدودة .

٢ ـ الأسس البنائية للأسلوب :

نتناول فيا يلي بالتحليل عدداً من أبرز الأسس التي بني عليها أسلوب الترسل في صدر الإسلام ، لنضع أيدينا على الإطار العام الذي كان يحيط بهذا الترسل ، وندخل منه بالتالي إلى بعض التفاصيل التي تزودنا بذخيرة طيبة لتحليل الترسل في الفترة التي تلت صدر الإسلام :

أ ـ الإيجاز :

يصل المرء من خلال استقراء الآثار المختلفة في صدر الإسلام إلى قناعة تامة

بأن النـاس آنـذاك كانوا يميلون في كل شؤونهم إلى الإيجـاز ، خصوصـاً في تعبيرهم عما في أذهانهم من أفكار ، وما في صدورهم من عواطف . فكان هذا الإيجاز أساساً هاماً في بنـاء أسـاليب القول عنـدهم ، إذ لم يكن الميل إلى الإطنـاب ، على وجـه العموم ، قـد حلّ عهـده بعـد ، ذلـك لأن كثرة الحروب والحوادث والفتن وسرعـة تطورها ، وعـدم الاستقرار النسبي للنـاس بسبب حركتهم الـدائبـة وقلقهم الـدائم نتيجـة لهـذه الظروف السـائـدة ، لم تتح الفرصـة للنـاس لكي يلتقطوا أنفـاسهم ، ويتـأملوا فيما حولهم ، ويطيلـوا هـذا التـأمـل في دعـة واطمئنـان . وهكـذا كان الإيجـاز منـاسبـاً جـداً للتعبير عن أحوالهم وعـواطفهم وأفكارهم ، وقـد تجلى ذلـك واضحـاً كل الوضوح في رسـائل صـدر الإسـلام التي كانت الأغلبيـة العظمى منهـا تتراوح بين بضعة أسطر وصحيفة واحدة مما كان يتخذ لكتـابـة الرسـائل آنـذاك . هذه هي السمة البارزة أو القاعدة العامة المتبعة غير أن هنالك بعض الاستثنـاءات القليلة التي زادت فيها الرسالة على هذا الحـدّ صحيفـة أخرى أو صحيفتين أو أكثر في بعض الأحوال النادرة . والإيجاز في الكلام هو التعبير عن الفكرة بأقل الألفاظ المتـاحـة من غير أن تتفرع بـالمرء سبل التعبير لإشبـاع هـذه الفكرة أو ذاك المعنى أو سدّ جميع الثغرات فيهما . ويتفق هـذا الاتجـاه مع جوهر القول المشهور في حـدّ البلاغة عند القدماء ، وهو أن « البلاغـة في الإيجـاز » ، ويتصل الإيجـاز ـ كما هو واضح ـ بالشكل من نحو وبالمضمون من نحو آخر .

ب ـ الوضوح :

وهو في المعنى ضـدّ الغموض الـذي ينجم عن عـدة أسبـاب تتعلـق بـدلالات الألفاظ أو غرابتها أو تعقيد الكلام بالمعاظلة فيه وتشـابكـه بـالتقـديم والتـأخير ، والحـذف ، وغير ذلـك . وينتـج الـوضـوح عن استعمال الكلم على مقتضى النظـام النحوي وخلوه من الغرابة . ونجد هذا الأسـاس البنائي للأسلوب بارزاً تمام البروز في ترسل صدر الإسلام في الأعم الأغلب ، إلا أننا نجـد في بعض رسـائل النّبي ﷺ

في تفصيل الزكاة وبعض الأحكام الدينية الأخرى غموضاً سببه الأول غرابة الألفاظ[1] ، إذ كان يكتب إلى بعض القبائل بلغاتها الخاصة المنزوية في بيئتها ، وليس باللغة المشتركة بين قبائل العرب ، ليفهموا عنه بدقة ، وقد تكون طبيعة الموضوع وعلاقته المباشرة بالبيئة سبب استعمال هذه الألفاظ الغريبة عندنا نحن اليوم ، في حين أنها كانت واضحة تمام الوضوح لدى من كتب بها إليهم ، وقد ذكر محمد كرد علي في ذلك أن النَّبي ﷺ « كان إذا خاطب قبائل من غير قريش أو كاتبهم يستعمل ألفاظاً مألوفة لهم لا يعرفها القرشيون ، ذلك لأن مقصده الإفهام ، والبليغ من الكلام مافهم وأبقى في النفس أثراً »[2] ، وقد نبَّه بعض المتقدمين على سهولة ألفاظ كتب النَّبي ﷺ إلى ملوك العجم توخياً لوضوح المعنى وحرصاً على يسر نقلها وترجمتها إلى لغاتهم ، فقد روى أبو هلال العسكري كتاب النَّبي ﷺ إلى كسرى ثم قال : « فسهل ﷺ الألفاظ كما ترى غاية التسهيل حتى لا يخفى منها شيء على من له أدنى معرفة في العربية »[3] ، وذكر أيضاً أن النَّبي ﷺ « كتب إلى أهل فارس بما يمكن ترجمته »[4] ، ثم إنه قارن ذلك بما كتب به إلى بعض قبائل العرب فقال : « ولما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب فخم اللفظ ، لما عرف من فضل قوتهم على فهمه وعادتهم لسماع مثله »[5] ، لأن أول ما ينبغي مراعاته والأخذ به في كتابة الرسائل « مكاتبة كل فريق منهم على مقدار طبقتهم وقوتهم في المنطق »[6] ، وقد أكّد محمد كرد علي هذا المذهب بقوله

---

(١) انظر على سبيل المثال كتب النَّبي ﷺ إلى همدان ، وبني نهد ، ووائل بن حجر ، وأهل حضرموت ، على التوالي في : جمهرة رسائل العرب ، ٥٦/١ ـ ٥٧ و ٥٧ ـ ٥٨ و ٥٨ ـ ٦٠

(٢) انظر كتابه : أمراء البيان ، ص ١٢ ـ ١٣

(٣) انظر كتابه : الصناعتين ، ص ١٦١

(٤) م . س ، ص ١٦٠

(٥) م . س ، ص ١٦١

(٦) م . س ، ص ١٦٠

إن الرسول ﷺ كان « يتوخى إذا كتب لغير العرب أن يوجز القول ويقل من اللفظ الذي لا يفهمه كل إنسان حتى يسهل نقل كلامه إلى ألسن من كتب إليهم من غير العرب »[1] ، وفي كلتا الحالتين يكون الكلام واضحاً لدى المتلقين .

ولا نستطيع أن نجد أي غموض حقيقي في ترسل صدر الإسلام ناتج عن التقديم والتأخير أو الحذف وما أشبه ذلك ، لأن مجال التصرف في النثر واسع جداً يدفع الحاجة إلى مثل هذه الوسائل التي يضطر إليها المرء في الشعر على وجه الخصوص ، بل إن ابن المدبر من البلاغيين القدماء قال في (الرسالة العذراء) : « لا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر ، لأن الشعر موضع الاضطرار ، فاغتفروا فيه الإغراب ، وسوء النظم ، والتقديم والتأخير ، والإضمار في موضع الإظهار »[2] .

وهكذا تبقى قضية الوضوح والغموض في الكلام قضية نسبية غير مطردة ، إذ إن الغموض مثلاً ظلَّ مخصوصاً ببعض الحالات الضيقة ، في حين أن ترسل صدر الإسلام كان على وجه العموم في غاية الوضوح لأهل ذلك العصر ولنا نحن أيضاً ، وإن اعترضتنا من حين إلى آخر بعض المفردات الغريبة عندنا والتي لا تُشكّل عملياً أي حاجز حقيقي دون بلوغ المعنى المراد بها بشيء قليل من التمحيص . وقد ذكر ابن وهب الكاتب في الإغراب اللفظي والتعمق المعنوي الذي يطمس معالم القول ووجهه : « لا يُظَنَّ أن البلاغة إنما هي الإغراب في اللفظ ، والتعمق في المعنى ، فإن أصل الفصيح من الكلام ما أفصح عن المعنى والبليغ ما بلغ المراد »[3] .

---

(١) انظر كتابه : أمراء البيان ، ص ١٢

(٢) انظر الرسالة المذكورة ضمن : رسائل البلغاء لمحمد كرد علي ، ص ٢٣٤

(٣) انظر كتابه : البرهان في وجوه البيان ، ص ٢٠٦

جـ ـ القرب والتعبير الطبعي :

لا يجد الباحث في ترسل صدر الإسلام أي معنى من المعاني يحلق بعيداً في الخيال أو الفلسفة ويدل على إعمال التأمل الطويل والتفكير العميق حتى صيغ بهذه الصورة أو تلك ، بل إن الغالب على المعاني في هذا النثر الترسلي قرب الفكرة من الأذهان ، ويشعر المرء وهو يقرأ مجموعة الأفكار في كل رسالة على حدة بأنه أمام نسيج مألوف جداً لم يكن فيه أي غوص على المعاني ، أو تأنٍّ كبير في كتابتها ، بل إنه ليجد أن هنالك نبعاً ثرّاً من المعاني يغترف منه الكاتب ويصوغه بكل سهولة ويسر معبراً عن الفكرة التي يريد طرقها ، فنجد أكثر المعاني المتداولة في ترسل صدر الإسلام دينية مستقاة مباشرة من مبادئ الدين الحنيف وأفكاره التي تغلغلت في نفوس الناس تغلغلاً عميقاً ، وتروت به هذه النفوس حتى الثمالة ، خصوصاً أن أكثر ما وصل إلينا من هذه الرسائل كان صادراً عن مجموعة الشخصيات التي كانت على رأس القيادة الفكرية ، والسياسية ، والعسكرية ، والإدارية في المجتمع العربي الجديد ، وهم أكثر الناس حرصاً على تشرب مبادئ الإسلام وتعاليمه والتفقه فيه حتى يحسنوا إدارة الدولة والمجتمع على خير وجه .

وقد كان معظم كتاب الرسائل إذن مشبعين بالمعاني التي يكثر تداولها فيما بينهم ، لا يعجزهم التعبير عنها بأبسط الصيغ والكلمات ، لأنهم يمتحون من معين ثر ، ولهذا جاء أكثر الترسل في صدر الإسلام تعبيراً مباشراً عن المعاني الدينية الإسلامية في مختلف الموضوعات . ومما يؤكد لنا قرب الخطاب في ترسل صدر الإسلام وعفويته أن الكاتب أو المملي كان يعبر عن نفسه بلفظ الإفراد ، مثل : أنا ، ولي ، وعلي[١] ، وعن المكتوب إليه بتاء الخطاب وكافه من غير أي تفخيم ، مثل : أنت ، ولك ، وعليك[٢] ، ويمكن تفسير هذا القرب وتلك العفوية

---

(١) صبح الأعشى ، ٢٨٦/٦

(٢) م . ن .

بطبيعة الحياة المادية التي كان الناس يعيشونها آنذاك ، ببساطة وتكافؤ في المعاملة والتفكير في جميع مناحي الحياة في صدر الإسلام ، وكان لها نظير في الجاهلية تجلى بأوضح صوره في الشعر ، خصوصاً في تلك المدرسة الحسية المعروفة التي كان أستاذها الأول أوس بن حجر ، وخَلَفَه عليها زهير بن أبي سلمى .

وقد توصلنا في حديثنا عن الجوانب البلاغية للأسلوب الترسلي في صدر الإسلام إلى أن كثيراً من الفنون البلاغية قد استخدمت في تحبير هذا الترسل ، ورأينا أن هذا الاستخدام كان نتيجة لشعور الكتاب آنذاك شعوراً عفوياً وفطرياً بجمال هذه الفنون وعمق تأثيرها في النفوس ، نظراً لأنها تجلو المعاني خير جلاء ، وتلبسها حلة من البهاء ، وتضفي عليها شيئاً من الوضوح والدقة وجمال الإيقاع ، وهكذا نجد أن وسائل تحبير الكلام هذه وليدة الطبع السليم والشعور المرهف ، ولم يكن الكتاب يتصنعون فيه أو يتكلفون ولذا جاء جمال الرسائل الفني في صدر الإسلام جمالاً فطرياً ملائماً لطبيعة الفترة التاريخية .

د ـ الفصاحة :

ومفهومها عند البلاغيين خلوص الكلام من ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات ، والتعقيد ، مع فصاحة هذه الكلمات ، أي : خلوصها من تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس .

فأما ضعف التأليف فقد كان ترسل صدر الإسلام بعيداً عنه كل البعد ، ولا يكاد المرء يجد له مثالاً إلا فيما ندر ، ونظن هذا النادر لم يكن إلا من أثر الزمان في رواية هذا الترسل ، ذلك لأن رسائل تلك الفترة كانت تصدر عن قادة الرأي من العرب ، وهم على درجة عظيمة من الفصاحة ، ومكانة رفيعة من البيان ، لأنهم نشؤوا وترعرعوا في بيئات عربية خالصة لم تشبها شائبة من العجمة أو شبهة من اللحن وما أشبه ذلك ، فكانت الفصاحة فيهم طبعاً وملكة ، ثم

جاءت صحبتهم للنَّبي ﷺ زمناً طويلاً وتشربهم آيات القرآن الكريم تباعاً مما رسخ فيهم هذا الطبع وتلك الملكة ، وكان لابد من أن تظهر آثار ذلك كله في كتبهم التي كتبوها كما كانت تظهر في خطبهم .

وأما تنافر الكلمات فلم نجد لذلك أيضاً مثالاً يصلح أن يحتج به ، ومثل ذلك التعقيد الذي يجعل المعنى غامضاً ، وقد ذكرناه من قبل في أساس (الوضوح) ، واستبعدناه من ترسل صدر الإسلام ، وأما ما يتعلق بالكلمات فإنه داخل في باب الخصائص اللغوية في فصل لاحق .

هـ ـ قوة التأليف (أو التماسك) :

وهي نقيض ضعف التأليف المنافي للفصاحة في الكلام كما مرّ بنا آنفاً . ويجد المرء من خلال قراءته كل رسالة من رسائل صدر الإسلام على حدة أن وحدة التأليف قائمة فيها ، وأن التماسك ينتظم أفكارها المعروضة ومعانيها المطروحة انتظاماً دقيقاً واضحاً ، مما يؤكد لنا خطأ الفكرة الشائعة عند بعض الباحثين العرب والمستعربين عن تفكك النثر في صدر الإسلام وعدم اتساقه في سلك واحد ، إذ يرى وليم مارسيه مثلاً النثر عند القدماء في صدر الإسلام والعصر الأموي « جملاً قصيرة مكدسة بسذاجة »[1] ، ويتهمه بـ « الضعف الأدبي الكبير »[2] ، وذلك ناتج في رأينا عما لمسوه في طبيعة ذلك النثر الذي يقوم على وحدة أساسية هي « القرينة » ، وهي تقابل في الشعر مثلاً البيت المفرد الذي يعد اللبنة الأساسية لبناء القصيدة . فقد رأوا إذن أن القرينة هي اللبنة الأساسية في بناء الرسالة ، فظنوا ذلك ضعفاً في التأليف أو تفككاً في النثر ينفي عنه صفة قوة التأليف ، كما نفوا عن الشعر العربي هذه الصفة بإظهار البيت وحدة مستقلة .

---

(١) انظر محاضرته : أصول النثر الأدبي العربي ، في مجلة : التراث العربي ، ع ١٨ ، ص ٩٧

(٢) م . س ، ص ٩٣

مع العلم أن هـذه القرائن المتتـابعـة في كل رسـالـة إنمـا هي مرتبـة في نسـق واحـد متكامل يبدأ بخدمة الفكرة من القرينة الأولى ، وينتهي من إيصالها إلى القـارئ في القرينـة الأخيرة ، في سلسلـة مترابطـة ومتماسكـة تمـاماً . ولا يعـدّ الاستقلال المعنوي الـذي يتم في قرينتين أو أكثر على التـوالي مطعنـاً في هـذا التماسـك ، لأن المعنى الذي يطرح فيها إنما يكون تمهيداً ضرورياً للمعنى الذي يليه ، ويكون هـذا المعنى متمماً بطبيعته للمعنى الذي سبقه ، ودليلنا على ذلك صعوبة انتزاع أي قرينـة من موضعها في الرسـالـة ، لأن مثل هـذا الانتزاع سوف يؤدي إلى خلل واضح في بنائها مما يدل على أنه لاغنى عنها في صرح البناء المتكامل للرسـالـة ، وبـذا تشبـه القرائن لبنات البناء التي يشد بعضها بعضاً .

و ـ ضعف التصوير :

كثر التعبير المجرد عن الأفكار في ترسل صـدر الإسلام ، حتى كان هو المـذهب الطـاغي في أسلوب التعبير عن تلـك الأفكار ، وشـح التعبير المجسـد المصـور شحّـاً كبيراً ، مما يؤكد لنا قلـة اعتماد الكتـاب آنـذاك على التصوير وسيلـة للتعبير ، إذ كانوا مستغرقين في خضم من الأفكار المجردة التي تتحكم في حياة المجتمع الجديد ، على أن هذا يعدّ مخالفاً في كثير من الوجوه لميل العرب الفطري إلى التصوير في فنونهم القوليـة ، خصوصـاً في الشعر ، وقـد يكون السبب في ذلـك أن النـاس لم تتح لهم الفرصـة الكافيـة في رسـائلهم للبحث عن الصورة لانشغـالهم بهموم الحيـاة اليوميـة وأحـداثهـا الجسـام التي كانت تتفـاقم بـاستمرار ، ولعـدم توقفهم كثيراً عنـد موضوع الوصف الذي يتناولون فيه الطبيعة ومظاهرها ومـا فيهـا من لوحـات ومشـاهـد حية وجامدة على سبيل المثـال ، فكانوا دائمـاً يعيشون حيـاة فكريـة داخليـة ، لم تتخللهـا إلا نزهـات قصيرة جـداً في أحضـان الطبيعـة ، إن جـاز لنـا مثـل هـذا التعبير ، فكان هنالك رسالتان مبدعتان في مجال هذا التصوير ـ وهذه ندرة نادرة جداً ـ يقال إن عمر بن الخطاب سـأل عمرو بن العـاص مبـاشرة مرتين أن يكتب

لـه في الوصف ، ولا قيمة للوصف إن لم يجعل التصوير لبـه وأسـاسـه الـذي يقوم عليـه : كانت الأولى حين سـألـه عمر أن يصف لـه البحر ، ليرى رأيـه في حرب المسلمين عليـه[1] . وكانت الثـانيـة حين سـألـه أن يصف لـه مصر بعـد أن فتحهـا المسلمون واستقروا فيها[2] . وقد وقع الباحثون المحـدثون في الرسـالـة الثـانيـة على تصوير رائع يختلف تمام الاختلاف في أسلوبـه عن أسـاليب الرسـائل السـائـدة في العصر نفسه ، فذهبوا لذلك مذهباً واحداً هو الشك في صحتهـا واتهامهـا بـالوضع والنحل الـواضحين[3] ، وإذا كنـا نميـل كثيراً إلى هـذا الشـك ، فـإننـا لا ننكر أن تكون طبيعـة الـوصف هي التي أملت على عمرو بن العـاص ـ وكان يمكن أن تملي على غيره من كتـاب العصر ـ هـذا التصوير البـديع ، الـذي كان يطـل علينـا في بعض المقـاطع من رسـائـل ذلـك العصر من حين إلى آخر من غير أن يكـون هـذا الوصف مقصوداً لذاته كما هي الحال في وصف مصر . ونظن أنـه لوأتيحت الفرصـة للكتاب أن يصفوا لأبدعوا في مجال التصوير غايـة الإبـداع ، أو لوأتيح للرسـائل الشخصية في تلك الفترة أن تصل إلينا لوقعنا فيها على مـا نفتقر إليـه في الرسـائل الاجتماعية والسياسية والإدارية العامة التي وصلت إلينـا . ونجـد نزعـة تصويريـة واضحة في تلك المجموعة من الرسائل المتبادلة بين معاوية والعمال السابقين لعثمـان من بني أمية ، بعيد مقتل عثمان مباشرة ، إذ نجد فيها صوراً جميلة مؤثرة افتقدناها بعد برود الحدث الخطير مباشرة ، مما يدخل في نفسنـا الشـك في صحتهـا ، إلا إذا دفعنا هذا الشك بتفسير صـدورهـا عن حرارة الموقف والتهـاب النفوس بـالمشـاعر والعواطف التي تبعث على مثـل هـذه النفثـات الإبـداعيـة في النثر ، كما تبعثهـا في الشعر على حدّ سواء ، فترقى بالتصوير في النثر إلى درجة التصوير في الشعر .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ، ٢١٣/١

(٢) م . س ، ٢١١/١ ـ ٢١٣

(٣) انظر مثلاً رأي د . شوقي ضيف في كتابه : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص ٩٨

على أننا نقر هنا بضعف التصوير عموماً في رسائل صدر الإسلام ، للأسباب التي ذكرناها آنفاً ، غير أن هذا الضعف لم يكن يعني الغياب الكلي لهذا التصوير عن النثر الترسلي آنذاك ، وقد كان المجال لاستغلال هذه الناحية واسعاً لو أن الظروف أسعفت العرب قليلاً آنذاك للتفرغ لنفوسهم ولإشباع نهمهم الفني الخاص بتصوير ما يحيط بهم من طبيعة أو أحداث من وجهة نظر كل منهم على حدة ، إذن لوصل إلينا تراث غني جداً بالتصوير لا يقل شأناً عن التراث التصويري في الشعر نفسه آنذاك ، على أن ما أضعف هذا التصوير بالذات في النثر هو الذي أضعفه إلى حد ما في ميدان الشعر أيضاً .

٣ ـ البناء الموضوعي للرسالة (أو الوحدة والتعدد) :

رأينا في الفصل الأول من هذا الباب البناء الشكلي للرسالة الذي هو المنهج ، فكيف كان البناء الموضوعي لها في صدر الإسلام ؟ يبدو لنا من استقراء نصوص الرسائل أن قلة قليلة منها كانت تقصر همها ، حين تدخل في المضمون ، على موضوع واحد لا تتعداه ، وتلك كانت حال الرسائل القصيرة الموجزة . إلا أن الكثرة الكاثرة من الرسائل المطولة كانت متعددة الموضوعات أو الأغراض ، إذ كان المترسل ينتقل فيها من موضوع إلى آخر ، حتى يلم في نهاية المطاف بجملة من الموضوعات معاً . وربما كانت هذه الموضوعات ، في بعض الأحيان ، على اتصال وثيق فيما بينها ، فيجد المرء موضوع الوعظ والوصايا يختلط بموضوع التعليمات والأوامر في الشؤون السياسية والعسكرية والإدارية بموضوع التهديد والوعيد أو موضوع التحريض ، أو يجد بيان الوضع الحربي مختلطاً بموضوع الاستشارة وطلب الرأي أو بموضوع طلب النجدة والمدد أو موضوع التبشير بالنصر والفتح أو الإخبار بإجراء صلح ، وبغير ذلك من الموضوعات المختلفة الأخرى ، على أن هذه الموضوعات تنطلق كلها من منطلق واحد لتصل في النهاية إلى غاية واحدة ، أي أن التعدد الموضوعي جاء هنا لخدمة موضوع محوري واحد هو لبّ هذه الرسالة أو

تلك . وهكذا لا يجد المرء في الموضوع الواحد أو الموضوعات المتعددة في الرسالة الواحدة أيّ خرق لمبدأ وحدة البناء الموضوعي لها ، إذ تلتقي هذه الموضوعات في سلك واحد يجعل منها عقداً معنوياً متصل الجوانب ، من غير أن يدخل بعضها على بعض ضيماً أو ضرراً من الأضرار .

٤ ـ التشابه الأسلوبي بين الرسائل والخطب :

كثيراً ما تحدث الباحثون المحدثون من عرب ومستعربين عن مثل هذا التشابه الأسلوبي ، فقال عمر فروخ مثلاً : « كانت الرسالة خطبة مدونة »(١) ، وذكر محمد نبيه حجاب أن الرسائل « هي بالخطب أشبه »(٢) ، وقال صبحي الصالح في رسائل علي : « ورسائله جميعاً مطبوعة بالطابع الخطابي ، حتى ليكاد الباحث يعدها خطباً تُلقى لا كتباً تدبّج »(٣) ، وقال وليم مارسيه : « كانت الرسالة ـ وهذا ما يفسر لنا ذكرها مع الخطبة ـ خطبة أو عظة بالمراسلة ، إذ كانت سلسلة من التأملات الأخلاقية ، ومن الإرشادات الدينية أو النصائح الحكمية »(٤) . ويمكن عزو هذا الرأي أصلاً إلى القدماء من نقاد العرب وبلاغييهم ، ومنهم مثلاً أبو هلال العسكري إذ يقول في الخطبة والرسالة : « ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يشافه بها والرسالة يكتب بها ، والرسالة تجعل خطبة ، والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة ، ولا يتهيأ مثل ذلك في الشعر من سرعة قلبه وإحالته إلى الرسائل إلا بكلفة ، وكذلك الرسالة والخطبة لا يجعلان شعراً إلا بمشقة »(٥) .

---

(١) انظر كتيبه : الرسائل والمقامات ، ص ٤ ومثل ذلك في كتابه : تاريخ الأدب العربي ، ص ٣٧٤

(٢) انظر كتابه : بلاغة الكُتّاب في العصر العباسي ، ص ٦٣

(٣) انظر مقدمة طبعته لكتاب : نهج البلاغة ، ص ١٥

(٤) انظر محاضرته : أصول النثر الأدبي العربي ، في مجلة : التراث العربي ، ع ١٨ ، ص ٩٦

(٥) انظر كتابه : الصناعتين ، ص ١٤٢

ومن الواضح أن هذا التشابه الظاهر في الأسلوب كان تشابهاً أيضاً في الموضوعات إلى حدّ بعيد ، إلا أن الخطبة تعد مسبّقاً أو ترتجل ارتجالاً نظراً لتمكن الخطيب وقدرته ، في حين أن الرسالة تكتب كتابة منذ البداية ، ومن هنا يبدأ التمايز بين النوعين النثريين من حيث المنهج والظروف المحيطة بكل منهما ، ومن حيث الوظيفة والطريقة والغاية والوسيلة ، غير أن نثرهما يبقى على درجة واحدة من حيث الأساليب البلاغية والسمات العامة ، ومن حيث مصادر المعاني ، إذ لم يكن في هذه الأمور فارق كبير بين النثرين . يضاف إلى ذلك أن أكثر خطب هذه الفترة كانت صادرة عن المترسلين أنفسهم الذين كتبوا أكثر رسائل الفترة نفسها ، وكانوا هم قادة الرأي في المجتمع يديرون شؤون الخلافة والمجتمع إدارة سياسية وعسكرية واقتصادية ودينية ، وإذا كان النبع واحداً فلا بدّ من أن يكون مذاق مياهه واحداً ، وكذلك يكون الأمر إذا ماتشابهت هذه الينابيع . فالأسلوب جزء لا يتجزأ من شخصية الخطيب والمترسل والمتحدث ، ونادراً جداً ما نجد فوارق حادة بين أساليب المرء في عدد من الأنواع النثرية ، ونضرب لذلك مثلاً من أدبنا الحديث بطه حسين : فإن من يسمع محاضراته أو المقابلات التي أجريت معه أو الأحاديث التي سجلت له مع أصدقائه ، أو يقرأ إنتاجه النقدي في القدماء والمحدثين ، أو يطالع إنتاجه الإبداعي في القصة ، أو يتصفح ترجماته عن الفرنسية ، أو يقرأ كتبه في التاريخ القديم والمجتمع المعاصر ، أو شيئاً من رسائله إلى أصدقائه وغيرهم ، فإنه يجد الأسلوب نفسه ماثلاً في كل هذه الوجوه من نشاطه النثري ، بل إن أسلوبه في هذا النثر بأنواعه المختلفة لا يكاد يختلف عن أسلوبه في بعض أشعاره التي قالها في مطلع حياته الأدبية . فإذا قسنا حال القدماء في خطبهم ورسائلهم على هذا المثل فإننا سوف نستنتج أن النثر فيها متقارب جداً في الأسلوب عند الشخص الواحد ، فإذا أردنا التوسع لنشمل الرسائل على أوسع نطاق في فترة صدر الإسلام كلها ، فإننا سنجد خصائص عامة مشتركة تكوّن أسلوباً عاماً في النثر ، وهو ما سبق لنا الكلام عليه وأسميناه بـ (أسلوب العصر) ، إذ يعد هو الأسلوب الجامع لشتى

الأساليب الشخصية التي لم يكن بعضها أصلاً شديد التباعد عن بعض .

٥ ـ الجدل والاحتجاج :

ظهر أسلوب الجدل العقلي في ترسل صدر الإسلام ظهوراً جلياً حين بدأت بذور الخلاف تنتشر بين العرب ، وخاصة في أواخر خلافة عثمان التي اختتمت بمقتله ، ثم طوال خلافة علي التي اختتمت كذلك بمقتله على أيدي الخوارج . وقد دار هذا الجدل حول عدد من النقاط الأساسية ، منها على سبيل المثال : الطلب بدم عثمان ، والخلافة ، والبيعة ، وأصحاب الشورى ، ودَوْر المهاجرين والأنصار في تقرير أمر الخلافة ، والمعايير التي كانت تحكم على الرجال بالتقدم والتأخر في ظل الإسلام ، والتحكيم ، وغير ذلك من الشؤون . ولم تلبث هذه النقاط الأساسية أن تفرع منها عدد كبير من المسائل والقضايا التي شغلت بال أطراف الصراع المختلفة أو طُرِحَتْ على الفكر العربي في تلك المرحلة من التاريخ . وقد وُجِدَتْ نتيجة ذلك عدة مجموعات أو كتل فكرية إن صح التعبير في ظل خلافة علي هي : أنصار علي ، وأنصار معاوية ، وأنصار عثمان ، والمعتزلون ، وأخيراً الخوارج . وكان لكل جماعة من هؤلاء مبادئ أساسية تنادي بها ، وقد صُوِّرَتْ هذه المبادئ في أكثر رسائل هذه الفترة ، وقد رأينا كل ذلك في موضعه من الباب السابق .

ومن الملاحظ أن تعاليم القرآن وأحاديث النبي ﷺ كانت هي المعايير التي تقاس بها المواقف والأفكار والأسس التي يحتج بها كل فريق من هذه الفرق المتخاصمة ، ولذا نجد كلا منها يستشهد على رأيه بما يجد في كتاب الله على وجه الخصوص من آيات تدعم موقفه وترسخ قدمه ، وقد انبعث من هذا النشاط العقلي ، دعماً للمواقف وترسيخاً للأقدام ، عدد كبير من المناظرات على متون الرسائل كان يعتمد في أساسه على قواعد معينة للجدل والاحتجاج ، فاصطبغت أساليب الترسل لذلك بالصبغة العقلية في خلافة علي أكثر منها في أي فترة أخرى من صدر الإسلام .

الفصل الثالث

في المعاني

يبدو لنا أن المعاني التي يعبِّر بها الكُتّاب عن أفكارهم في كل زمان كانت تستمد من معينين اثنين دائماً : أحدهما مصدر خارجي يعتمد على مانسميه (ثقافة الكاتب) ، والمعاني فيها بطبيعة الحال غزيرة جداً ، لأنها تمثل إنتاج الأمة وتراثها من المعاني والأفكار التي أنتجتها القرائح عبر عدد كبير من الأجيال . والثاني مصدر ذاتي يعتمد على مانسميه القدرة الشخصية للكاتب على ابتداع المعاني وابتكارها ، وهنا موطن البحث عن مكانة الكاتب الأدبية وعن أسلوبه الشخصي الذي يتميز به وينسب إليه وحده . وهذا يعني أن الكاتب واقع دائماً بين قطبين أساسيين هما : الاتباع والاختراع[1] ، فإن غلب الأول الثاني ضؤل شأن الكاتب في عالم الكتابة وهزل إنتاجه لأنه لا يعد إلا تكراراً مملاً لما سبق أن قيل في زمنه أو الأزمان التي غبرت . وإن غلب الثاني على الأول برزت للكاتب شخصية قوية متميزة تظهر ظهور البدر في الليلة الظلماء ، أو تَسْطَع سطوع الشمس في قبة السماء . ويكون لاجتهاد الكاتب أو خموله الدور الأكبر في تحديد سمة الكاتب . غير أن هذه المعاني المستمدة من ثقافة الكاتب قد تكون مأخوذة برمتها كما صيغت في الأصل ، ولها أحد حكمين : الأول أن يشار إلى هذا الأخذ بعبارة دالة عليه[2] ، ويسمى في هذه الحالة (اقتباساً) . والثاني أن يدرج القول في سياق

(١) انظر نظرية ابن الأثير حول ذلك في كتابه : المثل السائر ، ١٢٥/١ . ١٢٨

(٢) كأن يقال : وقال تعالى أو قال فلان أو سمعت فلاناً يقول أو نسخت من كتاب فلان ، إلخ .

الكلام من غير الإشارة إلى اقتباسه بأي عبارة دالة عليه ، حتى يبدو للقارئ أنه من كلام الكاتب نفسه ، في حين أنه ليس كذلك في الحقيقة ، ويسمى في هذه الحالة (**تضميناً**) . ولكن قد يؤخذ المعنى الأصلي من أقوال الآخرين وكتاباتهم فيُحَلّ في كلام الكاتب ، ويصبح من الصعب على الناقد أو الباحث أن يكشف حقيقة هذا (**الْحَلّ**) إذا لم يكن المعنى مشهوراً جداً إلى الحد الذي يعرف مصدره لأول وهلة أو بعد شيء من التمحيص ، وهذا النوع من استقاء المعاني هو أكثر الأنواع شيوعاً على الإطلاق ، وهو في الوقت نفسه أصعبها كشفاً ، ولذا كان أدخل من غيره في باب السرقات الأدبية ، ويأتي بعده من حيث صعوبة الكشف عنه التضمين الذي قد يكون شطر بيت من الشعر أو حكمة أو مثلاً غير مشهور أو قولاً مأثوراً مغموراً أو قولاً لبعض الناس المغمورين أو قولاً في بعض الكتابات غير الشائعة لبعض الكتاب ، إذ تغيب عن ذهن الباحث أشياء كثيرة من ذلك وتنطلي عليه بيسر من غير أن يكشف أمرها ، ويصعب عليه أكثر ، إن اكتشفها ، أن يتعرف مصادرها الأصلية ، إلا أن التضمين يكون واضحاً إذا كان مستمداً من القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو كان بيتاً من الشعر ، أو كان من الحكم والأمثال السائرة ، أو الأقوال المأثورة المشهورة . أما الاقتباس فهو أيسر الطرق في استمداد المعاني واكتشافها بمجرد أن يعرف مصدره بعزوه إلى قائله في نص الكلام . وهنالك شكل رابع من أشكال استمداد المعاني هو (**التلميح**) ، وهو إدراج إشارة يسيرة في سياق الكلام إلى قصة أو حادثة أو خبر أو بيت شعر من غير ذكر الأمور كما هي ، بل يُكْتَفى بذكر ما يوحي بها فقط ، وتكون هذه الإشارة بمنزلة عنوان لها يستحضر في ذهن القارئ تفاصيلها عند سماعه ، فيكون التلميح بها توفيراً لهذه التفاصيل واختصاراً شديداً في المعنى المراد ، وهو في الوقت نفسه ألطف في بلوغ المراد .

والحقيقة أن رسائل صدر الإسلام تعد شاهد صدق على جملة هذه الطرق

المتقدمة ، ويمكن أن نتبين ذلك فيها من خلال تحليل هذين المصدرين الأساسيين للمعاني :

١ ـ المصادر الخارجية :

أ ـ القرآن الكريم :

يضع المرء يده على استعمال المعاني القرآنية بطريق (التضمين) مثلاً في رسائل النبي ﷺ إلى بعض ملوك العجم ، فقد كتب إلى هرقل يقول : « فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيْسِيِّيْنَ وَ ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ .. ﴾[1] »[2] ، وكتب بمثل ذلك إلى النجاشي[3] وإلى المقوقس[4] ، وكتب إلى كسرى يقول : « فَإِنِّي أنا رَسُولُ اللهِ إلى النَّاسِ كافَّةً لأُنْذِرَ ﴿ مَنْ كانَ حَيّاً وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكافِرِينَ ﴾[5] ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ .. »[6] . حتى إن النبي ﷺ ردَّ في بعض كتبه بآية من القرآن فقط ، فكتب إلى مسيلمة الكذاب يقول : « سَلامٌ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى ، أَمَّا بَعْدُ فَ ﴿ إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ والعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِيْنَ ﴾[7] »[8] . ثم إن الخلفاء الراشدين وعمالهم وقادة جيوشهم ساروا على هذا النهج من استمداد المعاني القرآنية بالتضمين تارة كما في رسالة أبي بكر إلى المرتدين إذ يقول : « أما بعد ، فإن الله تعالى أرسل محمداً بالحق من عنده إلى

---

(١) القرآن ، ٣ / من الآية ٦٤

(٢) جمهرة رسائل العرب ، ٣٢/١ ـ ٣٤

(٣) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٧٧

(٤) جمهرة رسائل العرب ، ٣٨/١

(٥) القرآن ، ٣٦ / من الآية ٧٠

(٦) جمهرة رسائل العرب ، ٣٦/١

(٧) القرآن ، ٧ / من الآية ١٢٨

(٨) جمهرة رسائل العرب ، ٦٨/١

خلقه ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾[1] ، ﴿ وداعِياً إلى اللهِ بِإذْنِهِ وسِراجاً مُنيراً ﴾[2] ، ﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيّاً ويَحِقَّ القَوْلُ عَلى الكافِرِينَ ﴾[3] »[4] ، واستمدادها بـ (الاقتباس) تارة أخرى كقول أبي بكر في الرسالة نفسها عن النبي ﷺ : « ونصح لأمته ، وقضى الذي عليه ، وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزله فقال : ﴿ إنَّكَ مَيِّتٌ وَإنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾[5] ، وقال : ﴿ وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإنْ مِتَّ فَهُمُ الخالِدُونَ ﴾[6] »[7] . وبـ (الحل) تارة ثالثة إذ يقول في الرسالة نفسها أيضاً يوصي كل من قرئت عليه : « إنّ كلّ من لم يهده الله ضال ، وكل من لم يعافه مبتلى ، وكل مالم يعنه مخذول ، فمن هداه الله كان مهتدياً ، ومن أضله كان ضالاً »[8] ، ثم يصل كلامه المحلول ذلك من معاني القرآن بآية مقتبسة تظهر أصله فيقول : « قال تعالى : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً ﴾[9] »[10] . ومثل ذلك كثير في رسائل تلك الفترة لا مجال لحصره هنا ، لأن الحل كان على ما يبدو أكثر أشكال استمداد المعاني طغياناً على عقول الكتاب آنذاك ، وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل على مدى تشرب الناس آيات القرآن الكريم ومدى أثرها في النفوس إذا سيقت في مضمون الكلام ، إذ إن القرآن يعد أعلى حجة في حسم الخلاف بالدليل

---

(١) القرآن ، ٢ / من الآية ١١٩ و ٣٤ / من الآية ٢٨ و ٣٥ / من الآية ٢٤

(٢) القرآن ، ٤٦/٣٣

(٣) القرآن ، ٣٦ / من الآية ٧٠

(٤) جمهرة رسائل العرب ، ١١٥/١

(٥) القرآن ، ٣٠/٣٩

(٦) القرآن ، ٣٤/٢١

(٧) جمهرة رسائل العرب ، ١١٥/١

(٨) م.س ، ١١٦/١

(٩) القرآن ، ١٨ / من الآية ١٧

(١٠) جمهرة رسائل العرب ، ١١٦/١

الدامغ الذي لا يدفع لتسليم الناس به تسلياً كلياً وإيمانهم بـه إيمـانـاً مطلقـاً ، فـإذا مـاذكرت آيـة في مـوقف من المـواقف لم يبـق لقـائـل أن يقـول ، ولا لمحتـج أن يعترض . وقد استعمل (التلميح) استعمالاً نادراً جداً ، ومنه ماورد في كتاب من عمر إلى أبي عبيـدة حيث يقول : « ولن يغلب عسر يسرين »[1] ملمحـاً إلى قولـه تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً ۞ إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً ﴾[2] .

ب ـ الحديث النبوي الشريف :

وقد كان من حيث قوة البلاغة والتأثير والاحتجـاج في المرتبـة الثـانيـة بعـد القرآن مبـاشرة لقـولـه تعـالى : ﴿ وَمـا آتـاكُمُ الرَّسُـولُ فَخُـذوهُ ومـا نَهـاكُمْ عَنْـهُ فَانْتَهُوا ﴾[3] ، ولذا نجد المترسلين في صـدر الإسلام يَحُلُّونـه ويقتبسونـه ويلمحون إليه تلميحاً في رسائلهم إلا التضمين فإننا لم نجد شيئـاً منـه في هـذا الترسل ، إلا أن الاستمداد منه على وجه الإجمال كان قليلاً نادراً في تلك الرسائل ، وهذا أمر لافت للنظر حقاً ، وقـد ورد حـديث النبي ﷺ محلولاً مثلاً في كتـاب من أبي بكر إلى خالد بن الوليـد ومن معـه من المقـاتلين لأهل الردة ، إذ يبين لهم منزلـة الشهـداء وثوابهم عند ربهم يوم القيامة فيقول : « ولقد ذكر لنا الصـادق المصـدوق ﷺ أن الله يبعث الشهـداء يـوم القيـامـة شـاهرين سيـوفهم لا يتمنـون على الله شيئـاً إلا آتاهموه ، حتى أعطوا أمانيهم وما لم يخطر على قلوبهم ، فما شيء يتمناه الشهيد بعـد دخوله الجنة إلا أن يردهم الله إلى الـدنيـا ، فيقرضون بـالمقـاريض[4] في الله لعظيم ثواب الله »[5] . ومن التلميح إلى بعض الأحـاديث النبويـة مـاورد في كتـاب من

---

(١) جمهرة رسائل العرب ، ١٩٩/١

(٢) القرآن ، ٩٤/٥ ـ ٦

(٣) القرآن ، ٥٩ / من الآية ٧

(٤) أي يبتلون بالبلاء الحسن الذي يقرضونه الله تعالى لنيل ثوابه وأجره العظيم .

(٥) جمهرة رسائل العرب ، ١٢٧/١

عمر إلى أبي عبيدة وهو بالشام : « وإنها دار الله ، وهو فاتحها عليكم تصديقاً منا لقول نبينا ﷺ »[1] ، فهو يلمح هنا إلى تفسير النبي ﷺ الومضات الثلاث ، التي تطايرت من البُرْقَة التي ضربها بمعوله وهو يحفر مع سلمان الفارسي الخندق : بفتح الشام واليمن والمغرب عليه . ومن التلميح أيضاً ما ورد في كتاب من علي إلى معاوية إذ يقول : « وقد انقطعت الهجرة حين أسر أخوك »[2] ، فهو يشير هنا إلى قول النبي ﷺ عند فتح مكة سنة ٨ هـ : « لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ » . ومن اقتباس الحديث ما ورد في كتاب من عمر إلى عمرو بن العاص بمصر يوصيه بأهل الذمة من القبط إذ يقول : واعلم « أن معك أهل ذمة وعهد ، وقد أوصى رسول الله ﷺ بهم ، وأوصى بالقبط فقال : (اسْتَوْصُوا بالقِبْطِ خَيْراً فَإنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِماً ، وَرَحِمُهُمْ أَنَّ أُمَّ إِسْماعِيلَ مِنْهُمْ) ، وقد قال ﷺ : (مَنْ ظَلَمَ مُعاهِداً أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طاقَتِهِ فَأَنا خَصْمُهُ يَوْمَ القِيامَةِ) »[3] . ومنه أيضاً ما كتب به عثمان إلى العامة حين ولي الخلافة يحثهم على الاقتداء والاتباع وترك الابتداع ، وذكر من أسباب الابتداع في الدين « قراءة الأعراب والأعاجم القرآن » وقال : « إن رسول الله ﷺ قال : (الكُفْرُ في العُجْمَةِ) ، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا »[4] . ومنه ما احتج به معاوية في كتاب منه إلى علي إذ يقول : « ثم تركك دار الهجرة التي قال رسولَ الله ﷺ عنها : (إنَّ الْمَدِينَةَ لَتَنْفِي خَبَثَها كَما يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ) ، فلعمري لقد صحَّ وعده ، وصدق قوله »[5] ، وما كتب به معاوية أيضاً إلى علي إذ يقول : « وأقلع عما أسرفت فيه من الخوض

(١) م.س ، ١٦٧/١

(٢) م.س ، ٤١٤/١ إذ أَسَر خالد بن الوليد أخاه يزيد عند فتح مكة ، فخلّصه أبو سفيان وأدخله داره .

(٣) م.س ، ٢١٨/١

(٤) م.س ، ٢٩١/١

(٥) م.س ، ٤١٦/١

في دمـاء المسلمين ، وإني سمعت رسـول الله ﷺ يقـول : (لَـوْ تَمالأَ أَهْـلُ صَنْعـاءَ وَعَــدَنَ عَلى قَتْــلِ رَجُـلٍ واحِــدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لأَكَبَّهُمْ اللهُ عَلى مَنَــاخِرِهِمْ في النّارِ) »[1] ، فردَّ عليه علي فقال : « فأمـا تخويفـك لي من قتل أهل البغي فـإن رسول الله ﷺ أمرني بقتـالهم وقتلهم ، وقـال لأصحـابـه : (إنَّ فِيكُمْ مَنْ يُقـاتِلُ على تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ كَما قاتَلْتُ عَلى تَنْزِيلِهِ) ، وأشار إلي »[2] .

جـ ـ الشعر :

كان الشعر قبــل القرآن والحــديث من أبرز مــا كان العربي يتزود بـــه من معرفة ، لأنه كان ديوان العرب ، حتى إذا جاء الإسلام زحزحـه في مركز الـدعوة (المدينة) ، وفي الحواضر الكبرى الأخرى ، إلى المرتبة الثالثة بعدهما ، فتـأخر عن موقع الصدارة ، غير أنه ظلَّ في البوادي والقرى النائية زاد العربي الثقـافي الأول ، وهـذا يعني أن المعـاني الشعريـة كانت مـاثلـة في أذهـان سـواد النـاس من جهــة وخاصتهم من الصحابة والتابعين من جهة ثانية ، فكان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي على سبيل المثال على دراية واسعة بالحركة الشعرية المتقدمة والمعاصرة ، ولهذا كان بمقدور المترسلين في صـدر الإسلام أن يمتحوا من هـذه المعـاني عن طريق (الحل) ماشاؤوا أن يمتحوا ، غير أن من أصعب الأمور على المرء كشف هـذه المعـاني إن لم تكن مشهورة جداً ، ولا شك في أنها لذلك تكاد تفوتنا كلية ، أما ما كان من هـذه المعـاني (تضمينـاً) لشطر بيت فـأمره أهـون كثيراً من أمر المعنى المحلـول ، ولعـل تضمين بيت تــام من الشعر في أثنــاء الرســالــة يكـون أوضـح من تضمين الشطر الواحد ، أما (الاقتباس) فإنه يظل أوضح هذه الطرق على وجه الإطلاق .

غير أننا إذا استقرينا ماوصل إلينا من رسائل صدر الإسلام فإننـا نجـدهـا في

---

(١) م.س ، ٤٧٤/١

(٢) م.س ، ٤٧٦/١

زمن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان تكاد تخلو خلواً تاماً من استمداد المعاني الشعرية بالطرق المختلفة لهذا الاستمداد ، ويمكن تفسير ذلك بالموقف المعروف عن النبي ﷺ وخلفائه الثلاثة الأوائل وهو عزوفهم عن الشعر وقلة اكتراثهم بالشعراء[1] وصبهم جلَّ اهتمامهم على الشريعة ومصادرها الأولى من القرآن والحديث ، ولأن طابع الوقار والجد في الترسل لم يكن يسمح لهم باعتماد الشعر في الرسائل وسيلة من وسائل دعم المعاني والاستشهاد بها ، حتى إن كثيراً من المتأخرين كان يرى ألا يكتب الأدنى إلى من فوقه بشيء من الشعر في رسائله إليه ، وكأن مترسلي صدر الإسلام على وجه العموم كانوا يترفعون عن استمداد المعاني من الشعر اقتباساً وتضميناً ، وإن كنا نتوقع استعمال شيء كثير أو قليل من معانيه محلولة في ترسلهم . ولعل أول ظهور صريح للتضمين كان في رسالة الاستغاثة التي كتب بها عثمان وهو محصور في داره إلى علي ، إذ يقول فيها : « فأقبل إلي ، على أي أمريك أحببت ، معي كنت أو علي ، صديقاً كنت أو عدواً :

فَإِنْ كُنْتُ مَأْكُولاً فَكُنْ أَنْتَ آكِلِي ... وَإِلا فَأَدْرِكْنِي وَلَمَّا أُمَزَّقِ »[2]

ثم ظهر ظهوراً واضحاً في عدد من الرسائل في خلافة علي ، ويبدو أن تميز هذه الفترة بظهور الفتنة بين العرب أنفسهم هو الذي أتاح للشعر مثل هذا الظهور ، وإن كان على استحياء شديد منه ، لأن الشعر « نكد بابه الشر » كما نقل عن الأصمعي[3] . وقد ذيلت مجموعة من الكتب المتبادلة بين معاوية وبعض

---

(١) وربما كان ذلك نتيجة التأثر بقول النبي ﷺ : « لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحاً خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً » .

(٢) جمهرة رسائل العرب ، ٣١٣/١ والبيت من قصيدة للممزِّق العبدي رواها الأصمعي في كتابه : الأصمعيات ، ص ١٦٤ ـ ١٦٦ وترتيبه فيها سادس عشر ، برواية (فكن خير آكل) .

(٣) انظر : إحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور ، ص ٣٧

العمال السابقين لعثمان من بني أمية بمقطوعات شعرية قصيرة كانت تؤكد مضمون ماسبق وروده فيها نثراً[1] ، وكان أكثر هذه الذيول الشعرية من قول هؤلاء المترسلين أنفسهم ، وقد ظهر التضمين في بعض رسائل معاوية إلى علي ، ومن ذلك أن معاوية كتب إلى علي حين طلب منه البيعة والطاعة : « من معاوية إلى علي . أما بعد ، فإنه :

لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ قَيْسٍ عِتَابٌ ... غَيْرُ طَعْنِ الْكُلى وَضَرْبِ الرِّقَابِ »[2]

ولم يزد على ذلك . ويروى أنه كتب بعد أن جاءه جرير البجلي رسولاً لعلي في الأمر نفسه يرد عليه بكتاب ذيله بقصيدة مشهورة من شعر كعب بن جُعَيْل[3] التي يقول في مطلعها :

أَرَى الشَّامَ تَكْرَهُ مُلْكَ العِراقِ ... وَأَهْلَ العِراقِ لَهَا كارِهُونا

فكتب علي إليه رسالة يفند حجته ، ذيلها بأبيات للنجاشي الحارثي[4] ينقض فيها أبيات كعب ، ومطلعها :

دَعَنَّ مُعَاوِيَ مَالَنْ يَكُونا ... فَقَدْ حَقَّقَ اللهُ مَاتَحْذَرُونا

أَتَاكُمْ عَلِيٌّ بِأَهْلِ الحِجَازِ ... وَأَهْلِ العِراقِ فَما تَصْنَعُونا

---

(١) انظر كتاب مروان بن الحكم إلى معاوية في : جمهرة رسائل العرب ، ٣٣٦/١ وكتاب معاوية إلى سعيد بن العاص (٣٤٢/١) وإلى عبد الله بن عامر (٣٤٤/١) وإلى الوليد بن عقبة (٣٤٥/١) وإلى يَعلى بن أمية (٣٤٦/١) وكتاب مروان إلى معاوية (٣٤٧/١ ـ ٣٤٨) وكتاب عبد الله بن عامر إليه أيضاً (٣٤٩/١) وكتاب الوليد بن عقبة إليه كذلك (٣٥٠/١) وكتاب يَعلى بن أمية إليه أيضاً (٣٥١/١) .

(٢) جمهرة رسائل العرب ، ٣٨٥/١ و ٤٦٥ وكتب معاوية مرة كتاباً إلى الوليد بن عقبة من بيت واحد من شعر أوس بن حجر (٣٩٣/١) .

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ٣٩٨/١ ـ ٣٩٩

(٤) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ، ص ٥٨ ـ ٥٩

وتروى أشعار كثيرة في كتب أخرى من إنشاء المترسل نفسه تارة[1] ، ومن أشعار غيره تارة أخرى[2] . وقد ورد الاقتباس في النثر الترسلي إبان خلافة علي ، فكتب علي مثلاً إلى معاوية يقول : « إني إن أزرك فذلك جدير أن يكون الله إنما بعثني إليك للنقمة منك ، وإن تزرني فكما قال أخو بني أسد :

مُسْتَقْبِلِينَ رِيــاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ   بِحـاصِبٍ بَيْنَ أَغْوارٍ وَجُلْمُـودِ»[3]

وكان من التلميح إلى بيت الشعر الذي كتب به عثمان في كتاب الاستغاثة إلى علي ، قول معاوية في كتاب إلى علي : « وسألك أن تدركه قبل أن يمزق فما أدركته »[4] . ومن تضمين النثر الترسلي شطرَ بيت من الشعر ما كتب به علي إلى

(١) انظر كتاب معاوية إلى علي في : جمهرة رسائل العرب ، ٤٠١/١ وإلى ابن عمر في : وقعة صفين لنصر بن مزاحم ، ص ٧٢ وإلى سعد بن أبي وقاص (م.س ، ص ٧٤ ـ ٧٥) ورد سعد عليه (م.س ، ص ٧٥ ـ ٧٦) وكتاب معاوية إلى أبي أيوب الأنصاري في : جمهرة رسائل العرب ، ٤٠٩/١ ووقعة صفين ، ص ٣٦٧ ورد أبي أيوب عليه في : جمهرة رسائل العرب ، ٤١٠/١ ووقعة صفين ، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ وكتاب عمرو بن العاص إلى عبد الله بن عباس في : جمهرة رسائل العرب ، ٤٦٦/١ ـ ٤٦٧ ووقعة صفين ، ص ٤١١ ـ ٤١٢ وكتاب معاوية إلى زياد بن أبيه في : جمهرة رسائل العرب ، ٥٨٤/١

(٢) انظر كتاب علي إلى عثمان بن حُنَيْف في : جمهرة رسائل العرب ، ٣٣١/١ (من شعر حاتِم الطائي) وكتاب ابن عمر إلى معاوية في : وقعة صفين لنصر بن مزاحم ، ص ٧٣ (من شعر ابن أبي غَـزِيَّـة) وكتاب ابن عباس إلى عمرو بن العاص في : جمهرة رسائل العرب ، ٤٦٨/١ ـ ٤٦٩ ووقعة صفين ، ص ٤١٣ ـ ٤١٤ (من شعر الفضل بن عباس) وكتاب علي إلى أخيه عقيل في : جمهرة رسائل العرب ، ٦٠٠/١ (من شعر أخي سُلَيْم ، وقد ذكر أحمد زكي صفوت أن الشعر ينسب إلى العباس بن مرداس السُّلَمي) وكتاب صعصعة بن صُوحان إلى عَقِيل أيضاً (م.س ، ٦٠٢/١) (من شعر زهير بن أبي سلمى) وكتاب علي إلى معاوية في وقعة صفين ، ص ٣٨٥ (من شعر مُخارِق بن شهاب المازني) ورد معاوية عليه (م.س ، ص ٣٨٦) (من شعر مُخارِق أيضاً) ، وكتاب علي إلى معاوية أيضاً (م.س ، ص ٣٨٦) (من شعر أوس بن حجر) ورد معاوية عليه (م.س ، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧) (من شعر أوس أيضاً) .

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ٤١٩/١ والحاصب : الريح التي تحمل التراب والحصى .

(٤) م.س ، ٤٤٤/١ ـ ٤٤٥

معاوية إذ يقول : « وزعمت أني لكل الخلفاء حسدت ، وعلى كلهم بغيت ، فإن يكن ذلك كذلك ، فليس الجناية عليك ، فيكون العذر إليك (وَتِلْكَ شَكاةٌ ظاهِرٌ عَنْكَ عارُها)[1] »[2] ، ومثله في الرسالة نفسها : « وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ[3] »[4] ، ومثله فيها أيضاً : « فـ (لَبِّثْ قَلِيلاً يَلْحَقِ الْهَيْجا حَمَلْ)[5] »[6] . وهكذا نرى سلطان الشعر يشق طريقه مرة أخرى بعد رقاد طويل إلى ترسل صدر الإسلام ، إلى أن أصبح حلّ الشعر في القرون اللاحقة مذهباً أساسياً من مذاهب الكُتّاب المترسلين لا يستغنون عنه بحال من الأحوال ، وذلك لأن الشعر ركيزة أساسية من ركائز الثقافة العربية ، ولأنه منجم للمعاني لا ينضب ، مما أدى بالنتيجة إلى منافسة النثر الترسلي للشعر ، حتى أصبحت الرسالة في بعض الأحيان أشبه بقصيدة من الشعر ، وحتى كان بعض الشعراء يمتحون من هذه الرسالة بعض المعاني وينظمونها فيما سمي عندهم بـ (عقد النثر) ، وهو العملية الفنية المقابلة لـ (حل الشعر) .

---

(١) وهو عجز بيت لأبي ذؤيب الهذلي من قصيدة رواها السكّري في كتابه : شرح ديوان أشعار الهذليين ، ص ٧٠ وصدره :

☆ وَعَيَّرَها الواشُونَ أَنّي أُحِبُّها ☆

(٢) جمهرة رسائل العرب ، ٤٥٤/١

(٣) وهو حكمة تقال لمن يبالغ في نصح من لا ينتصح حتى يعود متهماً ، وصدره :

☆ وَكَمْ سُقْتُ في آثارِكُمْ مِنْ نَصِيحَةٍ ☆

(٤) م.س ، ٤٥٥/١

(٥) وهو بيت رجز قديم تمثّل به سعد بن مُعاذ يوم الخندق برواية (يَشْهَدِ الْهَيْجا) ، وبعده :

لا بَأْسَ بِالْمَوْتِ إذا حانَ الأَجَلْ

انظر : السيرة النبوية لابن هشام ، ٢٢٦/٢ وفسر بعضهم أن حَمَلاً هنا هو أخو حُذَيْفَة بن بدر الذبياني صاحب (الغبراء) ، وهي الفرس المشهورة .

(٦) جمهرة رسائل العرب ، ٤٥٥/١

د ـ الحكم والأمثال :

وهي أحد أعمدة الثقافة العربية ومصدر ثرّ من مصادر المعاني فيها ، وكان لابدّ للمترسلين في صدر الإسلام من العب من هذا المصدر ما وسعهم إلى ذلك من سبيل على وجه الحل بعد التشبع بهذه الحكم والأمثال الدارجة على ألسنتهم وفي مختلف ضروب قولهم ، أو على وجه التضمين ، وهذا هو الغالب في استخدامها ، إذ يندر جداً معرفة قائل المثل بدقة ، إلا أنه قد يأتي في النادر على وجه الاقتباس بعد قولهم : « كما قيل : .. » ، وقد نجدها أحياناً مستعملة على وجه التلميح .

ويمكن القول من خلال استقرائنا الحكمة والمثل في ترسل صدر الإسلام ، إنهما على أهميتهما كانا نادرين ، وهذا أمر لافت للنظر كما رأينا في استعمال الحديث النبوي آنفاً ، ذلك لأننا لم نعثر فيما بين أيدينا من رسائل إلا على عدد قليل من الحكم والأمثال ، يضاف إلى ذلك أن الأمثال كانت هي الغالبة في ذلك الترسل ، وقد كانت الأمثال كنايات أو حالات أو صوراً نقلت لتجري مجرى الأمثال في الكلام ، نظراً لوجود علاقة مشابهة بينها وبين ما تدل عليه من الوقائع والأحوال والأحداث . والحكمة الوحيدة التي وقعنا عليها في رسائل صدر الإسلام وردت في كتاب من علي إلى معاوية يذكر له فيها أمر عثمان فيقول : « فإن كان الذنب إليه إرشادي وهدايتي له ، فـ (رُبَّ مَلُومٍ لا ذَنْبَ لَهُ) »[1] ، وهي تُذْكَر عادة في بيان طبائع البشر المركوزة فيهم إذ يلومون من يظهر منه شيء يدعو إلى الملام في الظاهر من غير أن يعرفوا حجته أو عذره فيه .

وإذا كنا وجدنا مثلين فقط في الرسائل طوال فترة النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وحتى أواخر خلافة عثمان ، فإننا نجد هذه الأمثال تظهر فجأة ، كالشعر ، ظهوراً صريحاً في مطلع الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان وتفاقمت في خلافة علي مما يدل على

(١) م.ن .

أن استعمالها يرتبط بالفتن والأحداث التاريخية بين العرب أنفسهم ارتباطاً قوياً ، إذ تجد فيها مرتعاً خصباً للعيش ، خصوصاً أن تلك الفتن كانت تحرك النفوس وتذكي العواطف وتحرض العقل بسبب طبيعتها الخاصة .

ففي أيام فتح الشام كتب يزيد بن أبي سفيان إلى أبي بكر فقال إنهم « جاؤوا يَجُرُّونَ الشَّوْكَ والشَّجَرَ »[1] ، وهذه كناية أدرجت مدرج الأمثال للدلالة على كثرة العدد . وكتب عمرو بن العاص إلى أبي عبيدة : « وقد ذكروا أن الروم أَقْبَلَتْ إلى الشَّامِ بِقَضِّها وَقَضِيْضِها »[2] ، وهي كذلك كناية أدرجت مدرج الأمثال للدلالة نفسها .

وفي زمن اندلاع الفتنة بين العرب إبان موسم الحج سنة ٣٥ هـ كتب عثمان ، وهو محصور في داره ، إلى علي يقول : « أما بعد ، فإنه قد (بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبى)[3] ، و (جاوَزَ الْحِزامُ الطُّبْيَيْنِ)[4] »[5] ، وهذه حالة أو صورة استعملت مثلاً لكل أمر اشتد وتفاقم حتى زاد على حده وبلغ ما لا يبلغه في الأحوال العادية المألوفة . وكتبت عائشة إلى حفصة بنت عمر عن علي لما نزل بذي قار في طريقه إلى البصرة تقول : « فهو بمنزلة الأشقر : إنْ تَقَدَّمَ نُحِرَ ، وإنْ تأَخَّرَ عُقِرَ »[6] ، وهي حالة تضرب عادة مثلاً لمن تكون عاقبته سيئة في كل الأحوال ، وكتب علي إلى أبي موسى الأشعري وهو واليه على الكوفة لما علم بتثبيطه أهلها عن اللحاق

---

(١) م . س ، ١٤٧/١

(٢) م . س ، ١٧٨/١

(٣) الزُّبى : جمع زُبْيَة ، وهي الرابية التي لا يصل إليها ماء في العادة .

(٤) الطُّبْيان : مثنى طبي (بضم الطاء وكسرها وسكون الباء) ، وهو حلمة الضَّرْع التي فيها اللبن من ذوات الخف والظِّلْف والحافر ، والجمع أطباء . والحزام إذا انتهى إلى الطُّبْيَيْن فقد انتهى إلى أبعد غاياته ، لأن موضعه الأصلي الصدر والبطن .

(٥) م . س ، ٣١٢/١

(٦) م . س ، ٣٧٧/١

به : « ولا تُتْرَكُ حَتَّى يَخْتَلِطَ زُبْدُكَ بِخاثِرِكَ ، وَذائِبُكَ بِجامِدِكَ »[1] ، يضرب لمن يترك متحيراً متردداً في أمره لا يدري ما يفعل . وكتب علي إلى معاوية : « فكنت في ذلك كَناقِلِ التَّمْر إلى هَجَرَ »[2] ، وهو يضرب لمن يدعو من هو خير منه إلى الصلاح ، فيكون كمن ينقل التمر بضاعة إلى أهل هجر وبلدهم موطن النخل ومعدنه فتكسد بضاعته ويذهب عمله سُدى . وكتب علي إليه أيضاً : « هيهات لقد (حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْها) »[3] ، ويضرب للرجل يدخل نفسه في قوم ليس منهم ، وذلك لأن القداح إذا حركت في وعائها وكان أحدها من غير معدن إخوته خرج له صوت يخالف أصواتها فيعرف أنه دخيل مختلف . وضدّ هذا المثل الذي يدل على المخالفة ، مثل يدل على الموافقة كتب به علي في سياق كتاب إلى عمرو بن العاص يقرّعه فيه على متابعته معاوية في رأيه ويقول : « فصار قلبك لقلبه تبعاً ، كما قيل : (وافَقَ شَنٌّ طَبَقَةَ) »[4] ، وواضح أن المثل هنا اتخذ شكل الاقتباس مع أنه أشهر من أن يلتبس أمره في سياق الكلام ، وقد لَخّص في ذكر هذا المثل قصة طويلة عن خبر شنّ وطبقة اللذين ضرب بهما المثل في التوافق . غير أن علياً اتّبع في كتب أخرى طريقة التلميح كما في قوله لمعاوية من كتاب : « وترقيت إلى مرقبة بعيدة المرام ، نازحة الأعلام ، (تَقْصُر دُونَها الأَنوقُ) »[5] ، إشارة إلى المثل القائل : « دُونَه بَيْضُ الأَنوقِ »[6] ، لأن الأنوق من الطيور التي تحرز بيضها في أوكارها التي تبنيها في رؤوس الجبال والقمم الشاخة البعيدة صعبة

---

(١) م . س ، ٣٧٥/١

(٢) م . س ، ٤٤٧/١

(٣) م . س ، ٤٤٨/١ وحَنّ : صَوّت . والقِدْح : أحد سهام الميسر التي يضرب بها .

(٤) م . س ، ٤٨٧/١ وشنّ : اسم رجل من دهاة العرب . وطبقة : اسم امرأة كانت في غاية الذكاء .

(٥) م . س ، ٥٠٦/١ والأنوق : الرَّخَمَة .

(٦) مجمع الأمثال للميداني (ط . القاهرة ، ١٣٥٢ هـ) ، ٢٧٤/١

المرتقى ، فلا يكاد أحد يظفر بشيء من هذا البيض لذلك ، وقد ضرب لمن يطمح إلى مافوق هذه المرتبة الصعبة من المنزلة وهو غير أهل لها ، أو لا يقدر على ماهو أدنى منها . وكتب عمرو بن العاص إلى محمد بن أبي بكر وهو على مصر يحذره من أهلها ويقول : « فهم مسلموك لوقد (الْتَقَتْ حَلْقَتا البِطانِ) »[1] ، ويضرب لبلوغ الأمر غاية الشدة ، لأن التقاء حلقتي البطان يعني استعداد المرء للركوب والانخراط في القتال وغيره . وقد كتب علي إلى ابن عباس يعاتبه لتخليه عنه ويقول : « قَلَبْتَ لابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ ، ففارقته مع المفارقين »[2] ، كناية عن الصديق الذي ينقلب عدواً ، وكتب عقيل إلى أخيه علي عن الضحاك بن قيس يقول : « وهل هو إلا فَقْعٌ بِقَرْقَرَةٍ وَقَدْ وُطِئَتْ ؟ »[3] ، وهي صورة ضربت مثلاً للذليل الذي لا يمتنع .

ومن المسلم به أن استخدام المثل في سياق الكلام يركز المعنى ويرسخه في ذهن السامع ، ويقوى حجته فيما أراد الذهاب إليه ، وهو يكسب الكلام قوة أسر أكبر بكثير من الكلام الذي يرد خالياً منه ، وهكذا تتجلى وظيفته الداعمة والموضحة في بيان المرء عن قصده .

هـ ـ أجزاء من الرسائل :

كان كاتب الرسالة يرد ، في بعض الأحيان ، على الرسالة التي يتلقاها معلقاً على بعض ماجاء فيها من آراء ، أو مفنداً لها ، أو مناقشاً ، مما يضطره إلى أن يقتبس أو يختصر مقاطع منها تكون موضوعاً لهذا التعليق أو التفنيد أو النقاش ، ومن ذلك مثلاً كتاب ابن عباس رداً على كتاب جاءه من معاوية ، إذ يقول له

---

(١) جمهرة رسائل العرب ، ٥٥٦/١ والبِطان : الحزام الذي يلي بطن الدابة .

(٢) م . س ، ٥٩١/١ والمِجَنّ : التُّرْس .

(٣) م . س ، ٥٩٦/١ والفَقْع : الكَمَأة البيضاء الرِّخْوَة . والقَرْقَرَة : الأرض المطمئنة اللينة .

فيه : « أما مـاذكرت من سرعتنـا بـالمسـاءة إلى أنصـار عثمان وكراهتنـا لسلطـان بني أمية ، فلعمري لقد أدركت في عثمان حـاجتـك حين استنصرك فلم تنصره حتى صرت إلى ما صرت إليه ... وأما قولك : إنه لم يبق من قريش غير ستة ، فما أكثر رجالها وأحسن بقيتها ، وقد قاتلـك من خيـارهـا من قـاتلـك ولم يخـذلنـا إلا من خذلك .. وأما قولك : إنه لو بايعني الناس استقمت ، فقد بايع النـاس عليـاً وهو خير مني فلم تستقم له »[1] ، ومثل ذلك كثير في ترسل صدر الإسلام .

٢ ـ المصادر الذاتية :

تعد قوة الإبداع الحقيقية للمعاني ملكة شخصية تعتمد على مـا يستقر في نفسـه من المعـاني المستمـدة من المصـادر الخـارجيـة الرئيسيـة التي فرغنـا آنفـاً من الكلام عليها ، إذ إن المرء حين يتشبع بالمعاني التي يتلقـاهـا من محيطـه الثقـافي ثم تغيب هذه المعاني في نفسه فلا يبقى غير رسومها أو قوالبهـا المجردة ، فـإنـه لا بـد من أن يسلـك سبيل هـذه الرسوم البـاقيـة وأن يملأ تلـك القـوالب بمـا عنـده من ألفـاظ ومعان ، لأن المادة الخام التي بين يديه ، وأعني بها اللغة ، مشتركة بينه وبين تلك المعاني الخارجية التي دَرَسَتْ في نفسـه ، وهي مشتركـة أيضـاً بينـه وبين الآخرين الـذين سيعبر لهم عن نفسـه بهـا ، ومن هنـا تبرز قـدرتـه على تصريف الكـلام واستخلاص المعاني الخاصة به من تلك المادة ، وقد يصبح نسيجه الإبداعي الخاص للكلام من تلك المادة ، بدوره ، مصدراً من المصادر الخارجية التي يستمـدهـا غيره من الكُتّاب المعاصرين له أو المتأخرين عنه في كتاباتهم نماذج لهم ، وهـذا هو سرّ تأثير بعض الكُتّاب في بعض .

ويمكن أن نشبـه عمليـة الإبـداع والتحـويـل هـذه بصنيـع النحلـة التي تمتص الرحيق من عدد كبير من الأزهار (المصادر) ، فيتفاعل في جسمها تفاعلاً تحولياً

---

(١) م . س ، ٤٧٠/١ ـ ٤٧١

حتى تمجه بعد ذلك عسلاً مكروراً سائغاً للشاربين ، فذلك الرحيق هو المادة الخام ، وهذا العسل هو الناتج الذي يصبح بدوره مصدراً غذائياً للآخرين .

وهكذا فإنه لا يكفي الكاتب في مجال الإبداع الذي ينسب إليه أن يكثر من الاقتباس والتضمين والحل والتلميح ، لأن استعمال هذه الطرق يصعب أن يمثل أي إضافة جديدة على ما هو كائن في المصادر الخارجية ، والإضافة ، في الحقيقة ، هي جوهر الإبداع الشخصي ، وإلا لم يخرج كلام الناس على أن يكون تكريراً لعدد محدود من المعاني مهما بلغ من الكثرة ، وقد عبر ابن الأثير بوضوح عن عمل الكاتب المبدع للمعاني فقال : « ولا أريد بهذه الطريق أن يكون الكاتب مرتبطاً في كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم ، والأخبار النبوية ، والشعر بحيث إنه لا ينشئ كتاباً إلا من ذلك ، بل أريد أنه إذا حفظ القرآن الكريم ، وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار ، ثم نقب عن ذلك تنقيب مطلع على معانيه ، مفتش عن دفائنه ، وقلبه ظهراً لبطن ، عرف من أين تؤكل الكتف فيما ينشئه من ذات نفسه ، واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية »[1] .

(١) انظر كتابه : المثل السائر ، ١/١٢٧

الفصل الرابع

في اللغة

نتناول هنا تلك اللبنة الأساسية في بناء صرح الكلام ، ألا وهي المفردة اللغوية أو اللفظة الواحدة ، أو باختصار (الكلمة) ، لأنها هي أس كل مكتوب أو منطوق به من هذا الكلام المعبر عن الحاجات والعواطف والأفكار : فنجد أن الحديث عنها يكاد ينحصر فيما أسماه البلاغيون (الفصاحة) التي تبين لنا خصائص هذه الكلمة ، وتتمثل في ثلاثة مستويات هي :

١ ـ المستوى الصوتي :

وهو ما عبر عنه البلاغيون القدماء بخلوص الكلمة من (تنافر الحروف) وضربوا له مثلاً كلمة (مستشزرات) في قول امرئ القيس[1] :

☆ غَدائِرُهُ مُسْتَشْزِراتٌ إِلَى العُلا ☆

ذلك لأن مخارج حروف هذه الكلمة متقاربة ، ولا سيما السين والتاء والشين والزاي التي تكون موضع الإرباك في النطق . وقد حاولنا استقراء نصوص الرسائل في صدر الإسلام بحثاً عن هذه الظاهرة ، فلم نقع على ما يؤكد وجود شيء من هذا التنافر الصوتي بسبب التقارب في مخارج الحروف ، إلا في كلمات محدودة جداً ليس لها كبير أهمية هي المحصورة بين قوسين كبيرين في النصوص التالية :

---

(١) انظر : ديوانه ، ص ١٧ والغدائر : ذوائب الشعر . ومستشزرات إلى العلا : مفتولات إلى فوق .

« إني لست من تسطيرك الكتاب و (تشقيقك) الكلام في شيء »[1] ، و « إذا أحسوك (أنغضتهم) رموك بجمعهم »[2] ، و « اجتنبتُ الذهاب في (مداحضكِ) »[3] ، و « حاولت مكاناً (دحضاً) »[4] : فمصدر التنافر في (تشقيقك) تقارب مخرجي القاف والكاف ، وكلاهما حرف مجهور ، وفي (أنغضتهم) تقارب مخرجي الضاد والتاء وهما مجهوران أيضاً ، وأما في (مداحضك) و (دحضا) فإن التنافر ناتج عن تقارب مخرجي الدال والضاد ، وهما مجهوران ، مع وجود حرف الحاء المهموس بينهما .

وإذا كانت هذه هي أبرز شواهدنا على تنافر الحروف في كلمات الرسائل في صدر الإسلام ، فإنها دليل أكيد على فصاحة ألفاظ هذه الرسائل من الناحية الصوتية ، ولعل لطبيعة الكلمة العربية التي ولدت في أجواء الصحراء وترعرعت في سكون الطبيعة ومال العربي بها إلى الوضوح والجمال ، كانت وراء هذه الفصاحة تشد أزرها وترسخ أصلها وتجعل مفردات اللغة سهلة النطق على اللسان ومريحة المخارج في الجهاز الصوتي بأعضائه المختلفة ، مما ترتب عليه عملياً تباعد مخارج الأصوات في الكلمة الواحدة ، فقاد ذلك بالتالي إلى هذه السمة الواضحة في ألفاظ اللغة العربية التي لم يجد النقاد القدماء لها في الشعر قديمه ومحدثه على كثرته إلا بضعة شواهد لا تعني شيئاً ولا تؤكد ظاهرة بقدر نفيها ، وهذا يعني صحة نظرية الفصاحة الصوتية لمفردات العربية ، وتؤكدها تأكيداً لا جدل فيه . فليس هنالك إذن أي إشكال في ترسل صدر الإسلام على المستوى الصوتي .

ويمكن أن نلمس في ترسل هذه الفترة بعض الألفاظ التي وقع فيها إبدال

---

(١) جمهرة رسائل العرب ، ٢٢٦/١

(٢) م . س ، ٢٣٢/١ وأنغضتهم : حركتهم وأثرتهم .

(٣) م . س ، ٣٣٢/١ والمداحض : المزالق .

(٤) م . س ، ٤١٧/١

صوتي بحسب بعض اللهجات مثل (نهض) و (نهد) اللذين وقعا في عبارة واحدة هي : « فإن ناهضوك فانهد إليهم »[1] ، وهما بمعنى واحد ، وذلك لأن حرفي الضاد والدال متقاربان في المخرج ، وهذا هو سبب استعمال الوجهين في لهجتين مختلفتين ، أو في لهجة واحدة بعد أن اختلطت اللهجات أو تقاربت فيما بينها بمرور الزمن وبعد أن كثر اختلاط القبائل العربية ، وإمكان حلول بعض الحروف المتقاربة محل بعض أمر معروف ومقبول في العربية ، ومن ذلك مثلاً كلمة (وهاط)[2] في لهجة همدان بمعنى (وهاد) في بعض اللهجات الأخرى ، لتقارب مخرجي الطاء والدال .

٢ ـ المستوى الدلالي :

وهو ما عبر عنه البلاغيون القدماء أيضاً بخلوص الكلمة المفردة من (الغرابة) ، وهي في المفهوم الدقيق للكلمة : التباس معناها على السامع أو القارئ ، مما يجعل دلالتها غامضة أو غير واضحة ، وهذا يؤدي إلى استغلاق معنى الكلام الذي سيقت فيه ، فإذا وقعت الكلمة في فخ الغموض الدلالي لم تكن فصيحة ، وهذا يعني أن فصاحة الكلمة في المستوى الدلالي إنما تقع من وضوح معناها . وإذا انطمس معنى الكلام بسبب (الإغراب) الدلالي فإنه يخرج من باب الفصاحة والبيان والبلاغة ويدخل في باب الغموض ، وهو بذلك ينافي الغاية التي يرمي إليها كل كلام يقال ، وقد ذكر ابن وهب الكاتب كراهة هذا الإغراب فقال : « ولو كان لزوم السَجع في القول و (الإغراب) في اللفظ هما البلاغة ، لكان الله عزّ وجلّ أولى باستعمالها في كلامه الذي هو أفضل الكلام ، ولكان النَّبي ﷺ والأئمة المهديون والسلف المتقدمون قد استعملوهما ولزموا سبيلها وسلكوا طريقها ، فأما ولسنا واجدين فيما بين أيدينا من كلامهم استعمال

---

(١) م . س ، ١٥٠/١

(٢) استعملت هذه الكلمة في كتاب النَّبي ﷺ إلى همدان في : م . س ، ٥٦/١

السجع و (الغريب) إلا في المواضع اليسيرة ، فهم أولى أن يقتدى بهم ويحتذى بمناهجهم »[1] .

ويكون للغموض الدلالي عادة أسباب عديدة : منها اختصاص دلالتها بلهجة معينة خاصة وغير شائعة ، إذ تكون معزولة في بيئتها لا يفهمها إلا أهلها . ومنها تعلق المفردات بمدلولات بيئية خاصة غير متوفرة في بيئات أخرى . ومنها ارتباط هذه المفردات بمدلولات خاصة بمرحلة تاريخية معينة من الحضارة في العقائد والمعارف والعلوم والأدوات والملابس والأطعمة والحيوان والنبات وغير ذلك . ومنها ما يقع من كون الألفاظ دخيلة معربة . ومنها ما يكون نتيجة الحذف أو الاشتراك .

وإذا طبقنا هذه المعايير والأسباب على ترسل صدر الإسلام ، وجدنا أن الغالبية المطلقة من مفرداته واضحة الدلالة ، قريبة المعنى ، في حين أن قلة قليلة منها نحكم عليها من وجهة نظرنا نحن اليوم بأنها من الغريب ، في حين أن القدماء في صدر الإسلام قد لا يرون ذلك فيها . وقد وجدنا باستقراء رسائل صدر الإسلام ثلاث رسائل تنسب إلى النّبي ﷺ بعث بها إلى همدان وبني نهد وأهل حضرموت ، تركز فيها الغريب تركزاً شديداً حتى إن المرء كأنه يقرأ لغة أخرى مكتوبة بحروف الهجاء العربية لولا ما يتخلل هذا الغريب من مفردات واضحة أو قريبة الدلالة ولولا مايحس به من مبانٍ وصيغ عربية في الكلمات ، ويمكن أن نجتزئ بواحدة منها لتكون شاهدة عليها جميعاً ، فقد كتب إلى بني نهد يقول :
(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيْمِ . مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله إلى بَنِي نَهْدِ بْنِ زَيْدٍ . السَّلامُ علَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ : لَكُمْ يابَنِي نَهْدٍ في الوَظِيْفَةِ[2] الفَرِيْضَةُ[3] ، لَكُمْ

(١) انظر كتابه : البرهان في وجوه البيان ، ص ٢١١

(٢) الوظيفة : نصاب الزكاة .

(٣) الفريضة : الهرمة المسنة .

العــارِضُ[1] ، والفَرِيْشُ[2] ، وَذُوالعِنــانِ الرَّكُــوبُ[3] ، وَالفَلُــوُّ[4] الضَّبِيْسُ[5] ، لا يُمْنَـعُ سَرْحُكُمْ[6] ، ولا يُعْضَـدُ[7] طَلْحُكُمْ[8] ، ولا يُحْبَسُ دَرُّكُمْ[9] ، ولا يـؤكَـلُ أُكُلُكُمْ مــالَمْ تُضْمِرُوا الإمــاقَ[10] ، وتَــأْكُلُـوا الرِّبــاقَ[11])[12] . وورد في بعض كتبه ﷺ إلى النـاس في ديـات الجراح : (وفي الْمَـأْمُومَـةِ[13] ثُلُثُ الـدِّيَـةِ ، وَفي الْجَــائِفَــةِ[14] ثُلُثُ الـدِّيَـةِ ، وَفي الْمُنَقِّلَـةِ[15] خَمْسَ عَشْرَةَ مِنَ الإبِـلِ .. وَفي الْمُوَضِّحَةِ[16] خَمْسٌ مِنَ الإبِلِ ..)[17] . وفي بعض الكتب المتفرقة مثل ذلك .

---

(١) العارض : من الإبل وغيرها ماأصابه مرض أو كسر .

(٢) الفَرِيْش : من ذوات الحافر ماأتى عليه من نتاجها سبعة أيام واستحقت أن تُضْرَب ، وتكون بمنزلة النُّفَساء من النساء إذا طهرت .

(٣) ذو العِنان الركوب : يريد الفرس الذلول .

(٤) الفلو (بفتح وضم أو ضمتين أو كسر فسكون) : الْمُهْر أو الجحش إذا فُطِم .

(٥) الضَّبِيْس : العَسِر الذي لم يُرَض .

(٦) السرح : الماشية السائمة .

(٧) لا يعضد : لا يقطع .

(٨) الطلح : واحدتها طَلْحَة ، وهي الشجرة الطويلة لها ظل يستظل بها الناس والإبل ، وتكون ذات شوك ولها ساق عظيمة ، وتأكل الإبل منها أكلاً كثيراً .

(٩) الدَّرّ : اللبن ، والمراد ذوات اللبن من الماشية ، أراد لا تمنع من الرعي لتحشر إلى المصدِّق .

(١٠) الإماق : أصله الإمآق ، وهو نكث العهد من الأنفة والحمية .

(١١) الرِّباق : جمع رِبْق ، وهو الحبل الذي تشد به الغنم الصغار لئلا ترضع ، وقد شبه ما يلزم الأعناق من العهد بالرباق ، واستعار الأكل لنقض العهد ، لأن الدابة إذا أكلت الرِّبْق خلصت من الشدّ فرضعت وأكلت .

(١٢) جمهرة رسائل العرب ، ٥٧/١ ـ ٥٨

(١٣) المأمومة : الشجة التي بلغت أم الرأس ، وهي الجلدة التي تجمع الدماغ .

(١٤) الجائفة : الطعنة التي تنفذ إلى الجوف .

(١٥) الْمُنَقِّلَة : الضربة التي تنقل العظم عن موضعه بعد أن تكسره .

(١٦) الْمُوَضِّحة : الشَّجّة التي بلغت العظم فأبانت عنه .

(١٧) جمهرة رسائل العرب ، ٩٠/١

وفيما عدا هذه النصوص التي ذكرناها أو أشرنا إليها وبضعة كتب أخرى تعادلها كان أكثرها يُذْكَر على أنه رواية أخرى لها ، فإن المرء لا يكاد يقع على رسائل جامعة للغريب بهذه الصورة المركزة في ترسل صدر الإسلام على كثرته وتنوع موضوعاته .

ويلاحظ المرء أن غرابة المفردات في هذه الطائفة من الكتب القليلة ، التي ينسب معظمها إلى النَّبي ﷺ ، تعود أصلاً إلى الموضوعات التي عالجتها ، فقد استعمل فيها مفردات تتعلق بما كان العرب يتعارفون عليه آنذاك من أسنان الحيوان في المراحل المختلفة وما يتصل بها من أمور في معرض تحديد ما يتوجب من صدقة كل نوع منها وتحديد عدده ، وهذه أمور ذات علاقة مباشرة بالمجتمع الرعوي الذي كان غالباً على العرب باديهم وحاضرهم في ذلك الزمان ، ولذا فإننا ربما ظلمنا المعاصرين للنَّبي ﷺ إذا عددنا هذه المفردات في باب الغريب عندهم ، لأن المتوقع هو إلمام الناس آنذاك بمثل هذه التفاصيل أو المفردات المتعلقة بالبيئة وطبيعة المعاش والمرحلة التاريخية ، وإلا لما كتب النَّبي ﷺ بها إليهم ، لأن غايته كانت الإبلاغ والإفهام من أقرب سبيل ، ولذا فإن هذه المفردات تعدّ غريبة عندنا نحن في هذا الزمان على وجه الخصوص لبعد عهد السواد الأعظم منا بمثل هذا النمط من الحياة الرعوية أو لنقل شبه الرعوية ، ولما كانت هذه المفردات تخدم مصالح الحياة اليومية ، فإن الأغلب فيها أن تختلف من بيئة إلى بيئة أخرى ، وأن تتجدد من عصر إلى آخر . وتعود هذه الغرابة أيضاً إلى استعمال بعض الألفاظ الخاصة ببعض اللهجات ، خاصة في اليمن وحضرموت ، وكان النَّبي ﷺ يقصد في خطابه بعض القبائل إلى ما يفهمون من الألفاظ أو ما هو دارج في لهجتهم ليكون ذلك أقرب إلى نفوسهم وأدخل في أفهامهم مما لو خاطبهم بلغة قريش أو أي لغة أخرى غريبة عنهم مما ينفرهم ويعنتهم في فهمه . وتعود هذه الغرابة كذلك إلى الحذف كما رأينا آنفاً في تسميات الجراح والطعنات

والشجاج ، وذلك لأن أكثرها كان صفات حلت محل موصوفاتها لكثرة استعمالها ، وهذه طريقة العربية في الاقتصاد اللغوي ، وكانت معروفة في الجاهلية وصدر الإسلام ولا تزال تستخدم إلى اليوم . وتعود الغرابة أيضاً إلى الاشتراك الدلالي في بعض الأحوال مثل : الغَيْل ، والغَرْب ، والدّالِيَة في قوله ﷺ من كتاب عن صدقات الزرع : (فِيْما سَقَتِ السَّماءُ أَوْ سُقِيَ غَيْلاً[1] العُشْر ، وَفِيْما سُقِيَ بِالْغَرْب[2] ، والدَّالِيَة[3] نِصْفُ العُشْر)[4] ، إذ إن السامع قد يتبادر إلى ذهنه معانٍ أخرى غير المراد بها هنا ، إلا أن سياق الكلام يساعد على تحديد القصد الحقيقي منها بمعنى واحد دون سائر المعاني الأخرى لها . وقد تكون الغرابة بسبب كون الكلمات معربة أو دخيلة لا أصل لها في العربية ، ومن ذلك ما كتب به معاوية إلى ملك الروم أيام صفين مهدداً إياه بقوله : « ولأَنْـزِعَنَّكَ من الْمُلْك نزع الإصْطَفْلِيْنَة[5] ، ولأُرُدَّنَّكَ إرِّيْساً[6] من الأرارسة ترعى الدَّوابل[7] »[8] ، إذ يبدو جلياً أن (الإصْطَفْلِيْنَة) و (الإرِّيْس) لفظان معربان دخيلان ، لانقطاع أصلهما في العربية انقطاعاً تاماً وعدم الاشتقاق منهما .

وما تبقى من مفردات رسائل صدر الإسلام كان واضح الدلالات والمعاني تمام الوضوح ، إلا ما يعترض أحياناً في سياق الكلام من كلمة هنا أو كلمة هناك سقطت من الاستعمال العام في اللغة فأصبحت غامضة المعنى من وجهة نظرنا

---

(١) الغيل : الماء الجاري على وجه الأرض .

(٢) الغرب : الدلو العظيمة .

(٣) الدالية : آلة تتخذ لرفع الماء من مكان منخفض كالشادوف في بعض البيئات اليوم .

(٤) جمهرة رسائل العرب ، ٦٥/١

(٥) الإصْطَفْلِيْنَة : الجزرة .

(٦) الإرِّيْس : يريد الفلاح .

(٧) الدوابل : جمع دَوْبَل ، وهو ذكر الخنازير أو ولدها .

(٨) م . س ، ٤٧٣/١

غالباً ، وهذا النوع المتفرق في بطون الرسائل يعدّ قليلاً نادراً لا يشكل أي عقبة في سبيل فهم معاني الكلام ، وهذا يقودنا إلى الحكم عموماً بوضوح لغة الترسل عامة وقربها من الأفهام ، حتى إننا نقرأ في كثير من الأحيان رسائل عديدة فنظنها ، لشدة سهولة ألفاظها وقربها ، من ثمار عصرنا الحديث ، إلا أن طابع الجزالة الذي تتميز به مفردات هذه الرسائل تشير من طرف خفي إلى قدم عهدها . وقد نبَّه بعض القدماء على سهولة ألفاظ بعض كتب النَّبي ﷺ إلى ملوك العجم كما مرّ بنا من قبل ، حرصاً على يسر ترجمتها إلى لغاتهم .

ويمكن أن نشير هنا إلى أن كثيراً من المفردات المستعملة في ترسل صدر الإسلام كان مما دخله التطور الدلالي بفعل التأثير الإسلامي في كثير من المفاهيم وفيما أضاف من المعاني الشرعية إلى المفردات القديمة أو فيما استعمل من اصطلاحات لم تكن من قبل ، ومجال حصر هذا النوع من الألفاظ هنا غير يسير . ويجد المرء أن كلّ كلمة كانت تستعمل في موضعها المناسب لها في الكلام من غير أن يكون هنالك خلل أو لحن ، ذلك لأن كُتّاب الرسائل في صدر الإسلام كانوا من فصحاء العرب والطبقة القيادية في المجتمع ثقافةً وفقهاً ورأياً ومسؤوليات .

٣ ـ المستوى الصرفي :

كان من شروط فصاحة الكلمة عند القدماء من البلاغيين خلوها من (مخالفة القياس) ، أي ألا تخرق قواعد المباني والصيغ المطردة المعروفة في العربية ، وألا تخرج على نطاق ما يقتضيه علم الصرف .

وإن النظر المدقق في رسائل صدر الإسلام يؤدي بنا ، على وجه العموم ، إلى استنباط نتيجة مهمة هي أن الكلم كانت تقع بأوضاعها الصحيحة وتستعمل استعمالاً صرفياً سليماً ، مما يجعل الخوض في هذا المستوى من نقد المفردات غير

مسوغ هنا خلاف ماطرأ على هـذا الجـانب في العصور اللاحقـة . على أن تعـديلاً طفيفاً له ما يسوغه كان يطرأ في بعض الأحوال النادرة على بعض الألفـاظ ، فقـد ورد مثلاً في كتـاب النَّبي ﷺ المـذكور آنفـاً إلى بني نهـد قـولـه : (مـالَمْ تُضْمِرُوا الإمـاقَ ، وَتَـأْكُلُوا الرِّبـاقَ) ، إذ إن أصـل البنـاء الصرفي لكلمـة (الإمـاق) هـو (الإمـآق) ، فترك الهمز الممـدود لتحقيق الموازنـة والازدواج بين هـذه الفـاصلـة وفاصلة القرينة التالية ، أي : الرباق ، على عادة العرب الفصحاء في ذلك ، وهو مع ذلك قليل نادر في النثر الترسلي آنذاك .

الباب الرابع

أبرز قضايا الترسُّل في صدر الإسلام

الفصل الأول

في تكوين الكاتب المترسل

يعد تكوين الكاتب المترسل من أهم الأمور المرتبطة بأدب الترسل وآثاره على المستويين النظري والعملي ، وقد عمدنا إلى تتبع الأخبار المتعلقة بهذا التكوين في كتب المصادر القديمة ، وفيما كتب عنه الباحثون المحدثون قصداً أو عرضاً في دراساتهم ، لنصل بالتالي إلى الإجابة عن مجموعة من الأسئلة التي تتبادر إلى الذهن في هذا المجال : كالسؤال عن أسس ثقافة الكاتب وطرق الوصول إليها واكتسابها ، وعن كيفية تأهيل الكاتب للعمل في هذا النوع ، أو لنقل : التخصص بالكتابة ، وعما يُحاط به الكاتب من عناية أولي الأمر وعناية المجتمع ، وعن مكانة الكاتب وأهمية عمله ، وعما يتم في هذا السبيل من إجراءات أو يكون من تقاليد معينة يلتزمها الكاتب أو يراعيها في عمله وسلوكه ، إلى غير ذلك مما يمكن أن نتعرفه عن كثب في الفقرات التالية .

١ ـ ثقافة الكاتب :

لم يكن العرب في صدر الإسلام يعرفون (الكتب المؤلفة) إلا فيما ندر ، ولذا فإن ثقافة الكتاب آنذاك كانت تقوم على ما يمكن أن ندعوه (الموروث الشفويّ) أو (التراث المرويّ) الذي كان يشمل كل المعارف التي توصل إليها العرب من أقدم العهود إلى زمنهم ، يضاف إلى ذلك مصدر ثرّ جداً للثقافة الجديدة هو (القرآن) الذي تمّ تدوينه كما رأينا منذ أوائل نزوله على المواد المتاحة وبالوسائل المتوفرة له في حياة النبي ﷺ ، ثم اشتدت حركة تدوينه أكثر فأكثر

وترقَّتْ زمنَ أبي بكر وعمر وعثمان حتى أصبحت نسخه في أواخر خلافة علي كثيرة جداً في أيدي الناس خاصتهم وعامتهم على حدّ سواء .

وإذا نظرنا إلى كُتّاب الرسائل التي وصلت إلينا نصوصها في المصادر وجدناهم من الطبقة الأولى في المجتمع والتي تتألف من النبي ﷺ ومجموعة من صحابته المقربين الذين كانوا يلتفون حوله قبل الهجرة وبعدها من قريش خاصة ، ومن سائر القبائل والجماعات العربية الأخرى عامة . وهذا يعني أن الترسل الذي وصل إلينا كان على احتكاك مباشر بقاعدة الدعوة الإسلامية وبحركة التاريخ التي كانت تصنعها . وكان هؤلاء الكتاب يتمتعون بسليقة لغوية ، أو لنقل : بملكة لغوية سليمة بحكم نشأتهم وتكوينهم ، وخصوصاً في فترة صدر الإسلام التي ظلّ العرب فيها ، على وجه العموم ، يحافظون على صفاء لغتهم ونقاء كلامهم من بعض ظواهر اللحن التي بدأت تنشأ هنا أو هناك نتيجة الفتوح والاختلاط بالأعاجم والزواج من نسائهم على نطاق واسع خارج جزيرة العرب على وجه الخصوص ، فظل تعبير هؤلاء الكتاب بعيداً جداً عن آثار تلك الظواهر .

وقد كان على هؤلاء الكتاب ـ نظراً لموقعهم القيادي في حركة التاريخ وإدارة الدولة وتوجيه المجتمع بوصفهم خلفاء وقادة جيوش وولاة أمصار وعمالاً في كثير من شؤون الإدارة الحيوية ـ أن يلموا ، بعد التمكن من القراءة والكتابة تمكن إتقان ، بالثقافة الإسلامية الجديدة التي كانت أساساً لإدارة المجتمع الجديد بوصفها مجموعة من القيم الأخلاقية والتربوية والشرائع والقوانين التي يحكم على الناس من خلالها ، وكانت هذه الثقافة تتمثل في استيعاب (القرآن) و (الحديث) و (تاريخ الدعوة) ، ولا سيا ما يتعلق بحياة النبي ﷺ وأصحابه في مكة قبل البعثة وبعدها ، ثم بعد الهجرة إلى المدينة وما تبعها من مغاز وسرايا وبعوث ، بكل مافيها من تفاصيل تاريخية دقيقة تتعلق بالأحداث والمواقف والأقوال .

وكان مثل هذا التاريخ بطبيعة الحال حيّاً في الأذهان وغضّاً في النفوس تحفظ ذاكرة الناس الذين شاركوا فيه أو سمعوا عنه أدق تفاصيله وأشملها ، مما جعل الناس بغنى ، في صدر الإسلام على الأقل ، عن قراءته في كتاب مدون ، فقد عايش الكتاب المترسلون أحداث هذه الدعوة وتاريخها بأنفسهم في حياة النبي ﷺ وكانوا في زمن الخلفاء الراشدين بعده هم الذين تولوا الخلافة أو أحاطوا بهؤلاء الخلفاء قواداً وولاة وعمالاً لهم في قاعدة الخلافة وفي الأمصار ، ولذا فإن تفاصيل هذا التاريخ كانت تجري في عروقهم وتنطبع في أذهانهم وكانوا يسهمون هم أنفسهم في صنعها بالقدر الذي كان متاحاً لكل منهم ، إضافة إلى إلمامهم من معاصريهم بكثير من الوجوه الأخرى للأحداث التي يعرفونها ويعرفون أسرارها . وهكذا نرى أن الثقافة الإسلامية وما يتصل بها من ثقافة تاريخية كانت مطبوعة في نفوس الكتاب المترسلين في صدر الإسلام بعمق ودقة ، ولا شكٌ في أن إلمامهم بتاريخ العرب في الجاهلية كان لا يقل شأناً في نفوسهم وعقولهم ، إلا أن جمهورهم لم يعايشه إلا فترة قصيرة قبل البعثة النبوية ، ولذا كان أكثر اعتمادهم في تحصيله يقع على ما يسمعون من مرويات كلية أو جزئية عن هذا الحدث أو ذاك ، فكانت لديهم نتيجة ذلك محصلة عامة تكفيهم زاداً فيما يودّون الكتابة فيه ، غير أن الملاحظ هو إهمال ذلك التاريخ في كتاباتهم على الرغم من إلمامهم به ، وتوظيفه في بعض الرسائل توظيفاً جدلياً والاحتجاج به ، وربما كان ذلك بسبب طغيان التاريخ الجديد بما فيه من أحداث جسام متلاحقة مما يشغلهم عن الإشارة في رسائلهم إلى التاريخ الماضي .

ويمكن القول إن الثقافة التاريخية تهيئ الكاتب المترسل لفهم واقع عصره الفكري والسياسي فهماً أعمق وأدق ، في حين أن الثقافة الإسلامية ، ولا سيما القرآن والحديث ، كانت تزوده بمعرفة عميقة للقوانين التي تضبط حركة سير المجتمع وعلاقات أفراده بعضهم ببعض ، مع إدراك التوجهات العامة لهذا المجتمع .

وكان هؤلاء المترسلون يلمّون إلى جانب ثقافتهم الإسلامية والتاريخية بالثقافة الأدبية التي تتمثل في الشعر ، وفي النثر على اختلاف أنواعه التي كانت معروفة في الجاهلية وصدر الإسلام ، وهي تنقسم ، كما هو واضح ، قسمين : **الأول** قديم أخذ حدوده وأبعاده النهائية وأصبح جزءاً من التراث ، وكان لا بدَّ من الاطلاع على أهم التجارب التي تمت فيه . **والثاني** معاصر وكان لا يزال يعايش هؤلاء المترسلين ويتفاعل معهم ويتفاعلون معه ، فهم غارقون فيه بسبب المعاصرة وغير قادرين على الإحاطة بكل ما فيه أو تعرف حدوده بدقة ، لأنها لم تتشكل بعد تشكلاً نهائياً ، ولم تكن هذه الحقيقة لتمنع هؤلاء المترسلين خاصة والناس عامة آنذاك من الإلمام بشيء قليل أو كثير من هذه الآثار المعاصرة في ميدان الشعر والنثر . ويهمنا هنا أن نشير إلى أن كتب النبي ﷺ المعاصرة لهؤلاء المترسلين كانت تعد مَعيناً أساسياً استقوا منه منهجهم في كتابة الرسائل على الأقل ، إن لم يستلهموا منها روح البلاغة والفصاحة والبيان ، وهكذا كانت مجموعة رسائل النبي ﷺ أشبه بمدرسة تخرج فيها عدد من الكتاب أو لنقل : تكونوا فيها ، ثم أصبحوا هم نواة حركة الكتابة عامة ، والكتابة الترسلية منها خاصة في صدر الإسلام . وكانت كتب الخلفاء الراشدين بدورها مَعيناً يستقي منه الكتاب المترسلون الذين أتوا بعد ذلك .

وتلاحظ آثار الثقافة الأدبية عند المترسلين في صدر الإسلام واضحة فيما تركوا لنا من نصوص رسائلهم : إذ كانت بعض الأشعار والأمثال ترد في هذه الرسائل مضمنة أو مقتبسة أو محلولة كما رأينا من قبل . وتلاحظ آثار الثقافة الإسلامية عميقة جداً في كل رسالة نقرؤها من تلك الفترة من خلال ما فيها من آيات قرآنية وأحاديث وأخبار تاريخية تتعلق بالدعوة ، سواء أكانت هذه الشواهد مقتبسة أم مضمنة أم محلولة المعاني في سياق الكلام ، وقد رأينا ذلك فيما مرَّ بنا من قبل أيضاً .

ولا شك في أن هذه الأنواع الثلاثة من الثقافات : الإسلامية والتاريخية والأدبية ، كانت تُرْفَد بثقافات وعلوم ومعارف أخرى لم يكن لهم غنى عنها . فكان لابدَّ للكاتب المترسل مثلاً من الإلمام بشيء من علم الأنساب وأخبار العرب وأيامهم ووقائعهم ومآثرهم ومفاخرهم ، وبالمعارف الجغرافية والمناخية المتاحة لهم آنذاك ، وبشيء من تواريخ الأمم والشعوب الأعجمية التي كانت بلادها تجاور بلاد العرب أو التي دخلوها فاتحين ، وقد رأينا من قبل قيمة إلمام الكاتب المترسل أيضاً ببعض اللغات الأعجمية ، كما فعل زيد بن ثابت مثلاً حين أمره النبي ﷺ بتعلم بعضها ، إلى غير ذلك من المعارف التي كانت معروفة حتى أواخر فترة صدر الإسلام .

ومن المفيد هنا أن نشير إلى أن الثقافة تتصف بصفة هامة جداً هي (التراكم) ، وهو نتيجة طبيعية لعدد من العوامل الفاعلة في جوهرها كالتنامي والتطور والعمق والاتساع والتشعب بمرور الزمان ، وهذا يعني أن الثقافة تنتقل ، مثل كل الأشياء المتغيرة ، من البسيط إلى المعقد ، فإذا طبقنا هذا المعيار على العصور الأدبية المتفق عليها في تاريخنا الأدبي ثبتت صحة هذا التراكم ، وهذا يقود بطبيعة الحال إلى زيادة العبء الذي يتحمله الكاتب المترسل في كل عصر لاحق باستمرار ، نظراً لظهور معارف وعلوم وفنون جديدة متفرعة من الأصل القديم تأخذ سبيلها إلى الاستقلال بنفسها للتوسع والتعمق ، ثم تتفرع هي بدورها فيما بعد إلى فروع جديدة أخرى ، ويحتاج الكاتب المترسل دوماً إلى الإلمام بمثل هذه المعارف إلماماً يتجاوز في كثير من الأحيان حدود إلمام الأديب في العصر القديم الذي يقوم على مفهوم الأخذ من كل علم بطرف ، ليصل إلى حدّ إلمام المختصين أنفسهم بمختلف العلوم والمعارف المعاصرة لهم . ومن هنا جاءت الحاجة إلى تأليف الكتب في باب ثقافة الكاتب فيما عرف عموماً باسم (أدب الكاتب) أو (أدب الكُتّاب) ، وقد ظهرت في العصور التالية للعصر الأموي مجموعة كبيرة من

الكتب في هذا المجال كانت تحمل هذا الاسم[1] ، أو قريباً منه[2] عنواناً لها . وقد تطور هذا النوع من التأليف حتى بلغ ذروته في العصر القديم بكتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي (م ٨٢١ هـ) ، إذ إنه ألم فيه بكل ما ينبغي للكاتب في ديوان الإنشاء أن يحيط به في عصره من المعارف ، ويمكن القول إن ثقافة الكاتب في عصر القلقشندي كانت ثقافة موسوعية حقيقية بما فيها من تنوع وتعقيد واتساع لم تعرفه مثلاً فترة صدر الإسلام ولا العصر الأموي من بعدها ، ولم تبلغها في القرون السابقة للقرن التاسع الهجري ، مما يثبت لنا صحة هذه الصفة (التراكمية) في ثقافة الكاتب المترسل عبر العصور .

على أن الكُتّاب يتفاوتون عادة في درجة اكتسابهم ثقافة عصرهم بحسب تفاوت هممهم واختلاف قدراتهم ومواهبهم واستعداداتهم ، إلا أن هنالك حدّاً أدنى لا بدَّ لهم جميعاً من الإلمام به وإلا فقدوا القدرة على التصرف في كتابتهم ، وهذا الحد الأدنى يكون قدراً مشتركاً فيما بينهم ، وكلما كان الكاتب المترسل أكثر استيعاباً لأكبر قدر من معارف عصره ، كان إبداعه أوسع وأشمل ، وقدرته على التعبير أدق وأبلغ وأوضح ، لأن كل إناء بما فيه ينضح .

٢ ـ امتحان الكُتّاب واختيارهم :

كان النبي ﷺ يختار كُتّابه من بين أصحابه الذين يلمون إلماماً جيداً بصناعة الخط قبل أي شيء آخر ، لأنه كان يحتاج إلى من يدون له الوحي والكتب إلى

---

(١) مثل كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة (م ٢٧٦ هـ) ، وهو يدور حول الثقافة اللغوية لحاجة الكُتّاب الماسة إليها أساساً لإقامة كتابتهم وتقويمها . و (أدب الكُتّاب) للصولي (م ٣٣٥ هـ) ، وفيه إلمام ببعض المعارف الأساسية التي ينبغي للكاتب أن يتعرفها .

(٢) مثل (كِتاب الكُتّاب) لابن درستويه (م ٣٤٧ هـ) ، و (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) لابن الأثير (م ٦٣٧ هـ) ، و (حسن التوسل إلى صناعة الترسل) لابن سليمان الحلبي (م ٧٢٥ هـ) ، إلخ .

الملوك والأمراء ، وإلى عماله ، وإلى القبائل . وكان المعيار الثاني لهذا الاختيار ارتياح النبي ﷺ لهم وثقته في أمانتهم وإيمانهم ، مما جعل أمر اختيار هؤلاء الكتاب وعملهم ميسراً جداً نظراً لبساطة وضع الكتابة آنذاك مع ندرة الكتاب الجيدين للخط .

وكان الخلفاء الراشدون من بعد النبي ﷺ يكتبون رسائلهم بأيديهم ، وربما كانوا يملونها على بعض كتابهم ، ويلاحظ أن الحاجة إلى الكتاب قد تزايدت أكثر فأكثر في زمنهم ، نظراً لتوسع حاجات الإدارة في قاعدة الخلافة وفي مراكز الأمصار على حد سواء ، فازدادت بذلك مكانة الكاتب رفعة بين الناس ، حتى كان استبداد مروان بن الحكم بابن عمه الخليفة عثمان بن عفان واستيلاؤه على أمره كله في الكتابة ، فلفت أنظار الناس إلى خطر دور الكاتب في تسيير شؤون الدولة والمجتمع ، مما دفع بعض الطامحين إلى السير في سبيل الكتابة ، وكان الخليفة لا يختار لنفسه إلا أقرب المخلصين له من أقربائه ومواليه وأنصاره ، لأنه يطمئن إليهم أكثر من غيرهم . وربما كان هذا معياراً لاختيار الكاتب ، فهل هناك معايير أخرى زمن الخلفاء الراشدين لمثل هذا الاختيار ؟ وهل كانت هناك جهة تعدّ الكاتب وتهيئه علمياً وعملياً للاضطلاع بمسؤولياته ، أو بتعبير آخر : هل كان تكوين الكُتّاب منظماً في زمن الخلفاء الراشدين ؟

يمكن الإجابة عن هذه الأسئلة بعقد شيء من المقارنة بين ما كان عند ملوك الفرس الساسانيين في هذا المجال ، وما كان بعد ذلك عند الراشدين : ذكر الجهشياري أن ملوك الفرس كانوا يسمون كُتّاب الرسائل « تراجمة الملوك »[1] ، وأن الرسم عندهم كان جارياً على « أن يجتمع أحداث الكتاب ، ومن نشأ منهم ، بباب الملك متعرضين للأعمال ، فيأمر الملك رؤساء كُتّابه بامتحانهم والتفتيش عن

(١) انظر كتابه : الوزراء والكُتّاب ، ص ٣

عقولهم ، فمن رُضِيَ منهم عُرِضَ عليه اسمه ، وأُمِرَ بملازمة الباب ليُسْتَعان به ، ثم أمر الملك بضمهم إلى العمال ، وتصريفهم في الأعمال ، وتنقلهم على قدر آثارهم وكفاياتهم من حال إلى حال ، حتى يُنْتَهى بكل واحد منهم إلى ما يستحقه من المنزلة »[1] ، ويظهر لنا هذا وجود ثلاثة إجراءات أساسية في حياة الكاتب عند الفرس : الأول تعلمه الخط ومبادئ الثقافة صغيراً ، والثاني الامتحان ، والثالث ممارسته العمل الكتابي في أدنى المستويات ثم ترقيه فيها درجة درجة إلى أن يصل إلى المنزلة التي تؤهله لها مقدرته وكفاءته من غير أن يكون لذلك معيار آخر من خارج نطاق العمل نفسه ، ويلاحظ المرء ابتداء الكاتب حدثاً وارتقاءه الدرجات العلى مع تقدمه في السن وهذا كله يدل على طول استقرار الدولة وتنظيم الأمور فيها تنظيماً دقيقاً وعريقاً ، حتى إن الكتاب كانت لهم طبقة خاصة في المجتمع الساساني كما ذكر المستشرق كريستنسن ، وكان كُتّاب الرسائل في مقدمتهم ، وكان لهذه الطبقة ما يشبه التنظيم النقابي المهني في أيامنا[2] .

غير أن الدولة العربية الناشئة لم تكن لديها مثل هذه المعايير حتى أواخر العصر الأموي تقريباً ، فقد كانت أوضاع الأمية وندرة الكاتبين وحاجة الدولة جميعاً أكبر من أن يتيح لهذه الدولة أن تخطط لنظام تعليمي أو برنامج تأهيلي مشابه لما كان عند الفرس قبل فتح العرب بلادهم ، بل كانت الأمور تتم بعفوية تامة . ومع ذلك فإن هناك حادثة تروى لنا من زمن عمر هي أن أبا موسى الأشعري كان قد استكتب في ولايته لعمر على البصرة أو الكوفة زياد بن أبيه ، وهو حدث ، فلما قدم أبو موسى إلى عمر مرة استخلف زياداً على عمله ، فلامه عمر على ذلك ، وهذا يعني أن عمر نظر إلى (معيار السن) فحكم على زياد من خلاله بضعف الكفاءة من غير أن يمتحنه بشيء ، وذلك لأنه كان يرى أن تقدم السن على

(١) م.ن . وانظر : صبح الأعشى ، ٤٤/١

(٢) انظر كتابه : إيران في عهد الساسانيين ، ص ٨٦

وجه الإجمال شرط من شروط الكتابة ، والحوار التالي بين عمر وأبي موسى يظهر هذا الاعتقاد ، قال عمر : « استخلفتَ غلاماً حدثاً ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه ضابط لما ولي ، خليق بكل خير »[1] ، فكتب عمر إلى زياد أن يقدم إليه ، فلما جاءه عمد إلى إخضاعه لامتحان قدرات أو كفاءة فقال له : « ينبغي أن تكتب إلى خليفتك[2] بما يجب أن يعمل به . فكتب إليه كتاباً ودفعه إلى عمر ، فنظر فيه ثم قال : أعد . فكتب غيره ، فقال له : أعد . فكتب الثالث ، فقال عمر : لقد بلغ ماأردت في الأول ، ولكنني ظننت أنه روّى فيه ، ثم بلغ في الثاني ماأردت ، فكرهت أن أعلمه ذاك وأردت أن أضع منه لئلا يدخله العُجْب فيهلك »[3] . ويلاحظ من هذا الخبر أن عمر لم يكن يهتم بأثر عامل التشجيع في نفس الكاتب ، ويظنه خطراً عليه يودي به إلى التهلكة بما يدخل فيه من هذا الزَّهْو ، وهذا غير صحيح في رأينا ، لأن المحسن في كتابته يزيد إحساناً بهذا العامل ، ولأن المحسن يجب أن يثاب بالقول والفعل أيضاً ، علماً أن عمر قد طبق مبدأ العقوبة التي سنراها في البند التالي .

نستنبط من هذا أنه لم يكن هناك في صدر الإسلام أي جهة ترعى الكتاب ولا أي تنظيم خاص بهم يسهر على مصالحهم وعلى تكوينهم ، لأنهم أصلاً لم يعترف بهم على أنهم طبقة خاصة متميزة ، فكانت الأمور تجري عفوية تماماً في تكوين هؤلاء الكتاب ، إذ كانت تعتمد على رغبة الكاتب نفسه ومدى اهتمامه بالعمل الكتابي ، وتقوم الظروف والمصادفة بدور مهم في وصوله إلى هذا العمل ، ويبدو لنا أن النظرة إلى الكتاب على أنهم فئة من الناس أو طبقة مهنية لها أوضاعها

---

(١) إعتاب الكُتّاب لابن الأبار ، ص ٥١

(٢) أي إلى خليفة زياد على عمل أبي موسى .

(٣) الوزراء والكُتّاب للجهشياري ، ص ١٨ وانظر مثل ذلك أيضاً في كتاب : إعتاب الكُتّاب لابن الأبار ، ص ٥٢

الاجتماعية الخاصة لن تكون إلا في أواخر العصر الأموي فيما سيكتب به عبد الحميد الكاتب إلى هؤلاء الكتاب في أنحاء الدولة الأموية ضمن رسالته المشهورة .

وقد ذكر عمر فروخ أن العرب في صدر الإسلام كانوا يختارون الكتاب من « ذوي الأمانة والعفة »[1] ، ونجد بالفعل تركيزاً على الصفات الأخلاقية للكاتب في مثل ما كتب به علي للأشتر من عهد حين ولاه على مصر إذ يبين له كيف يختار كُتّابه فيقول : « ثم انظر في حال كُتّابك ، فولِّ على أمورك خيرهم ، واخْصُصْ رسائلك ، التي تُدْخِل فيها مكائدك وأسرارك ، بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق »[2] ، في كلام كثير . وواضح أن ذلك ينصبّ على قيم خلقية أساسية كما رأينا هي : الأمانة والعفة والخير وكتمان السر ، لأن صاحب هذه الأخلاق إنما يكون خير مؤتمن على حمل عبء العمل الموكل إليه .

ومن المؤكد أن الاعتماد على كاتب معين أو على مجموعة من الكتّاب في صدر الإسلام ، إنما كان يقع بعد الاطمئنان إلى مقدرتهم في ميدان الكتابة . وهذا الاختيار والامتحان إنما كان يتم بأساليب الممارسة العملية من غير أن تكون هنالك قواعد نظرية واضحة أو ثابتة للاختيار والامتحان ، نظراً لحاجة الإدارة الماسة إلى الكتاب ، على أن أكثر الكتّاب في صدر الإسلام كانوا متطوعين لا محترفين ، كما مرَّ بنا من قبل ، أو كانوا بمفهومنا المعاصر غير متفرغين مقابل أجر يجرى عليهم في أوقات معينة ثابتة . وكان أكثر كُتّاب الرسائل عملياً من الخلفاء والقادة والولاة والعمال الذين ينتمون مباشرة إلى طبقة الصحابة وأبنائهم ومن التابعين لهم ، أي ممن تخرجوا أصلاً على يدي النبي ﷺ من خلال قدمهم وسابقتهم وجهادهم وقربهم من النبي ﷺ وعملهم له ، وهؤلاء جميعاً لم يصلوا إلى مناصبهم نتيجة امتحان أو اختيار قائم على أساس القدرات والكفاءات ، وإنما برزوا سادة

---

(١) انظر كتيبه : الرسائل والمقامات ، ص ٤

(٢) نهج البلاغة ، ٩٨/٣

للناس بفضل ذلك أحياناً وبفضل الميزات المذكورة التي منحت لهم في الإسلام في أحيان أخرى .

٣ ـ عقوبة الكُتّاب :

تروى بعض الأخبار عن عقوبة بعض الكتّاب على سوء كتابتهم ، غير أننا نظن أن بعضها كان موضوعاً ، وأن بعضها الآخر كان صحيحاً مقبولاً ، وغاية هذه الأخبار إنما هي بيان أهمية العناية بالخط وصحة الإملاء ، فمن ذلك مثلاً أن السمعاني (م ٥٦٢ هـ) روى عن بعض الصحابة أنه قال : « خرج علينا غلام من عند النبي ﷺ يبكي ، فقال : مم بكاؤك ؟ قال : ضربني النبي ﷺ . فقلنا : لم ذاك ؟ قال : مددت الباء قبل السين ، يعني في (بسم الله الرحمن الرحيم) »[1] . وروى الجاحظ أن الحصين بن أبي الحر كتب إلى عمر ، وهو عامله على ميسان ، كتاباً فلحن في حرف منه ، فكتب إليه عمر أن « قَنِّعْ كاتبك سوطاً »[2] . وروى الصولي أن « كاتب عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب (بم الله) باء وميماً وحذف السين ، فأمر عمر بضربه فضرب ، فقيل : في أي شيء ضرب ؟ فقيل : في سين ، فضربت مثلاً »[3] . ولم تكن هذه العقوبات البسيطة إلا محاولة للتنبيه على ضرورة ضبط الكتابة الخطية ضبطاً صحيحاً يتوافق مع القواعد الموضوعة له أو المتعارف عليها بين الناس .

---

(١) انظر كتابه : أدب الإملاء والاستملاء ، ص ١٧٠ ويبدو أنه كتبها (بـــسم) ، وكان حقه أن يقصر الباء ويطيل السين إن شاء (بســـم) ، لأن السين أقبل للإطالة ، بل إن الإطالة تجمّلها .

(٢) انظر كتابه : البيان ، ٢١٦/٢ ـ ٢١٧ وقد روى الصولي الخبر نفسه عن كتاب جاءه من أبي موسى الأشعري ، انظر كتابه : أدب الكُتّاب ، ص ١٢٩

(٣) انظر كتابه : أدب الكُتّاب ، ص ٣٥

٤ ـ وصايا إلى الكتاب :

درج العرب في الجاهلية وصدر الإسلام على أن يوصوا من يهمهم أمره بما يعود عليه بالنفع والخير ويكون لهم منه بالتالي حظ ما من مثل هذا النفع وذاك الخير ، وكان من جملة ميادين الوصية عندهم بعض الوصايا التي وجهت أصلاً إلى بعض الكتاب تنصحهم وترشدهم وتصدر إليهم بعض التعليمات التي تنفعهم في مجال كتابتهم ، وتأتي أهمية هذه الوصايا من كونها وسيلة من الوسائل المتاحة ، في صدر الإسلام ، على وجه الخصوص ، لتكوين هؤلاء الكتاب . ويبدو لنا جلياً ، من تعدد ما بين أيدينا من الوصايا التي تعود إلى فترة صدر الإسلام ويمتد بعضها أحياناً إلى أواخر الجاهلية ، أن رسالة عبد الحميد الكاتب في أواخر العصر الأموي إلى الكتاب لم تكن الأولى من نوعها ، وإنما سبقت بتلك الوصايا المتقدمة التي تعد رائدة حقاً في هذا الباب ، على الرغم من انصراف الشهرة عبر القرون الماضية إلى رسالة عبد الحميد وحدها ، غير أن من الإنصاف العلمي القول هنا إنه كان مسبوقاً في ذلك . إلا أننا ـ وإن سلمنا بأكثر هذه الوصايا الموجهة إلى الكتاب ـ لا نعدم أسباب الشك في بعضها لاستبعادنا صدوره عمّن نسبت إليه أصلاً كما سنرى بعد قليل .

وأقدم وصية عثرنا عليها في حدود اطّلاعنا تعود إلى الجاهلية ، وهي وصية تنسب إلى أكثم بن صيفي الحكيم التميمي المعروف ، إذ يروي أبو هلال العسكري (م ٣٩٥ هـ) فيقول : « كان أكثم بن صيفي إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكُتّابه[١] : افصلوا بين كل معنى مُنْقَضٍ ، وصلوا إذا كان الكلام معجوناً بعضه ببعض »[٢] ، فهو هنا يؤكد على ضرورة تمييز هؤلاء الكتاب الكلام بعضه من

---

(١) أي من كان يكتب له من الحاضرين ولا يراد أنه كان له كُتّاب مختصون به ، ولعل الجمع هنا سهو من النسّاخ والصحيح « لكاتبه » .

(٢) انظر كتابه : الصناعتين ، ص ٤٦٠

بعض ، وذلك بأن تجمع ألفاظ المعنى الواحد في حيز واحد متصل ، وأن يفصل بين مجاميع المعاني المستقلِّ بعضها عن بعض بشيء من الفراغ بينها ، ولا شك في أن هذه الوصية مناسبة للكتابة الجاهلية التي كانت تفتقر إلى أي علامة دالة على ماتدل عليه اليوم علامات الترقيم التي تميز الكلام المتصل من المنفصل بحسب تمام المعاني بكل دقة ووضوح .

وأما في صدر الإسلام فتروى بعض الوصايا منسوبة إلى النَّبي ﷺ في توجيه بعض كُتَّابه ، ومنها ما يرويه عنه ﷺ زيد بن ثابت إذ يقول : « كُنْتُ أَكْتُبُ لِرَسُولِ اللهِ يَوْماً فَقامَ لِحاجَةٍ فَقالَ لِي : ضَعِ القَلَمَ عَلَى أُذُنِكَ فَإِنَّهُ أَذْكَرُ لِلْمُمْلِي وَأَقْضَى لِلْحَاجَةِ »[1] ، وواضح أن هذه الوصية تتعلق بأداة الكتابة وليس بالخط ولا بطريقة الوصل والفصل بين الكلام ، وربما أراد النَّبي ﷺ أن وضع الكاتب قلمه على أذنه ينبه المملي ، إن نسي فرآه على أذن كاتبه بعد الشغل عنه قليلاً بعارض من العوارض ، على ضرورة متابعة ما كان قد شرع فيه ، وأن وضعه هذا على الأذن يطلق يد الكاتب فيقضي ما شاء من حاجات بيديه كلتيهما ، وقد تكون الغاية من وضعه هذا أيضاً تقريبه من متناول اليد عند استئناف الكتابة من غير الاضطرار إلى البحث عنه هنا أو هناك ، ومثل هذه الوصية قيلت لمعاوية ، فقد روي أنه « كانَ يَكْتُبُ لِلنَّبيِّ ﷺ ، فَكانَ إذا رأى مِنَ النَّبيِّ ﷺ إعْراضاً وَضَعَ القَلَمَ فِي فِيْهِ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ النَّبيُّ ﷺ وَقالَ : يامُعاوِيَةُ ، إذا كُنْتَ كاتِباً فَضَعِ القَلَمَ عَلَى أُذُنِكَ فَإِنَّهُ أَذْكَرُ لَكَ وَلِلْمُمْلِي »[2] ، وروي أيضاً أن النَّبي ﷺ رأى معاوية يوماً وقد وضع القلم على الأرض فقال : (يامُعاوِيَةُ إذا كَتَبْتَ فَضَعِ القَلَمَ عَلَى أُذُنِكَ)[3] . وروي أيضاً أنَّ النَّبي ﷺ أوصى معاوية مرة

(١) الوزراء والكُتّاب للجهشياري ، ص ١٢ وقريب منه في : صبح الأعشى ، ٣٩/٣

(٢) صبح الأعشى ، ٣٩/٣

(٣) م . ن .

كيف يكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال : (يامُعاوِيَةُ ، إذا كَتَبْتَ فَانْصِبِ البـاءَ ، وَفَرِّقِ السِّيْنَ ، ولا تُعَوِّرِ الْمِيْمَ ، وَأَجْلِـلِ اللهَ ، وَمُـدَّ الرَّحْمنَ ، وَجَـوِّدِ الرَّحِيْمَ)[1] ، وقد وردت بعض الأحـاديث الأخرى التي تتنـاول كتـابة البسملة أيضاً ، كالحـديث الـذي ينهى فيـه مثلاً عن كتـابـة شيء غير البسملـة على سطرها[2] . وقد حدث معاوية عن نفسه فقال : « كُنْتُ أَكْتُبُ بَيْنَ يَـدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقالَ : يامُعاوِيَةُ ، أَلِقِ الدَّواةَ[3] ، وَحَرِّفِ القَلَمَ ، وَانْصِبِ الباءَ ، وَفَرِّقِ السِّيْنَ ، وَلا تُقَوِّرِ الْمِيْمَ ، وحَسِّنِ اللهَ ، وَمُـدَّ الرَّحْمنَ ، وَجَوِّدِ الرَّحِيْمَ »[4] ، ويلاحظ أن هـذه الـوصيـة وشبيهتهـا الآنف ذكرهـا من معين واحـد ، وهي إلى جانب حديثهـا عن الخـط وتجويـده تتنـاول مـا يتعلق بـإصلاح المـداد في الـدواة ليصبح صالحاً للكتابة ، وبطريقة قط القلم موضع الكتابة أو طريقة مسكه .

وقـد أوصى عمر بن الخطـاب الكُتّـاب في خلافتـه بقـولـه : « إن القـوة على العمـل ألا تـؤخروا عمـل اليـوم لغـد ، فـإنكم إذا فعلتم تـذاءبت عليكم الأعمـال فلا تدرون بأيها تبدؤون ، وأيَّها تأخذون »[5] ، ويلاحـظ أن عمر يركز في هـذه الوصية على إنجاز الكُتّاب أعمالهم في مواعيدها بلا تقاعس ولا تأجيل ، لأن ذلـك يقود إلى تراكم الأعمال وشدة العناء بها بعد ذلـك ، ودعوتُـه الكُتّـاب إلى العمل في وقته دعوةٌ إلى تنشيط الهمم وإبرازٌ لقيمة العـامل الزمني من نحو ، والعـامل النفسي من نحـو آخر في بلـوغ غـايـة الفـوز والنجـاح في العمـل ، وقـد تـوارث كتـاب

---

(١) كتاب الكتاب لابن درستويه ، ص ١٢٩

(٢) صبح الأعشى ، ٢٢٤/٦ وانظر نظيراً له في : م . س ، ٢٢٠/٦ و ٢٢١ و ٢٢٢

(٣) أي أصلح مدادها استعداداً للكتابة .

(٤) أدب الإملاء والاستملاء للسمعاني ، ص ١٧٠

(٥) تـاريخ الطبري ، ١٧٩/٦ ـ ١٨٠ وانظر : الـوزراء والكُتّـاب للجهشيـاري ، ص ١٦ وتـذاءبت : اضطربت .

الدواوين هذه الوصية كابراً عن كابر بعد ذلك عبر القرون التالية ، ولا يزال لها في نفوس الناس صدى عميق لما فيها من قيم خالدة ومثل باقية في ميدان العمل .

وهناك ثلاث وصايا تنسب إلى علي بن أبي طالب في خلافته : **الأولى** يرويها عبيد الله بن أبي رافع مولى النَّبي ﷺ عن نفسه فيقول : « كنت بين يدي علي بن أبي طالب فقال : ياعبيد الله ، ألِقْ دواتك ، وأطِلْ شَباة قلمك[1] ، وفَرِّجْ بين السطور ، وقَرْمِطْ بين الحروف[2] »[3] . **والثانية** يرويها ابن أبي الإصبع (م ٦٥٤ هـ) فيقول : « وما رأيتُ ولا رويتُ مثل وصية لعلي بن أبي طالب وصّى بها كاتباً له يقول فيها : ألِقْ دواتك ، واجمع أداتك ، وأرهف حدَّيْ قلمك إرهافاً ، واحترس عند شقه اختراساً ، فإنك إن لم تُتائِم[4] لسانه كَدَّرْتَ بيانه ، واستصلب الْمقَطّ[5] ، وحرِّف القَطّ[6] ، فإن لم تسمع لقطتك[7] طنيناً غير خفي ، وتنظر لها حرفاً كذباب المشرفي[8] ، وإلا أعِدِ القَطّة ، فالقلم حَفٍ[9] ، وقرّب بين الحروف ، وباعد بين الصفوف[10] ، وتَصَفَّحْ ما كتبته وكرّر النظر فيما حبرته ، ليظهر لك رأيك قبل أن يخرج عنك كتابك »[11] . **والوصية**

---

(١) شباة القلم : حد طرفه ، أي سنه التي يكتب بها .

(٢) قرمط بين الحروف : قارب بينها ، والقرمطة في الخط : دقة الكتابة وتداني الحروف .

(٣) الوزراء والكُتّاب للجهشياري ، ص ٢٣

(٤) لم تتائم لسانه : كأنه أراد إن لم تشق لسانه شقين متناظرين متساويين كأنهما توأمان .

(٥) الْمقَطّ : الآلة التي يقطّ عليها القلم ، وهي عُظَيْم يكون مع الوراقين يقطون عليه أطراف الأقلام ، أي يقطعونها .

(٦) القطّ : القطع .

(٧) القطة : القطعة .

(٨) ذباب المشرفي : حدّ طرف السيف المنسوب إلى المشارف ، وهي قرى من أرض اليمن تصنع هذه السيوف ، وذبابه هنا حدّ رأسه الذي يطعن به .

(٩) حَفٍ : رقيق .

(١٠) الصفوف : يريد بها هنا السطور .

(١١) انظر كتابه : تحرير التحبير ، ص ٤١١ ـ ٤١٢ وقد ورد في : أدب الكُتّاب للصولي ، ص ١١٠ =

الثالثة رواها ابن الصائغ (م ٨٤٥ هـ) فذكر أن علياً قال لرجل رآه قبيح الخط : « أطل جِلْفَةَ قلمك[1] وأسمنها ، وحرِّف قَطَّتَك وأيمنها ، واعدِل أقسامك ، وأقِمْ ألفك ولامك »[2] ، وعلّق عليها ابن الصائغ قوله : « فهذه الوصية تضمنت أصول الكتابة »[3] .

وإذا نظرنا في هذه الوصايا الثلاث فإننا نلاحظ أنها تركز تركيزاً واضحاً على خمسة موضوعات أساسية تتعلق ببعض جوانب صنعة الكتاب وهي :

١ ـ الدواة وإعدادها للكتابة .

٢ ـ القلم وإعداده بالقطع والشق ليصبح صالحاً للكتابة .

٣ ـ المباعدة بين السطور .

٤ ـ المقاربة بين حروف الكلمات .

٥ ـ مراجعة المكتوب وتنقيحه بعد الفراغ من إنشائه بإصلاح مافيه من خطأ أو خلل أو فساد ، قبل أن يخرج من يد الكاتب المترسل مبيضاً إلى جهته ، وهذا ما يعرف بتحرير الكتاب ، وهو ما كان النَّبي ﷺ نفسه يفعله مع كُتَّابه ، إذ يروي معاوية فيقول : « إني شهدت رسول الله ﷺ أملى على علي بن أبي طالب كتاباً ، وكان يتفقد مقاطع الكلام كتفقد الْمُضْرِمِ صِرْمَتَه »[4] . وذكر

= كلام قريب جداً من بعض هذه الوصية نصه : « وقال بعض الكتاب : إذا قططت ولم تسمع لقطتك صوتاً كصوت نبض القسي ، ووقعة كوقعة عضب المشرفي ، فأعد فإن قلمك بَعْدُ حَفٍ » .

(١) جِلْفَة القلم : كأنه أراد بها جسمه أي قصبته ، ولعلها من الْجِلْف الذي هو البدن الذي لا رأس عليه كبدن الشاة المسلوخة بلا رأس ولا قوائم .

(٢) انظر كتابه : تحفة أولي الألباب في صناعة الخط والكتاب ، ص ٣٣

(٣) م . ن .

(٤) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، ص ٤٥٩ والْمُضْرِم : صاحب الصِّرْمة ، وهي القطعة من الإبل إذا كانت خفيفة .

زيد بن ثابت عن نفسه فقال : « كُنْتُ أَكْتُبُ الوَحْيَ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ وهو يُمْلِي عَلَيَّ ، فَإِذا فَرَغْتُ قالَ : اقْرَأْهُ ، فَإِنْ كانَ فِيْهِ سَقَطٌ أَقامَهُ »[1] .

ولا بد لنا من الإقرار هنا بأن وجود مثل هذه الوصايا الموجهة إلى الكتاب ـ وإن سلمنا بالشك في أكثر نصوصها ولا سيما مانسب منها إلى النَّبي ﷺ في إقامة بعض الحروف ، إذ لا يستقيم ذلك مع ماهو معروف من أميّته ـ إنما هو صدى على الأقل لبعض ما كان منها في صدر الإسلام على وجه الخصوص ، ذلك لأن الوصايا كانت أمراً مألوفاً في كل مجالات الحياة عند العرب وتصدر عنهم في كل مناسبة وفي أي موضوع يَعِنّ لهم من خلال الموقف والظرف ، ولا بدّ من أن تكون هذه الوصايا بسيطة ساذجة ـ كما رأينا ـ تمثل المرحلة التاريخية التي كانت الكتابة تمر فيها آنذاك . وربما فسّر لنا ذلك صدق لهجتها على الأقل إن لم يصح لنا لفظها أو نصها ، إذ إنها لم تزد على أن طرقت قضايا الدواة والقلم وحسن الخط في أبسط ما يمكن أن يقال فيها ، علماً أن هذه الأمور أصبحت فيما بعد تشغل مؤلفات كاملة لمعالجتها بعمق وإلمام . ويمكن أن يتوقع المرء وجود وصايا أكثر من حيث العدد مما وصل إلينا خبره فعلاً من صدر الإسلام ، إلا أن وجود هذا العدد القليل إنما هو إشارة إلى وجود عناية حقيقية أو بوادر عناية علمية واعية بظاهرة الكتابة في المجتمع العربي الجديد الذي أرسى الإسلام أسسه وأخذ يبني عليها صرح حضارته لبنة لبنة إلى أن وصلت هذه الحضارة إلى ماوصلت إليه بعد بضعة قرون من رقي وتقدم وازدهار . وأما أهمية هذه الوصايا فإنها تكمن في كونها التمهيد الأكيد لوصية عبد الحميد الكاتب المشهورة في رسالته إلى الكتاب في أواخر العصر الأموي ، إذ لاشك في أنها كانت ملهمه الأول فيما كتب في هذا المجال ، مما يعني أن رسالته تلك لم تكن مفاجأة أو وليدة ساعتها ، وإنما جاءت نتيجة هذه الإرهاصات السابقة وتتويجاً لها .

(١) أدب الكتاب للصولي ، ص ١٦٥

٥ ـ الكاتب بين الإملاء والإنشاء :

من المسلم بـه أن النَّبي ﷺ كان أول من كتب الرسـائل على نطـاق واسع في الإسلام بعد الهجرة ، ومن هذه الرسائل انطلقت حركة قويـة لتبـادل الرسـائل ، فأخذت أبعاداً واسعة في حياة الدولة والمجتمع والأفراد ، فكيف كانت هذه الرسائل تكتب زمن النَّبي ﷺ وخلفـائـه الراشـدين : إملاء منهم أم إنشـاء من كُتّـابهم ؟ وما حقيقة كل من الإملاء والإنشاء في صدر الإسلام ؟

نعلم أن النَّبي ﷺ لم يكن يعرف الكتابة على شدة حاجته إليها ، لأن إحدى معجزاته تجلت في أميَّته التي أرادها الله تعالى له ليقوِّي بها حجته على معاصريـه ، ولذا فقد كان محتاجاً إلى العون في هذا المجال ممن يعرف هذه الكتابـة أو يجيـدهـا من أصحابه ، ولا سيما المقربين منهم حتى يتمكن من الكتابة إلى من شاء من الملوك والأمراء ورؤوسـاء القبـائـل والأشخـاص البـارزين في عصره ، وحتى يقرؤوا لـه ما يرد عليه من كتبهم ، ومن الطبيعي جداً أن يتبع النَّبي ﷺ مع كُتّابه ، الذين اتخذهم بطانة له في هذا المجال ، أسلوب الإملاء أو الإملال عليهم[١] بما شاء الكتابـة فيه من شؤون مختلفة خاصة في باب الترسل .

وقـد ذهب محمـد كرد علي إلى القـول إن من رسـائـل النَّبي ﷺ إلى هـؤلاء « ماأملاه بنفسه ، أو كتبه لـه كُتّـابـه فـأقرهم عليـه »[٢] ، أي أنـه كان يملي تـارة ويترك الأمر لِكُتّـابـه لينشئـوا لـه تـارة أخرى ، وذكر عبـد الله بن الـزبير أن رسول الله ﷺ استكتب عبـد الله بن الأرقم فكان يجيب عنـه الملوك ، وبلـغ من أمـانتـه عنـده أنـه كان يـأمره أن يكتب إلى بعض الملـوك فيكتب ، ويـأمره أن

(١) يقال : أمللت الكتاب وأمليته إذا ألقيته على الكاتب ليكتبه أو قلته فكتبـه ، ونقل ابن منظور أن (أمللت) لغة أهل الحجاز وبني أسد ، وأن (أمليت) لغة بني تميم وقيس .

(٢) انظر كتابه : أمراء البيان ، ص ١١

يُطَيِّنه[1] ويختمه وما يقرؤه لأمانته عنده »[2] ، وهذا الخبر يؤيد ماذهب إليه محمد كرد علي آنفاً ، إلا أنه يضيف إنفاذ النَّبي ﷺ الكتب التي ينشئها كتابه من أنفسهم من غير الاطلاع على مافيها ، ونحن نرى في هذا الخبر مبالغة شديدة تخالف ما كان معروفاً عن النَّبي ﷺ من حرص شديد على الإلمام بكل مايحيط به من أمور الناس ، فكيف يمكن أن يُفوِّت على نفسه الإلمام بما يصدر عنه وباسمه من كتب إلى الملوك وهم أشد من يجب الاحتياط في خطابهم ، لما يتمتعون به من سلطان ونفوذ ، ونذهب بالتالي إلى أن هذه الحيطة من النَّبي ﷺ لم تكن لتسمح له بأن يصل إلى هذه الدرجة من الثقة المطلقة بأيٍّ من كُتّابه مهما بلغ عنده من الأمانة ، لأن الثقة شيء وتحديد طبيعة المضمون في إجابة الملوك شيء آخر ، والأمانة شيء والحرص على حسن السياسة ودقتها وانسجامها شيء آخر أيضاً ، ولذا فإننا نقول بالاطلاع التام من النَّبي ﷺ على كل صغيرة وكبيرة تصدر باسمه في الكتب ، ويؤكد لنا هذا المذهبَ خبرآخر يبين لنا حقيقة إنشاء عبد الله بن الأرقم الكتب بنفسه عن النَّبي ﷺ وكيف كان إنفاذها يتم ، ويروي هذا الخبرَ مالك بن أنس فيقول : « بلغني أنه ورد على رسول الله ﷺ كتاب ، فقال : من يجيب عني ؟ فقال عبد الله بن الأرقم : أنا . فأجاب عنه وأتى به[3] إليه ، فأعجبه وأنفذه ، وكان عمر حاضراً فأعجبه ذلك من عبد الله بن الأرقم ، فلم يزل ذلك له في نفسه يقول : أصاب ماأراده رسول الله ﷺ »[4] ، ونحن نستنبط من هذا الخبر عدة حقائق : **الأولى** أن الكتاب الذي ورد على النَّبي ﷺ كان كتاباً عادياً ولم يكن من ملك أو في أمر خطير ، فأراد النَّبي ﷺ أن يختبر قدرة كُتّابه على الرّد عليه وأن يعلّمهم كيف يردون على الكتب بأنفسهم . **والثانية** أن النَّبي ﷺ

(١) الضمير عائد هنا على المفهوم ضمناً من السياق وهو (الكتاب) .

(٢) الاستيعاب ، ص ٨٦٥

(٣) أي الكتاب .

(٤) م . س ، ص ٨٦٥ ـ ٨٦٦

قرئ عليه جواب الكتاب فأعجبه ، أي أنه اطلع عليه اطلاعاً دقيقاً ، فأنفذه بعد اطمئنانه إلى صواب ما ورد فيه ، وهذا يعني أن النَّبي ﷺ لم يكن يقبل بأي حال من الأحوال بإنفاذ كتاب باسمه وبختمه من غير أن يكون ملمّاً بمحتواه ، لأن الحكمة وطبيعة السياسة البشرية تقضي عليه بمثل هذا الإلمام . والثالثة أن كتابة عبد الله بن الأرقم لهذا الجواب كانت حادثة نادرة جداً حتى إن عمر بن الخطاب ظل يذكرها زمناً طويلاً وهو يتندر بها معجباً ، ولا يكون مثل ذلك إلا في الأمر الطريف النادر ، وهذا يعني أن من النادر جداً ، أن يوافق أحَدُ كُتّابه ، فيما يوكل إليه من كتب أو جوابات على الكتب ، ما في نفسه ، مما يؤكد لنا أنه كان يُعْمِل فيها التعديل والتنقيح بعد كتابتها وعرضها عليه ، وهذا يقود حتماً إلى النتيجة التي نودّ هنا إقرارها وهي أن تفويض النَّبي ﷺ أحد كتابه بالردّ عنه كان أمراً نادراً ، مما يبقي هذه المسألة في حيّز الاستثناء ، وتبقى القاعدة العامة هي ردّ النَّبي ﷺ على الكتب التي ترد إليه بنفسه ، بإملائها على من يحيط به من كتابه ، ويؤيد ذلك أننا لا نتصور أبداً أن يكون في زمن النَّبي ﷺ سيل عظيم من الكتب كما أصبح عليه الأمر في العصر الأموي مثلاً ، بل كان عدد الكتب التي ترد عليه ﷺ يسيراً مقبولاً يمكن التعامل معه بكل راحة ، نظراً لطبيعة المرحلة التي كان يعيش فيها والتي كان من أبرز سماتها البساطة والإيجاز ، يضاف إلى ذلك أن الأخبار التي تذكر استقلال أحد كتاب النَّبي ﷺ بإنشاء الرسائل لا تكاد تتجاوز هذين الخبرين الآنف ذكرهما ، وهما يعودان في الغالب ـ كما نتوقع ـ إلى أصل واحد ، إلا أنه زيد فيه وضُخِّم ليوحي إلينا أن هذا الأمر كان أشبه بقاعدة عامة متبعة ، والأمر ليس كذلك كما رأينا آنفاً ، ويمكن القول إن الأخبار التي تحمل مثل هذا المعنى تكاد تكون معدومة تماماً في مصادرنا القديمة .

وهكذا نتبيَّن بالنتيجة أن النَّبي ﷺ ، على وجه الإطلاق ، هو الذي كان يتولى إملاء الكتب التي يوجِّهها أو تلك التي يردّ بها على ما يرد عليه منها ، وربما

لذلك كان يأمر كل من يكتب له كتاباً بذكر اسمه في آخره على شاكلة : (وكتب فلان أو فلان بن فلان) حتى لا يجرؤ أحدهم على الكتابة بشيء عنه يخل بما يريده ، أو يخالفه من قريب أو بعيد وليُعْرَف خطّ كل واحد منهم عند الناس ويكونَ شاهداً عليه إن هو أخل أو خالف .

وبذا تبرز أمامنا بكل وضوح قضية خطيرة من قضايا الترسل في صدر الإسلام هي قضية ثنائية الإملاء والإنشاء التي سبق لنا أن أشرنا إلى أثرها السلبي في دراسة أساليب الأشخاص في كتابة رسائل فترة صدر الإسلام ، إذ قادت إلى اللبس في أمر منشئي أكثر هذه الرسائل : هل هم المملون الذين صدرت الكتب بأسمائهم أم هم الكُتّاب الذين كانت مهمتهم كتابة ما يملى عليهم أصلاً ، ثم أخذوا هم أنفسهم ينشئون الكتب أو الردود عليها ؟ ذلك لأن الإملاء يعدّ إنشاء من المملي ، إلا أنه يظل بالنسبة لكاتب الخط مجرد كتابة تُملى عليه من خارج ذاته من غير أن تمثّل أسلوبه الخاص به ، في حين أن الإنشاء سواء بالإملاء أو بالمتح من الذات وإثباته بالخط من قبل المنشئ نفسه هو وحده الذي يمثل أسلوب الكاتب وطريقة تعبيره أو تفكيره ، ويمكن اختصار هذين التيارين بمصطلحين دقيقين هما : الكتابة الخطية ، وهي التي يكون الكاتب فيها في موقف المستملي فقط ، والكتابة الإنشائية ، وهي التي يكون المنشئ الحقيقي فيها هو المملي أو الكاتب بيده عن نفسه .

وإذا تأملنا الكتابة الإنشائية في صدر الإسلام وجدناها تقع في مستويين مختلفين :

الأول هو مستوى الإنشاء المطلق ، ويكون عادة في جميع حالات الإملاء الصادر عن النّبي ﷺ ، والخلفاء ، والولاة ، والعمال ، وقادة الجيوش ، والأعلام البارزين في المجتمع ، أو يكون في الكتب التي يخطّها هؤلاء المملون جميعاً بأيديهم

بوصفهم كاتبين فيما عدا النّبي ﷺ ، وواضح أن هـذا الاستقلال المطلق كان مبكراً جداً في تاريخ الترسل عند هؤلاء ، ولكنه كان مرحلة متأخرة عند كتـاب الخـط الذين تحولوا ، في ظل ازدهـار الرسـائل وكثرتهـا ووجود ديوان خـاص بهـا ، إلى كتّاب منشئين محترفين في العصر التالي : العصر الأموي .

ويبدو لنا أن إملاء الخلفاء الراشدين وولاتهم وعمالهم قد أُخِـذَ عن النّبي ﷺ سُنَّة أو تقليداً ، إلا أن هذه السُّنَّـة لم تكن تُقَلَّـد تقليـداً أعمى ، لأن الظروف التي كانت محيطـة بـالنّبي ﷺ ، ولا سيما أميَّتـه ، لم تبـق كـذلـك فيما يخصّ الخلفـاء الراشدين وكبار ولاة دولة الخلافة ، إذ كان هؤلاء الخلفاء والولاة وعمـالهم يتقنون الكتابة اتقان إجادة بكل مـا في الكلمـة من معنى ، وهـذا يفسر لنـا قلـة الكتـاب المحيطين بهؤلاء الخلفـاء والولاة والعمال في الـدولـة آنـذاك ، وقـد ظل الإملاء مـع ذلـك تقليـداً متبعـاً لـديهم كانوا يلجؤون إليـه في بعض الأحيـان ، أي أنهم كانـوا ينشئون كتبهم بـأنفسهم ويكتبونهـا بخطهم مبـاشرة تـارة ، وكانوا يملونهـا على من اختص بهم من الكُتّـاب تـارة أخرى ، وقـد ذكر د . حسين نصـار هــذا الإمـلاء فقال : « كان الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون بعده يملون على كُتّابهم مـا يريـدون تدوينه ولا يعطونهم حرية صيـاغتـه كما يَهْوَوْنَ »[1] ، ويبـدو أن ظـاهرة الإملاء هذه كانت مستشرية على وجـه الخصوص لـدى عِلْيَـة القوم في إدارة الـدولـة حتى أصبـح بعض الكُتّـاب أو المملين قـادرين على تمييز حركـة اليـد بمـا تكتب أثنـاء الإملاء ، ومن ذلك ما يرويه لنا الجهشيـاري إذ يقول : « كان عمر يملي على كاتب بين يديه ، فكتب الكاتب غير ماقـال عمر ، فقـال زيـاد : يـاأمير المؤمنين ، قـد كتب غير مـاقلت ، فنظر في الكتـاب ، فكان كما قـال زيــاد ، فقــال عمر : أنّى

---

(١) انظر مقـالتـه : أدب المراسلات في العصر الأمـوي ، في مجلـة : عـالم الفكر ، مـج ١٤ ، ص ٦٣٦ وهـذا الحكم مبـالغ فيـه ، لأن نظـام الإملاء لم يكن وحـده هو السـائد في الكتـابـة الإنشـائيـة للرسائل ، وسنجد د. نصار نفسه ينقض رأيه هذا في موضع لاحق من هذا السياق .

علمت هذا ؟ قال : رأيت رجع فيك وخطه ، فرأيت ماأحارت كَفُّه غير ما رَجَّعَتْ به شفتاك »[1] . ولعل بقاء ظاهرة الإملاء حية مع معرفة هؤلاء القوم الكتابة يعود إلى رغبة المملي في عدم الانشغال عن فكرته بما تتطلبه أدوات الكتابة من مراعاة في أثناء الكتابة ، فيكتفي هو بالاهتمام بالكلام الذي يريد صياغته ويترك لكاتبه عبء الاهتمام بتلك الأدوات وهو يسمع منه قوله .

والثاني هو مستوى الإنشاء المقيد أو الموجه على الأقل ، ويتم ذلك عادة بعد مناقشة الكاتب والمكتوب عنه من أجل استيعاب الأفكار الأساسية التي يجب أن يضمّها الكتاب أو الرد على بعض الكتب الواردة ، وواضح أن الإنشاء هنا يتم بإشارة من المكتوب عنه إلى كاتبه ، أو باقتراح منه أو تفويض ، وهي جميعاً تعبير عن رغبة المكتوب عنه في أن يقوم كاتبه بإنشاء الكتاب نيابة عنه ضمن حدود ما يشير عليه به أو يقترحه عليه من أفكار وأساليب تحقيقاً لما يرغب في الوصول إليه من أهداف ، وربما أمره بتضمين إنشائه بعض التعابير ، ولدينا مثال حي من مستوى الإنشاء الموجه هذا يرويه لنا المسعودي عن علي بن أبي طالب وصعصعة بن صوحان العبدي أحد أصحابه فيقول إن علياً استشار أصحابه بعد الجمل بشأن معاوية ، فذكر له صعصعة هذا رأياً أعجبه فقال له علي : « عزمت عليك ياصعصعة إلا كتبتَ الكتاب بيدك وتوجهتَ به إلى معاوية ، واجعل صدر الكتاب تحذيراً وتخويفاً ، وعجزه استتابة واستنابة ، وليكن فاتحة الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية . سلام عليك ، أما بعد) ، ثم اكتب ماأشرتَ به عليَّ ، واجعل عنوان الكتاب (ألا إلى الله تصير الأمور) »[2] ، فقد فوضه علي هنا بالكتابة من إنشائه واقترح عليه أن

---

(١) انظر كتابه : الوزراء والكُتّاب ، ص ١٩ وأحارت : تحركت وترددت .

(٢) انظر كتابه : مروج الذهب ، ٤٨/٣ والعنوان المقترح هنا إنما هو جزء من آية كريمة ، انظر : القرآن ، ٤٣/من الآية ٥٣

يتقيد ببعض الأفكار ورسم له طريقة الكتابة وأسلوبها . وهذا كله كان يعطي في صدر الإسلام هامشاً من الحرية للكاتب المحترف لكي ينشئ الكتب بأسلوبه الخاص ، ولعل مثال صعصعة هذا كان عاماً زمن الخلفاء الراشدين على وجه الخصوص ، يؤكد ذلك قول د . حسين نصار إن « بعض الكتاب المتميزين ـ فيما يبدو ـ أخذوا يستقلون عن الإملاء في عهد الراشدين »[1] ، ولولا وجود شيء من هذا الاستقلال في بعض الأحيان لما وجدنا عمر بن الخطاب يلجأ إلى امتحان قدرة زياد بن أبيه على كتابة الرسائل ، كما مرّ بنا من قبل ، بأن يقترح عليه الموضوع قائلاً : « ينبغي أن تكتب إلى خليفتك بما يجب أن يعمل به»[2] ، ثم تركه يكتب ما شاء ضمن هذه الحدود المقترحة ، وهكذا فإنهم « لم يكونوا يطلبون من الكاتب إصغاء للمملي وتدويناً لما يُمْلَى فحسب ، بل يطلبون منه أن يحسن الكتابة من عنده أيضاً »[3] ، ويرى د . حسين نصار أن تحرر الكاتب من سيطرة المملي أمر « له أهميته في الفن ، يفسح الطريق لإبراز شخصية الكاتب ولتجويده وتحبيره وتفننه »[4] . ويغلب أن تكون هذه الحرية الممنوحة للكُتّاب المحترفين في موضوعات عادية وغير خطيرة أو حساسة ، مما يؤكد أن طبيعة الموضوع ودرجة أهميته هما المعياران الأساسيان أحياناً لغلبة أحد مستويي الإنشاء اللذين ذكرناهما ، أي : الإنشاء المطلق والإنشاء المقيد أو الموجه . وقد سيطر بعض الكُتّاب أحياناً على المملي سيطرة تامة مؤدية إلى كارثة اجتماعية كالذي كان من مروان بن الحكم الذي كان يكتب لعثمان ويصدر الكتب ، من إنشائه ، باقتراح عثمان ، حتى كتب الكتاب المشهور بشأن ثوار مصر عن لسان عثمان فأدت إلى مقتل عثمان واشتعال نار الفتنة بين المسلمين أمداً طويلاً .

---

(١) انظر مقالته : أدب المراسلات في العصر الأموي ، في مجلة : عالم الفكر ، مج ١٤ ، ص ٦٣٦

(٢) الوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ١٨

(٣) نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي لحسين نصار ، ص ٥١

(٤) م . س ، ص ٦٠

وتروي لنا كتب المصادر أن عدداً من الكُتّاب الذين كانوا يعملون عند بعض الخلفاء والولاة أصبحوا فيما بعد خلفاء وولاة وذوي شأن عظيم في المجتمع والدولة على حد سواء ، فصاروا يُمْلُون بعد أن كانوا يُمْلى عليهم ، وذلك لأنهم كانوا هم طليعة المجتمع في الوعي والفهم وقوة الإدراك ، ومنهم الخلفاء الأربعة الراشدون ، ومعاوية ، ومروان بن الحكم ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه ، وغيرهم .

الفصل الثاني

في الآثار الترسلية

١ ـ الوثائق :

لما كانت الرسائل التدوينية بحكم طبيعتها مكتوبة ، منذ أن وجدت ، على مواد الكتابة المعروفة في صدر الإسلام ، وخاصة الصحف ، وهذا ما أكده ابن عباس فيما بعد ، حين قال : « إنّا لا نكتب في الصحف إلا الرسائل والقرآن »[1] ، فإن هذه الرسائل تعدّ وثائق ذات قيمة تاريخية من الدرجة الأولى ، وكان كثير من الناس يحتفظون بما وصل إليهم من كتب النّبي ﷺ وخلفائه الراشدين وصحابتهم ، أو من ولاتهم وعمالهم وأمراء جندهم ، لما كانت هذه الكتب تتمتع به من احترام وتقدير ، أو لاحتوائها على معلومات إدارية وسياسية نافعة ، أو لمجرد كونها وثائق مكتوبة في بعض الأحيان ، فإلى أي حد نالت هذه الوثائق عناية الناس بها ؟ وما مصير الرسائل خاصة بوصفها وثائق تاريخية في خضم الوثائق الأخرى على اختلاف أشكالها وألوانها وموضوعاتها ؟

حين تحدثنا عن حفظ الوثائق في الجاهلية انتهينا إلى نتيجة مفادها أن العرب لم يعرفوا أي شكل من أشكال الاهتمام بالوثائق ولا أي طريقة من طرق حفظها لتحليلها والاستفادة منها فيما بعد ، وأن الوثائق التي كانت تحفظ آنذاك إنما هي تلك التي تحتوي على أمور تتعلق ببعض الحقوق المادية في تجارة أو دين وما أشبه ذلك ، وهذا النوع كان يحفظ في الأغلب الأعم حتى حلول أجله ، فإذا

---

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي ، ص ٤٢

استوفي أهملت الوثيقة أو أتلفت أو محي ما عليها من كتابة لتستعمل في الكتابة مرة أخرى ، وبذا لم يحفظ الجاهليون لنا أياً من وثائقهم التي كانوا يدونونها في أيامهم ، إلا ما يرويه ابن النديم عن حفظ وثيقة وحيدة قديمة من الجاهلية إلى زمن المأمون إذ يقول : « وكان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد أدم فيه ذكر حق على رجل حميري من اليمن »[1] .

أما في الإسلام فقد كان مثل هذا التدوين لحفظ الحقوق إلى آجالها معروفاً ، وكانت سنة الجاهليين لا تزال متبعة فيه ، نظراً لطبيعة الأمور ، غير أن العرب عرفوا أنواعاً من تدوين الوثائق التي كانوا يعمدون عن سابق وعي وإدراك إلى حفظها وصونها وتجديدها كلما أوشكت على الامحاء أو البلى ، وكان القرآن أكبر وثيقة عمل العرب على حفظها وصونها وخدمتها بكل ما أوتوا من قدرة على ذلك في صدر الإسلام ، فكان عملهم في هذا المجال هو المدرسة التي نبهتهم على أهمية حفظ الوثائق والعناية بها ، وكانوا يشعرون أحياناً أن بعض المدونات لا يمكن أن تكرر إنْ زالت واندثرت أو امحى مضمونها وانطمس ، ولذا فقد اتجهوا إلى الاهتمام بها وتجديدها أو نسخ مضمونها كما هو ، على أن وعي أهمية حفظ الوثائق لم يكن عاماً شاملاً ، ومن هنا فإننا نقع على أمثلة كثيرة في مصادرنا القديمة على ظاهرة معاكسة تماماً هي (إهمال الوثائق) ، بل أحياناً على ظاهرة أخطر من ذلك بكثير هي (التدمير المتعمَّد للوثائق) بشتى سبل التدمير ، وسنعالج فيما يلي كلاً من هاتين الظاهرتين بغض النظر عن موضوع الوثيقة أو طبيعتها أو نوعها :

أ ـ أخبار عن حفظ الوثائق :

روى ابن حجر قال : « قال بعضهم : أدركت أبي وجدي وفي أيديهم كتاب

---

(١) انظر كتابه : الفهرست ، ص ٧ وتجد نقداً لهذه الوثيقة في كتابنا : مدخل إلى أدب الترسل عند العرب ، ص ٢٠٥

كتبه رسول الله ﷺ لرَزِين بن أنس ، وهو عم جده »[1] . وروى ابن عبد البر عن عامر بن هلال الْمُتَعِيّ أن رسول الله ﷺ كتب له كتاباً « وهو باق عند بني عمه وبني بنيه في الْمُتَعِيِّيْن »[2] . وأنه ﷺ كتب كتاباً لبني بُحْتُر الطائيين مع الوليد بن جابر بن ظالم البحتري حين قدم وافداً على النبي ﷺ « فهو عندهم »[3] . ويروي ابن هشام أن سُراقة بن مالك حين تبع النبي ﷺ وأبا بكر وهما مهاجران إلى المدينة طمعاً في مئة الناقة التي جعلتها قريش لمن ردَّ النبي ﷺ إليها ، فرأى ما رأى من عجزه عنهما قال للنبي ﷺ : « تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك »[4] ، فأمر أبا بكر فكتب له كتاباً قال عنه سراقة : « فكتب لي كتاباً في عظم أو في رقعة أو في خزفة ثم ألقاه إلي ، فأخذته فجعلته في كنانتي ثم رجعت فسكت فلم أذكر شيئاً مما كان حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله ﷺ وفرغ من حنين والطائف ، خرجت ومعي الكتاب لألقاه ، فلقيته بالجِعْرانَة ... فرفعت يدي بالكتاب ، ثم قلت يا رسول الله ، هذا كتابك لي »[5] ، فعرفه النبي ﷺ فأدناه فأسلم على يديه ، ويلاحظ أن هذه الوثيقة حفظت قرابة تسع سنين قبل أن يظهرها صاحبها للنبي ﷺ من جديد ، ونظن سراقة كان حريصاً على حفظها وهو يتابع أخبار دعوة النبي ﷺ وأحداثها لعله يصيب بها خيراً في يوم من الأيام .

وروى ابن سعد أن النبي ﷺ بعث مع حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى المقوقس عظيم القبط يدعوه فيه إلى الإسلام فقرأه المقوقس « ثم أخذ الكتاب

---

(١) انظر كتابه : الإصابة ، ٢٣٥/١

(٢) انظر كتابه : الاستيعاب ، ص ٧٩٨ وانظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٢٧٦

(٣) الاستيعاب ، ص ١٥٥١ وانظر : الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٢٨٠/١ والإصابة ، ٢١٣/١ ومجموعة الوثائق السياسية ، ص ٢٥٣

(٤) انظر كتابه : السيرة النبوية ، ٤٩٠/١

(٥) م.ن .

فجعله في حُقٍّ من عاج وختم عليه ودفعه إلى جاريته »[1] . ولما فَتَّش أهلُ مصر غلام عثمان وهو منطلق إلى مصر « وجدوا معه قصبة من رصاص فيها صحيفة عليها خاتم عثمان »[2] ، وروي أنهم « لم يجدوا معه إلا إداوَة[3] قد يبست فيها شيء يتقلقل ، فشقوها فإذا كتاب إلى ابن أبي سَرْح »[4] . وروي أن أعرابياً هو النَّمِر بن تَوْلَب العُكْلِيّ الشاعر مرَّ يوماً على قوم بالرَّبَذَة أو المِرْبَد ومعه صحيفة فقال : « اقرؤوا مافيها » ، فإذا فيها : « هذا كتاب رسول الله ﷺ لبني زهير بن أُقَيْش .. »[5] . ويروى أن شيخاً من بني تميم جلس يوماً في مسجد البصرة زمن الحجاج وفي يده صحيفة له فسأل رجلاً فيه · « أترى هذا الكتاب مغنياً عني شيئاً عند هذا السلطان ؟ » فسأل الرجل عنه فقال الشيخ : « هذا كتاب رسول الله ﷺ كتبه لنا : أن لا يُتَعَدّى علينا في صدقاتنا »[6] . وروي عن سَلَمَة بن بُدَيْل بن ورقاء أنه قال : « دفع إلي أبي كتاباً فقال : يا بني ، هذا كتاب النبي ﷺ فاستوصوا به ، فإنكم لن تزالوا بخير مادام فيكم . قال : وكان بخط علي بن أبي طالب »[7] . وروى أبو عبيد القاسم بن سلام عن كتاب النبي ﷺ لأُكَيْدِر وأهل دُومَة الجندل حين أجابوا إلى الإسلام فقال : « أما هذا الكتاب فأنا قرأت نسخته ، وأتاني به شيخ هناك في قَضِيم فنسخته حرفاً بحرف ، فإذا فيه : .. »[8] ، وتلاحظ هنا طريقة حفظ الكتب بالنسخ الحرفي لمضمونها ، وهي أهم وسيلة في تلك الفترة لحفظ مادة الوثيقة . وقال رافع بن خُدَيْج

---

(١) انظر كتابه : الطبقات الكبرى ، ٢٦٠/١

(٢) الوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ٢١

(٣) الإداوَة : إناء صغير من جلد يتخذ في العادة للماء .

(٤) إعتاب الكُتّاب لابن الأبار ، ص ٤٩ ـ ٥٠

(٥) الاستيعاب ، ص ١٥٣٢ وانظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٢٧٢

(٦) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٢١١

(٧) م.س ، ص ٢٣١

(٨) م.س ، ص ٣٤٦

لمروان بن الحكم : « حَرَّم رسول الله ﷺ ما بين لابَتَيْها ـ يعني المدينة ـ وذلك عندنا في أديم خَوْلاني ، إن شئت أقرأتكه »[1] . وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يسمي صحيفته التي كتبها عن رسول الله ﷺ « الصادقة »[2] ، ولا شك في أنه كان يحتفظ بها إلى وفاته ، لأن الرسول ﷺ كان قد أذن له بكتابتها . وقد أشار محمد حميد الله إلى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب « كانت عنده نسخ العهود والمواثيق ملء صندوق »[3] ، ويشير إلى بقائها حتى سنة ٨٢ هـ[4] ، وقد كتب عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ حين ولي الخلافة إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب كتاباً يخبره فيه أنه عزم على السير في الرعية بسيرة جده عمر ، وقال : « فابعث إلي بكتب عمر وقضائه في أهل القبلة وأهل العهد ، فإني متبع أثره وسائر بسيرته إن شاء الله تعالى »[5] ، مما يدل على بقاء هذه الوثائق إلى زمن متأخر عند ورثة عمر ، ومثل ذلك يجري عند ورثة أيّ رجل آخر يكون مرموقاً ومشهوراً بين الناس ، ومن ذلك أيضاً أن عكرمة (م ١٠٥ هـ) مولى ابن عباس قال : « وجدت هذا الكتاب ـ أي كتاب المنذر بن ساوى إلى النبي ﷺ ـ في كتب ابن عباس (م ٦٨ هـ) بعد موته ، فنسخته فإذا به : ... »[6] .

ومن جملة هذه الأخبار يستنبط المرء أن هناك ميلاً قوياً عند بعض الناس في الإسلام إلى حفظ الوثائق التي بين أيديهم : لاستيفاء حقوق لهم فيها ، أو للتبرك بها ، أو لمجرد الذكرى والحنين إلى الماضي ، وقد رأينا من الأدوات التي يمكن أن تحفظ فيها الوثائق في هذه الأخبار وحدها : الكنانة ، وحُقّ العاج ،

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي ، ص ٧٢ واللابتان : حَرّتان تكتنفان المدينة .

(٢) م.س ، ص ٧٩

(٣) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٠

(٤) م.ن .

(٥) جمهرة رسائل العرب ، ٣٧٥/٢

(٦) إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين لابن طولون ، ص ٥٥ ـ ٥٦

وقصبة الرصاص ، والإداوَة ، والصندوق ، ونحن لا نشك في وجود عدد كبير آخر من هذه الأدوات أو الظروف والأوعية التي تحفظ فيها هذه الوثائق مما لا مجال لحصره هنا .

أما إذا شاء المرء الكلام اليوم على أصول الوثائق التي وصلت إلينا نصوصها ، فإنه لن يصل إلى أي طائل ، لأن هذه الأصول طمست واندثرت عبر الزمان الطويل الذي يطوي كل شيء ويبليه لا محالة ، غير أن بعض الباحثين يميل إلى صحة بعض كتب النَّبي ﷺ التي اكتشفت نسخ ذكر أنها أصول لها ، ككتابه ﷺ إلى المقوقس وإلى المنذر بن ساوى[1] . وعلى الرغم من كل ما تقدم ذكره عن حرص بعض الناس على حفظ الوثائق الأصلية وصونها بالوسائل المختلفة المتاحة لهم في العصر القديم ، فإننا نستبعد أن تكون أي وثيقة أصلية من صدر الإسلام مكتوبة على مواد سريعة العطب قد بقيت سليمة إلى يومنا هذا بأي حال من الأحوال ، ونذهب بالتالي إلى القول إن الوثائق الأربع التي كشف عنها النقاب في العصر الحديث ، وذكر أنها أصول رسائل النَّبي ﷺ إلى النجاشي والمقوقس وكسرى والمنذر بن ساوى[2] ، إنما هي وثائق مزيفة ، وإن كانت نصوصها متطابقة مع بعض رواياتها في كتب السيرة أو التاريخ المعروفة ، إذ من الطبيعي أن يعمد مزيفو هذه الوثائق إلى مثل هذا التطابق . ونعرض فيما يلي لكشف هذه الوثائق ونقد ما فيها من علامات التزييف :

---

(١) انظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٠

(٢) ويمكن الاطلاع على صور هذه الرسائل في عدد من المصادر ، أقربها تناولاً : مجموعة الوثائق السياسية ، كالتالي :

١ ـ صورة كتاب النَّبي ﷺ إلى النجاشي ، بين الصفحتين ٧٦ و ٧٧

٢ ـ صورة كتابه ﷺ إلى المقوقس ، بين الصفحتين ١٠٦ و ١٠٧

٣ ـ صورة كتابه ﷺ إلى كسرى ، بين الصفحتين ١١٠ و ١١١

٤ ـ صورة كتابه ﷺ إلى المنذر بن ساوى ، بين الصفحتين ١١٤ و ١١٥

١ ـ الرسالة الموجهة إلى النجاشي :

عثر عليها المستعرب الإنكليزي دنلوب D.M.Dunlop ، ونشر صورتها في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية JRAS (كانون الثاني ، ١٩٤٠) ، وهي محفوظة اليوم في الجمعية الجغرافية البريطانية[١] ، ويحسن بنا أن نسوق هنا خلاصة رأي بعض خبراء الخط العربي في الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي ، ومنهم سهيلة الجبوري التي تقول : « وأول الملاحظات على هذه الوثيقة خلوها من البسملة[٢] ، ثم إنها لا تنتهي بختم النَّبي الكريم[٣] ، وهي مليئة بالأخطاء الإملائية والنحوية أيضاً ، كما أنها تضم العديد من الكلمات الناقصة الحروف ككلمة (النجاشي) ، و (السلام) ، و (الله) ، و (فحملت) ، و (أدعوك) ، و (لاشريك) ، و (جنودك) ، و (فاقبلوا) . أما ما يتعلق بدراسة حروف هذه الوثيقة بمقارنتها بالنقوش العربية الجاهلية والراشدية ثم الأموية ، فنجد أن هناك الكثير من الحروف فيها لا ترجع إلى الفترتين الجاهلية والراشدية »[٤] .

٢ ـ الرسالة الموجهة إلى المقوقس :

وقد عثر عليها أحد الفرنسيين سنة ١٨٥٠ في كنيسة بأخميم أو قربها في الوجه القبلي من مصر قرب مدينة سوهاج ، وكانت ملصوقة على غلاف إنجيل قبطي قديم ، وقياسها ٤٢,٥ × ٣٠ سم ، وقد أصاب التلف بعض أجزائها الوسطى ،

(١) انظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٧٦ ومصور الخط العربي لناجي زين الدين ، ص ٣١٨ وأصل الخط العربي لسهيلة الجبوري ، ص ٨٥

(٢) وهي أول ما كان النَّبي ﷺ يفتتح به كتبه ويأمر المسلمين بها في أول كل عمل كما مرّ بنا في هذا البحث ، وسقوطها مؤشر أكيد على تزييف هذه الوثيقة ، إذ إن البسملة عنصر أساسي في منهج الرسالة في صدر الإسلام .

(٣) وقد مرّ بنا في هذا البحث أن النَّبي ﷺ اتخذ خاتماً خاصاً ليختم به كتبه إلى الملوك ، ولم يكن يُنْفِذ أي كتاب من غير ختمه به ، ويعدّ هذا الختم من مكملات ذيل الرسالة .

(٤) انظر كتابها : أصل الخط العربي ، ص ٨٦

فقدمها مكتشفها إلى السلطان العثماني عبد المجيد فأمر بحفظها داخل إطار ذهبي وضع داخل صندوق من الذهب الخالص المزخرف بأروع الزخارف ، وهي محفوظة اليوم في قسم الأمانات المقدسة من متحف قصر (طوب قبو) بإسطنبول[١] . ونشرت صورة هذه الوثيقة في المجلة الآسيوية JA بباريس (١٨٥٤) ، وفي مجلة (الهلال) المصرية (تشرين الأول والثاني وكانون الأول ، ١٩٠٤) ، وفي المجلة الإسلامية Islamic Review (كانون الثاني ـ شباط ، ١٩١٧)[٢] ، ومما يؤخذ على هذه الوثيقة كثرة أخطائها الإملائية ، وصعوبة قراءة كثير من كلماتها[٣] ، من غير مقارنتها برواياتها في كتب السيرة والتاريخ .

٣ ـ الرسالة الموجهة إلى كسرى :

عثر عليها صلاح الدين المنجد ونشر صورتها مع مقال عنها في جريدة (الحياة) البيروتية (١٩٦٣/٥/٢٢) ، ثم نشر محمد حميد الله صورتها مع مقالة بالفرنسية في مجلة الدراسات الشرقية RSO بروما (١٩٦٥) ، ونشر صورتها مع مقال أيضاً للمستعرب السوفييتي كوليسنيكوف في (المجموعة الفلسطينية) ، (مج ١٧ ، ١٩٦٧) ، وهي محفوظة اليوم في خزانة هنري فرعون ببيروت[٤] . ويؤخذ على هذه الوثيقة كثرة ما فيها من أخطاء إملائية ، ووجود عدد من الكلمات غير المقروءة ، واستخدام بعض الحروف بطريقة غير مألوفة في صدر الإسلام ، مع خلوها من ختم النبي ﷺ المألوف أو المتوقع على مثل هذه الرسائل ، إضافة إلى الشكل العام للصحيفة التي كتبت عليها إذ إن مقاسات

---

(١) انظر : مصور الخط العربي لناجي زين الدين ، ص ٣١٨ وأصل الخط العربي لسهيلة الجبوري ، ص ٩٠

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٠٦

(٣) أصل الخط العربي لسهيلة الجبوري ، ص ٩٠

(٤) انظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٠٩ وأصل الخط العربي لسهيلة الجبوري ، ص ٨٧

إطارها غير منتظمة ، وهي ممزقة الحواشي على الرغم من كون نص الرسالة كاملاً تقريباً ، مما يدل على أن التمزيق في هذه الحواشي كان أصلياً من وقت كتابتها ، وهذا بعيد عن المعقول ، كما أن في الصحيفة تمزيقاً طولياً في وسطها ، وآخر عرضياً في ثلثها الأعلى ، ويعتقد أن المزيف قصد إلى هذا التمزيق قصداً لإقناع الناس بصحتها نظراً لما يروى عن كسرى من أنه مزقها وألقى بها وهو غضبان حين قرأها[1] .

٤ ـ الرسالة الموجهة إلى المنذر بن ساوى :

عثر على هذه الوثيقة في دمشق وصورتها في مجلة الثقافة الإسلامية Islamic Culture (تشرين الأول ، ١٩٣٩)[2] . ويؤخذ على هذه الوثيقة كثرة الأخطاء الإملائية والنحوية فيها ، ونقص بعض الحروف في عدد كبير من كلماتها ، وغرابة أشكال بعض الحروف وبعدها عما يقابلها من حروف في الجاهلية وفترة صدر الإسلام ، وتصعب قراءة هذه الوثيقة من غير مقارنتها بنصها في بعض كتب السيرة والتاريخ ، ويستبعد أن يرسل النَّبي ﷺ برسالة كهذه تصعب قراءة كثير من كلماتها[3] .

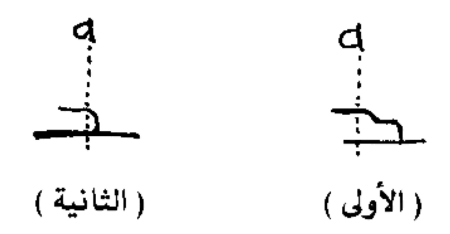
ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن فحص الختم النبوي في أسفل كتابيه إلى المقوقس والمنذر بن ساوى يبين لنا أن الإطار الخارجي لخاتم النَّبي ﷺ كان متآكلاً ومُثَلَّماً وليس دائرياً سليماً كما يفترض ، والمهم في هذا التآكل في الختمين أنه غير متطابق ، مما يدل على اختلاف في الخاتم الذي ختم به كل من الكتابين ،

(١) أصل الخط العربي لسهيلة الجبوري ، ص ٨٨ ـ ٨٩

(٢) انظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١١٣ ومصور الخط العربي لناجي زين الدين ، ص ٣١٨

(٣) أصل الخط العربي لسهيلة الجبوري ، ص ٨٢ ـ ٨٤

وتدل المعلومات التاريخية الثابتة التي وصلت إلينا أن النَّبي ﷺ قد اتخذ خاتماً من فضة في أواخر سنة ٦ هـ أو مطلع سنة ٧ هـ ليختم به كتبه إلى الملوك والأمراء ، ونقشه (محمد رسول الله) في ثلاثة أسطر : أولها (محمد) وأوسطها (رسول) وأعلاها (الله)[١] ، وأن هذا الخاتم لم يكن له ثان وبقي في يده حتى مات[٢] . ثم إن حرف (الهاء) في (الله) في ختم رسالته إلى المنذر أوسع منه في ختم رسالته إلى المقوقس ، وحرف الدال في الأولى مُقَرَّن ذو زوايا في كلمة (محمد) ( ) في حين أنه في الثانية انسيابي مُقَوَّر ( ) ، مع كون طرف الدال الأعلى زائداً عن حد طرفها الأسفل في الأولى وعكس ذلك في الثانية ، ثم إننا إذا أنزلنا خطاً عمودياً من قائم حرف الهاء إلى الأسفل فإنه يخرق نهاية طرفي الدال في (محمد) في الأولى ، في حين أنه يخرق هذين الطرفين في بداية تفرعهما في الثانية :



(الأولى) (الثانية)

وهذه كلها أدلة على اختلاف الخاتمين اللذين ختم بهما هذان الكتابان ، ولم يعرف عن النَّبي ﷺ ـ كما ذكرنا آنفاً ـ أنه اتخذ غير خاتم واحد في حياته ، مما يؤكد قضية زيف هاتين الرسالتين . ونصل أخيراً مع سهيلة الجبوري إلى القول : « ونتيجة لكل ما تقدم فإننا نميل إلى أن الوثائق الأربع موضوعة البحث بعيدة عن أن تكون الرسائل الأصلية التي أرسلها النَّبي الكريم إلى ملوك وأمراء

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٢٥٨/١ و ٤٧١ ـ ٤٧٢ و ٤٧٤ ـ ٤٧٦ وأدب الكتاب للصولي ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٤٧٦/١

الدول المجاورة .. وأنى للمصادفات العجيبة أن تحفظ لنا هذه الرسائل الأربع على الرغم من بعد المسافات واختلاف البيئات ، وعلى الرغم من أنها كانت موجهة إلى جماعات معروفة بعدائها للنّبي الكريم وللدعوة الإسلامية التي جاء يبشر بها ؟ »[1] .

ب ـ أخبار عن تدمير الوثائق :

كتب النّبي ﷺ إلى جُفَيْنَة الْجُهَنِيّ أو النّهدي أو الغساني كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام « فرقع به دلوه ، فقالت له ابنته : عمدت إلى كتاب سيد العرب فرقعت به دلوك ؟.. ثم جاء بعد مسلماً »[2] ، وتروى هذه الحادثة بعينها منسوبة إلى رَعِيَّة السُّحَيْمِيّ[3] ، ويلاحظ تعظيم ابنته لكتاب النّبي ﷺ ومعرفتها قيمته الكبيرة ، وكان هذا الكتاب من الرَّقّ كما يبدو لنا من طريقة الاستفادة منه برقع الدلو ، وهكذا تمّ إتلاف الكتاب ومحتواه تماماً بهذا الشكل من أشكال التدمير للوثائق ، وقد أصاب هذا المصير نفسه عدداً آخر من كتب النّبي ﷺ ، ومن ذلك أنه كتب إلى سمعان بن عمرو العُرَنِيّ كتاباً « فرقع به دلوه ، فقيل لهم : بنو الراقع ، ثم أسلم وقدم على رسول الله ﷺ »[4] . وكتب ﷺ إلى بني حارثة بن عمرو بن قُرَيْظ يدعوهم فأخذوا الصحيفة فغسلوها « ورقعوا بها دلوهم ، وأبوا أن يجيبوا »[5] . وبعث النّبي ﷺ عبد الله بن حُذافَة إلى كسرى بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام « فلما قرأه شَقَّق كتابه »[6] ، فكان تمزيق هذا الكتاب تدميراً له .

---

(١) انظر كتابها : أصل الخط العربي ، ص ٩٢

(٢) الإصابة ، ٢٤٢/١ وانظر : الاستيعاب ، ص ٢٧٤

(٣) الاستيعاب ، ص ٥٠٧

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٢٨٠/١

(٥) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٢٧٥

(٦) الإصابة ، ١٧٣/١

وكتب النَّبي ﷺ إلى حِراش بن جحش فمزق كتابه[1] ، وهكذا يبدو لنا أن التمزيق شكل آخر من أشكال تدمير الوثائق خاصة الرسائل . ويروى أن زيد الخيل الطائي وفد على النَّبي ﷺ مُسْلِماً فأقطعه ، فمات بعيد رجوعه إلى أهله فـ « عمدت امرأته إلى كل ما كان النَّبي ﷺ كتب له فحرقته ، وقيل : أحرقت الرحل حزناً على زوجها فاحترق ما فيه »[2] . وذكر محمد حميد الله أن الوثائق التي كان عمر بن الخطاب يحفظها في صندوق « قد احترقت حين احترق الديوان يوم الجماجم »[3] ، فالحرق إذن كان يمثل حقاً عاملاً خطيراً من عوامل تدمير الوثائق أيضاً . وقد ذكر الخطيب البغدادي أمثلة من تدمير الوثائق المدونة منها : الغسل[4] ، والمحو[5] ، والحرق[6] ، والخرق[7] .

فإذا أضفنا هذه الأشكال المتعمدة من تدمير الوثائق إلى العوامل الطبيعية التي تعمل على إبلاء مواد هذه الوثائق أو إزالة ما عليها من كتابة مع مرور الزمان واختلاف المناخ وتناوب الحرارة والبرودة ، والجفاف والرطوبة كل عام ، إضافة إلى عمل الحشرات التي تقرض مواد الوثائق وتتلفها ، وهذا كله ينجم أصلاً عن إهمال الوثائق أو ربما وقع على الرغم من توجيه كل الاهتمام إليها نظراً لخروجها عن قدرة الناس على حفظها وصونها بوسائلهم المتاحة لهم آنذاك ، كما أن الضياع يرفد هذه العوامل التدميرية جميعاً ويساعد عليها . وإذا ما قبلنا بالخبر الذي يوصي فيه معاوية ابنه يزيد بأن يدرجه بعد موته في ثوب كان النَّبي ﷺ

(١) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٢٨٢

(٢) م . س ، ص ٢٥٤

(٣) م . س ، ص ١٠

(٤) انظر كتابه : تقييد العلم ، ص ٣٩ و ٤٠ و ٥٤ و ٥٦ ، إلخ .

(٥) م . س ، ص ٣٩ و ٤٠ و ٤١ و ٥١ و ٥٣ و ٥٦ و ٦١ و ٦٢ ، إلخ .

(٦) م . س ، ص ٥٢ و ٦٢ ، إلخ .

(٧) م . س ، ص ٤٥ و ٤٦ و ٦١ و ٦٢ ، إلخ .

قد أعطاه إياه في حياته تحت الكفن وأن يضع شعراً من شعره وقلامات من أظافره ﷺ على وجهه وفي فيه تبركاً بها[1] ، فإننا نتوقع كذلك أن يوصي غيره بدفن شيء من كتب النبي ﷺ إليه معه تبركاً بها أيضاً ، وهذا باب آخر من أبواب تدمير الوثائق .

على أن جملة هذه الأسباب كان لها أثر عظيم في تدمير كثير من الوثائق ليس في صدر الإسلام فحسب[2] ، وإنما في كل العصور التالية ، وأما السبيل إلى إبقاء هذه الوثائق حية بين أيدي الناس فكان يكمن ـ كما ألمحنا من قبل ـ في تجديدها كلما أحس الناس بخطر الفناء والبلى عليها ، وأجدى من هذا التجديد نسخها عدداً من النسخ ، لأن كثرة نسخ الوثيقة الواحدة يضمن شيوعها في الآفاق ويقلل كثيراً من احتمالات اندثارها وزوالها نهائياً .

وقد كان العرب يهتمون كثيراً بصحة الوثائق ، وكان الخط عندهم وسيلة من وسائل معرفة ذلك ، وكان الختم وسيلة أخرى ، وكان الشهود العدول وسيلة ثالثة إلى معرفة صحة هذه الوثيقة أو تلك ، وقد مرّ بنا تعرف أهل مصر خطَّ مروان بن الحكم وخَتْمَ عثمان لما وقعت في أيديهم صحيفة الكتاب الموجه إلى عبد الله بن سعد والي مصر لعثمان بشأنهم ، وكان هو السبب المباشر لاشتداد الفتنة ومقتل عثمان ، وقد مرت بنا إشارة أخرى إلى خط علي بن أبي طالب في بعض

---

(١) الاستيعاب ، ص ١٤١٩

(٢) يشهد على ذلك كثرة الوثائق التي يذكر خبرها محمد حميد الله في كتابه : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، ويذكر تحتها عبارته المعروفة (ولم يُرْوَ نص الكتاب) ، انظر على سبيل المثال لا الحصر : ص ٤٧ و ٥٦ و ٥٧ (٢) و ٦٦ و ٦٨ و ٧٩ (٢) و ١١٢ (٢) و ١١٦ (٢) و ١٢٧ (٣) و ١٣٠ (٢) و ١٣٣ (٢) و ١٣٩ و ١٨٠ و ١٨٤ (٢) و ١٨٥ و ١٩٠ و ١٩٢ (٢) و ١٩٣ و ١٩٤ و ١٩٥ (٣) و ١٩٧ (٣) ، إلخ . وما بين قوسين عدد الوثائق في الصفحة المذكورة قبلها ، وفي كل من الصفحات الأخرى وثيقة واحدة فقط .

الوثـائق ، وكانت كتـابـة اسم الكاتب أو أسماء الشهود واسم صـاحـب الختم تسـاعـد كثيراً في الحكم على صحة الوثيقة أو زيفها .

ويمكن القول بعـد كل مـاتقـدم إن الرسـائل بـوصفهـا وثـائـق ، كانت ضمن الوثائق التاريخية في صدر الإسلام ، وإنها كانت تخضع لما تخضع لـه تلـك الوثـائق من قوانين ذاتية وموضوعية تتعلق بحفظها أو تدميرها ، ونحن نسلّم هنا بأن كثيراً جداً من الرسائل التي تتعلق بحركة التـاريخ وأحـداثـه قـد ضـاعت وانـدثرت ولم تصل إلينا ، ونسلّم أيضاً بـأن الرسـائل الشخصيـة التي كتبت في تلـك الفترة على كثرتها لم يصل إلينا منها إلا بضع رسائل إن لم نقل إنها قد اندثرت جميعاً على وجه الإطلاق .

٢ ـ الآثار الترسلية :

أ ـ كثرتها في صدر الإسلام :

يبلغ عدد الرسائل التي وصلت إلينا نصوصها من صـدر الإسلام وتخضع لهـذا البحث بين أيدينا حتى الآن نحو (ستمئة رسالة) هي كل ماتبقى لنا ـ في حـدود اطلاعنا ـ من رسائل فترة تمتد قرابة (أربعين سنة) ، منذ مطلع الهجرة النبويـة حتى مقتـل الخليفـة علي بن أبي طـالب سنـة ٤٠ هـ بـالكـوفـة ، أي بمعـدل (١٥ رسالة) فقط كل سنة ، أو بمعدل (رسالـة واحـدة كل شهر) تقريبـاً ، ولا يمكن لنا بأي حال من الأحوال أن نتصور ـ تبعاً لهذا الإحصاء ـ أن أمة بأكملهـا لا تنتج في أخطر فترة تاريخية مرت بهـا غير رسـالـة واحـدة في الشهر عمليـاً ، في حين أن فرداً واحداً منها قد يكتب أكثر من رسالـة واحـدة في الشهر الواحـد ، إذ إن هـذا العدد لا يتناسب أبداً ـ كما نرى ـ مع طبيعة تلك المرحلة التي أرسيت فيهـا للعرب قواعد دولة جديدة عظيمة الشأن لم تكن لهم من قبل ، وشهدت أحداثـاً خطيرة في حيـاة النّبي ﷺ ، ثم شهـدت حروب الردة ، وحركـة الفتـوح الكبرى ، وبـوادر

الفتنة وتفاقمها بين العرب أنفسهم في زمن الخلفاء الراشدين . ثم إن هذا العدد لا يتناسب في شيء مع التطور الديني والفكري والسياسي والإداري الذي شهده المجتمع العربي في تلك الفترة التاريخية .

ونصل بالنتيجة إلى أن هذه الآثار الترسلية المحدودة التي وصلت إلى أيدينا لا يمكن أن تكون كل ما كان منها في تلك الفترة على صعيد الواقع ، لأن الآثار الأصلية لابد من أن تكون قد بلغت آلاف الرسائل المدونة على الصحف وغيرها من مواد تلك الفترة على صعيد الرسائل الديوانية العامة أو الرسائل الشخصية الخاصة ، يدلنا على ذلك كثرة الرسائل التي يشار إلى مضمونها أو إلى خبرها من غير أن يُروى لنا نصها . وهذا يؤكد لنا أن عوامل تدمير الوثائق عامة ، والرسائل من بينها على وجه الخصوص ، كانت أقوى بكثير من عوامل العناية بها وصونها والحفاظ عليها . وقد فسر د . نصار وصول بضع رسائل شخصية فقط من صدر الإسلام في مقابل هذه الرسائل السمئة التي تمثل التيار الرسمي المرتبط بحركة التاريخ وأحداثه بأمرين : أولها أن الأدب العربي « أدب قصور يعيش على موائد الملوك ولا يصل إلينا منه إلا ما اقترب منهم واتصل بهم »[1] . والثاني « عدم سمو هذه الرسائل إلى مرتبة الفن »[2] . ولكن إذا علمنا أن الرسائل التاريخية السمئة التي وصلت إلينا من صدر الإسلام لا تشكل إلا نسبة ضئيلة جداً مما كان فعلاً في تلك الفترة على الرغم من اتصالها بحياة الدعوة الإسلامية زمن النبي ﷺ ، ثم بحياة دولة الخلافة زمن الراشدين ، فإننا نفهم لماذا ضاعت الرسائل الشخصية تماماً ، ثم إن قضية الضياع والبقاء كانت تتعلق أصلاً بحفظ الوثائق وليس بالمرتبة الفنية التي تتمتع بها .

---

(١) انظر كتابه : نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ، ص ٨٤

(٢) م . س ، ص ٨٥

ب ـ روايتها عند القدماء :

إن الطابع التاريخي لهذا العدد اليسير من الرسائل في صدر الإسلام هو الذي أتاح لها ، بلا ريب ، فرصة الحياة والبقاء ، نظراً لما يتمتع به من فائدة عامة لوعي الذات ، أي لمعرفة تاريخ الأمة الماضي ، ونظن أن ذاكرة الشعب كانت تحفظ جزءاً من هذا التراث الترسلي ، إلا أن خلفاء بني أمية على وجه الخصوص عمدوا إلى استقراء هذا الماضي بدقة كما كان فعلاً ، من أجل الاستفادة منه في استخلاص العبر وحسن إدارة شؤون الدولة والمجتمع ، وكان معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء بني أمية هو القدوة في هذا الباب ، إذ يروي المسعودي أنه كان يخرج لصلاة العشاء « ثم يؤذَن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية ، فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدراً من ليلتهم ، ويستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ، ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد ، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكِّلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جملة من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، ثم يخرج فيصلي الصبح »[1] ، وإن رواية هذه القضايا التاريخية كانت تتطرق بلا شك إلى رواية المراسلات التي كانت تعدّ جزءاً من الحدث التاريخي أيّاً كان في ذلك الزمان .

ونحن نشك في قضية احتفاظ المترسل في صدر الإسلام بمسودة رسائله أو بنسخة مبيضة منها حين يوجه بها إلى طيتها ، إذ لم تثبت لدينا مثل هذه الواقعة ، وهذا ما يجعل أهل العراق مثلاً أعلم برسائل معاوية ونصوصها من أهل

---

(١) انظر كتابه : مروج الذهب ، ٣/٤٠ ـ ٤١

الشام ، ويجعل أهل الشام أعلم برسائل علي ونصوصها من أهل العراق زمن الفتنة ، لأن النصوص المرسلة كانت هي الأصول الأولى التي تقوم عليها أي رواية لهذا النوع من الوثائق .

وإذا تتبعنا التأليف التاريخي عند العرب فإننا نكاد نحكم بأنه كان أول نوع من أنواع التأليف عندهم ، وقد ظهر في وقت مبكر من العصر الأموي ، وازدهر ازدهاراً عظيماً في أواخر ذلك العصر وفي العصر العباسي الأول ، ويبدو لنا أن فترة الازدهار هذه كانت قد ألمت إلماماً واسعاً بشتات الأخبار التي تعد أساس المادة التاريخية إلى جانب إلمامها بكثير من الوثائق المتعلقة بها بعد أن أصبحت الدولة الأموية خاصة ، ثم العباسية في عصرها الأول ، تسيطر على الأمصار الأساسية التي شهدت جميع الأحداث الجسام في فترة صدر الإسلام ، فاجتمعت للمؤرخين بهذه السيطرة وحدة المعلومات وتكاملها ووفرة المصادر من مختلف التيارات والاتجاهات السائدة ، وكان قرب هذه الفترة من صدر الإسلام من أهم الميزات التي تمتع بها ، وذلك لأن القرب الزمني يعطي عادة معلومات تكاد تكون حية عن الأحداث نظراً لكونها لا تزال ماثلة في أذهان الناس ، ولاتصال المؤرخين مباشرة بمن شاركوا فيها أو سمعوا ممن شارك فيها ، ولوقوعهم في الوقت نفسه على الوثائق ، ومنها الرسائل ، في حالة جيدة في أيدي الناس ، فكان دورهم الخطير في الأمر أنهم نسخوا هذه الرسائل ودونوها في الأخبار المفردة التي كانوا يجمعونها ، فحفظوا قسماً طيباً منها وصل إلينا بعضه وضاع أكثره بمرور الزمان . وقد ذهب محمد حميد الله إلى أنه « كثيراً ما ذكر الرواة والمؤلفون أنهم نقلوا كتاب كذا من الأصل المحفوظ عند عائلة من كتب إليه »[1] . ودليلنا على استيعاب تلك المؤلفات الأولى لمجموعة كبيرة من الرسائل تناولها المباشر للأحداث التاريخية البارزة مما يقتضي ورود الرسائل فيها وقد تركزت هذه المؤلفات على سيرة

---

(١) انظر كتابه : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١١

النبي ﷺ ومغازيه وبعوثه وسراياه كما فعل محمد بن إسحاق (م ١٥٠ هـ) وغيره ، ثم على ما كان من أحداث كبرى زمن الراشدين كما فعل أبو مِخْنَف (لوط بن يحي بن سعيد بن مِخْنَف بن سُلَيْم الأزدي ، وكان مِخْنَف بن سليم هذا من أصحاب علي بن أبي طالب وعماله) ، فقد ذكر ابن النديم أن أبا مِخْنَف هذا ترك مجموعة من الكتب عن فترة صدر الإسلام منها : كتاب الردة ، وكتاب فتوح الشام ، وكتاب فتوح العراق ، وكتاب الشورى ، وكتاب مقتل عثمان ، وكتاب الجمل ، وكتاب صفين ، وكتاب أهل النهروان والخوارج ، وكتاب الغارات ، وكتاب الخِرِّيْت بن راشد وبني ناجية ، وكتاب مقتل محمد بن أبي بكر والأشتر ، وكتاب مقتل علي[١] . وذكر ابن النديم أيضاً أن نصر بن مزاحم المِنْقَرِيّ (م ٢١٢ هـ) توفي وله من الكتب : كتاب الجمل ، وكتاب صفين ، وكتاب الغارات[٢] ، وأن إسحاق بن بشر ، وهو من أصحاب السير والأحداث ، له من الكتب : كتاب الردة ، وكتاب الجمل ، وكتاب صفين[٣] ، وأن سيف بن عمر التميمي (م ١٨٠ هـ) له من الكتب : كتاب الفتوح الكبير ، وكتاب الردة ، وكتاب الجمل ، ومسير عائشة وعلي[٤] ، وأن للزُّهْرِيّ (م ١٢٤ هـ) وهو من أصحاب السير : كتاب فتوح خالد بن الوليد[٥] ، وأن لأبي الحسن المدائني (م ٢١٥ أو ٢٢٥ هـ) من الكتب : كتاب المغازي ، وكتاب سرايا النبي ﷺ ، وكتاب الوفود ، وكتاب عمال النبي على الصدقات ، وكتاب الردة ، وكتاب فتوح الشام ، وكتاب فتوح العراق ، وكتاب مقتل عثمان ، وكتاب الجمل ، وكتاب الغارات ، وكتاب الخوارج ، وكتاب النهروان ، وكتاب بني ناجية

---

(١) انظر كتابه : الفهرست ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧

(٢) م.س ، ص ١٣٧

(٣) م.ن .

(٤) م.ن .

(٥) م.س ، ص ١٣٩

والخِرِّيت بن راشد ومَصْقَلَة بن هُبَيْرَة ، وكتاب أخبار الخلفاء الكبير[1] ، وهنالك مجموعات كبيرة أخرى من المؤلفات التي تحمل أمثال هذه العناوين لعدد من كبار المؤرخين في تلك الفترة التي ازدهر فيها التأليف التاريخي ، نذكر منهم هشام بن محمد الكلبي (م ٢٠٦ هـ)[2] ، والواقدي (م ٢٠٧ هـ)[3] ، ولا مجال لحصر كتبهم هنا ، إذ كانت آثارهم غزيرة جداً في هذه الموضوعات ، وهذا يعني بالضرورة إلمامها بأكبر عدد ممكن من الوثائق التاريخية ومنها الرسائل .

وقد عرفت فترة ازدهار التدوين التاريخي الأولى هذه أيضاً تسجيل كثير من الأمور المتعلقة بأنساب العرب وقبائلهم المختلفة مما يمكن أن يحتوي على كثير من الأخبار والرسائل ، وهذه المواد تعد أساس كل ماوصل إلينا من رسائل صدر الإسلام بكل تأكيد ، لأنها كانت المرحلة الأولى لحفظ ماأمكن حفظه من هذه الرسائل ، حتى كانت الخطوة الثانية في مجال التدوين أو التأليف التاريخي والتي تمثلت في تأليف كتب التاريخ الشاملة التي تقوم على أساس النظرة الكلية القائمة على فكرة الحوليات المرتبة بحسب تسلسل السنين الهجرية ، أو على أساس العهود المتوالية ، فاستمرت هذه الكتب في حفظ مجموعات مهمة من رسائل صدر الإسلام ، وإن كنا نستبعد استيعابها لكل الرسائل التي دونت في المرحلة الأولى ، وهكذا يتبين لنا أن تلك المرحلة الأولى من التدوين التاريخي المبكر قد استطاعت إنقاذ عدد كبير من رسائل تلك الفترة بإدخالها ضمن أخبارها عن طريق نسخها كما هي ، ثم جاءت المرحلة الثانية من هذا التدوين التاريخي لتمتص هذه الرسائل وتدرجها في متونها وتحتفظ لنا بما استطاعت أن تدرجه منها .

---

(١) م.س ، ص ١٤٧ ـ ١٥٠

(٢) م.س ، ص ١٤٣

(٣) م.س ، ص ١٤٤

ولا بدَّ لنا من الإشارة إلى أن الكتابة التاريخية في المرحلة الأولى منها والتي تمتد من الثلث الأخير من القرن الأول إلى الثلث الأول من القرن الثالث للهجرة كانت تعتمد على مصدرين أساسيين : الأول الرواية الشفوية للأخبار ، وكانت طبقة الصحابة والتابعين هي أساس هذه الرواية ، وقد كانت روايتها سهلة ميسرة بهذه الصورة ، لأن الأحداث التاريخية كانت أشبه بالقصص التي تعلق بالأذهان بيسر ، وكانت روايتها نوعاً من المتعة لراويها وسامعها في الوقت نفسه ، ولذا فقد احتاجت ضرورة التوثيق إلى أن يتبع الرواة فيها مناهج الْمُحَدِّثين من حيث رواية سند كل خبر يدرجونه في كتاباتهم مما نشهد له نظيراً حتى بين العامة اليوم حين يروي أحدهم خبراً جرى مع أبيه أو جده أو إحدى الشخصيات المهمة قبل قرن من الزمان فيسند الكلام إلى من رواه له مسلسلاً وبصورة عفوية لا أثر فيها لتعلم أصول الرواية التاريخية من قريب أو بعيد ، وإنما كان هذا المنهج يتبع من باب توثيق الكلام وإقناع السامعين بصحته ، وهذا هو عين ما جرى عند القدماء ، ولذا فإننا نجد الأخبار التاريخية ترد بعد سلسلة طويلة أو قصيرة من السند بحسب البعد الزمني بين الْمُدَوِّن وزمن الحدث نفسه ، والسند هو جملة أسماء الناس الذين نقلوا الخبر بعضهم عن بعض حتى يتصل بمن رأى الحدث أو سمعه بنفسه .

والمصدر الثاني للرواية التاريخية هو الوثائق المدونة ، كالرسائل مثلاً ، وهنا لم يكن المؤرخون يعبؤون بذكر أي سند ، لأن الوثيقة المدونة بين أيديهم كانت كل شيء عندهم ، ولم يكن عليهم إلا أن يتحروا صحة هذه الوثيقة بنقدها نقداً خارجياً وداخلياً . ولذا فإنه ينبغي لنا ألا ننتظر من المؤلفات التاريخية المبكرة أن تذكر سلسلة السند قبل رواية أي رسالة ، إلا أن ذلك أصبح ممكناً في المرحلة الثانية من التدوين التاريخي حين ينقل المؤرخ من كتب المرحلة الأولى التي استوعبت الروايات الشفوية للأحداث والوثائق المدونة عنها ، إذ يمكن المؤرِّخَ

في هذه الحالة أن يذكر أنه نقل من خط فلان أو رأى بخطه أو نسخ من كتاب فلان من المؤرخين السابقين خبر كذا أو رسالة كذا ، ثم يدرج الخبر بسنده ، ويدرج الرسالة بنصها ، ويكون بذلك قد عمد إلى توثيق نقوله بقدر ماأتيح له من فرص لهذا التوثيق ، ومن ذلك أن نصر بن مزاحم حين روى وثيقة التحكيم بين علي ومعاوية سرد لنا سلسلة سنده حتى وصل به إلى جابر الذي يقول إن زيد بن حسن « أملاها عليٌّ من كتاب عنده »[1] ، ومثل هذه العبارات ، التي تشير إلى النقل من مصادر مكتوبة ، كثيرة في كتب المؤرخين القدماء ، وهي معروفة أيضاً في كتب الأدب القديمة التي اعتمد منهجها على ذكر السند والمصدر أساساً لروايته ، ككتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني . ومع ذلك فإن بعض الباحثين يذهبون إلى أن النثر لم ينل مانالَه الشعر من توثيق بذكر سلاسل الرواة وأسانيدهم ، بل جاء في كتب الأدب والثقافة العربية واللغة وعلوم الدين غفلاً من أسماء رواته وأسانيده خلافاً للشعر أو للحديث النبوي[2] ، ونحن لانرى هذا المذهب قاعدة عامة للمرويات النثرية ، لأن كثيراً من المؤلفين حتى القرن الرابع ظلوا يحتفظون بذكر سلاسل الرواة وأسانيدهم حتى رأى بعضهم أن هذه السلاسل والأسانيد تثقل على القارئ أو تشق عليه ، فبدؤوا يتخففون منها كما فعل بعض المؤلفين قبلهم في القرن الثالث ، لأن أول ما يفترض في المؤلف والعالم الصدق والأمانة العلمية والثقة فيما يَرْوي أو يَكْتب .

وربما لجأ بعض المؤرخين في المرحلة الأولى من التدوين التاريخي مباشرة إلى جمع الوثائق المكتوبة المتعلقة بصدر الإسلام ، ومنها الرسائل ، كما فعل أبو الحسن المدائني (م ٢١٥ أو ٢٢٥ هـ) ، إذ كان له في هذا المجال عدة كتب هي : كتاب عهود النبي ﷺ ، وكتاب رسائل النبي ﷺ ، وكتاب كتب النبي ﷺ إلى

---

(١) انظر كتابه : وقعة صفين ، ص ٥٠٤.

(٢) تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام لنوري القيسي وآخرَيْنِ ، ص ٣٣٠ ـ ٣٣١

الملوك ، وكتاب إقطاع النبي ﷺ ، وكتب صلح النبي ﷺ ، وكتاب من كتب له النبي ﷺ كتاباً وأماناً ، وهذه كتب ذات صلة وثيقة ومباشرة بقضية حفظ الوثائق وروايتها ، ولا شكَّ في أن المصادر التي استمد منها المدائني أو غيره هذه الوثائق كانت إما أصول هذه الوثائق وإما نقولاً قريبة جداً منها ، وهذا كله يعطي قيمة كبيرة لمثل هذه الكتب التي لم تصل إلينا شخوصها مع يقيننا بأن مادتها قد انتقلت إلى كتب المؤرخين الشموليين الذين اتخذوا هذه الكتب مصدراً أساسياً لكتاباتهم ، في الوقت الذي تعد فيه الكتب الأخرى في السيرة والمغازي والأحداث والفتوح والفتن مصادر عامة تحوي مادتها فيما تحوي مجموعات من الوثائق بما فيها الرسائل تحديداً .

جـ ـ مصادرها :

إن أكثر الكتب القديمة التي جمعت رسائل صدر الإسلام أو روت مجموعات طيبة منها لم تصل إلى عصرنا الراهن ، لأن عوامل الاندثار أسهمت في زوالها ، وقد تفرقت رواية هذه الرسائل نتيجة ذلك في عدد كبير ومتنوع من الكتب التي قيض لها أن تبقى لنا عبر القرون الماضية ، ويمكن للمرء أن يخمن تخميناً صحيحاً ، بناء على ما تقدم من معطيات مختلفة ، ما المصادر الأساسية التي نستقي منها اليوم رسائل تلك الفترة ، وما المصادر الثانوية ، مع ترتيبها بحسب أهمية كل طائفة منها كالتالي :

١ ـ الكتب التاريخية العامة والخاصة :

تعد هذه الكتب على اختلاف مناهجها وأنواعها من أغزر المصادر القديمة رواية للرسائل من فترة صدر الإسلام ، لأن مرويات هذه المصادر من الرسائل كانت ذات ارتباط مباشر بحركة التاريخ وأحداثه ، مما يضطر هذه المصادر إلى إدراجها في سياق ما تورده من أخبار ، وكنا قد سلمنا في غير موضع بطابع

(التاريخية) الذي تتميز بـه المرويـات من هـذه الرسـائل أصلاً . ومن أبرز هـذه المصادر التاريخية المعتمدة في جميع رسائل بحثنا الراهن بحسب تسلسلها الزمني :

١ ـ فتوح الشام لأبي إسماعيل الأزدي .

٢ ـ السيرة النبوية لابن هشام (م ٢١٨ هـ) .

٣ ـ الإمامة والسياسة لابن قتيبة (م ٢٧٦ هـ) .

٤ ـ فتوح البلدان للبلاذري (م ٢٧٩ هـ) .

٥ ـ الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (م ٢٨٢ هـ) .

٦ ـ تاريخ اليعقوبي (م ٢٨٤ هـ) .

٧ ـ تاريخ الطبري (م ٣١٠ هـ) .

٨ ـ مروج الذهب للمسعودي (م ٣٤٥ هـ) .

٩ ـ الروض الأنف للسهيلي (م ٥١٨ هـ) .

١٠ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير (م ٦٣٠ هـ) .

١١ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للقزويني (م ٨٤٥ هـ) .

١٢ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي (م ٨٧٤ هـ) .

١٣ ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي (م ٩١١ هـ) .

١٤ ـ السيرة الحلبية لابن برهان الدين الحلبي (م ١٠٤٤ هـ) .

وإذا استعرض المرء كتب المغـازي والسيرة والفتـوح والفتن وتـواريـخ المـدن والحوليات والتواريخ العامة الأخرى التي تتناول فترة صدر الإسلام غير هـذه التي أشرنا إليها لاستفادتنا منها ، فإنه سيقع على عدد كبير من الرسـائل التي نتوقع أن يكون أكثرها رواية مكررة لما بين أيدينا أو روايات أخرى لها .

٢ ـ الكتب الأدبية :

وهي تشمل كتب الأدب العامة ، والمختارات النثرية ، والأمثال ، وكتب البلاغة والإنشاء ، وأدب الكُتّاب ، وتأتي في المرتبة الثانية من حيث غزارة مروياتها من الرسائل العائدة لصدر الإسلام ، نظراً لطبيعتها الإخبارية التي تقوم على سرد شيء من الأخبار أو الأحداث أو الوقائع أو الشواهد التاريخية ذات النكهة الأدبية وجمال التعبير وروعة الوصف ، ونادراً ما يخلو مصدر أدبي قديم يعرض لفترة صدر الإسلام من هذه الأخبار التي تقود ضمناً إلى رواية بعض الرسائل ذات الصلة القوية بها ، حتى إن الخبر لا يكتمل في كثير من الأحيان بغير ذكر بعض نصوص هذه الرسائل . ومن أبرز كتب الأدب التي استفدنا من مروياتها في بحثنا بحسب تسلسلها الزمني :

١ ـ البيان والتبيين للجاحظ (م ٢٥٥ هـ) .
٢ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة (م ٢٧٦ هـ) .
٣ ـ الكامل في اللغة والأدب للمبرد (م ٢٨٦ هـ) .
٤ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه (م ٣٢٧ هـ) .
٥ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (م ٣٥٦ هـ) .
٦ ـ الأمالي لأبي علي القالي (م ٣٥٦ هـ) .
٧ ـ جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (م ٣٩٥ هـ) .
٨ ـ نهج البلاغة من جمع الشريف الرضي (م ٤٠٦ هـ) .
٩ ـ زهر الآداب للحصري (م ٤٥٣ هـ) .
١٠ ـ مجمع الأمثال للميداني (م ٥١٨ هـ) .
١١ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير (م ٦٣٧ هـ) .
١٢ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (م ٦٥٥ هـ) .
١٣ ـ نهاية الأرب للنويري (م ٧٣٣ هـ) .

١٤ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي (م ٨٢١ هـ) .
١٥ ـ ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي (م ٨٣٧ هـ) .

ونتوقع أن ترد مرويات كثيرة في غير هذه الكتب المذكورة ، إلا أن أكثرها سيكون تكراراً لها أو روايات أخرى منها ، مما لا يغير من أهمية المجموعة التي أخضعناها للبحث هنا .

٣ ـ كتب التراجم :

وتأتي المرويات الترسلية المتوفرة فيها في المرتبة الثالثة من حيث الغزارة ، نظراً لضرورة الخبر التاريخي عند ترجمة الشخصيات الواردة فيها ، وخاصة أن أكثر هذه الشخصيات قد شارك في صنع الأحداث ولا سيا الصحابة والخلفاء والولاة والعمال والقادة العسكريون وقادة الرأي والفكر في المجتمع إبان صدر الإسلام ، وكلهم كانوا من المترسلين بطبيعة الحال ، وكانت نصوص الرسائل أو الإشارة إليها ترد بين حين وآخر في أثناء هذه التراجم ، ولذا فإنها تعد بلا ريب أحد المصادر المهمة في استخلاص الرسائل ، ومن أهم هذه المصادر :

١ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (م ٤٦٣ هـ) .
٢ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر (م ٥٧١ هـ) .
٣ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (م ٦٣٠ هـ) .
٤ ـ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (م ٨٥٢ هـ) .

وهناك كتب كثيرة أخرى لا تقل شأناً عن هذه الكتب في ميدان تراجم الأعلام ، كوفيات الأعيان لابن خلكان (م ٦٨١ هـ) وغيره .

٤ ـ كتب متنوعة أخرى :

لم يكد كتاب من كتب التراث القديم يخلو من رواية بعض الرسائل من فترة

صدر الإسلام حين يتعرض لذكر شيء من تاريخها وأخبارها وسير أعلامها ، وأبرز مجموعات هذه الكتب المتنوعة :

١ ـ كتب الحديث (كالصحاح والمساند والسنن والجوامع) .
٢ ـ كتب الفقه والتفسير .
٣ ـ كتب البلدان .
٤ ـ كتب الخراج والأموال .
٥ ـ كتب المعاجم اللغوية .

٣ ـ التوثيق والنحل :

حين ينظر المرء إلى كثرة الآثار الترسلية الأصلية في صدر الإسلام ، وإلى سبل روايتها ، وإلى قضية حفظ وثائقها وتدميرها ، فإن شيئاً من الشك يداخله في بعض هذه الآثار التي وصلت إلينا : إما لمجرد الشك في الأشياء حتى تثبت صحتها مبدأ عقلياً عاماً ، وإما لوجود بواعث على مثل هذا الشك في سبل الرواية من جهة ، وفي متون الرسائل من جهة أخرى . فإلى أي حدّ تتمتع رسائل صدر الإسلام التي بين أيدينا بالصحة ؟ وما نسبة الشك في وضع بعضها ونحله ؟ وما موقف القدماء والمحدثين من هذه القضية ؟ وما بواعث الشك في بعض هذه الآثار الترسلية ودلائله ؟ هذا ماسنحاول الإجابة عنه في النقاط التالية :

أ ـ قضية الوضع والنحل (أو إثارة الشك في صحة النصوص) :

١ ـ عند القدماء :

هنالك بعض الكتب التي أشار القدماء صراحة إلى افتعالها من قبل أحد المترسلين في صدر الإسلام ونَحَلَها غيرَه في الفترة نفسها ، ومن ذلك الكتاب الذي أرسله مروان بن الحكم باسم عثمان بن عفان إلى عبد الله بن سعد والي مصر بشأن

ثوار مصر الذين عادوا من المدينة بعد أن ضمن علي لهم على عثمان أن يصلح من سيرته بما يرضي الرعية[1] ، فلما وقع الكتاب في أيديهم عرفوا فيه خط مروان ابن عم عثمان وكاتبه الخاص ، وعرفوا ختم عثمان عليه ، فعادوا إلى المدينة وسألوا عثمان عن الكتاب « فحلف ما كتب الكتاب ولا أمر به ولا علم »[2] ، وأنكره[3] ، ويظهر لنا من ذلك أن مروان هو الذي افتعل الكتاب على لسان عثمان ومهره بختمه الذي كان مؤتمناً عليه وأنفذه . ومثل ذلك أيضاً الكتاب الذي وضعه معاوية على لسان قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري والي مصر لعلي على أنه مرسل إليه وفيه موافقته على مقالة معاوية في الطلب بدم عثمان ، ووعد بمده بالمال والرجال[4] ، وكان قصد معاوية من وضعه وإشاعة خبره أن يوقع الخلاف بين قيس وعلي .

وأكثر ما أثير من الجدل بين القدماء كان حول كتاب الشريف الرضي (م ٤٠٦ هـ) الذي جمعه واختاره من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الخليفة الرابع والذي أسماه (نهج البلاغة) ، وهو مجموعة مختارة من رسائله وخطبه ووصاياه وعهوده وحكمه وأمثاله وأقواله المأثورة في شتى المواقف والظروف التي مرَّ بها في حياته قبل خلافته وأثناءها ، حتى اضطر ابن أبي الحديد (م ٦٥٥ هـ) إلى مناقشة هذا الأمر والخلوص إلى صحة مرويات الشريف الرضي في مجموعه[5] ، ومن بينها بطبيعة الحال الرسائل التي يبلغ عددها قرابة ستين رسالة[6] ، غير أن

---

(١) انظر نص هذا الكتاب ورواياته في : الوزراء والكُتّاب للجهشياري ، ص ٢١ ـ ٢٢ وجمهرة رسائل العرب ، ٣٠٩/١

(٢) إعتاب الكُتّاب لابن الأبار ، ص ٥٠

(٣) الوزراء والكتاب للجهشياري ، ص ٢٢

(٤) جمهرة رسائل العرب ، ٥٢٩/١ ـ ٥٣٠

(٥) انظر كتابه : شرح نهج البلاغة (ط . الحلبي) ، ٥٤٦/٢

(٦) انظر الجزء الثالث من كتاب نهج البلاغة (ط . محمد عبده) .

عدداً من كبار المؤلفين القدماء بعده كانوا يصرون على أن (نهج البلاغة) من وضع الشريف الرضي وتأليفه ، ومن أبرزهم : ابن خلكان (م ٦٨١ هـ) ، والذهبي (م ٧٤٨ هـ) ، والصفدي (م ٧٦٤ هـ) ، وحاجي خليفة (م ١٠٦٧ هـ)[(١)] .

٢ ـ عند المحدثين :

ذهب بعض الباحثين المحدثين من العرب والمستعربين إلى الشك في صحة رسائل النبي ﷺ وخلفائه الراشدين ، ولا سيما رسائل علي في كتاب (نهج البلاغة) ، وفي صحة كتب الولاة ككتاب عمرو بن العاص في وصف مصر ، وفي صحة كتب ملوك العجم إلى النبي ﷺ ، وبذا فإن هذا الشك يكاد يشمل أكثر الآثار الترسلية في صدر الإسلام ، وهذه بعض آراء هؤلاء المحدثين في هذه القضية :

أ ـ آراء المستعربين :

ذهب كل من بيكر Becker وأميلينو Amélineau وفييت Wiet ، وكاراباتشيك Karabacek وشفالي Schwally وكايتاني Caetani إلى أن رسائل النبي ﷺ إلى ملوك العجم وأمراء العرب ، ولا سيا تلك الرسائل الأربع التي ذكر أن أصولها قد وصلت إلينا ، وهي إلى : النجاشي ، والمقوقس ، وكسرى ، والمنذر بن ساوى ، إنما هي وثائق مزيفة[(٢)] . ويذهب نالينو Nallino إلى القول في نهج البلاغة : « وعلى كل حال إنه ليس من كلام علي ، وإنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه »[(٣)] ، وهذا الحكم يشمل الرسائل ضمناً كما هو واضح بلا تحفظ . ويذهب شارل بيلا Pellat إلى حد إنكار صحة كل ما روي من

(١) انظر ترجمة كل من (علي بن أبي طالب) و (الشريف الرضي) في كتبهم على التوالي : وفيات الأعيان ، وتاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الأعلام ، والوافي بالوفيات ، وكشف الظنون .

(٢) انظر : أصل الخط العربي لسهيلة الجبوري ، ص ٨٠

(٣) انظر كتابه : تاريخ الآداب العربية ، ص ١٠٠

الرسائل في صدر الإسلام إذ يقول بوضوح : « وفي التراث كثير من الرسائل الموجهة من قبل محمد ﷺ والخلفاء الأوائل ، غير أن هذه النصوص تنقصها الأصالة »[1] .

ب ـ آراء الباحثين العرب :

ذهب بعض الباحثين العرب ، كأنيس المقدسي ، إلى حدّ القول إن النبي ﷺ لم يرسل أصلاً أي رسالة إلى ملوك العجم وأمراء العرب يدعوهم فيها إلى الإسلام ، أي أن خبر خروج الرسل بكتبه ﷺ إليهم في شهر محرم من سنة ٧ هـ واقعة مختلقة ليس لها أساس من الواقع التاريخي ، ويرى بالتالي أن نصوص تلك الرسائل موضوعة جميعاً للدعاية الدينية فقط ، ويعلل صدق ماذهب إليه بأن العرب آنذاك لم يكونوا « قد بلغوا من البسطة والمناعة ، وهم لا يزالون محصورين في الجزيرة ، مايحملهم على مخاطبة كبار الملوك يومئذ »[2] ، وبأن « النبي لم يكن قد بلغ في تلك السنة من القوة الحربية ما يرغم قبائل العرب القريبة على الخضوع التام ، فكيف يعقل أن يهتم بإخضاع كبار الملوك يومئذ وهو لا حول حربي له ولا طول ؟ »[3] ، ويصل بالنتيجة إلى القول : « ففي مثل هذه الكتب الملوكية متسع للشك لمن أراده »[4] ، وهو يستشهد على صحة ذلك بنص رسالة يرويها القلقشندي[5] ، سنبت نحن أيضاً فيا بعد بوضعها[6] ، وبخبر يرويه الطبري[7] عن سؤال هرقل صاحب الروم أبا سفيان بن حرب عن دعوة النبي ﷺ ، نرجح نحن

---

(١) انظر كتابه : Langue et littérature arabes, p.93

(٢) انظر كتابه : تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، ص ٣٣

(٣) م.س ، ص ٣٤

(٤) م.ن .

(٥) انظر كتابه : صبح الأعشى ، ٣٧٧/٦

(٦) انظر ص ٤٦٠ من هذا البحث .

(٧) انظر : تاريخه ، ٦٤٦/٢ ـ ٦٤٨

أيضاً معه أنه موضوع وأنه « من قبيل الأخبار القصصية لا الحقائق التاريخية »[1] ، ويهدف لخدمة دعاية دينية . غير أن أنيس المقدسي تجاهل كلية النص الآخر الصحيح لكتاب النبي ﷺ إلى المقوقس ، كما تجاهل نصوص الكتب الأخرى إلى سائر الملوك والأمراء ، كما تجاهل مؤيدات واقعة خروج الرسل نفسها بكتب النبي ﷺ إلى هؤلاء الملوك والأمراء ، مع أن كل الدلائل التاريخية تشير إلى صحة هذه الواقعة ، وإلا فكيف يُفَسَّر إجماع المؤرخين القدماء قاطبة على هذه الواقعة مع وجود آثار عملية عليها ، كهدية المقوقس مارية القبطية أم إبراهيم بن محمد ﷺ ، وشيرين أختها أم عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، وإسلام باذان عامل كسرى على اليمن بعد الخبر المشهور على إثر رسالة النبي ﷺ إلى كسرى أبرويز الذي قتله ابنه شيرويه بعيدها بقليل ، وهجرة المسلمين أولاً وثانياً إلى جوار النجاشي في الحبشة وتزويجه النبي ﷺ من أم حبيبة بنت أبي سفيان على إثر المراسلة ، إلى غير ذلك من نتائج عملية أخرى ، يضاف إلى كل ذلك أن النبي ﷺ اقتصر في كتبه على الدعوة السلمية لكبار الملوك (كسرى وهرقل والمقوقس والنجاشي) بلا أي استفزاز منه أو تهديد بحرب أو قتال أو إنذار بها ، بل ترك لهم حرية الاختيار بين شيئين : الإسلام أو تحمل إثم أتباعهم إن لم يسلموا . وهذا بالطبع لا يحتاج إلى قوة حربية لمواجهة هؤلاء الملوك جميعاً ، ولا يرقى برد فعلهم حين يقرؤون هذه الكتب إلى استعمال القوة الحربية ضدَّ النبي ﷺ ، إذ لم يكن لها موجب قوي ، في حين أن لهجة النبي ﷺ مع أمراء العرب ورؤساء القبائل كانت أشد وأعنف لعلمه الأكيد بأنه صائر قريباً إلى التمكن منهم باستمرار دعوته في الانتشار وفي كسب الأتباع الجدد والأنصار حتى يُحْكِمَ قبضته على جزيرة العرب تماماً ، مما يجعل كتبه على المستويين متماشية مع الحكمة السياسية المنشودة في مثل هذه المراسلات . وذهب د . حسين نصار إلى أن

(١) تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي لأنيس المقدسي ، ص ٣٤

كتب ملوك العجم إلى النبي ﷺ موضوعة ، مثل كتاب النجاشي[1] ، وهو يقول في رسائل فترة الخلفاء الراشدين ، وخاصة في خلافة علي : « منذ قيام الفتنة كثرت المخترعات والمنحولات التي لم يستطع رجال الأدب والتاريخ تبين زيفها من صدقها إلى اليوم »[2] ، ويضيف إلى ذلك قوله : « إذا كنا نشك بعض الشك في رسائل عثمان ، فإن الشك في رسائل علي يحيط بنا من جميع الأنحاء ، وقد نسب إلى علي ما يؤلف المجلدات من (رسائل) و (خطب) ، وما نستطيع أن نثبت له واحدة يقيناً »[3] ، ثم يضيف قائلاً : « ولذلك نرى أنفسنا ـ حين نؤرخ للكتابة في عصر علي ـ سائرين على أرض غير مطمئنة ، إذ لا نستطيع أن نقطع في الرسائل برأي جازم ، وإنما هي ظنون واحتمالات »[4] . وقد ذهب خليل مردم بك إلى أن « مما يحمل على الشك في نسبة كل ما في نهج البلاغة لعلي أن أكثر الأحاديث النبوية رويت بالمعنى ، فكيف بكلام الإمام ؟ ... وأنّا لا نكاد نجد في الكتاب كلاماً للإمام إلا بعد مقتل عثمان ، فأين كلامه قبل ذلك ؟ .. والنهج الذي بين أيدينا لم يصل إلينا كما جمعه جامعه ، بل تضخم بالزيادات على توالي الأيام بعد وفاة الرضي والمرتضى ، بل بعد وفاة شارحه ابن أبي الحديد (م ٦٥٥ هـ) ، إذ إن في النسخة التي علق عليها الشيخ محمد عبده المطبوعة في بيروت نحو خمسين صفحة في الجزء الأول (ص ٣٨٨ ـ ٤٣٣) لم يروها ابن أبي الحديد في شرحه .. وهناك كلام نراه منسوباً إلى غير الإمام في غير نهج البلاغة ، كقوله في صفة صديق : .. ، وهذا الكلام مروي لابن المقفع في (رسائل البلغاء ، ص ١٤٤) »[5] . وذهب أحمد الشايب إلى القول إن « كتاب

(١) انظر كتابه : نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ، ص ٣٩

(٢) م.س ، ص ٥٥

(٣) م.س ، ص ٥٦

(٤) م.س ، ص ٥٨

(٥) نقلاً عن كتاب : دروس الأدب عصر النبي والراشدين والأمويين لخلدون الكناني ، ص ٩٦

(نهج البلاغة) لمؤلفه الشريف الرضي يتضخم وينسب لعلي من الخطب والأقوال ما يستحيل أن يكون له »[1] . وقال أحمد حسن الزيات : « والصحيح أن أكثر ما في هذا الكتاب منحول مدخول »[2] . وقال د . شوقي ضيف في نسبة ما في نهج البلاغة إلى علي : « فأكثره مصنوع ومحمول عليه »[3] وإنه « من عمل الرضي وصنعه »[4] .

ومن الطبيعي أن تدل هذه الأحكام التي يصدرها الباحثون المحدثون من العرب والمستعربين دلالة قاطعة على أن قضية الشك في الآثار الترسلية من صدر الإسلام بارزة جداً ، وأن دائرة الشك فيها تكاد تستغرق أكثر هذه الآثار .

ب ـ أنواع الوضع والنحل :

إن تدقيق النظر في أخبار الوضع والشك في صحة النصوص يقود إلى أن هنالك نوعين من الوضع مختلفين ، على خطر كل منهما ودقة حوكه وخفاء حقيقته على غير الباحثين أو المتخصصين ، وهما :

١ ـ وضع المتعاصرين بعضهم على بعض :

وهذا النوع أشد خفاء وأكثر دقة في الحوك من النوع التالي ، لأن أسلوب العصر واحد ، مما يجعل القدرة على كشفه أضعف عند الباحثين إذا لم يحاولوا عرضه على معايير حساسة جداً تكشف زيفه . وقد مرَّت بنا إشارة صريحة لدى القدماء إلى افتعال كتابين : الأول على لسان عثمان وكتبه مروان بن الحكم[5] .

---

(١) انظر كتابه : أصول النقد الأدبي ، ص ١٠٠

(٢) انظر كتابه : تاريخ الأدب العربي ، ص ١٨٢

(٣) انظر كتابه : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص ٦١

(٤) م.س ، ص ٦٢

(٥) جمهرة رسائل العرب ، ٣٠٩/١

والثاني على لسان قيس بن سعد عامل علي على مصر وكتبه معاوية[1] . غير أن هناك بعض الكتب الأخرى التي سنشير إليها بعد قليل كانت على الأغلب موضوعة على ألسنة المتعاصرين ، ولم يشر القدماء إلى وضعها ولم يرتابوا فيها أصلاً ، غير أن هذا النوع من الوضع يظل قليلاً على وجه الإجمال .

٢ ـ وضع المتأخرين على المتقدمين :

وهذا النوع من الوضع كان يمارس على نطاق واسع لدى بعض المتعصبين من المتأخرين الذين يقدّمون وثائق للمؤلفين أو يعلنون عنها فيأخذها هؤلاء المؤلفون بحسن نية أو بسوء قصد ويدرجونها في كتبهم ، وكان بعض المؤلفين الآخرين هم الذين يعمدون إلى اختلاق الكتب وافتعالها وينسبونها إلى من شاؤوا من الأنصار المؤيِّدين أو الخصوم المناوئين لاتجاهاتهم السياسية والمذهبية لخدمة أغراضهم الحزبية أو الخاصة بلا وازع من ضمير ولا رادع من أخلاق ، خارقين بذلك أمانة العلم وحق العقل عليهم في تنزيه أقلامهم عن هذه الصغائر التي تزري بهم وبعقول الأجيال التالية . إلا أن أمر هذه النصوص الموضوعة أهون خطراً على الباحث المتفحص من أمر النوع السابق الذي يكون بين المتعاصرين .

جـ ـ دواعي الوضع والنحل :

يبدو لنا أن دواعي هذا الوضع في ميدان الترسل على وجه الخصوص تعود إلى ثلاثة أسباب رئيسية : الأول سياسي حزبي ، والثاني مذهبي ، والثالث ديني ، وقد كانت الفتن والخصومات التي ثارت بين المسلمين هي المناخ الملائم جداً لترعرع حركة الوضع والنحل وازدهارها إلى أبعد الحدود :

١ ـ الدواعي السياسية والحزبية :

منذ مقتل عثمان بدأ المجتمع العربي ينقسم على نفسه إلى تكتلات سياسية

(١) م.س ، ٥٢٩/١ ـ ٥٣٠

كبيرة مزقت المجتمع في خلافة علي إلى ثلاثة أحزاب كبرى في بداية الأمر هي : حزب علي وآل البيت ، والحزب الأموي ، والحزب الكاف . وقد أضيف إلى هذه الأحزاب بعد وقعة صفين سنة ٣٧ هـ حزب رابع انشق على الحزب الأول ، هو حزب الخوارج الذي أعلن حربه على كل الأحزاب الأخرى وكل فئات المجتمع التي لاتدخل فيه بلا استثناء ولا تمييز ، وكانت هذه الأحزاب جميعاً محارِبَة في خلافة علي فيما عدا الحزب الكاف . وكانت السياسة ، التي هي أصلاً امتداد للحرب ، تدعو أتباع هذه الأحزاب المتعارضة إلى تقوية مواقفها الحربية بالكلمة والفكرة والجدل المنطقي الشريف الصحيح حيناً ، وبالحيلة والمكر والدهاء حيناً آخر لضعضعة موقف الخصوم ، كالكتاب الذي افتعله معاوية على لسان قيس بن سعد مثلاً .

إلا أن وضع المتأخرين على ألسنة أصحابهم أو على ألسنة خصومهم من المتقدمين في فترة صدر الإسلام ، ولا سيما زمن علي ، كان أوسع نطاقاً على كل حال من وضع بعض المتعاصرين الكتب على ألسنة بعض ، وسنذكر عدداً من هذه الكتب في موضع لاحق عما قليل . وبذا فإن الكلمة الموضوعة على شكل رسالة أو على أي شكل آخر كانت وسيلة من وسائل الحرب الدائرة بين الأحزاب تدعم السيف الذي يعمل في ساحات القتال ، وتعمل وحدها حين يتعطل هذا السيف عن العمل .

٢ ـ الدواعي المذهبية :

كانت نزعة التعصب لسياسة الحزب في زمن الفتن تدفع أصحابها إلى أن يضفوا على أفكارهم صبغة دينية نظراً لطبيعة الفترة التي تكونت فيها هذه الأحزاب ، فكانوا يلجؤون إلى تسويغ أفكارهم ومبادئهم بما يجدون من حجج في القرآن والحديث حتى يمتلكوا قدرة على الإقناع وأداة للاحتجاج ، وقد تألفت

نتيجة هذه الجهود بعض الأسس الفكرية والنظرية المستندة على الدين في تسويغ الأعمال السياسية والأهداف المنشودة ، فتكونت حول ذلك بوادر الفرق الدينية المذهبية واتخذت كل فرقة منها صبغة الثقافة المتكاملة ، وكان من جملة أدوات هذه الثقافة مجموعات من الرسائل التي أُثِرَتْ عن رجال هذه الفرقة قديماً في فترة صدر الإسلام ، ومجموعات أخرى وضعها رجال هذه الثقافة المتأخرون على الأصحاب والخصوم على حدّ سواء دعماً لهذه الثقافة وإمعاناً في الاحتجاج والمواجهة والدعوة لمذهب الفرقة ، فكانت هذه الفرق المذهبية بما طرأ عليها من انشقاق وتفريع ، مناخاً ملائماً في العصور التالية لوضع طائفة من الرسائل ونَحْلِها رجال فترة صدر الإسلام . وقد استعملت هذه الدواعي المذهبية لتوجيه الشك إلى كثير من مرويات أصحاب المذاهب حين يروون ما هو في صالح مذهبهم ، ومن ذلك قول أحمد الشايب إن الشريف الرضي « نسب إلى علي من أنواع الأدب الشيء الكثير تكثيراً لآثاره »[1] .

٣ ـ الدواعي الدينية :

وهي دواع كانت تدفع بعض المسلمين الأتقياء إلى تصوير بعض ملوك العجم الذين دعاهم النبي ﷺ بصورة المؤمنين المستجيبين للإسلام أو المصدقين به من غير أن يدخلوا فيه ، كما نرى في روايات بعض ردودهم على ما كتبه ﷺ إليهم ، وسنرى عدداً من هذه الكتب لاحقاً ، ولعلَّ بعضها كان من اختلاقات بعض العرب المعاصرين لهذه الكتب لتوهين عزيمة العرب المشركين في جزيرتهم ، بإظهار ملوك العجم بمظهر المنقادين للإسلام المصدقين برسالة النبي ﷺ مع ما هم عليه من قوة وجبروت ، في حين أن المشركين يكابرون مع ما هم عليه من ضعف .

---

(١) انظر كتابه : أصول النقد الأدبي ، ص ١٠٠ ـ ١٠١

د ـ دلائل الوضع ومظاهره :

إن صحة رسالة ما يعني أن تتطابق مع عصرها تطابقاً كاملاً في الأسلوب والمضمون والروح ، وأن تتطابق مع فكر المترسل ومبادئه التي يؤمن بها ومع شخصيته التي عرف بها ، إلى درجة يصعب على المرء معها أن يقع على أي ثغرة فيها ، مما يجعلها مرآة أمينة ودقيقة تعكس واقع المرحلة التاريخية ، أما الرسائل الموضوعة في زمن متأخر على لسان رجال من فترة صدر الإسلام ، فإنها تنطلق في الأسلوب والمضمون والروح والفهم العام لتلك المرحلة من منطلق نقص أكيد في التصور ، أو لنقل : في تمثل تلك المرحلة على حقيقتها بما يسود فيها من ظروف وعلاقات وأحداث مختلفة ، وهذا الإلمام الناقص أو هذا الجهل الجزئي بتلك الفترة هو الذي يفتح المجال واسعاً لوقوع الواضع في الأخطاء حين يضع الرسائل على المتقدمين ، وإن جهد جهده في إخفاء هذا الوضع ، فتظهر نتيجة ذلك ثغرات فيما وضع تدل على زيفه ، ويمكن أن نحصر الجوانب التي تقع فيها هذه الثغرات في النقاط التالية التي تعد منفردة أو مجتمعة كواشف صادقة لا مجال لدفعها ترشد الباحث إلى حقيقة الرسالة إن كانت صحيحة أو كانت مزيفة :

١ ـ المظاهر الأسلوبية :

أ ـ الإطناب :

رأينا فيما سلف أن من خصائص الترسل في صدر الإسلام (الإيجاز) و (التركيز) و (القصر) في التعبير عن الفكرة أو الموضوع ، لأن تلك المرحلة التاريخية كانت تميل إلى مثل هذه الخاصة في كل الميادين ، ولذا فإن وجود الإطناب في بعض الرسائل العائدة لتلك الفترة تضع هذه الرسائل من حيث المبدأ موضع الشك من غير أن يجزم هذا المعيار وحده طبعاً بهذا الوضع . ومن الرسائل المطولة المنسوبة إلى صدر الإسلام كتاب عثمان إلى أهل الموسم ، وهو محصور في

داره ، يشرح لهم فيه وضعه ويستغيثهم[1] . ومنها كتاب علي إلى عثمان بن حُنَيْف الأنصاري عامله على البصرة[2] . ومنها كتاب من علي إلى معاوية[3] . ومنها كتاب من علي إلى محمد بن أبي بكر وأهل مصر[4] . وفي هذه الكتب جميعاً دلائل أخرى على الوضع سترد في مواضعها لاحقاً ، ومع ذلك كانت هناك نماذج من الكتب كان الإطناب فيها سمة بارزة ، غير أننا نرجح صحتها لعدم وجود دلائل أخرى تعزز الشك في وضعها[5] .

ب ـ التكلف :

كان الأسلوب السائد في ترسل صدر الإسلام هو الأسلوب (العفوي) (البسيط) الصادر عن (الطبع) مباشرة ، بلا سعي وراء تزويق مقصود يكد له الذهن أو يقف فيه المرء طويلاً لتخير ما يندفع على لسانه أو يتزاحم في صدره من الألفاظ المعبرة عن المراد . ويبدو لنا أن مخالفة ذلك تعد بلا ريب مؤشراً من المؤشرات الدالة على وضع الرسالة ، من ذلك مثلاً كتاب عمرو بن العاص إلى عمر في وصف مصر[6] ، فقد ذهب د . شوقي ضيف إلى أن المؤرخين والرواة هم الذين أدخلوا عليه الزينة والتنميق الذي نراه فيه وأنه « واضح الانتحال على ابن العاص »[7] ، ويتحدث د . شكري فيصل عن هذه الرسالة على أنها شاهد على تطور الرسائل في صدر الإسلام من مجرد قصدها إلى (الأداء) إلى بحثها عن (الإثارة) وما هو وراءها من (إمتاع) و (تأثير) ، ويصدر هذا الحكم وهو

(١) جمهرة رسائل العرب ، ١/٣١٧ ـ ٣٢٢

(٢) م.س ، ١/٣٢٨ ـ ٣٣٣

(٣) م.س ، ١/٤٢٤ ـ ٤٢٧

(٤) م.س ، ١/٥٣٥ ـ ٥٤٢

(٥) م.س ، ١/٤٣٨ ـ ٤٤٣ و ٤٤٤ ـ ٤٤٧ و ٥٦٢ ـ ٥٧٢

(٦) م.س ، ١/٢١١ ـ ٢١٣

(٧) انظر كتابه : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص ٩٨

متردد في صحتها حيث يقول : « صحت هذه الرسالة كلها أم صحت فكرتها أم صحَّ منها هذا القدر الضئيل الذي يدل على إحساس الْمُزَوِّرين لها الذين وضعوها هذا الموضع من الفتوح الإسلامية »[1] ، ونحن نميل إلى أنها موضوعة أكثر من الميل إلى صحتها ، لوجود أسباب أخرى تدعو إلى الشك فيها سترد فيما بعد . ومن الرسائل التي تبدو عليها سمة التكلف في الصياغة أيضاً ، وخاصة في استعمال السجع ، كتاب علي إلى عثمان بن حُنَيْف الأنصاري[2] ، على أن فيه دلائل أخرى على هذا الوضع سنراها لاحقاً .

جـ ـ تشابه أسلوب بعض الرسائل مع صدورها عن عدة أشخاص :

حين تتشابه مجموعة من الرسائل في أسلوبها إلى حد التطابق على الرغم من صدورها عن عدة كتاب مترسلين ، فإن ذلك يعد دليلاً على وضعها ، ومن ذلك الكتب التي يرويها ابن أبي الحديد (م ٦٥٥ هـ) في كتابه (شرح نهج البلاغة) منسوبة إلى عبد الله بن عامر[3] ، والوليد بن عقبة[4] ، ويَعْلى بن أمية[5] موجهة إلى معاوية ، فهي تركز على إعظام المصيبة بعثمان والحرص على الطلب بدمه ، والخوف من تفرق بني أمية وسوء مآلهم ، وتقديم معاوية لتزعّم هذا الطلب والثناء عليه ، وإعلان الامتثال لأوامره وانتظارها ، والاختتام بالشعر ، مع استعمال بعض التشبيهات المتشابهة في مضونها وتأديتها غرض الرسالة وتأييده ، وسيق ذلك كله بطريقة واحدة ، وكأن هذه الكتب صادرة عن كاتب مترسل واحد وليس عن ثلاثة مترسلين .

---

(١) انظر كتابه : المجتمعات الإسلامية ، ص ٤٨٢

(٢) جمهرة رسائل العرب ، ٣٢٨/١ ـ ٣٣٣

(٣) م.س ، ٣٤٨/١ ـ ٣٤٩

(٤) م.س ، ٣٤٩/١ ـ ٣٥٠

(٥) م.س ، ٣٥١/١

د ـ الطابع الإسلامي لكتب بعض ملوك العجم إلى النبي ﷺ :

ويتجلى هذا الطابع واضحاً مثلاً في كتاب ردّ النجاشي على دعوة النبي ﷺ ، وذلك بالبسملة ، وتقديم اسم الرسول ﷺ في العنوان ، والسلام ، وصيغة التخلص ، والختام بالسلام[1] ، مع وجود النغمة التعبيرية الإسلامية فيه ، وهذه جميعاً تثير الشك في صحة الكتاب من الناحية الأسلوبية ، لأن النجاشي لم يكن له بها عهد ولا لمترجميه ، إضافة إلى بعض الدلائل الأخرى على وضع هذا الكتاب ، ومثل ذلك كتاب المقوقس إلى النبي ﷺ إذ يفتتحه بالبسملة ويقدم اسم النبي ﷺ في العنوان[2] . بل إن هذا الطابع يظهر أحياناً في بعض كتب العجم بعضهم إلى بعض كالكتاب الذي يُروى أن باهان قائد جيش الروم بعثه إلى قيصر ، فإن فيه مسحة إسلامية واضحة في تعابيره ومعانيه[3] ، مع وجود دلائل أخرى سنذكرها فيما بعد على وضع هذه الكتب .

هـ ـ استعمال مصطلحات متأخرة في الظهور :

حين تظهر مثل هذه المصطلحات ، التي لم تكن معروفة في صدر الإسلام ، في بعض الرسائل المنسوبة إلى تلك الفترة ، فإنها دليل على وضعها في زمن متأخر كانت فيه هذه المصطلحات شائعة الاستعمال بالمعنى الاصطلاحي الذي اشتهرت به . ومن ذلك استعمال كلمة (طُعْمَة) مقرونة باسم (مصر) في كتاب من عمر إلى عمرو بن العاص عامله عليها إذ يقول : « ولم أُقْدِمْك إلى مصر أجعلها لك طُعْمَة ولا لقومك »[4] ، لأن هذه الكلمة لم تظهر تاريخياً مرتبطة باسم مصر وعمرو بن العاص إلا حين بدأ الخلاف بين علي ومعاوية ، فكتب معاوية لعمرو

---

(١) م.س ، ١/٣٧ ـ ٣٨

(٢) م.س ، ١/٣٩

(٣) م.س ، ١/١٨٥

(٤) م.س ، ١/٢٢٢

كتاباً يجعل فيه مصر طُعْمَة له مادام حياً مقابل أن يعينه برأيه في هذا الخلاف ، ولم تكن لهذه الكلمة أن ترد بهذا المعنى من قبل . ومن ذلك كلمتا (الفاضل) و (المفضول) اللتان قال بها زيد بن علي بن الحسين (م ١٢٢ هـ) في جواز خلافة المفضول (كأبي بكر وعمر وعثمان) مع وجود الفاضل (علي) ، فكانتا بذلك من مصطلحات الزيدية من الشيعة ، ولم تردا بهذا المعنى إلا بعد زمن طويل من خلافة علي ، ولذا دلَّ ورودهما في كتاب من علي إلى معاوية على وضع هذا الكتاب ، وذلك إذ يقول له : « وما أنت والفاضل والمفضول ؟ »[١] ، وقد ورد في الكتاب نفسه مصطلحان آخران لم يعرفا إلا زمن التأليف في أواخر العصر الأموي وفي العصر العباسي الأول وهما (الدرجات) و (الطبقات) حيث يقول لمعاوية : « وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأولين وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم ؟ »[٢] . وهناك مصطلح شهير هو (الوصية) الذي قالت به بعض فرق الشيعة وتعني أن الخلافة كانت حقاً لعلي بعد النبي ﷺ مباشرة بموجب وصية منه ، وقد أطلقت على علي لذلك صفة (الوصي) فإذا كنا نسلم أن هذا المصطلح عرف في حياة علي نفسه ، فإننا لا نتوقع قول علي وخلصائه المقربين بها ، وبالتالي لم يستعملوها في كتبهم ، ولذا يعدّ ورودها في كتاب من علي إلى محمد بن أبي بكر وأهل مصر دليل وضعه حيث يقول : « واعلموا أنه لا سواء إمام الهدى وإمام الردى ، ووصي النبي وعدو النبي »[٣] . وورد في كتاب من محمد بن أبي بكر إلى معاوية ذكر هذا المصطلح إذ يقول : « هو وارث

---

(١) م.س ، ٤٤٨/١

(٢) م.ن .

(٣) م.س ، ٥٤٠/١ وهذه هي رواية ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ، في حين أن نهج البلاغة (٢٩/٣) يرويها ضمن عهد موجز لمحمد حين ولاه علي على مصر كالتالي : « ولي النبي وعدو النبي » ، وانظر كذلك : جمهرة رسائل العرب ، ٥٣٥/١

رسول الله ﷺ ووصيه »[1] . وهنالك دلائل أخرى على وضع هذه الكتب الثلاثة ترد في موضعها من السياق .

و ـ مخالفة الطابع الأسلوبي العام للعصر :

قد يقرأ المرء بعض الكتب المنسوبة إلى فترة صدر الإسلام فيحكم عليها جملة أو على مقاطع منها بأنها لاتمت إلى تلك الفترة بصلة لاختلاف هذا الطابع الأسلوبي العام الذي يحس به المرء في طبقة الكلام آنذاك ، ونعني بهذا الطابع الأسلوبي طريقة سبك الكلام ونظمه ومستوى التطور الدلالي للألفاظ وطريقة التفكير التي تعرض في هذا الكلام . ويكون (الذوق) غالباً هو الحكم في ذلك بالدرجة الأولى ، وهو الذوق الذي يربيه الأنس بالكلام ويهذبه الإلمام بعلم البيان كما يرى ابن أبي الحديد[2] . فقد ورد في كتاب المقوقس إلى النبي ﷺ قوله : « لعلمي أنك خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، والسلام عليك إلى يوم الدين »[3] ، وهي رواية صبح الأعشى عن الواقدي ، ويشعر المرء أن أسلوب هذا الكلام متأخر . ومن ذلك أيضاً كتاب عمرو بن العاص في وصف مصر[4] ، وكتاب مروان بن الحكم إلى يعلى بن أمية[5] ، وكتاباه إلى معاوية[6] ، وكُتُب معاوية إلى مروان بن الحكم[7] ، وسعيد بن العاص[8] ، وعبد الله بن عامر[9] ، والوليد بن

(١) جمهرة رسائل العرب ، ٥٤٤/١ وتلاحظ هنا مخالفة واضحة للحديث النبوي المعروف : « نحن معاشر الأنبياء لانورث » .

(٢) انظر كتابه : شرح نهج البلاغة (ط . الحلبي) ، ٥٤٦/٢

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ٤٠/١

(٤) م.س ، ٢١١/١ ـ ٢١٣

(٥) م.س ، ٣٣٥/١ ـ ٣٣٦

(٦) م.س ، ٣٣٦/١ ـ ٣٣٨ و ٣٤٦ ـ ٣٤٨

(٧) م.س ، ٣٤٠/١ ـ ٣٤١

(٨) م.س ، ٣٤١/١ ـ ٣٤٢

(٩) م.س ، ٣٤٣/١ ـ ٣٤٤

عقبة[1] ، ويَعلى بن أمية[2] ، فقد كانت هذه الكتب كلها ذات أسلوب واحد تقريباً ، وقد ذيلت بالشعر ، وكانت تميل إلى التصوير والتجسيد من خلال التشابيه والاستعارات الواردة فيها ، وتكاد تكون مُنْبَتَّة تماماً عما هو مألوف من أسلوب العصر ، ومخالفة لكل الكتب فيه في طبقتها البلاغية ، مع شعورنا بعمل الروية فيها وتشابهها الأسلوبي وكأنها صادرة عن كاتب مترسل واحد ، وكُتُب معاوية خاصة تخالف في أسلوبها مخالفة تامة أسلوبه في كتبه الأخرى التي نحكم بصحتها ، ثم إن تذييل معاوية ومروان هذه الكتب بالشعر لما يضعف صحتها ، إذ لم يكونا شاعرين ، وإن هما قالا شيئاً من الشعر في الأحيان المتباعدة فإنه لم يكن ليرقى إلى المستوى الفني لهذه القطع الشعرية التي ذيلت بها رسائلهما المشار إليها . بل إن الاتفاق في هذه التذييلات الشعرية وقع في جملة الرسائل بين معاوية وأنصاره المذكورين آنفاً ، وهو أمر يلفت الانتباه حقاً ، لأننا لا نتوقع أن يكون هو وأنصاره هؤلاء جميعاً ممن يقرضون الشعر أو شيئاً منه على الأقل . ومن الكتب المحتوية على شيء من الأساليب المتأخرة أيضاً كتاب من علي إلى معاوية في الجدل والمفاضلة[3] ، وكتاب منه أيضاً إلى محمد بن أبي بكر وأهل مصر[4] ، إذ إن المرء يشعر في بعض مقاطعه أنه أمام رسالة كتبت بأسلوب القرن السابع للهجرة أي زمن رواية ابن أبي الحديد لها . وفي الرسائل المشار إليها آنفاً دلائل أخرى على الوضع ترد في مواضعها من هذا السياق .

٢ ـ التناقض الداخلي :

إذا وقع أي تناقض في مضمون رسالة من الرسائل فإنه دليل على وضع هذه

---

(١) م.س ، ٢٤٤/١ ـ ٢٤٥

(٢) م.س ، ٢٤٥/١ ـ ٢٤٦

(٣) م.س ، ٤٤٨/١ ـ ٤٥٢

(٤) م.س ، ٤٣٥/١ ـ ٥٤٢

الرسالة ، لأن الانسجام المعنوي ميزة من ميزات الكتابة الترسلية في كل العصور وخاصة في الرسائل الموجزة القصيرة التي لا مجال فيها لوقوع التناقض . ونقرأ مثل هذا التناقض في رسالة المقوقس إلى النبي ﷺ رداً على دعوته إلى الإسلام[1] ، حيث إنه يقرّ بصدق دعوة النبي ﷺ وينبئه في الوقت نفسه بعذره الذي يمنعه من اتباعه وهو ملكه العظيم ، وترد صيغة البسملة على الطريقة الجاهلية (باسمك اللهم) مع أن الصيغة الإسلامية التامة كانت معروفة في الرسائل آنذاك ، ويرد العنوان (من المقوقس إلى محمد) ، مما يدل بمجموعه على تناقض بين تصديقه النبي ﷺ وبين لهجته الجافة في الرد والاعتذار عن اتباعه .
ونجد في رسالة عثمان إلى أهل الموسم تناقضاً أيضاً ، إذ يروي فيها حواراً بينه وبين نساء النبي ﷺ حين ولي الخلافة فيقول : « قلت : ماتأمرنني ؟ فقلن : تُؤَمِّر عمرو بن العاص وعبد الله بن قيس وتدع معاوية ؟! فإنما أَمَّره أمير قبلك ، فإنه مصلح لأرضه ، راضٍ به جنده ، واردد عَمْراً فإن جنده راضون به ، وَأْمُره فليصلح أرضه »[2] ، والتناقض واقع كما هو واضح بين عجب نساء النبي ﷺ من تأمير عثمان عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري من دون معاوية وبين أمرهن عثمان برد عمرو إلى مصر وتأميره عليها ، مع أن ذلك هو سبب عجبهن آنفاً .
وهنالك تناقض بل مجموعة تناقضات في كتب معاوية بعد مقتل عثمان وبيعة علي مباشرة إلى الزبير وطلحة : ففي كتابه الأول إلى الزبير يخبره بأنه قد أخذ له البيعة بالخلافة من أهل الشام ومكنها له ويخاطبه في العنوان بلقب (أمير المؤمنين) ، ويقدم اسم الزبير على اسمه فيه ، وبدل أن ينتظر أوامره ليمتثلها يشرع هو في أمر الزبير بمثل قوله : « فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك إليها ابن أبي طالب »[3] ، وكأن الزبير من بعض عمال معاوية وقادته وليس أميراً

(١) م.س ، ٤٠/١
(٢) م.س ، ٣١٩/١ ـ ٣٢٠
(٣) م.س ، ٣٣٤/١

عليه ، وفي الرسالة نفسها يخبر معاوية الزبير بقوله : « وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله من بعدك »[1] ، في حين أنه يقول له في كتابه الثاني إليه : « فقد أحكمت الأمر من قبلي لك ولصاحبك ـ أي : طلحة ـ على أن الأمر للمقدَّم ثم لصاحبه من بعده »[2] ، ثم يعود معاوية في كتاب إلى طلحة فيقول : « فقد أحكمت لك الأمر من قبلي ، والزبير فغير مقدم عليك بفضل ، وأيكما قدم صاحبه فالمقدَّم الإمام والأمر من بعده للمقدَّم له »[3] ، فمعاوية في هذه الكتب الثلاثة متردد متناقض مع نفسه : فهو تارة يبايع الزبير بالخلافة وطلحة من بعده ، وتارة يبايع بها طلحة والزبير من بعده ، وتارة يدع لهما الخيار ليقدِّم أحدُهما صاحبَه للخلافة على أن الآخر يظل ولياً لعهده ، وكأنما أمر الخلافة والبيعة بيد معاوية يمنحه من يشاء وينزعه ممن يشاء أو أنه يمكن أن يتم بهذه الصورة البسيطة وهذا الإجراء الساذج ، ودون هذا الأمر خرط القتاد وضرب الرقاب ، وإن دلَّ ذلك على شيء فإنما يدل على وضع هذه الرسائل الثلاث المنسوبة إلى معاوية ، لأن مثلها لا يمكن أن يصدر عن معاوية أصلاً . وفي سلسلة من الكتب المتبادلة أثناء صفين بين علي ومعاوية ، كتب علي إليه بعد التحكيم يقول : « وأنا سائر نحوك على أثر هذا الكتاب »[4] ، فإذا كان هذا الكتاب قبل لقاء الحكمين كما يوحي بذلك سياق الرواية فإن التهديد بالسير لا يمكن أن يصدر عن رجل كعلي لأنه يمثل خرقاً للعهد الذي اتفق عليه في وثيقة التحكيم ، وقد عرف علي بحفظ العهود ولو كانت عليه . وهنالك دلائل أخرى على وضع ماتقدم هنا من الكتب ترد في مواضعها .

---

(١) م.ن .

(٢) م.س ، ٣٤٠/١

(٣) م.س ، ٣٣٩/١

(٤) م.س ، ٤٢٦/١

٣ ـ مخالفة الوقائع التاريخية الثابتة (أو الخلل التاريخي) :

لا شكَّ في أن ورود ما يخالف هذه الوقائع الثابتة في أي رسالة يعدّ دليلاً قاطعاً على وضع هذه الرسالة ، وهي تدل في الوقت نفسه على جهل واضعها بحقائق التاريخ في الفترة التي ينسب الرسالة إليها ، ومن ذلك مثلاً كتاب النجاشي إلى النبي ﷺ في الردّ على دعوته ، إذ جاء فيه تصديق منه بالإسلام ومبايعة للنبي عليه وإعلان دخوله فيه[١] ، في حين أن الثابت تاريخياً هو أن النجاشي قد عطف فعلاً على اللاجئين إلى دياره من المسلمين نظراً لضعفهم وقلة حولهم من جهة ، ومحاولة منه لإيجاد حلفاء أو على الأقل أصدقاء له في منطقة الحجاز ، ولا سيما مكة التي ارتد جيشه عنها يوماً قبل زهاء نصف قرن مدحوراً حين حاول مدّ نفوذه إليها وبسط سيطرته عليها ، ثم لم يلبث أن خرج نهائياً من اليمن بعد تدخل الفرس فيها ، أو باختصار كان عطفه هذا موظفاً في خدمة مآرب سياسية له ولبيزنطة معاً في سبيل توطيد نفوذهما ومواجهة النفوذ الفارسي في وقت واحد ، وهذا كله لا يعني إسلام النجاشي بهذه السهولة لمجرد حسن اعتقاد الدين الجديد بعيسى عليه السلام وأمه مريم العذراء ، بل إن تصوير النجاشي بصورة الورع التقي في تراثنا القديم فيه كثير من المبالغة أيضاً . ومثل ذلك يقال في كتاب هرقل إلى النبي ﷺ في الاستجابة للإسلام ، وقد روي كالتالي : « إني مسلم »[٢] ، فإذا أضفنا إلى ذلك ردّ المقوقس بالتصديق[٣] ، اتضح لنا أن واضعي هذه الكتب إنما كان غرضهم خدمة الدعوة الدينية بالدرجة الأولى .

ومن المخالفة أيضاً عدم تطابق الرسالة مع الصفات البارزة المعروفة في الشخصية التي كتبت هذه الرسالة أو كتبت إليها ، إذ لا نتوقع مثلاً أن يكتب

---

(١) م.س ، ٣٧/١ ـ ٣٨

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٨٦

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ٤٠/١

عمر بن الخطـاب ، وهـو من لـه هيبـة في النفـوس وشـدة وطـأة في الحـق ، إلى عمرو بن العاص عاملـه على مصر في أمر الخراج : « ولقـد أكثرتَ في مكاتبتـك في الـذي على أرضـك من الخراج ، وظننت أن ذلـك سيـأتينـا على غير تريث ، ورجوت أن تفيق فترفع إليَّ ذلك ، فإذا أنت تأتيني بمعاريض تعبأ بها ، .. وقـد علمتُ أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمالك عمـال السوء ومـا تُوالِس عليـك وتُلَفِّف ، اتخذوك كهفاً »[1] ، في كلام كثير يخالف ميله إلى الإيجاز ، لأن مثل هـذا الكلام يدلّ على ضعف شخصية الكاتب وقلة اكتراث عامله به إلى أبعد الحدود حتى ألجـأه إلى مثل هذا التقريع ، ولم يكن عمر بالضعيف إلى هذا الحد حتى يكتب بمثل ذلك وكان يكفيه أن يأمر بعزله واستقدامه ومحاسبته أشـدَّ الحسـاب إن كانت لـه عليـه بيِّنة أو شهود ، كما أن عماله لم يكونوا بمثل هذه الصفـة في عملهم لـه ، ويؤكـد لنـا وضع هذه الرسالة ردّ عمرو الذي نرى فيه تطاولاً غير ممكن على الخليفة وخطـابـه بما لا يليق بمثلـه أو بحقـه إذ يقـول : « وعلمتُ أن ذلـك عن شيء تخفيـه على غير خُبْر ، فجئت لعمري بالْمُفْظِعات الْمُقْذِعات ، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم »[2] ، أو حين يقول : « ولكني حفظتُ مالم تحفـظ .. وسكتُّ عن أشياء كنتُ بها عالماً ، وكان اللسان بهـا مني ذلولاً »[3] ، وحين سـألـه عمر عن أصل ماله الذي فشا له كتب عمرو : « أقصر أيهـا الرجل ، فـإن لنـا أحسـابـاً هي خير من العمل لك »[4] .

---

(١) م.س ، ٢١٩/١ ـ ٢٢٠ وتُـوالِس عليـك : يريـد تُجَمّـع إليـك من النـاس ، وأصـل الْمُـوالَسَـة : المخادعة والمداهنة .

(٢) م.س ، ٢٢١/١

(٣) م.س ، ٢٢١/١ ـ ٢٢٢

(٤) م.س ، ٢٢٤/١

وورد في كتاب عثمان إلى أهل الموسم عتاب نساء النَّبي ﷺ إياه لعدم تـأميره معاوية[1] ، والثابت تاريخياً أنه أقره على إمرة الشام حين تولى الخلافة مباشرة بلا أي تردّد أو حتى تفكير بأمر عزله ، مما يبطل سبب العتاب . وفي رسالـة علي إلى عـاملـه على البصرة عثمان بن حُنَيْف خلـل تـاريخي ، فهـو يشير فيهـا إلى القتـال والقوة والضعف قبل أن يدخل في أي صراع عملي مع أي فئة من المجتمع ، لأنه كان في مقتبل خلافته ، وذلك حين يقول فيها : « وكأني بقـائلكم : إذا كان هـذا قوت ابن أبي طالب ، فقد قعد به الضعف عن قتـال الأقران ومنـازلـة الشجعـان »[2] ، ومثل ذلك قوله بلا أي مسوغ عملي له : « والله لوتظـاهرت العرب على قتـالي لمـا ولَّيْتُ عنهـا ، ولو أمكنت الفرص من رقـابهـا لسـارعت إليهـا ، وسـأجهـد في أن أطهِّر الأرض من هــذا الشخص المعكــوس والجسم المركــوس »[3] ، ويريــد بــه معاوية ، إذ كان تهديده بتطهير الأرض من معاوية سابقاً لأوانه لأنه لم يقرر مثل هذا التطهير بالحرب إلا بعد وقعة الجمل وبعـد أن أرسل إليـه جرير بن عبـد الله البجلي سفيراً إليه ورسولاً بكتابه ، وبعد أن أرسل إليـه مراراً يـذكّره ويعظـه بلا أي استفزاز ، حتى استنفد عملياً ونظريـاً جميع السبل أو الفرص السلميـة الممكنـة لأخذ بيعته وإدخاله في طاعته ، وحل المشكلة القائمة بينهما ، ثم إن هذه الرسـالـة نفسها حافلة بالزهد في متاع الدنيا والتزهيد فيه مع ذمهـا والشكوى منهـا[4] ، ولم يكن مثل هذا الزهد فيها والذم لها والشكوى منها إلا في أواخر خلافته ، وخاصة بعد وقعة النهروان حين يئس من أصحابـه وعـامـة شيعتـه تمـامـاً وراح يكيل لهم اللوم والتقريع كيلاً على تخاذلهم من حوله ، وهذه كلها دلائل على أن رسالته هذه

---

(١) م . س ، ٣١٩/١

(٢) م . س ، ٣٣١/١

(٣) م . س ، ٣٣٢/١ والمركوس : المنقلب المنكوس .

(٤) م . س ، ٣٣٢/١ ـ ٣٣٣

ينبغي أن تكون في أواخر خلافته لا في أولها ، مما يشكل خللاً تاريخياً واضحاً فيها يفضح وضعها فضحاً تاماً .

وهنالك مخالفة تاريخية في كتابَيْ معاوية إلى الزبير[1] ، وفي كتابه إلى طلحة[2] ، في البيعة بالخلافة لأحدهما وبولاية العهد للآخر ، لأن الثابت تاريخياً أنه لم يأخذ في الشام أي بيعة لهما لا بالخلافة ولا بولاية العهد ، لأنه كان هو نفسه يطمع بإحداهما لنفسه مباشرة دون غيره ، مما يجعل هذه الكتب مخالفة لشخصية معاوية ولطموحاته وللواقع التاريخي الثابت ، إذ كان يطمح في مساومته مع علي إلى أن يحكم الشام حكماً مستقلاً غير تابع لعلي ، وألا يكون عليه لأحد بعد علي بيعة ، مما يجعل سعيه ينصب في خدمة مصالحه هذه وليس مصالح غيره ، حتى إنه أخذ البيعة لنفسه بالخلافة من أهل الشام في حياة علي قبل صفين مرة ، ومرة أخرى بعد لقاء الحكمين . ثم إن ولاية العهد لم تطرح قط في عهد الخلفاء الراشدين ، أي أن الخليفة لم يكن ليحدد شخصاً معيناً لتولي الخلافة بعده وهو بكامل قواه ونشاطه ، فانتخب أبو بكر من المسلمين من غير أن تكون له ولاية عهد في حياة النبي ﷺ ، وأوصى أبو بكر وهو في النزع الأخير لعمر بالخلافة ، وسمّى عمر ستة نفر وجعل الخلافة شورى بينهم حين طُعِن ، وانتخب الناس من بين أصحاب هذه الشورى الباقين على قيد الحياة علياً أميراً للمؤمنين ، ولم تظهر البيعة بولاية العهد في حياة أيٍّ من الخلفاء إلا في زمن خلافة معاوية حين عمد إلى تسمية ولي للعهد وهو بكامل قواه ونشاطه ، وقد اختاره من ذريته لأول مرة ، وهو ابنه يزيد ، وحاول أن يأخذ بيعة المسلمين له على ذلك مما يجعل طرح فكرة أخذ البيعة بولاية العهد في الرسائل المذكورة آنفاً أمراً مخالفاً للواقع التاريخي الثابت زمن خلافة علي ودليلاً في الوقت نفسه على وضعها .

---

(١) م . س ، ٣٣٤/١ و ٣٣٩ ـ ٣٤٠

(٢) م . س ، ٣٣٨/١ ـ ٣٣٩

وقد رُوِي كتـاب من علي إلى معـاويـة بتوليتـه مـاقبلـه من الأمر والمـال في مقابل البيعة والطاعة له[1] ، وهذا أيضاً أمر مخالف للواقع التـاريخي الثـابت ، إذ كان علي يصر دائماً طوال خلافتـه على خلع معـاويـة من إمـارة الشـام ، وأي عمل آخر له في الدولة ، رافضاً أي مساومة على هـذا العزم من قبل معـاويـة . وهنـاك دلائل أخرى على وضع هذه الكتب الآنف ذكرها سترد في مواضعها من السياق .

٤ ـ مخالفة الحكمة السياسية :

وتتمثل هذه المخالفـة في مظـاهر شتى : منهـا الاستفزاز في الخطـاب والتردد ، والانفعـال ، والإسفـاف . فمن الاستفـزاز مثـلاً مـا ورد في كتـاب ينسب إلى النَّبي ﷺ مـوجـه إلى صـاحب الروم بروايـة صبـح الأعشى عن كتـاب الأمـوال لأبي عبيد ، إذ يطلب منه أن يختار بين الإسلام والجزية ، ويستشهد بآية الجزية التي يذكر فيهـا صَغـار دافعهـا[2] ، ومثلـه كتـابـه ﷺ إلى المقوقس بروايـة صبح الأعشى عن الواقـدي ، إذ يهـدد فيـه بـالقتـال إن لم يستجب للإسلام[3] ، من غير ذكر الخيار الثالث الذي هو الجزيـة لتكون الـدعوة متكاملـة ، ويلاحـظ أن كلا الكتـابين لا يمكن صـدوره بهـذه الصـورة عن النَّبي ﷺ ، لأن لهجتـه فيهما كانت استفزازية لا أثر للحكمة السياسية فيها نزولاً على قولـه تعـالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيْلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَـةِ وَجَـادِلْهُمْ بِـالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ ﴾[4] ، في حين أن الرواية الصحيحة لهذين الكتابين كانت مقصورة على الدعوة إلى الإسلام مع تحذير فقط من تحمل إثم الأتباع من الفلاحين وغيرهم إن هم لم يجيبوا هذه الـدعوة ، إذ لم يكن في حوزة النَّبي ﷺ في مطلع سنة ٧ هـ أي قوة تمكنه مثلاً من انتزاع الجزية

---

(١) م . س ، ٣٨٥/١

(٢) م . س ، ٣٤/١ ـ ٣٥

(٣) م . س ، ٣٩/١

(٤) القرآن ، ١٦/من الآية ١٢٥

من صاحب الروم أو فرضها عليه أصلاً إن لم يسلم ، أو تمكنه من تنفيذ تهديده بالقتال إن لم يستجب المقوقس للإسلام ، ولذا فإن الحكمة السياسية تحكم على هذين الكتابين بالوضع بلا أدنى شك .

ويجد المرء في كتابي معاوية إلى الزبير ، وفي كتابه إلى طلحة تردداً فاضحاً ، كما رأينا من قبل ، يخالف الحكمة السياسية كل المخالفة مما يدخل الشك في صحة هذه الكتب الثلاثة بكل قوة .

وتنسب لعلي بعض الكتب الموجهة إلى معاوية والمحتوية على إسفاف واضح هو أقرب إلى السباب والشتائم لا يمكن صدوره عن علي بأي حال من الأحوال ، كقوله في أحدها : « يابن صخر ، يابن اللعين .. وأنت الجلف ، المنافق ، الأغلف القلب ، القليل العقل ، الجبان الرذل ... »[1] ، ومثل ذلك ينسب إلى معاوية في كتاب إلى علي إذ يقول : « وقد أبيت على الفتن إلا تمادياً .. فازدد غيّاً إلى غيّك ، فطالما خفّ عقلك ، ومَنَّيْتَ نفسك ماليس لك ، والتويت على من هو خير منك »[2] ، لأن مثل معاوية لا يجهل قدر علي بأي حال من الأحوال ، وهو الذي كتب إليه مقرّاً بفضله فيما صحّ من كتبه : « أما شرفك في الإسلام وقرابتك من رسول الله ﷺ وموضعك من قريش فلست أدفعه »[3] ، ولا يمكن أن يصل إسفاف معاوية في خطاب علي مثلاً إلى حدّ قوله متهماً : « أقصر عن تقوُّلك على رسول الله ﷺ ، وافترائك من الكذب مالم يقل ، وغرور من معك والخداع لهم »[4] ، لأنه يعلم تمام العلم أن علياً أبعد الناس بعد رسول الله ﷺ عن الكذب وأحرص الناس دفعاً لأي تقوُّل على رسول الله ﷺ

---

(١) جمهرة رسائل العرب ، ٤٢٨/١

(٢) م . س ، ٤٢٢/١ وورد قريب من ذلك في ٤٢٧/١

(٣) م . س ، ٣٩٨/١

(٤) م . س ، ٤٢٤/١

أو افتراء ، ومثل ذلك أيضاً ماورد في كتاب من كتبه إلى علي إذ يتهمه بمثل قوله : « وقد طال في الغي نكوصك وإبطاؤك ، فتُوْعِد وعيد الأسد ، وتروغ روغان الثعلب ، فحتام تحيد عن لقاء مباشرة الليوث الضارية ، والأفاعي القاتلة ؟ »[1] ، لأن هذا لا يتفق مع ماكان معروفاً عن علي من شجاعة وإقدام في جميع مواقفه الحربية على الإطلاق ، ومعاوية لا يجهل ذلك ، ولذا فإن هذه الكتب تحوي من الإسفاف ومن الاستفزاز مالا يمكن أن يتناسب مع ماعرف عن معاوية من حلم ودهاء واعتماد على الجدل العقلي بالحجج والبراهين المنطقية ، وتحوي هذه الكتب من الانفعال قدراً يبعث على الشك في صحتها شكّاً قوياً . ومن المخالفة للحكمة السياسية أيضاً أن يستفز علي معاوية في مثل هذه المواقف الجدلية بقوله في كتاب : « فأنا أبو الحسن قاتل جدك وأخيك وخالك شدخاً يوم بدر ، وذلك السيف معي »[2] ، لأن هذا الكلام استفزاز مضر يدفع معاوية إلى تصعيد موقفه العدائي المعلن والخفي لعلي . وباختصار فإن اشتمال الكتب المذكورة آنفاً على هذه المظاهر المخالفة للحكمة السياسية مؤشر قوي على وضعها ، زد على ذلك وجود بعض الدلائل الأخرى على مثل هذا الوضع وردت أو سترد في مواضعها من هذا السياق .

٥ ـ وجود دعاية حزبية ومذهبية ودينية :

إذا وجدت مثل هذه الدعايات فهي تشير إلى وضع الكتب التي وردت فيها ، فمن الكتب التي تحوي دعاية دينية مثلاً ردّ النجاشي على دعوة النّبي ﷺ بالتصديق والإسلام[3] ، وردّ المقوقس بتعظيم النّبي ﷺ[4] ، أو الإقرار بصدقه

(١) م . س ، ٤٢٣/١

(٢) م . س ، ٤٢٨/١ شدخاً : كسراً ، وتكرر ذلك في عدة كتب أخرى في ٤٢٢/١ و ٤٢٥ و ٤٢٩

(٣) م . س ، ٣٧/١ ـ ٣٨

(٤) م . س ، ٣٩/١

مع الامتناع عن اتباعه[1] ، وكتاب باهان قائد جيش الروم إلى قيصر الذي يصور فيه الرعب الذي دبَّ في نفوس جنوده من المسلمين[2] ، فمن أين استقى الرواة نص هذا الكتاب مادام مبعوثاً في الأصل إلى قيصر الروم ؟ أضف إلى ذلك وجود دلائل أخرى على هذا الوضع .

وأما الدعاية السياسية الحزبية فتظهر في كتاب عثمان إلى أهل الموسم من خلال إبراز اهتمام نساء النَّبي ﷺ بمعاوية وحرصهن على تأميره مع ثنائهن على حسن إدارته ورضى جنده به[3] ، ومن أقوى الأدلة على الوضع اقتران اسم معاوية وعمرو بن العاص معاً في هذا الثناء على إصلاحهما الأرض ورضى الجند بهما وحسن إدارتهما ، ذلك لأنهما تحالفا لمصلحة مشتركة بينهما في مواجهة علي ، فلم لا يكون الهوى السياسي الحزبي وراء هذا الوضع ؟ وتظهر هذه الدعاية أيضاً في التفاخر الذي يرد في بعض الكتب المنسوبة إلى علي خاصة ، ومن ذلك ما كتب به إلى عثمان بن حُنَيْف : « وأنا من رسول الله كالصِّنْو من الصِّنْو والذراع من العَضُد »[4] . ومثله قوله في كتاب آخر لمعاوية : « فأنا ابن عبد المطلب صاحب السيف ، وإن قائمته لفي يدي ، وقد علمت من قتلت به من صناديد بني عبد شمس ، وفراعنة بني سهم وجُمَح وبني مخزوم ، وأيتمت أبناءهم وأيَّمْتُ نساءهم »[5] . ومثله قول علي في كتاب إلى معاوية أيضاً : « ومنا النَّبي ومنكم المكذِّب ، ومنا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف ، ومنا سيد شباب أهل الجنة ومنكم صبية النار ، ومنا خير نساء العالمين ومنكم حمّالة الحطب »[6] ، ولا شك في أن

(١) م . س ، ٤٠/١

(٢) م . س ، ١٨٥/١

(٣) م . س ، ٣١٩/١

(٤) م . س ، ٣٣١/١

(٥) م . س ، ٤٢٥/١ وقريب منه في ٤٢٩/١

(٦) م . س ، ٤٥٠/١ ـ ٤٥٢

هذه الموازنة أو المفاضلة من آثار الصراع المتأخرة بين بني أمية وبني هـاشم وليست مما كان زمن خلافة علي بمثل هذه الحدة .

ونجد هذه الدعايـة السيـاسيـة أيضـاً في كتـاب من علي إلى محمـد بن أبي بكر وأهل مصر يقول فيه : « وإيـاكم ودعوة الكـذاب ابن هنـد ، وتـأملوا واعلموا أنـه لاسواء إمام الهـدى وإمـام الردى ، ووصي النَّبي وعـدو النَّبي »[1] ، وربمـا جـاءت الدعاية الحزبية في كتب أصحـاب علي ، فقـد كتب محمـد بن أبي بكر ، وكان على مصر لعلي ، كتاباً إلى معاوية يقول فيه وفي علي : « وقد رأيتك تسـاميـه ، وأنت أنت ، وهو هو السـابق المبرز في كل خير ، أول النـاس إسـلامـاً ، وأصـدق النـاس نية ، وأفضل الناس ذريـة ، وخير النـاس زوجـة ، وأفضل النـاس ابن عم ، وأخو الشـاري لنفسـه يوم مـؤتـة ، وعمـه سيـد الشهـداء يـوم أحـد ، وأبـوه الـذاب عن رسـول الله ﷺ وعن حـوزتـه ، وأنت اللعين ابن اللعين .. »[2] ، ومن أعظم دلائل وضـع الرسـالـة أن محمـداً فيا ذكر من فضـل علي وحقـه مـا يـدين بـه أبـاه مباشرة ، وهذا ما ركز عليه ردّ معـاويـة إذ كتب في العنوان : « من معـاويـة بن صخر إلى الزاري على أبيـه محمـد بن أبي بكر »[3] ، ثم يفصـل في هـذه الـزرايـة ، ونرجح أن تكون الرسالتان قد وضعتـا قصـداً بهـذه الصيغـة من قبل بعض الغلاة للوصول إلى الغاية المرجوة من مثلها ، وهي الدعاية الحزبيـة لعلي في وقت لاحق حين تشعبت فرق الشيعـة وتطور فكرهـا الـديني ، ولا نتـوقـع أن يقـع محمـد بن أبي بكر في شيء يـزري بـأبيـه كهـذه الرسـالـة ، يضـاف إلى ذلـك وجـود بعض الدلالات الأخرى على هذا الوضع .

---

(١) م . س ، ٥٤٠/١
(٢) م . س ، ٥٤٣/١ ـ ٥٤٤
(٣) م . س ، ٥٤٥/١

وأما الدعاية المذهبية فتتمثل غالباً في الكلام على (فضائل علي وآل البيت) سواء في كتب علي نفسه أو كتب أصحابه كمحمد بن أبي بكر في الكتاب المشار إليه آنفاً . وقد ورد في بعض كتب علي إلى معاوية قوله : « حتى إذا استشهد شهيدنا قيل : سيد الشهداء ، وخصه رسول الله ﷺ بسبعين تكبيرة بعد صلاته عليه »[1] ، وقوله : « أولا ترى أن قوماً قطعت أيديهم في سبيل الله ، ولكل فضل ، حتى إذا فعل بواحدنا ما فعل بواحدهم قيل : الطيار في الجنة ، وذو الجناحين ، ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه ، لذكر ذاكر فضائل جمة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجها آذان السامعين »[2] ، ومنها قوله : « إنّا صنائع ربنا والناس بعد صنائع لنا »[3] ، ولا أدل على الوضع في كتاب آخر من علي إلى محمد بن أبي بكر وأهل مصر من قوله : « واعلموا عباد الله أنكم إذا اتقيتم ربكم وحفظتم نبيكم في أهل بيته فقد عبدتموه بأفضل ما عبد ، وذكرتموه بأفضل ما ذكر وشكرتموه بأفضل ما شكر ، وأخذتم بأفضل الصبر ، وجاهدتم بأفضل الجهاد ، وإن كان غيركم أطول صلاة منكم وأكثر صياماً ، إذ كنتم أتقى لله وأنصح لأولياء الله من آل محمد ﷺ وأخشع »[4] ، لأن هذا المقياس غريب عن الإسلام في ميدان تقدير أعمال المرء في آخرته . وهناك دلائل أخرى على الوضع في هذه الكتب وردت أو سترد في مواضعها من هذا السياق .

٦ ـ وجود نبوءات بحوادث مستقبلية ووصف أمور غيبية :

وذلك لأن مثل هذه الأمور داخلة أصلاً في علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى ، وليس لأحد من البشر علم به إلا أن يطلع الله تعالى بعض أنبيائه

---

(١) م . س ، ٤٤٨/١

(٢) م . س ، ٤٤٨/١ ـ ٤٤٩

(٣) م . س ، ٤٤٩/١

(٤) م . س ، ٥٣٦/١

المصطفين على شيء منه فيطلعون الناس عليه ، ولذا فإن ورود مثل هذه النبوءات والأوصاف الغيبية في رسائل صدر الإسلام إنما تدل قطعاً على وضعها ، ومن ذلك مثلاً تنبؤ علي في كتاب إلى معاوية بالدعوة إلى تحكيم كتاب الله تعالى إذ يقول : « وكأني بك غداً وأنت تضج من الحرب ضجيج الجمال من الأثقال ، وستدعوني أنت وأصحابك إلى كتاب تعظمونه بألسنتكم وتجحدونه بقلوبكم »[1] ، وقد أكّد علي هذه النبوءة بعد التحكيم بقوله في كتاب إلى معاوية أيضاً : « حتى اعتصمتَ بكتاب أنت وأبوك أول من كفر به وكذب بنزوله ، ولقد كنتُ تفرستُها وآذنتك أنك فاعلها »[2] . وقد ردّ معاوية على نبوءة علي في الرسالة الأولى بنبوءة أخرى عن اعتزال بعض أنصاره (وهم الخوارج) صفوفه إذ يقول لعلي في أصحابه : « فقد استغويتهم ويوشك أمرك أن ينكشف لهم فيعتزلوك ويعلموا أن ما جئت به باطل مضمحل »[3] ، وهذا لا يستقيم طبعاً مع احتجاب علم الغيب عن البشر .

وأما وصف الأمور الغيبية فقد وقع في كتاب من علي إلى محمد بن أبي بكر وأهل مصر ، إذ يصف أهل الجنة ولقاءهم الأسبوعي بربهم فيقول إنهم « يزورون الجبار سبحانه في كل جمعة ، فيكون أقربهم منه على منابر من (نور) ، والذين يلونهم على منابر من (ياقوت) ، والذين يلونهم على منابر من (مسك) ، فبينا هم كذلك ينظرون نور الله جلّ جلاله وينظر في وجوههم ، إذ أقبلت سحابة تغشاهم فتمطر عليهم من النعمة واللذة والسرور والبهجة ما لا يعلمه

---

(١) م . س ، ٤٢٣/١ وفي رواية أخرى : « وكأني بجماعتك تدعوني ـ جزعاً من الضرب المتتابع ، والقضاء الواقع ، ومصارع بعد مصارع ـ إلى كتاب الله وهي كافرة جاحدة ، أو مبايعة حائدة » ، انظر : م . س ، ٤٣٠/١ ـ ٤٣١

(٢) م . س ، ٤٢٦/١

(٣) م . س ، ٤٢٤/١

إلا الله سبحانه »[1] ، وليس يعرف مثل هـذه الأمور الغيبيـة غير علاّم الغيوب ، ولا يمكن لبشر أن يتصور ما سيكون في الدنيا فكيف له أن يتصور مـا سيكون في الآخرة ؟ وهـذا دليل قوي على وضع هـذه الرسـالـة التي تبـدو لنـا أشبـه بمـا كان معروفـاً بين المسلمين من غيبيـات ووصف للخوارق في القرن السـابع الهجري ، زد على ذلك وجود دلائل أخرى على الوضع في هذه الرسالة وفيما تقدمها من رسائل .

٧ ـ كثرة الروايات وشدة اختلافها :

فقد ترد بعض الرسائل المنسوبـة إلى صـدر الإسلام في روايـات كثيرة تطول وتقصر أو تتداخل وتختلـط ، أو يختلف سيـاقهـا العـام حول الموضوع الواحـد في الألفاظ وفي طريقة التعبير . ولا شك في أن الاضطراب في رواية الرسالة الواحدة إنما هو دليل اختراعها ووضعها ، لأن اقتباس هذه الرسالـة من أصل صحيح يقلل من اختلاف المصـادر في روايتهـا حتى إنـه لا يتعـدى إبـدال لفظـة بلفظـة نتيجـة التصحيف أو التهـذيب ، أمـا أن تختلف الروايـة اختـلافـاً جـذريـاً في الألفـاظ والأسلوب والتعابير فإن ذلك غير وارد في النصوص الصحيحة روايتهـا أو السليمـة أصولهـا ، وقـد اعترف الشريف الرضي بهـذه المشكلـة حين همّ بجمـع مختـارات من كلام علي فقال : « وربما جاء في أثناء هذا الاختيار اللفـظ المردد والمعنى المكرر ، والعذر في ذلك أن روايات كلامه تختلف اختلافاً شديـداً : فربمـا اتفق في الكلام المختار في رواية فنقل على وجهه ، ثم وجد بعد ذلك في رواية أخرى موضوعـاً غير وضعه الأول ، إما بزيادة مختارة أو بلفظ أحسن عبارة »[2] ، إلا أننا مع ذلك قد نتوقع صحـة أصل هـذه الروايـات جميعـاً نظراً لأن المؤلفين المختلفين قـد يقرؤون بعض الرسـائل في موضوع مـا ، وحين يؤلفون يَنْسَوْنَ مصـدرهـا فيعبرون عنهـا بـألفـاظهم لأداء مضونهـا ويسوقونهـا على أنهـا النص المروي الصحيـح لهـا ، وقـد

---

(١) م . س ، ٥٣٩/١ ـ ٥٤٠

(٢) انظر خطبة كتابه : نهج البلاغة ، ١٣/١

يكون هذا الاختلاف الشديد في الرواية ناجماً عن أن للموضوع أصلاً تاريخياً على شكل رسالة غير مروية المضمون أو خبر ، فأراد بعض المؤلفين سدّ الفراغ الموجود بصوغ رسالة مكان الرسالة غير المروية أو بتجسيد الخبر المجرد بنسج رسالة حوله تكون أعمق أثراً في القارئ لإعطاء كتاباتهم قيمة أكبر ، ومن أبرز نماذج الرسائل التي كثرت رواياتها واشتد اضطرابها كتاب عمر إلى عمرو بن العاص يسأله عن أصل المال الذي فشا له[1] ، وردُّ عمرو عليه[2] ، ثم أمْرُ عمر عمراً بمشاطرة هذا المال[3] ، وقد وردت هذه الكتب الثلاثة في أربع روايات مختلفة : مضمونها واحد وألفاظها وتعابيرها متفاوتة . وهناك طائفة من الرسائل لها ثلاث روايات[4] أو روايتان[5] ، وقد تكون إحدى هذه الروايات المتعددة صحيحة والأخريات موضوعة وقد تكون جميع هذه الروايات مشكوكاً فيها[6] .

٨ ـ غياب الأسانيد أو المصادر المتقدمة :

قد يجد المرء رسائل تنسب إلى صدر الإسلام غير أنها مروية في كتب متأخرة فقط من غير أن يرد لها أي نص في الكتب المتقدمة ، ومن غير أن تشير هذه الكتب المتأخرة إلى مصادرها التي استمدت منها مادتها المروية في هذا المجال ، ولذلك فإن الشك القوي يقع في صحة هذه المرويات ، وإذا نظرنا إلى الرسائل التي أشرنا إلى ما فيها من دلائل الوضع آنفاً وجدنا أن معظمها قد ورد في الكتب المتأخرة جداً أحياناً عن فترة صدر الإسلام ، مما يجعل هذا الدليل تتويجاً لتلك

(١) جمهرة رسائل العرب ، ٢٢٣/١ و ٢٢٥ و ٢٢٦ و ٢٢٧

(٢) م . س ، ٢٢٣/١ ـ ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٢٦ و ٢٢٧

(٣) م . س ، ٢٢٤/١ و ٢٢٥ و ٢٢٦ و ٢٢٧ ـ ٢٢٨

(٤) انظر مثلاً كتاب علي أول ما بويع له بالخلافة إلى معاوية في : م . س ، ٣٨٤/١ ـ ٣٨٥

(٥) انظر مثلاً كتاب سعد بن أبي وقاص في الرد على كتاب جاءه من معاوية في : م . س ، ٤٠٦/١

(٦) انظر مثلاً : م . س ، ٣٢/١ ـ ٣٤ و ٣٤ ـ ٣٥ ، ٣٨ و ٣٨ ـ ٣٩ ، ٣٩ و ٤٠ ، ٥٦ و ٥٦ ـ ٥٧ ، ٥٨ ـ ٥٩ و ٥٩ ـ ٦٠ ، ٨٢ ـ ٨٣ و ٨٣

الأدلـة التي مرت بنـا ، ونضرب مثلاً كتـاب عمرو بن العـاص في وصف مصر[1] :
فقد رواه مصدر متأخر جداً هو كتاب « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة »
لابن تغري بردي (م ٨٧٤ هـ) ، من غير أن يرد شيء منـه في المصـادر المتقـدمـة
أو حتى إشـارة إلى مثل هـذا الكتـاب في تلـك المصـادر ، ونرجـح أن يكـون ابن
تغري بردي هو الذي وضعه قصـداً لخـدمـة غرض الكتـاب الـذي وقفـه على مصر
والقاهرة ، ولعل وَضْعَه جاء بـإيحـاء من سؤال عمر عمرو بن العـاص أن يصف لـه
البحر لما سأله معاوية بالشام أن يأذن لـه بـالغزو فيـه[2] . وقـد تكون مرويـات
المصادر المتأخرة في بعض الأحيان ، وهـذا أمر غير مستبعـد الوقوع ، مستمـدة من
كتب متقـدمـة لم تصل إلينـا شخوصهـا ولا أسماؤهـا ، ولم يشر المـؤلفـون إليهـا في
الـوقت نفسـه ، ويمكن الأخـذ بهـذه المرويـات على أنهـا صحيحـة أو قريبـة من
الصحة إن لم يكن عليها مأخذ من جملة المآخذ التي تدل على وضعها ممـا أتينـا على
ذكره آنفاً .

وأما الأسانيد فهي مفيدة لتوثيق المرويات ، ولا سيا الرسائل كما في حـالتنـا
الراهنة ، لأنها تجعل مادُوِّن في الكتب متسلسلاً في الروايـة إلى مصـدره الأول عبر
السند الذي يشمل مجموعة رواته ، وقد ينتهي هذا السند إلى راوية أخذ مادتـه من
كتاب قديم أو وثيقة مدوّنة بخـط صـاحبهـا من فترة صـدر الإسلام أو من نسخـة
عنها ، وهذه كلها تساعد على توثيق المادة المروية .

ويمكن أن نضرب هنا مثلاً عملياً من كتـاب (نهج البلاغـة) ، وهو مـارُوِيَ
لنا فيه من كتب منسوبة إلى علي بن أبي طالب ، بغض النظر عن سائر مرويات
هذا الكتاب من خطب وعهود ووصايا وأقوال مأثورة وحكم وأمثـال ، ويمكن أن
نستعمل الإحصاء عـاملاً مسـاعـداً في بيـان مـدى الثقـة في هـذه الكتب : فعـدد

(١) م . س ، ٢١١/١ ـ ٢١٣

(٢) م . س ، ٢١٣/١

الكتب المروية فيه (٦١ كتاباً) ، وقد حاولنا أن نبحث عن أصول هذه الكتب في المصادر التي سبقت الشريف الرضي وزمن جمع مواد نهج البلاغة ، فوجدنا أصول (١٩ كتاباً) منها فقط فيما بين أيدينا من تلك المصادر ، أي قرابة ثلث عدد الكتب المروية ، وكانت النصوص متطابقة تماماً آناً ، وناقصة آناً آخر عن رواية نهج البلاغة ، أو كانت رواية نهج البلاغة ناقصة عما في الكتب المتقدمة ، مع وجود خلاف بالطبع في رواية النص الواحد بين المصدر القديم ونهج البلاغة ، وكانت المصادر تسعة هي بحسب تسلسلها الزمني :

١ ـ وقعة صفين لنصر بن مزاحم (١٢ رسالة) .
٢ ـ الإمامة والسياسة لابن قتيبة (٦ رسائل) .
٣ ـ الأخبار الطوال للدينوري (رسالتان) .
٤ ـ تاريخ اليعقوبي (رسالة واحدة) .
٥ ـ الكامل للمبرد (رسالة واحدة) .
٦ ـ تاريخ الطبري (٣ رسائل) .
٧ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه (٦ رسائل) .
٨ ـ مروج الذهب للمسعودي (رسالة واحدة) .
٩ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (رسالة واحدة) .

وكان بعض هذه الرسائل مكرراً في أربعة مصادر أو ثلاثة أو اثنين أو كان وارداً في مصدر واحد منها فقط . وقد روى الشريف الرضي في كتابه نصاً على أنه خطبة[1] ، في حين أن أبا حنيفة الدينوري يرويه على أنه نص رسالة كتب بها إلى أهل الكوفة لتقرأ عليهم بعد الفراغ من صلاة إحدى الجمع[2] ، غير أن

---

(١) نهج البلاغة ، ٦٧/١ ـ ٧٠

(٢) انظر كتابه : الأخبار الطوال ، ص ٢١١ ـ ٢١٢

الجاحظ قبله يرويها على أنها خطبة فعلاً[1] . ومما يلفت النظر في جمع الشريف الرضي لكتب علي أنه لم يَسْتَمِدّ من بعض مصادره المذكورة آنفاً ، وهي مصادر لم يشر إليها في كتابه أصلاً ، غيرَ بضع رسائل مع أنها كانت مليئة بمثل هذه الكتب المنسوبة إلى علي ، ومع أن بعض مؤلفيها كانوا من علماء الشيعة أو ممن لهم هوى شيعي كاليعقوبي (رسالة واحدة) ، والمسعودي (رسالة واحدة) ، وأبي الفرج الأصفهاني (رسالة واحدة) مثلاً ، فما مصادره التي اعتمد عليها إن لم يرجع إلى كبار المؤلفين المعروفين قبله وإلى كتبهم المشهورة عند القدماء والمحدثين على حد سواء ؟

يَضَنّ الشريف الرضي على قراء كتابه بمصادره ضَنّاً عظيماً ، حتى إنه لم يذكر لنا من مصادر جمعه إلا ثلاثة كتب وردت في مثل قوله : « ومن كتاب له عليه السلام إلى طلحة والزبير ، ذكره أبو جعفر الإسكافي في كتاب المقدمات (أو المقامات) في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام »[2] ، وفي قوله : « ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية في أول ما بويع له ، ذكره الواقدي في كتاب الجمل »[3] ، وقوله : « ومن كتاب له عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري جواباً في أمر الحكمين ذكره سعيد بن يحيى الأموي في كتاب المغازي »[4] . وقد رُوِي الكتاب الأول منها أيضاً في الإمامة والسياسة لابن قتيبة[5] ، أما الآخران فلم يشترك في روايتهما أي مصدر قديم آخر في حدود اطلاعنا ، وهذا يعني أن عدد الكتب الموثقة فيما رواه الشريف الرضي يرتفع إلى (٢١ كتاباً) وهو ثلث ما روي عنده منها تقريباً . ولا شك في أن إهمال الشريف الرضي ذكر مصادر مروياته هو

---

(١) انظر كتابه : البيان ، ٢/٥٣ ـ ٥٥

(٢) نهج البلاغة ، ٣/١١١

(٣) م . س ، ٣/١٣٥

(٤) م . س ، ٣/١٣٦

(٥) انظر : جمهرة رسائل العرب ، ١/٣٧٧ ـ ٣٧٨

الذي فتح باب الشك فيها واسعاً ، وخاصة أنه كان نقيب الأشراف الطالبيين في زمنه ، وكان ينبغي له أن يبعد هذه الشبهة عن هذه المرويات بأن يقطع الشكّ باليقين بذكر المصادر والأسانيد في زمن كان لا يزال يعتمد ذلك حتى في كتب الأدب المشهورة في القرن الرابع للهجرة ، ككتاب الأغاني للأصفهاني ، وهي التي أراد لها أصحابها أن تكون موثوقاً بها ، ولو فعل ذلك لتجنب القضية الشائكة التي لا تزال موضع جدل بين العلماء والباحثين عبر عنه محمد أبو الفضل إبراهيم بقوله : « وعلى مر العصور والأزمان كانت نسبة ما في كتاب (نهج البلاغة) إلى الإمام علي مثاراً للشك عند العلماء والباحثين المتقدمين والمتأخرين »[1] .

ومن خلال الوقائع الثابتة بين أيدينا عن رواية نهج البلاغة لكتب علي نستطيع أن نقول إن ثلث هذه الكتب تقريباً ـ كما مرّ بنا آنفاً ـ لها أصول قديمة في المصادر التي سبقت زمن الشريف الرضي ، مما يرجح صحتها ترجيحاً لا غبار عليه ما دامت لا تتعارض مع معايير الوضع التي تشكك في صحتها ، إلا أن المشكلة تظل قائمة ما دام ثلثا هذه الكتب لا يزالان مجهولي المصادر ، وقد ذهب د . خلدون الكناني إلى أن « الحقيقة أنا إذا استطعنا إيجاد أسانيد بعض ما ورد في نهج البلاغة ، فإن كثيراً مما فيه بعيد عن أن يكون له ذكر في الكتب التي بين أيدينا »[2] .

وقد ذهب ابن أبي الحديد في مرويات نهج البلاغة ـ ومن جملتها الرسائل ـ إلى القول : « إما أن يكون كل نهج البلاغة موضوعاً منحولاً أو بعضه : والأول باطل بالضرورة لأنا نعلم بالتواتر صحة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد نقل المحدّثون ـ كلهم أو جلهم ـ والمؤرخون كثيراً منه ، وليسوا

---

(١) انظر مقدمة تحقيقه لكتاب : شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ٧/١

(٢) انظر كتابه : دروس الأدب عصر النّبي والراشدين والأمويين ، ص ٩٢

من الشيعة لينسبوا إلى غرض في ذلك »[1] ، ونحن نؤكد صحة هذه الحجة لأننا فرغنا من إثباتها قبل قليل ، وأما احتجاجه بحكم (الذوق) على تجانس نصوص مرويات نهج البلاغة وأنها من ماء واحد ونَفَس واحد وأسلوب واحد « كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الألفاظ في الماهية »[2] ، وأنها بالتالي كلها من كلام أمير المؤمنين علي ، فإن ذلك لا يستقيم ، ويعد تطرفاً في الحكم وضعفاً خطيراً في الاستنتاج ، لأن (الذوق) وحده لا يقوم دليلاً قاطعاً على نسبة كلام ما إلى أحد من الناس لمجرد قربه من كلامه أو شبهه بأسلوبه ، وإن كان المرء يستأنس بهذا الذوق استئناساً فقط ، ذلك لأن مجال تشرب أساليب الآخرين في كلامهم أو تقمص طرائقهم في التعبير نتيجة الإعجاب بها أو الإدمان عليها أمر معروف في كل زمان ، فإذا وضع واضع ، متقن لتقليد أسلوب أحد المتقدمين ، بعض الكتب عليه فإن الذوق يحكم حكماً راجحاً بأن الكلام الموضوع من كلام ذلك المتقدم ، في حين أن الحقيقة مخالفة لذلك تماماً . وهكذا فإن ابن أبي الحديد يحاول أن يحكم على قضية توثيقية من زاوية أسلوبية فحسب ، وهذا لا يستقيم في معالجة الوثائق التاريخية لأن المصادر والسند والنقد الداخلي للنصوص تبقى هي السبيل للحكم عليها حكماً أقرب إلى السداد ، وإن ثبت لنا أن بعض نهج البلاغة صحيح فإن ذلك لا يقوم حجة على صحة بعضه الآخر كما أراد ابن أبي الحديد أن يستنبط آنفاً ، وهكذا فإن الشك في المرويات التي ليس لها مصادر قديمة يظل قائماً .

---

(١) انظر كتابه : شرح نهج البلاغة (ط . الحلبي) ، ٥٤٦/٢

(٢) م . ن .

٤ ـ التوقيعات :

أ ـ مفهومها :

التوقيعات جمع توقيع ، ومعناه اللغوي : التأثير القليل الخفيف ، يقال : دَفٌ هذه الناقة موقَّع إذا أثّرت فيه حبال الأحمال تأثيراً خفيفاً[١] ، وهو مأخوذ أيضاً من توقيع الدَّبَر ظهر البعير[٢] . والتوقيع في الاصطلاح : ما يُوَقَّع في الكتاب[٣] ، أي يعتمد في الرد على كتاب مرفوع إلى الخليفة أو الوالي أو العامل في أمر يتعلق بمضمون ذلك الكتاب .

وقد عرَّف د . عمر فروخ التوقيع بمفهومه الاصطلاحي بقوله إنه « ما كان الخلفاء يثبتونه من الجمل القصار في أعقاب الرسائل التي ترد إليهم من الولاة وسائر الناس ليجيزوا ما في هذه الرسائل »[٤] . وعرَّفه د . محمد نبيه حجاب بأنه « التعليق على الرسائل الواردة إلى الديوان بما يناسبها »[٥] . وواضح من ذلك أن الأصل في التوقيع أن يكون رداً على كتاب ، أو ربما على قِصَّة أو رُقْعَة مرفوعة في شكوى أو مشكلة أو طلب عون أو رأي ، ويهمنا هنا الجانب الأول لأنه هو الغالب على التوقيع في صدر الإسلام ، ثم إن هذا التوقيع يُكْتَب على الكتاب المرفوع نفسه ، وغالباً ما يكون في أسفل الكتاب ، أو لنقل بتحديد أدق إنه يخضع على وجه العموم لوجود فراغ مناسب له أو لمزاج الكاتب إن وجد أكثر من فراغ ، ولا شيء يقيد مكانه البتة ، على أن يكون بارزاً ظاهراً للعيان غير ملتبس بخط الكتاب المرفوع .

---

(١) أدب الكتاب للصولي ، ص ١٣٤ وانظر : لسان العرب ـ مادة (وقع) ، ٤٠٦/٨ ودَفّ الناقة : جنبها .

(٢) لسان العرب ـ مادة (وقع) ، ٤٠٦/٨

(٣) م . ن .

(٤) انظر كتابه : تاريخ الأدب العربي ، ص ٢٥٤

(٥) انظر كتابه : بلاغة الكتاب في العصر العباسي ، ص ٩٥

ب ـ خصائصها :

أجمع القدماء والمحدثون على أن هنالك خاصتين أساسيتين ينبغي توفرهما في التوقيعات ، هما : الإيجاز والبلاغة . وذهب ابن عبد الغفور في كلامه على التوقيع إلى القول : « وهذا النوع من الكلام مما عَدَلوا فيه عن التطويل والتكرار إلى الإيجاز والاختصار »(١) ، وذكر ابن خلدون أنه يجب أن يكون « بأوجز لفظ وأبلغه »(٢) . وقال د . حسين نصار : « ألِف الخلفاء والولاة أو كُتّابهم أن يَرُدُّوا على بعض الرسائل التي تصل إليهم في جمل حاسمة امتازت بالإيجاز الشديد ، ونالت إعجاباً متزايداً على مرّ الزمان »(٣) .

وقد ذهب ابن درستويه إلى أن التوقيع « إنما هو أمر ونهي ، فالواجب أن يجري مجراهما لا غير ، وأن يُثْبَت حرف الأمر فيما كان منه أمراً إذا لم يُسَمَّ المأمور ، كما يُثْبَت حرف النهي فيما كان منهياً عنه ، ولا يجوز حذف واحد من هذين الحرفين »(٤) ، غير أن التوقيع لا يَطَّرِد دائماً أن يكون أمراً ونهياً ، إذ قد يكون تقريراً لحقيقة أو فكرة ، وربما كان تعليلاً لقضية ، وليست كل الرسائل تتطلب أمراً ونهياً فحسب ، فقد كتب سلمان مثلاً إلى علي كتاباً يسأله فيه كيف يُحاسَب الناس يوم القيامة ، فوقَّع على الكتاب : « يُحَاسَبون كما يُرْزَقون »(٥) .

جـ ـ أصل نشأتها :

من الغريب حقاً أن يعزو بعض الباحثين العرب المحدثين نشأة التوقيعات إلى تأثير الثقافات الأجنبية ، والثقافة الفارسية منها على وجه الخصوص ، مع

---

(١) انظر كتابه : الإحكام في صنعة الكلام ، ص ١٦٠

(٢) انظر : مقدمته ، ص ٢٤٧

(٣) انظر مقالته : أدب المراسلات في العصر الأموي ، في مجلة : عالم الفكر ، مج ١٤ ، ص ٦٤٨

(٤) انظر : كتاب الكُتّاب ، ص ١٥٩

(٥) جمهرة رسائل العرب ، ٦٠٨/١

العلم أنهم يقرون في الوقت نفسه بميل الأساليب العربية المتقدمة أصلاً إلى الإيجاز الشديد والبلاغة في الكلام ، يضاف إلى ذلك حقيقة تاريخية ثابتة أخرى هي أن التوقيعات ظهرت للمرة الأولى في زمن مبكر جداً هو زمن خلافة أبي بكر ، أي قبل أن يتصل العرب بالفرس بعد الفتوح اتصالاً قوياً يجعلهم قابلين للتأثر بأساليب كتابتهم حتى ما صغر منها وقلّ تمهيداً لنقلها إلى الكتابة العربية ، إذا ما افترضنا جدلاً وقوع مثل هذا التأثير فعلاً . ومن هؤلاء الباحثين جرجي زيدان إذ يقول : « وقد اقتبس العرب التوقيع على هذه الصورة من الفرس لأنهم سبقوهم إلى ذلك »[1] ، وهو الذي يقول بعد قليل : « وما زال الاختصار عمدة البلاغة في رسائلهم ومكاتباتهم حتى تحضروا واختلطوا بالفرس بالمصاهرة والمعاشرة ، فاقتبسوا منهم التفخيم والمبالغة والتوسع »[2] ، ومنهم د . شكري فيصل إذ يقول : « والأسلوب العربي يميل إلى التركيز ، فاللمحة الموجزة الخاطفة يستعاض بها عن الأسلوب التقريري الطويل ، والكلمة المختصرة يجتزأ بها عن الجملة المستطيلة ، غير أن الثقافة الفارسية حملت إليه في أسلوب (التوقيع) على القِصَص والعرائض التي ترفع إلى رجال الدولة فنّاً جديداً هو (فن التوقيعات) »[3] . وهكذا ظلم الباحثون المحدثون من العرب والمستعربين أدب الترسل عندنا : فهو إذا أوجز واقتضب في هذا الشكل المدعو بالتوقيع كان بتأثير الفرس وثمرة من ثمرات الثقافة الفارسية ، وإذا أطنب وأسهب كان أيضاً بتأثير الفرس وثمرة من ثمرات الثقافة الفارسية ، وهذا منتهى العجب ، وكأن العرب لا حول لهم ولا طول في أدبهم ونثرهم منه خاصة ، وهم الذين عرفوا أساليب الإيجاز والإطناب معاً في القرآن الذي تلقنوه وتشربته نفوسهم وعقولهم بقوة

---

(١) انظر كتابه : تاريخ التمدن الإسلامي ، ٩٢/٤

(٢) م . ن .

(٣) انظر كتابه : مناهج الدراسة الأدبية ، ص ١٠٨

وعمق ، أو كأنهم عـاجزون عن « الإيجـاز في غير خلل والإطنـاب في غير ملـل » ، وهي العبـارة التي تمثـل جـوهر مفهـومهم للبـلاغــة في القـول . فــإذا كان العرب يدركون قيمـة كل من الإيجـاز في محلـه والإطنـاب في محلـه ، فهم أغنى النـاس عن تلقي هـذه المفـاهيم من أي قوم من الأقوام أو ثقـافـة من الثقـافـات ، وإن كانـوا لا يـدركون قيمتهما فهم غير مؤهلين لتلقي القرآن الكريم وحملـه إلى النـاس أصلاً ، وهذا مالم يكن قط .

فـإن قيل : ربمـا انتقل مفهوم التوقيـع إلى العرب بتـأثير الفرس عن طريـق الحيرة التي كان كتـابهـا من العرب يختلطون أحيـانـاً بـدواوين الفرس في المـدائن ليكونوا تراجمة بين ملوكهم وبين العرب ، أو همزة الوصل بينهم ، فإننـا نقول : لم يثبت لنـا فيما نقل إلينـا من آثـار ملـوك الحيرة أنفسهم تـوقيـع واحـد يعـزز هـذا الافتراض ، ولم يصل إلينـا أي خبر يشير إلى وجود مثل هـذا التوقيـع عنـد أهـل الحيرة ، ولعل الحاجة إليه كانت معدومـة نظراً لضيق الرقعـة الإداريـة التي كانت الحيرة تشملها بحكمها ، ونظراً لقصر الرسائل وإيجازها حتى إنها هي نفسها لتعـد في الجاهلية توقيعات أو أقرب إلى التوقيعـات ، ورسـالـة عمرو بن هنـد إلى الْمُكَعْبَر بشأن الشاعر المتلمس أكبر دليل على ذلك ، ونتوقع أن تكون سمة الإيجاز الشديـد هذه دعامة في الرسائل الجاهلية الأخرى التي لم تصل إلينـا نصوصهـا . فـإذا كانت رسائل العرب النثرية الجاهلية كذلك فـما الحـاجـة إلى اقتبـاس التوقيع من الفرس وما جدوى ذلك ؟

ويمكن القول باختصار إن التوقيع ، كالرسائل نفسها ، ينشـأ نشـأة طبيعيـة عامة عند الأمم ، إذ لم تنقل أمةٌ عن أمـة أخرى استعمال الرسـائل بمختلف أشكالهـا وسيلةً من وسائل الاتصال منـذ أقـدم العصور إلى يومنـا هـذا ، بل نشـأت هـذه الوسيلة نشأة طبيعية متزامنـة أو متعـاقبـة عنـد مختلف الأمم القـديمـة من غير أن

تكون هذه النشأة بفضل تأثير ثقافي أو اتصال حضاري أو احتكاك مباشر بين هذه الأمم .

وكانت نشأة التوقيعات ، في رأينا ، بعد نشأة الرسائل التدوينية ، بفضل الحاجة الإدارية الملحة والمعقدة بدافعين : الأول اتساع رقعة الدولة . والثاني كثرة الرسائل ، إذ كان العامل الأول وراء استعمال الرسائل وسيلة للاتصال عن بعد نظراً لبعد المسافات وترامي الأطراف بين المتراسلين ، وكان العامل الثاني وراء استعمال التوقيع وسيلة للرد على الرسائل الكثيرة المتراكمة نظراً لصعوبة الرد على كل رسالة برسالة مثلها ، وتوفيراً للجهد والوقت من ناحية ، وتلبية لحاجات الناس وحلّ مشاكلهم وسرعة البت فيها من ناحية ثانية ، وربما كانت الرغبة في التحديد والحسم وراء ازدهار التوقيع أيضاً .

وقد أصرَّ بعض الباحثين العرب المحدثين على أن التوقيعات نشأت نشأة عربية خالصة ، ومنهم د . أحمد محمد الحوفي[١] الذي اعتمد في ذلك على دليلين : الأول ممارسة العرب هذه التوقيعات قبل اتصالهم بالفرس والثاني ملاءمة التوقيعات للفطرة العربية كالميل إلى الإيجاز ، والمقدرة على البيان ، وسرعة الخاطر ، وحضور البديهة ، حتى خلص إلى القول : « فليس العرب بحاجة إلى أن يحاكوا غيرهم فيما يلائم طباعهم أشدّ الملاءمة »[٢] . ومنهم أيضاً د . محمد نبيه حجاب الذي يبين اختلاف الباحثين في أصل التوقيعات « أهي عربية صحيحة أم منقولة عن الفارسية ؟ »[٣] ، ثم يصل إلى نتيجة يقول فيها إن « توقيعات الراشدين وخلفاء بني أمية تجعلنا نقول مع القائلين بعربيتها الأصيلة وأنها انبعثت

---

(١) انظر كتابه : أدب السياسة في العصر الأموي ، ص ٤١٩

(٢) م.ن .

(٣) انظر كتابه : بلاغة الكتاب في العصر العباسي ، ص ٩٧

من الصدور العربية لأنها من ضرورات الملك واستبحار العمران فضلاً عن طابعها الموجز »[1] .

د ـ مصادرها :

تعدّ مصادر المعاني في الرسائل هي نفسها مصادر المعاني في التوقيعات فقد يكون التوقيع آية قرآنية تمثل أفضل ردّ على مضمون الرسالة ، وقد يكون حديثاً نبوياً ، أو قولاً مأثوراً لبعض المشهورين ، أو حكمة ، أو مثلاً ، أو بيتاً من الشعر أو شطراً منه على حسب ما يرى الموقع أن يقتبس من هذه المصادر ، وقد يعمد الموقع إلى حلّ المعاني أو تضمينها توقيعه ، فإن لم يحضره من ذلك كلام يفي بالغرض كتب الموقع من إنشائه عبارة تُلِمّ بالرد الملائم بإيجاز واختصار مع توخي البلاغة فيها .

هـ ـ مكانتها من أدب الترسل :

يرى د . محمد عبد المنعم خفاجي أن « (فن التوقيعات) يعدّ متمماً لفن الرسائل وجزءاً منه ، وذلك لأنه بمنزلة جواب مختصر على مضمون الرسالة »[2] ، في حين أن د . حسين نصار يرى أن (التوقيعات) « فن أدبي خاص » من ثمار « فن المراسلات »[3] . ونحن نميل إلى الرأي الثاني لأننا نعتقد أن التوقيعات وإن كانت في بداية الأمر قد ولدت وترعرعت في أحضان أدب الترسل إلا أنها دخلت في ميادين أخرى لا علاقة لها بالترسل ، وهي الرد على رقاع الشكوى أو قِصَص التظلم التي كانت ترفع إلى أولي الأمر من الخلفاء والولاة والعمال مباشرة عن طريق الْحُجّاب أو الكُتّاب ، أو حتى الدواوين العفوية ثم المختصة بعد ذلك ،

---

(١) م.ن .

(٢) انظر كتابه : الحياة الأدبية عصر بني أمية ، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣

(٣) انظر مقالته : أدب المراسلات في العصر الأموي ، في مجلة : عالم الفكر ، مج ١٤ ، ص ٦٤٨

لينظروا فيها و يصدروا حكمهم عليها إلى من يكون الحل والعقد بيده لينفـذ أمرهم فيها ، من غير أن يكون لتلك الرقاع أو هذه القِصَص منهج الرسالـة أو طريقتهـا المميزة لها نوعاً أدبياً ، وهذا التوسع جعل من هـذا الفرع المنبثق من شجرة الترسل نوعاً أدبياً جديداً أخذ يشق لنفسه طريقاً خاصاً به ، وأخذ شخصيته ذات الطابع المستقل شيئاً فشيئاً مع تطور الإدارة واتساعها .

وهكـذا فـإننـا نفضل النظر إلى التـوقيعـات على أنهـا نـوع أدبي أو فن نثري جديد ، وجد في الأدب العربي عملياً منذ خلافـة أبي بكر ، وظلّ يعيش ويتطور إلى أواخر العصر القديم الذي انتهى مع أوائل القرن الماضي ، ويمكن أن نلمس آثـار هـذه التوقيعـات اليوم فيما نجـد من تعليقـات على المعـاملات الرسميـة التي تـدخل الدواوين الإدارية الحديثة وتخرج منها ، على ما بينها وبين التوقيعات القديمة من بون شاسع من الناحية الأدبية البلاغية على الأقل[١] .

فـالتوقيعـات إذن ليست رسـائل رد موجزة ، إذ ليس لهـا سمات الرسـائل ، وإن كان المفهوم منها في بعض الأحيان فقط أنها تعد ضمناً رسالة رد ، ولكن بعـد عكس ضمني أيضاً لعنوان الكتاب الأصلي وما فيه من عناصر منهجيـة أخرى ، إلا أن ذلـك لا يطرد إذا أحيلت الرسـالـة بعـد التوقيع عليهـا إلى شخص ثـالث ليس بالمرسل ولا المرسل إليه لإزالة أسباب الشكوى أو رفع التظلم عن صاحبهـا الأصلي الذي رفعها إلى أولي الأمر . ومن هنا تبدأ هذه التوقيعـات بـالتميز من الرسـائل : فهي أحياناً تعدّ رسالة ردّ ضمنية ، وأحياناً تخرج تمـامـاً عن كونهـا رسـالـة ، وهي دائماً تلتزم الإيجاز الشديد ، ولا تكتب إلا على الرسالة نفسها أو الرُّقْعَـة أو القِصَّـة

(١) فقد روى لي بعضهم ، مثلاً ، أن بعض المرؤوسين رفع إلى رئيسه كتـابـاً يقول فيـه : « أرجو أن تبعث إليّ رجلان اثنان يعملان معي » ، فوقّع الرئيس على ذلك الكتاب بقوله : « لقـد اهتزّتْ عظام سيبويه في قبره » ، فجاءت هذه العبارة توقيعاً بـارعـاً وتصويراً رائعـاً لشـدة وقع الخطـأ الذي ارتكبه في كتابه .

المرفوعة إلى أولي الأمر هؤلاء ، كما أنه لا يُلْتَزَم فيها ما يُلْتَزَم في الرسائل من منهج ، أو ختم ، أو طي وما أشبه ذلك من أمور مختلفة . وهذه كلها سمات تجعل من هذه التوقيعات كما قلنا آنفاً ، نوعاً أدبياً خاصاً ومستقلاً ، وإن كان في الأصل ثمرة من ثمار فن المراسلات أو أدب الترسل .

و ـ نماذج من توقيعات الخلفاء الراشدين :

لم يؤثر من صدر الإسلام ، ولا سيما فترة الخلفاء الراشدين ، سوى عدد قليل من التوقيعات يمكن أن نذكر منها مثلاً :

١ ـ من توقيعات أبي بكر :

كتب خالد بن الوليد إليه من دُوْمَة الجندل يستشيره في أمر العدو ، فوقَّع إليه في الكتاب : « أُدْنُ من الموت توهب لك الحياة »[١] .

٢ ـ من توقيعات عمر :

وقَّع في كتاب جاءه من عمرو بن العاص : « كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك »[٢] .

٣ ـ من توقيعات عثمان :

وقَّع في قِصَّة قوم تظلموا من مروان بن الحكم وذكروا أنه أمر بوَجْء أعناقهم[٣] ، بالآية الكريمة التالية : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[٤] .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ، ٦٠٦/١

(٢) م.س ، ٦٠٧/١ وانظر : العقد الفريد ، ٢٠٦/٤

(٣) جمهرة رسائل العرب ، ٦٠٧/١ وانظر : العقد الفريد ، ٢٠٦/٤ والوجء : الضرب باليد .

(٤) القرآن ، ٢١٦/٢٦

٤ ـ من توقيعات علي :

وقَّع في كتاب من صعصعة بن صُوحان : « قيمة كل امرئ ما يحسن »[(١)] .

ويلاحظ أن التوقيع على الكتب الواردة وإعادتها إلى مرسليها ، كان يسهم في حفظ هذه الكتب لما تحتوي عليه من قيمة أدبية وتاريخية ، وخاصة أن الخلفاء والولاة كانوا هم الذين يوقعون عليها . ونحن نستبعد بطبيعة الحال أن يوقع مرؤوس إلى رئيسه بشيء في الكتب التي ترد عليه منهم ، وذلك يجعل التوقيع من مزايا الرئاسة ومتطلباتها ، وليس من الأدب بالتالي أن يكتب بها الأدنى إلى الأعلى .

(١) جمهرة رسائل العرب ، ٦٠٨/١ وانظر : العقد الفريد ، ٢٠٦/٤

الخلاصة

أتينا في هذا البحث على رسم صورة متكاملة واضحة لنوع أدبي نثري عريق في تاريخنا الأدبي هو النثر الترسّلي ، إذ كانت بدايته المكينة الراسخة في المدينة المنورة بعد هجرة النبي ﷺ ، ومنذ تلك البداية راح يزدهر ويتطور تطوراً هائلاً عبر العصور ، وكان يتلَوّنُ في كل عصر منها بألوان الحلل الفنية السائدة أو يتَزَوّقُ بالْحُلِيّ الأسلوبية التي كانت مذاهبها غالبة عليه .

وإذا سلّمنا بأن الرسائل الشعرية هي التي كانت مهيمنة في ميدان الترسل الجاهلي دون الرسائل النثرية التي كانت أغلبيتها المطلقة شفوية غير مكتوبة ولا محفوظة ، فإننا يجب أن نقرّ بالنتيجة التي سبق لنا إقرارها ، وهي أن تلك الرسائل الشعرية كانت بحق بمنزلة الأصل الحقيقي الذي انبثقت منه دوحة الترسّل النثري الوارفة في صدر الإسلام ، وهذا يقودنا بالتالي إلى الإقرار بأن الفن أو النزوع إلى الفن كان هو النسغ الذي يتغذّى به ذلك الترسل منذ أيام نهضته الأولى زمن النبي ﷺ وزمن خلفائه الراشدين من بعده ، ويظهر لنا أن هذا الترسّل قد ورث بعض تقاليده الفنية والأسلوبية من الشعر أو اقتبسها منه اقتباساً ظاهراً للعيان ، في حين أن الأمم الأخرى قديمها وحديثها شهدت مولد الترسّل في ميدان النثر مباشرة ، وظلّ يحبو ويترعرع في جنباته إلى أن اشتدت ساقه وقوي عوده . وينفي هذا كلّه ماذهب إليه بعض المستشرقين والمستعربين الغربيين أو بعض الباحثين العرب المحدثين من تأخر نشأة النثر الفني الحقيقي عند العرب إلى أواخر العصر الأموي أو أوائل العصر العباسي ، مع عزوهم فضل إنشائه إلى الكُتّاب

الموالي وتقليل شأن العرب في مجال الكتابة النثرية الفنية إلى أبعد الحدود . كما يُثْبِت في الوقت نفسه أن النثر الفني قديم النشأة عند العرب حتى في المرحلة الشفوية التي كانت سائدة في الجاهلية المتأخرة على الأقل ، إذ من غير الممكن أن يُخْلَق مثل هذا النثر الفني فُجاءَةً على شكل طفرة في صدر الإسلام ، ويشهد على ذلك عُلُوُّ المستوى الفني للنثر القرآني الذي خاطب به تعالى العرب الجاهليين ، فأدهشهم ووضعهم في حيرة شديدة من أمره حين سمعوه فأطربهم وأعجبهم ، نظراً لتذوقهم الأساليب الرفيعة من نظم الكلام وسبك المعاني . وتقديرهم هذا للقرآن وإعجابهم به لا يمكن أن يكون في قوم لا يعرفون مابليغ الكلام ولا يدرون ماجميل الأسلوب مطلقاً . وهذا ماأجمعت عليه آراء القدماء والمحدثين بغير جدال . ولا يقوم عدم وصول نصوص نثرية صحيحة من الجاهلية دليلاً على غياب ذلك النثر غياباً مطلقاً ، نظراً لجناية الرواية الشفوية على تلك النصوص جناية شاملة .

وقد رأينا خلال البحث مايثبت لنا كثرة النصوص الترسلية كثرةً لا تحصى ، غير أن عواملَ الاندثار غَلَبَتْ عواملَ الحفظ والبقاء على مصير وثائق تلك النصوص ، على أن رواية ماوصل إلينا من نصوص ترسّلية كانت تدويناً عن تدوين ، ولم تمرّ بالمرحلة الشفوية التي كانت رواية الشعر قد مرَّت بها فألْحَقَتْ به حيفاً غير قليل على الرغم من قدرة الشعر على البقاء المتطاول عبر الأجيال إذا مااختزنته الذاكرة لما يتّصف به من مزيتي الوزن والقافية اللتين لا تجتمعان لغيره . وهذه الميزة في رواية النصوص الترسّلية تجعل منها وثائق تاريخية موثوقاً بها في أغلب الأحوال ، لأنها تكون على جانب كبير من الصحة والدقة والأهمية .

ومن المسلم به لدينا أن فترة صدر الإسلام قد شهدت سيلاً متدفقاً من الرسائل الشخصية الخاصة بين أفراد المجتمع العاديين ، نظراً للحاجة الماسة آنذاك إلى التواصل عن بعد ، على إثر حركة الفتح والتنقل والاختلاط التي أسهمت في

تشتيت شمل الناس بعضهم عن بعض في الديار الأصلية بجزيرة العرب وفي الأمصار الواسعة التي حلَّ فيها العرب الفاتحون وأقاموا . إلا أن ذلك السيل لم يصل إلينا بسبب ما كان مسيطراً على رواة العصور المتقدمة من نزعة تاريخية قَصَرت اهتمامها على أبرز الأحداث وأشهر الشخصيات الفاعلة في مجرى التاريخ وصناعة تلك الأحداث . وقد أدى ذلك إلى استئثار الرواية بنقل الرسائل العامة التي كانت تجري بين أفراد الطبقة العليا أو الحاكمة في الدولة والمجتمع في ذلك العصر ، بل إن ما وصل إلينا من تلك الرسائل كان النزر اليسير الذي يشبه غيضاً من فَيْضٍ عَرِمٍ .

ونأمُل من كل ما تقدم أن نكون قد أسهمنا ، في تعديل الصورة القديمة التي كانت سائدة عن النثر الترسّلي خاصة والنثر الفني عامة في أدبنا العربي القديم ، وغايتنا من كل ذلك بناء تاريخنا الأدبي على أساس متين من الاستقراء الشامل والتفحص الدقيق معاً .



مصادر البحث☆

١ ـ الأحكام السلطانية : لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (م ٤٥٠ هـ) ، طبعة مصورة في (دار الكتب العلمية ببيروت) عن طبعة مصرية ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

٢ ـ إحكام صنعة الكلام : لذي الوزارتين أبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي الأندلسي (م ٤٥٣ هـ) ، ت . د . محمد رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٦ .

٣ ـ الأخبار الطوال : لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري (م ٢٨٢ هـ) ، ت . عبد المنعم عامر بالاشتراك مع د . جمال الدين الشيال ، طبعة مصورة في (مكتبة المثنى ببغداد) عن طبعة مصرية (القاهرة ، ١٩٥٩ م / ١٣٧٩ هـ) .

٤ ـ أدب الإملاء والاستملاء (كتاب ـ) : لعبد الكريم بن محمد السمعاني (م ٥٦٢ هـ) ، ن . مكس ويسويلر ، ليدن ، ١٩٥٢ .

٥ ـ أدب السياسة في العصر الأموي : للدكتور أحمد محمد الحوفي ، طبعة مصورة في (دار القلم ، بيروت ، ١٩٦٥) عن طبعة مصرية .

٦ ـ أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري : للدكتور عبد الحسيب حميدة ، مطبعة السعادة بمصر ، ط ٢ ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

☆ دمجنا في هذا الفهرس عناوين الكتب والمقالات العربية والمترجمة والأصلية معاً بحسب تسلسلها الهجائي بالعربية .

٧ ـ أدب الكاتب : لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (م ٢٧٦ هـ) ، ت . محمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

٨ ـ أدب الكُتّاب : لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي (م ٣٣٥ هـ) ، ن . محمد بهجة الأثري ، طبعة مصورة في (دار الكتب العلمية ، بيروت) .

٩ ـ أدب المراسلات في العصر الأموي للدكتور حسين نصار ، مقالة في مجلة : عالم الفكر بالكويت ، مج ١٤ (سنة ١٩٨٣) ، ص ٦٣١ ـ ٦٥٠ .

١٠ـ الأدب المصري القديم أو أدب الفراعنة : لسليم حسن ، ج ١ (في القصص والحكم والتأملات والرسائل) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

١١ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب : لأبي عمر يوسف بن محمد بن عبد البر (م ٤٦٣ هـ) ، ت . علي محمد البجاوي ، ٤ ج (بترقيم متسلسل وفهرس للمترجم لهم في آخره) ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، القاهرة .

١٢ـ أسس النقد الأدبي عند العرب : للدكتور أحمد أحمد بدوي ، مكتبة نهضة مصر ، ط ٣ ، ١٩٦٤ .

١٣ـ الإصابة في تمييز الصحابة : لشهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن علي الكناني العسقلاني المعروف بابن حجر (م ٨٥٢ هـ) ، ٤ ج (ومعه كتاب الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر) ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م .

١٤ـ أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي : لسهيلة ياسين الجبوري ، مطبعة الأديب البغدادية ، ١٩٧٧ .

١٥ـ الأصمعيات : لأبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك (م ٢١٦ هـ) ، ت . أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، دار المعارف بمصر ، ط ٤ ، ١٩٧٦ .

١٦ـ أصول النثر الأدبي العربي لوليم مارسيه ، ترجمة : محمود المقداد ، مقالة في مجلة : التراث العربي بدمشق ، ع ١٨ (سنة ١٩٨٥) ، ص ٩٠ ـ ١٠٤ .
١٧ـ أصول النقد الأدبي : لأحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٧ ، ١٩٦٤ .
١٨ـ إعتاب الكُتّاب : لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبّار (م ٦٥٨ هـ) ، ت . د . صالح الأشتر ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ط ١ ، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م .
١٩ـ إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ﷺ : لمحمد بن طولون الدمشقي (م ٩٥٣ هـ) ، ت . محمود الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
٢٠ـ أمراء البيان : لمحمد كرد علي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٧ م .
٢١ـ الأوائل : لأبي هلال العسكري (م ٣٩٥ هـ) ، ت . محمد المصري ووليد القصاب ، قسمان بترقيم متسلسل ، منشورات وزارة الثقافة بدمشق ، ١٩٧٥ و ١٩٧٦ .
٢٢ـ إيران في عهد الساسانيين : لآرثر كريستنسن ، ترجمة : يحي الخشاب ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
٢٣ـ البديع (كتاب ـ) : لعبد الله بن المعتز (م ٢٩٦ هـ) ، ن . كراتشقوفسكي ، طبعة مصورة في (دار الحكمة بدمشق) ، عن طبعة مصرية .
٢٤ـ البرهان في وجوه البيان : لأبي الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ، ت . د . أحمد مطلوب بالاشتراك مع د . خديجة الحديثي ، ط ١ ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

٢٥- بلاغة الكُتّاب في العصر العباسي (دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب) : للدكتور محمد نبيه حجاب ، المطبعة الفنية الحديثة ، ط ١ ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م .

٢٦- البيان والتبيين : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (م ٢٥٥ هـ) ، ت . عبد السلام محمد هارون ، ٤ ج ، مكتبة الخانجي بمصر ، ط ٤ ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م . وذكرناه اختصاراً باسم (البيان)

٢٧- تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية : لكارلو نالينو ، ن . مريم نالينو ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٤ .

٢٨- تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية : لحفني ناصف ، مطبعة جامعة القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٨ .

٢٩- تاريخ الأدب العربي : لأحمد حسن الزيات ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ٦ ، ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م .

٣٠- تاريخ الأدب العربي : للدكتور عمر فروخ ، الجزء الأول (الأدب القديم : من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م .

٣١- تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام : للدكاترة نوري حمودي القيسي وعادل جاسم البياتي ومصطفى عبد اللطيف ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

٣٢- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي : للدكتور حسن إبراهيم حسن ، الجزء الأول (الدولة العربية) ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٦ ، ١٩٦١ .

٣٣- تاريخ التمدن الإسلامي : لجرجي زيدان ، ٥ ج (في مجلدين) ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

٣٤- تاريخ الطبري (= تاريخ الرسل والملوك) : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (م ٣١٠ هـ) ، ت . محمد أبو الفضل إبراهيم ، ١١ ج ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٧ - ١٩٧٧ .

٣٥- تاريخ اليعقوبي (م ٢٨٤ هـ) : ٢ ج ، دار صادر ، بيروت .

٣٦- تحرير التحبير (في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن) : لابن أبي الإصبع المصري (م ٦٥٤ هـ) ، ت . د . حفني محمد شرف ، القاهرة ، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م .

٣٧- تحفة أولي الألباب في صناعة الخط والكُتّاب : لعبد الرحمن بن يوسف بن الصائغ (م ٨٤٥ هـ) ، ت . هلال ناجي ، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ، ط ٢ ، ١٩٦٧ .

٣٨- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي : لأنيس المقدسي ، دار العلم للملايين بيروت ، ط ٦ ، ١٩٧٩ .

٣٩- التعريفات (كتاب -) : لعلي بن محمد الشريف الجرجاني (م ٨١٦ هـ) ، طبعة مصورة في (مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٨) عن طبعة غوستاف فلوغل الأوربية .

٤٠- تقييد العلم : للخطيب البغدادي (م ٤٦٣ هـ) ، ت . يوسف العش ، منشورات المعهد الفرنسي بدمشق ، بيروت ، ١٩٤٦ .

٤١- التلخيص في علوم البلاغة : لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب (م ٧٣٩ هـ) ، ن . عبد الرحمن البرقوقي ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

٤٢- جمهرة رسائل العرب : لأحمد زكي صفوت (جمعاً وتعليقاً) ، الجزء الأول (في صدر الإسلام) ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط ١ ، ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م .

٤٣ـ حسن التوسل إلى صناعة الترسل (كتاب ـ) : لشهاب الدين أبي الثناء محمود بن سليمان الحلبي (م ٧٢٥ هـ) ، مطبعة هندية بمصر ، ١٣١٥ هـ .

٤٤ـ الحياة الأدبية عصر بني أمية : للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٣ .

٤٥ـ دروس الأدب عصر النبي والراشدين والأمويين : للدكتور خلدون الكناني ، مكتبة ناظم جميل للنشر ، دمشق ، ١٩٤٠ .

٤٦ـ الرسائل والمقامات : للدكتور عمر فروخ ، بيروت ، ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ م .

٤٧ـ رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ﷺ : لأبي زكريا يحي بن شرف النووي (م ٦٧١ هـ) ، ن . رضوان محمد رضوان ، طبعة مصورة في (دار الكتاب العربي ببيروت ، ط ١ ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م) عن طبعة مصرية .

٤٨ـ سر الفصاحة : لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي (م ٤٦٦ هـ) ، ن . عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م .

٤٩ـ السيرة النبوية : لأبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المعروف اختصاراً بابن هشام (م ٢١٨ هـ) ، ت . مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي ، ٢ مج ، طبعة مصورة في (دار الكنوز الأدبية) عن طبعة مصرية .

٥٠ـ شرح ديوان أشعار الهذليين : صنعة أبي سعيد السكري (م ٢٧٥ هـ) ، ت . عبد الستار أحمد فراج ، جزءان (بترقيم متسلسل) ، مكتبة دار العروبة ، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠ م / ١٣٦٤ ـ ١٣٦٩ هـ .

٥١ـ شرح نهج البلاغة : لابن أبي الحديد (م ٦٥٦ هـ) ، ت . محمد أبو الفضل

إبراهيم ، ٢٠ جزءاً بدئ بنشرها في سنة ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م في دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط ١ ، وقد أفدنا من بعض طبعاته الأخرى وأشرنا إليها في مواضعها .

٥٢- صبح الأعشى في صناعة الإنشا : لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي (م ٨٢١ هـ) ، ١٤ ج ، طبعة مصورة في (المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م) عن الطبعة الأميرية التي صدر جزؤها الأول سنة ١٩١٠ والأخير سنة ١٩٢٠ .

٥٣- الصناعتين (كتاب ـ) : لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (م ٣٩٥ هـ) ، ت . علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط ٢ ، ١٩٧١ .

٥٤- صنعة الكتابة في عهد الرسول والصحابة لمحمد حميد الله ، مقالة في مجلة : فكر وفن ، ع ٣ (سنة ١٩٦٤) ، ص ٢١ ـ ٢٧ .

٥٥- الطبقات الكبرى : لمحمد بن سعد (م ٢٣٠ هـ) ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، الجزء الأول خاصة ، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م . وقد عدنا في بعض المواضع إلى طبعة ليدن الأوربية بعنوان (كتاب الطبقات الكبير) ، وكنا نميز بينهما بالعنوان من جهة ، وبذكر الجزء والصفحة فقط في طبعة بيروت ، في مقابل ذكر الجزء والقسم والصفحة في طبعة ليدن من جهة أخرى .

٥٦- العقد الفريد : لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (م ٣٢٧ هـ) ، ت . أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري ، ٧ ج ، طبعة مصورة في (دار الكتاب العربي ببيروت) عن مختلف الطبعات المصرية المنشورة بين سنتي ١٩٤٩ و ١٩٦٥ .

٥٧- فتوح البلدان : لأبي الحسن أحمد بن يحي البلاذري (م ٢٧٩ هـ) ،

ن . رضوان محمد رضوان ، طبعة مصورة في (دار الكتب العلمية بيروت ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م) عن طبعة مصرية .

٥٨- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية : لمحمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي (م ٧٠١ هـ) ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

٥٩- الفن ومذاهبه في النثر العربي : للدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، ط ٤ ، ١٩٦٥ .

٦٠- الفهرست : لمحمد بن إسحاق المعروف بابن النديم (م ٣٨٥ هـ) ، طبعة مصورة في (دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت) عن طبعة مصرية .

٦١- القرآن الكريم .

٦٢- الكُتّاب (كتاب ـ) : لعبد الله بن جعفر بن درستويه (م ٣٤٧ هـ) ، ت . د . إبراهيم السامرائي بالاشتراك مع د . عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة دار الكتب الثقافية ، الكويت ، ط ١ ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

٦٣- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : لحاجي خليفة (م ١٠٦٧ هـ) ، ٦ ج ، وقد أفدنا من مقدمة المصنف على وجه الخصوص ، منشورات مكتبة المثنى ببغداد .

٦٤- لسان العرب : لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري (م ٧١١ هـ) ، ١٥ ج ، دار صادر ، بيروت .

٦٥- اللغة العربية وآدابها لشارل بيلا :

Pellat (Ch.), Langue et Littérature arabes, 2ème éd., Paris, 1970.

٦٦- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : لضياء الدين بن الأثير (م ٦٣٧ هـ) ، ت . د . أحمد الحوفي مع د . بدوي طبانة ، ٣ ج (نشرت على التوالي في سنة ١٩٥٩ و ١٩٦٠ و ١٩٦١) ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ط ١ .

٦٧- المجتمعات الإسلامية في القرن الأول (نشأتها ، مقوماتها ، تطورها اللغوي والأدبي) : للدكتور شكري فيصل ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٦ .
٦٨- مجمع الأمثال : لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري المعروف بالميداني (م ٥١٨ هـ) ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ . وقد أشرنا إلى بعض الطبعات الأخرى التي عدنا إليها في مواضعها من البحث .
٦٩- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة : للدكتور محمد حميد الله ، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ٣ ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .
٧٠- المحبر (كتاب ـ) : لأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي (م ٢٤٥ هـ) برواية أبي سعيد السكري ، نشر المستعربة ايلزه ليختن شتيتر ، طبعة مصورة في (منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت) عن طبعتها في حيدرآباد الدكن .
٧١- مدخل إلى أدب الترسل عند العرب : للدكتور محمود المقداد ، دار الفكر بدمشق ، ط ١ ، ١٩٩١ .
٧٢- مروج الذهب ومعادن الجوهر : لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (م ٣٤٦ هـ) ، ن . محمد محيي الدين عبد الحميد ، ٤ ج ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ط ٤ ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .
٧٣- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية : للدكتور ناصر الدين الأسد ، دار المعارف بمصر ، ط ٤ ، ١٩٦٩ .
٧٤- مصور الخط العربي : لناجي زين الدين ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، مطبعة الحكومة ، بغداد ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
٧٥- المعارف : لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (م ٢٧٦ هـ) ، ت . ثروت عكاشة ، مطبعة دار الكتب ، ط ١ ، ١٩٦٠ .

٧٦ـ معالم الكتابة ومغانم الإصابة (كتاب ـ) : لعبد الرحيم بن علي بن شيث القرشي (من أعلام القرن السادس الهجري) ، ن . قسطنطين الباشا المخلصي ، المطبعة الأدبية ، بيروت ، ١٩١٣ .

٧٧ـ المعجم اللاتيني ـ الفرنسي لكيشرا ودافلوي :

Quicherat (L.) et Daveluy (A.), Dictionnaire latin-français, 55e éd., Librairie Hachette, Paris.

٧٨ـ المفصل في تاريخ الأدب العربي : لأحمد الإسكندري وأحمد أمين وعلي الجارم وعبد العزيز البشري وأحمد ضيف ، ٢ ج ، مطبعة مصر ، ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٤ م .

٧٩ـ مقدمة ابن خلدون (م ٨٠٨ هـ) : طبعة مصورة في (دار القلم ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٨) عن طبعة مصرية .

٨٠ـ المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار : لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (م ٤٤٤ هـ) ، ت . محمد أحمد دهمان ، مكتب الدراسات الإسلامية في دمشق ، ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م .

٨١ـ مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي (عرض ، ونقد ، واقتراح) : للدكتور شكري فيصل ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٣ ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٣ م .

٨٢ـ النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم (كتاب ـ) : لتقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن تميم المقريزي (م ٨٤٥ هـ) ، ن . محمود عرنوس ، مكتبة الأهرام بمصر ، ١٩٣٧ .

٨٣ـ نسب قريش : للمصعب الزبيري (م ٢٣٦ هـ) ، ن . ليفي بروفنسال .

٨٤ـ نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي : للدكتور حسين نصار ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٦ .

٨٥- نهاية الأرب في فنون الأدب : لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (م ٧٣٣ هـ) ، الجزء السابع خاصة ، طبعة مصورة في (المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر) عن طبعة دار الكتب .

٨٦- نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : جمع الشريف الرضي (م ٤٠٦ هـ) ، بشرح الإمام محمد عبده ، ٤ ج ، طبعة مصورة في (مطبعة كرم ومكتبتها ، دمشق) عن طبعة مصرية . وقد عدنا أيضاً إلى الطبعة المحققة التي أخرجها الدكتور صبحي الصالح بفهارس متنوعة متميزة والصادرة في : دار الكتاب اللبناني ، ١٣٨٧ هـ ، وقد أشرنا إلى هذه الطبعة في مواضعها .

٨٧- الوزراء والكتاب (كتاب ـ) : لأبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري (م ٣٣١ هـ) ، ت . مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ .

٨٨- الوسيط في الأدب العربي وتاريخه : لأحمد الإسكندري ومصطفى عناني : مطبعة المعارف بمصر ، ط ٢ ، ١٣٣٩ هـ / ١٩٢١ .

٨٩- وقعة صفين : لنصر بن مزاحم المنقري (م ٢١٢ هـ) ، ت . عبد السلام محمد هارون ، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ .

فهرس المحتويات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة